HAKAN GÜNDAY

هاكان جونداي

ضمير

ZAMIR

عصير الكتب

رواية | ترجمة: مريم محمود





عشية الألفية الجديدة، وظيفة ضمير، الذي يعمل في المؤسسة الأولى للسلام العالمي، هي إيقاف الحروب بأي ثمن. فوسط سيناريوهات السلام الباهرة والمؤامرات والصراعات، يبحث ضمير على إجابة هذا السؤال: كيف يصنع المرء السلام؟

"أعتقد أن كلَّ شيءٍ في هذا الكون عبارة عن شظية. وما ينتشر هو في الواقع سحابةٌ من الشظايا. إذن مجرة درب التبانة، والشمس بداخلها، والكرة الأرضية من حولها، والشخص الموجود عليها، وكلُّ ما يدور في ذهنه، عبارة عن شظية. فِكرُه، إيمانُه، عاطفتُه، إبداعُه، كلُّ هذا. وهذا يعني أن الإنسان موجود ليتشبث بأخيه الإنسان، وإلا لما أصبح هذا الكتاب موجودًا".



تصميم الغلاف
عبد الرحمن الصواف







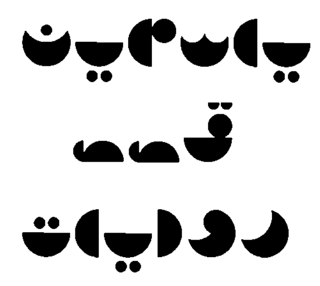
aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb

ضميــر

ياسمين

قصص

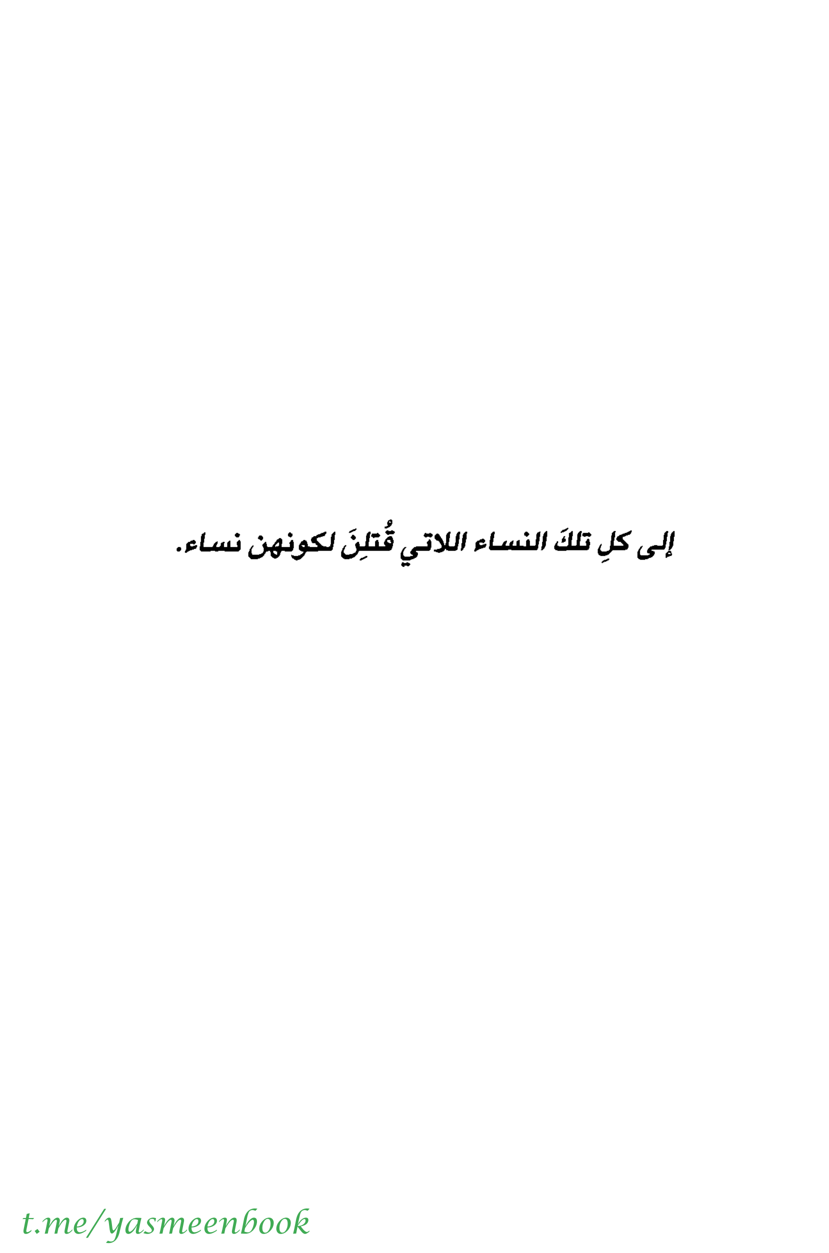
روايات



t.me/yasmeenbook

● العنوان الأصلي: Zamir
● العنوان العربي: ضمير
● طُبِع بواسطة: Dogan kitap
● طُبِع بواسطة: دوجان كتاب
● حُقوق النشر: 2021، دوجان كتاب يايتلرى للنشر والتوزيع

● ترجمة: مريم محمود
● تحرير: محمد المتيم
● تدقيق لغوي: د. محمد حماده
● تنسيق داخلي: علي خلف
● الطبعة الأولى: نوفمبر/ 2022م
● رقم الإيداع: 16984/2022م
● الترقيم الدولي: 978-977-6972-56-8



إلى كلِ تلكَ النساء اللاتي قُتلِنَ لكونهن نساء.

مثلما تُباع المشروبات والصابون، فإننا نبيع السلام.

ومثلما يُروَّج للحرب، فإننا نُروِّج للسلام.

جون لينون

القنبلة والرضيع

أعتقد أن كل شيء في هذا الكون محض شظية، وما ينتشر ليس في الواقع إلا سحابة من الشظايا. لهذا السبب تبتعد المجرات وكل الأشياء بعضها عن بعض. ولهذا السبب أيضًا يندفع الكون بعنف في كل الاتجاهات في اللحظة نفسها، للاصطدام بشيءٍ ما أو مكانٍ ما، ليفنى أو يُفني عاجلًا أو آجلًا. إذن مجرة درب التبانة، والشمس بداخلها، والكرة الأرضية من حولها، والشخص الموجود عليها، وكل ما يدور في ذهنه عبارة عن شظية. فِكرُه، إيمانه، عاطفته، إبداعه، كل هذا. وهذا يعني أن الإنسان موجود ليتشبث بأخيه الإنسان. لأنه إذا لم يكن الأمر كذلك، أي لو لم يكن كل شيء متعلقًا بالبشر حقًّا عبارة عن شظايا، لما حدث هذا الانفجار في مخيم الأمان للاجئين، الواقع على الحدود التركية السورية قبل 40 عامًا. ولَظَلَّ الطفل البالغ من العمر ستة أيام ثابتًا تحت وابل الكرات الفولاذية دون أن يتمزق وجهه الصغير قط، ولكنه أصبح أشلاءً. حتى إن ثلاث كرات من النار اندَسَّت في رأسه بالغ الصغر؛ حيث دخلت إحداها في خده الأيسر، والأخرى تحت عينه اليمنى، والأخيرة دخلت في ذقنه. فأذابت كل خلية صادفتها، وحفرت ثلاث حفر عميقة من اللهب في وجهه. لذلك كل شيء في هذا الكون عبارة عن شظية، وإلا لما كان لهذا الكتاب أن يدخل حيز الوجود.

وكان يوسف علي من بين الذين عثروا على الرضيع بعد الانفجار. إنه شاعرٌ حَلَبيٌّ. لقد وصف تلك اللحظة بعد سنوات على النحو التالي: «لقد نصبوا خيمة بجوار الحاوية الخاصة بنا. من أجل امرأة وصلت حديثًا. كانت تعتني بالطفل. في المساء، كان المخيم يسوده الهدوء، لهذا كنا نسمع بكاءه. كان يبكي دون توقف قط، حتى إننا كنا نقول إنه يجب علينا النوم، حتى لو

التزم الرضيع الصمت. ومن ثم انفجرت القنبلة، فهرعنا إليه، وألقينا نظرة على وجهه المُلَطَّخ بالدماء. لقد كان صدره يهبط ويرتفع، فعرفنا أنه لم يمت. لم يمت، ولكن... لم يعد يبكي. إنه صامتٌ ينظر إلينا، ولكنه ينظر بتحديق. هل الرُّضَّعُ يُحَدِّقون؟ كأنه يطلب تفسيرًا. من الواضح أن الجميع حقًّا كانوا يطلبون تفسيرًا. ونحن أدركنا هذا أيضًا. ولكن عندما أدركنا هذا، ماذا حدث؟ لا شيء. هل استطعنا تفسير هذا؟ لا».

في تلك الليلة، دارت معركة حياة أو موت في غرفة العمليات الوحيدة في مستشفى المخيم التي نجت من الانفجار، حيث عمل جَرَّاحٌ يُدعى أسبجورن يبلغ من العمر 32 عامًا من ستافانجر مثل ماكينة الخياطة مدة ثلاث عشرة ساعة لتجميع وجه الرضيع المقطوع مرة أخرى. في أثناء العملية، توقف قلب الرضيع ثلاث مرات، ولكن أسبجورن لم يستسلم. كانت هناك لحظة سالت فيها دمعة من عينيه. ولكن الممرضة بجانبه كانت من ذوات الخبرة؛ كانت تعرف ماهية الحرب، فكانت تمسح دموع الجَرَّاح مُتَظَاهِرَةً بأنها تمسح العرق عن صدغيه.

عندما أشرقت الشمس، كانت هناك قطعة من اللحم تستطيع التنفس حول عيني الطفل، على الرغم من أنها لا تبدو كوجه. عندها فقط تمكن أسبجورن من شكر الممرضة على مسحها دموعه. وكانت المرأة –التي ساعدته في خلع البالطو المُلَطَّخ بالدماء في ذلك الوقت– تعرف ماهية الرجل بقدر ما كانت تعرف الحرب، فقالت: «أي دموع؟»

عندما انتقل أسبجورن من غرفة العمليات إلى غرفة العناية المركزة، توقف الطبيبان –اللذان كانا يعتنيان بالجرحى الآخرين– عن عملهما لحظة وهنآه، ولكنه لم يرد. وعندما خرج من باب مبنى المستشفى المُجَهَّز، نظر إلى السماء الزرقاء وأراد أن يأخذ نفسًا عميقًا، ولكنه لم يستطع. إما بسبب علبَتَي السجائر اللتين يدخنهما يوميًّا، وإما لأنه لم يعد يستطيع تحمل أي شيء في هذا العالم، بما في ذلك الأكسجين. لم يستطع التنفس إلا عن طريق السعال. وفي أثناء سيره نحو الحاوية التي استخدمها منزلًا له مدة 14 شهرًا، لاحظ شيئًا: إنه لم يكن مُتعَبًا. على الرغم من أنه لم ينم وظل واقفًا على قدميه طوال

الليل، فإنه لم يشعر بأي تعب. ثم أدرك ذلك: إنه لم يكن يشعر بأي شيء. كان الأمر كما لو أنه لن يشعر بأي شيء مرة أخرى بقية حياته.

دخل أسبجورن الحاوية ثم جلس على سريره. أراد التحدث إلى زوجته الموجودة في ستافانجر. ولكن لم تعد هناك حاجة إلى الاتصال بها من أجل ذلك، لأنه في أثناء ذهابه إلى الهاتف الموضوع على الكومود كان قد بدأ بالفعل في سماع تلك المحادثة في ذهنه، فقد كان من الواضح ما سيقوله كلاهما:

كان أسبجورن سيقول إنه سيستقيل من وظيفته في المخيم ويعود إلى النرويج على الفور، وستسأل زوجته عن سبب قراره المفاجئ. وأسبجورن، الذي لن يتحدث عن الانفجار حتى لا يُقلِقَ زوجته، المعلمة في المدرسة الابتدائية، والذي لن يتحدث عن الرضيع أيضًا حتى لا يُحزِنَها، كان سيقول: «لأنني أفتقدكِ وأفتقد الأطفال». عندئذٍ ستحاول زوجة أسبجورن إقناعه بالبقاء في المخيم، من خلال تذكيره بالعقد الذي مدته 24 شهرًا الذي وَقَّعَه مع إدارة مخيم الأمان. كان سيستمع في صمت وهو يتذكر الأيام التي كانت تصرخ فيها المرأة نفسها قائلةً: «لا يمكنك الذهاب إلى أي مكان! عائلتك في حاجة إليك!» ولأنه في ذلك الوقت كان سيسمع الكلمات التي قالها ذات مرة لإقناع زوجته، ولكن هذه المرة من فمها: «ولكن يا عزيزي، إنه واجب مقدس. يجب على شخص ما القيام بذلك؛ فهؤلاء العاجزون يحتاجون إلى طبيب، وإلى جراح أيضًا».

أنهى أسبجورن المُحادثة التي دارت في عقله مرة أخرى وهو ينظر إلى شاشة هاتفه السوداء، الذي كان مُغلقًا منذ الليل، واتخذ قرارًا: حالما يتأكد من أن الوضع الصحي للرضيع لن يتدهور، وأنه لن يموت في المستقبل القريب، فسوف يغادر مخيم الأمان دون إخبار أحد ويعود إلى النرويج. ثم اتخذ قرارًا آخر.

أعاد وضع الهاتف على الكومود، ثم نهض وفتح حقيبة السفر خاصته، التي سحبها وأخرجها من تحت سريره، وأخرج صندوقًا من داخلها. لقد كان الصندوق ملفوفًا بشريطٍ أحمر من الساتان ويحمل «فيونكة» مُجَعَّدة، وكان مكتوبًا عليه: «المسايا». أراد فك «الفيونكة»، ولكنه لم يستطع لأن يديه كانتا ترتعشان، فمزق الصندوق مثل حيوانٍ وحشيّ، وأخرج زجاجة زرقاء. قبل

أشهر، رفع زجاجة راكي –أهداها إليه زميل من بيروت في ليلة رأس السنة– باتجاه شعاع الضوء النافذ من زجاج الحاوية، فشاهد الشمس وهي تشرق عبر الزجاج الأزرق. لم يخطر بباله قط حتى ذلك اليوم أن يفتح هذه الزجاجة، لأنه يكره رائحة اليانسون. ولكنه لم يعد يشعر بأي شيء. لم يعد يكره أي شيء، ولا يحب أي شيء.

بعد سنوات، وصف أسبجورن اللحظة التي قَرَّرَ فيها فتح تلك الزجاجة على النحو التالي: «لم أكن أشرب المشروبات الكحولية في ذلك الوقت، ولكن حدث شيءٌ ما في ذلك الصباح. عندما خرجتُ من العملية، كنتُ ثملًا تمامًا، كان كل مكانٍ في جسدي ثملًا: عقلي، وقدمي، وأنفي، كل شيء... وفي تلك اللحظة كنتُ خائفًا جدًّا. كنتُ أخشى أن تنتهي تلك الثمالة. لهذا، وحتى يستمر التخدير، فتحتُ تلك الزجاجة، ووضعتها على رأسي، ثم نظرتُ إليها. لقد مرت سنوات وأنا أشرب لترين من الويسكي يوميًّا. وفي النهاية تمكنتُ من أن أصبح مدمن كحوليات. في رأيي، لقد نجح الأمر؛ لأنني ما زلتُ لا أشعر بأي شيء. فقط... أول رشفة في اليوم تلك؟ في اللحظة التي أتناول فيها أول رشفة أشعر بتلك اللحظة! أريد الرشفة الأولى تلك؛ فهي بمكانة صلة حقيقية للاتصال بالعالم لحظة، فأنا أكون سعيدًا تقريبًا، ولو بضع ثوانٍ! لذلك أنا متأكد الآن من هذا: إذا كنتَ لا ترغب في الحياة بقدر رغبة مدمن الكحوليات في أول رشفة من اليوم، فاعلم أنك لا تستحق أن تكون على قيد الحياة! بالإضافة إلى ذلك، يتذكر مدمن الكحوليات في أول رشفة تلك أنه مدمن للكحول. في تلك اللحظات يدرك أنه لا يستطيع العيش من دون المشروبات الكحولية. ولكن الإنسان حيوان غبي لدرجة أنه لا يدرك أنه مدمن للحياة إلا في نهاية حياته. حتى عند أنفاسه الأخيرة. يلاحظ الشخص غير الثمل أن مدمن الكحوليات يدرك هذا من أول رشفة، وليس عند نفسه الأخير فقط! وبعد ذلك يموت ويرحل باكيًا غارقًا في الندم. في تلك الليلة مات ذلك الطفل ثلاث مرات وأُعيد إلى الحياة ثلاث مرات. أعتقد أن ذلك الطفل أدرك كل شيء بمجرد ولادته. بمجرد أن رآها، أدرك كم أن الحياة ثمينة. أنا متأكدٌ من أنه التقط أول نفسٍ له في هذه الدنيا تمامًا مثل أول رشفة، تلك التي أشربها كل يوم. لقد وُلِدَ ذلك الطفل عاشقًا للحياة، لذلك لم يمت تلك الليلة، لا لأنني أنقذتُ حياته، إنما هو من أنقذ نفسه، وبالطبع أنقذني أنا أيضًا؛ لأنه بفضل

هذا الطفل أدركتُ أنني لم ولن أكون جراحًا حقيقيًّا أبدًا، لأنني كنتُ أشعر أكثر من اللازم وأفكر أكثر من اللازم، مع أن الجراح يجب أن يكون لا مُباليًا مثل أي رئيس دولة. قطعيًّا هو مضطر إلى أن يكون كذلك! لا أعرف، ربما يجب عليه أيضًا أن يكون مثل رئيس دولة قد أشعل حربًا في مكانٍ ما. تمامًا مثل ذلك الرئيس، يجب أن يكون قادرًا على أن يقول لنفسه بكلِ أريحية: لا تفكر في صورة هؤلاء الأطفال المحترقين. لا تفكر في هؤلاء الأطفال الذين تقطعت أرجلهم ومُزِّقَت أمعاؤهم. التفت إلى عملك فقط! لا تفكر في أي أحد! اللعنة على هؤلاء الأطفال!»

بالطبع لم يكن من قبيل المصادفة اختيار مخيم الأمان للتفجير من بين عشرات من مخيمات اللاجئين على الحدود؛ فعلى عكس المخيمات الأخرى، كانت هناك بالفعل احتمالية لحياة جديدة للاجئين بعد مخيم الأمان، لأنه بفضل العلاقات الدولية لإدارة المخيم، يمكن لهؤلاء اللاجئين الخروج يومًا ما من مخيم الأمان ومحاولة لم شملهم -الذي تركوه في منازلهم بعيدًا- من جديد، فاللاجئ لا يترك منزله فحسب، بل يغادر نفسه أيضًا يوم رحيله؛ لأنه بعد كل هذا الألم لن يكون الشخص الذي رحل ووصل إلى الوجهة هو الشخص نفسه وذاته. ومع ذلك، كان من الممكن لأولئك الذين بقوا في ذلك المخيم الوصول إلى منطقة جغرافية لم تكن فيها حرب، ومن الممكن محاولة تذكر هويتهم حقًّا. حتى إنه قد يأتي يومٌ ما ويتمكن الأشخاص -الذين تشير إليهم جميع الدول كمهاجرين لتجنب مسؤولياتهم القانونية- من الحصول على وضع اللاجئ الذي ينبغي أن يحصلوا عليه في البلد الذي ذهبوا إليه، بدعم من إدارة مخيم الأمان. لقد كان ذلك المخيم بوابة متعددة الأبعاد مفتوحة من عالم يخنق فيه الناس بعضهم بعضًا في طريقهم إلى الهجرة من أجل قطرة الماء، إلى عالم مختلف يخنق فيه الناس بعضهم بعضًا في المتاجر من أجل هاتف عليه تخفيض. لهذا السبب انفجرت تلك القنبلة في مخيم الأمان وليس في مكان آخر. حتى الرضيع كان في ذلك المخيم لهذا السبب. لقد تُرِكَت القنبلة والرضيع هناك للسبب نفسه، لأنه كان هناك أمل في مخيم الأمان.

لم يُتَمَكَّن من معرفة تارك القنبلة في المخيم. ولكن كان من الواضح من الذي نقل الرضيع -المولود على الأراضي التركية قبل ستة أيام من الانفجار-

إلى الجانب الآخر من الحدود. وكان من الواضح أيضًا من قام بتهريبه إلى ذلك المخيم في سوريا. حتى إنه كان من الواضح –وفقًا لتصريح يوسف علي- أن الرضيع الذي توقف عن البكاء بالتزامن مع الانفجار لن يبكي مرة أخرى أبدًا بناءً على ما قاله أسبجورن، لأن أعصاب وجهه ماتت.

24 من ديسمبر

صباحًا

سبعة أيام تفصلنا عن دخول العالم الألفية الجديدة، وقد كنتُ في جنازة أسبجورن. كانت اللحظة المثالية لذرف الدموع، ولكنني لم أكن أستطيع البكاء. ولأنني لم أستطع البكاء، كنتُ متصلبًا مثل جثة باردة ومتوترًا كالمُعتاد. يمكنني إخراج الزجاجة البيضاء الصغيرة التي أحملها معي دائمًا من جيبي وأقطر السائل الذي بداخله سِرًّا في مُقلتي، ثم أنظر إلى ما حولي بعينين مبللتين بفضل السيكلوسبورين. ولكن بسبب كذبي بما فيه الكفاية في الآونة الأخيرة، قررتُ على الأقل الجلوس في صمت في تلك الكنيسة الصغيرة دون خداع أي شخص، لأن دموعي كانت مُصطَنَعة، تمامًا مثل وجهي. ولكن الألم النابع داخلي من وفاة أسبجورن كان حقيقيًّا كحقيقة أنه أنقذ حياتي في مخيم الأمان قبل أربعين عامًا.

في أثناء خروجي من الكنيسة التي تقع في ستافانجر، اندلعت عاصفة ثلجية، حيث كان هناك منظر طبيعي مختلف تمامًا أمامي، وبدا كل شيء مثل بطاقة مُعايدة للعام الجديد، فكنتُ أمشي داخل بطاقة مُعايدة. وعندما نزلتُ الدرجات الواسعة أمام المبنى، رنَّ هاتفي. لقد كان المتصل فيديريكو من باليرمو. بمجرد أن ردَدْتُ، سألتُ: «هل حُفِرَ الثُّقب؟»

- لا، لم يستطيعوا إيجاد اللحظة المناسبة بعد.
- على أي حال، لا يزال لدينا وقت.

- في الحقيقة لا. لذلك اتصلتُ بك. لقد قدموا تاريخ المغادرة؛ سيرحلونه إلى يوم 27 من ديسمبر.
- هذا يعني أنهم سيفعلون ذلك في رأس السنة، في أثناء الاحتفالات.
- يبدو ذلك.
- ولكن الخدعة تستمر، أليس كذلك؟
- يمكنهم إنهاؤها في أي لحظة.
- فيديريكو، يجب حفر الثقب في ذلك الجدار قبل انتهاء الخدعة. وإلا...

لقد صَمَتُّ لأنني بمجرد أن خَطَوتُ من الدرجات إلى الرصيف اعترضت طريقي المرأة ذات الشعر الأبيض التي حاولتُ ألا أراها وجهًا لوجه طوال مراسم الجنازة. إنها زوجة أسبجورن التي لم تتخلَّ عن حبها له رغم مغادرته قبل سنوات، ولهذا لم تُطَلَّق منه.

سمعتُ صوت فيديريكو: «أعلمُ أن الكثير من الناس سيموتون». فأغلقتُ الهاتف قائلًا: «سأتصل بك لاحقًا».

لم تتفوَّه المرأة ذات الشعر الأبيض بكلمة واحدة. أخذت تحدق إلى وجهي فترة قصيرة، ثم لم تستطع السيطرة على نفسها، وصفعتني. وتظاهر أولئك الذين كانوا يقفون عند باب الكنيسة يُغلقون أزرار معاطفهم بأنهم لم يروا هذا. على كُلٍّ، كنا قد خرجنا من جنازة، وكانت هناك ألف طريقة للتعبير عن الحزن، بما في ذلك صفع شخصٍ ما. أخذت المرأة ذات الشعر الأبيض عدة أنفاس سريعة، ثم دمعت عيناها. أرادت الاعتذار، ولكنها لم تستطع الكلام، فبدلًا من ذلك عانقتني بشدة. بصرف النظر عن معرفة أسبجورن، كانت هذه نقطة مشتركة أخرى بيننا؛ فتلك المرأة العجوز كانت مثلي، لم تكن تعرف ماذا تفعل معي. كانت تتأرجح بين الغضب مني والشفقة عليَّ، وفي أثناء ذلك كانت تتنفس بإنهاك. حتى جسدها كله كان يرتعش، يمكنني أن أشعر بذلك. ثم أسندت خدها الأيسر على صدري. هل يمكنها سماع دقات قلبي؟ أعتقد هذا. كان معطفي ثقيلًا جدًّا، وفي الغالب ستكون هناك آثار دموع على ياقتي. ولكن بعد ذلك ستجفُّ أيضًا، وسيذهب الجميع في طريقهم المُغَطَّى بالثلج. مع ذلك، لم أكن أريد أن تنتهي تلك اللحظة، لم أكن أريدها أن تتركني،لأنها

عندما تسحب ذراعيها عن كتفي كنا سنلتقي وجهًا لوجه مرة أخرى، وكان سيبدأ الألم في جبهتي أولًا، ثم في جسدي كله، وكان سينتشر بداخلي شعور كثيف وأسود مثل النفط المتسرب في البحر، وسيُمحى كل ما يدور في ذهني، وسيبقى سؤالان فقط: لماذا لم أمُتْ في ذلك المخيم؟ لماذا بقيتُ على قيد الحياة؟ وبالطبع، البقاء على قيد الحياة لا يعني العيش. ولكن كان يكفيني أن أتنفس لأطرح هذه الأسئلة. يحدث ذلك أحيانًا، تأتي لحظة خلال اليوم أخجل فيها من وجودي.

سحبت المرأة ذات الشعر الأبيض يديها عن ظهري وأمسكت بمرفقي، ثم ألقت نظرة أخيرة عليَّ، ثم استدارت وبدأت تمشي متثاقلةً. لا بد أنها أخفت عن كل من يعرفها أنها ذاهبة إلى جنازة أسبجورن في ذلك الصباح، وأنا متأكد من أنها أخفت ذلك خصوصًا عن طفليها، اللذين لم يريا والدهما منذ سنوات ولم يُسامحاه قط. لهذا السبب لم يكن هناك أحد يمسك بذراعها في طريق العودة، فكانت تحاول أن تمشي وتقف بمفردها أيضًا. نظرتُ إلى آثار الأقدام الصغيرة التي تركتها على الرصيف المُغطى بالثلوج. ربما تلك الآثار موجودة من أجل أن أتبعها، وربما كان يجب عليَّ ألا ألاحقها أيضًا. لقد كان عليَّ أن أظهر أنا أمامها هذه المرة وأحتضنها، ثم كان عليَّ أن أمسك بذراعها وأسير معها. ولكنني لم أستطع، لأن الألم السامَّ الذي بدأ في جبهتي كان على وشك أن يلف جسدي بالكامل مثل قميص المجانين، تمامًا مثل خوفي. لماذا لم أمت في ذلك المخيم؟ كنتُ أشعر أنني شخص كان يجب عليه ألا يكون موجودًا. لماذا بقيتُ على قيد الحياة؟ كنتُ أشعر وكأنني أقف على مائدة يوجد عندها الجميع ويجلسون. لماذا لم أمت في ذلك المخيم؟ كنتُ أشعر وكأنني مثل آخر قطرة تفيض من الكوب، تلك القطرة التي لم تنتمِ إلى الكوب مطلقًا، والتي قلبت كل شيءٍ رأسًا على عقب مع وصولها. لماذا بقيتُ على قيد الحياة؟ على الرغم من أنني طُرِدتُ من الدنيا ثلاث مرات، فإنني عدتُ ثلاث مرات. حتى وأنا أكاد لا أمتلك وجهًا. لماذا لم أمت في ذلك المخيم؟ في تلك اللحظة، علمتُ أنه أينما ذهبتُ، وأينما اختبأتُ، ومهما بقيتُ وحيدًا لا يمكنني التخلص من هذا الشعور. مصعد فارغ، أو سرير مفرد، أو جزيرة مهجورة... لا يوجد فرق. أينما كنتُ سأشعر وكأنني شيءٌ إضافيٌّ. كنتُ أنظر إلى يدي ذات القفازات. لقد كانت أصابعي إضافية. فنظرت إلى قدمي، وكانت أصابعي

إضافيةً أيضًا. كنتُ أشغل مساحة إضافية. عيناي كانتا إضافيتين. كنتُ أرى ما لم يكن يجب أن أراه، وما زلتُ أراه، وسأراه. أغلقتُ عيني. ربما لم تستطع تلك المرأة العجوز سماع دقات قلبي، ولكن قفصي الصدري الآن كان مثل برج الناقوس. دقات قلبي كانت تُصيبني بالصمم. لقد كنتُ إضافيًّا، والدنيا كانت إضافية. كنتُ أقول لنفسي: «سيمر. اهدأ!» لأن الأمور ستكون دائمًا على هذا النحو. ذلك الألم، ذلك الشعور الغريب، وتلك الأسئلة كانت تأتي فجأةً مثل انفجار الزائدة الدودية، وتزول ببطء مثل نوبة قلبية خفيفة. لقد عانيتُ من هذه النوبات عدة مرات في حياتي، ولم يكن هناك علاج أو دواء؛ فلم يكن هناك شيء في هذه الدنيا يمكن أن يُداوي شخصًا يشعر بالإحراج الشديد لمجرد وجوده، على الأقل هذا ما اعتقدتُه. لقد عِشتُ سنواتٍ تحت تهديد هذا الشعور. هل يمكن للطفل أن يندم على ولادته؟ كيف؟ لقد قُطِعَ نُخاعه، وكُسرت عظامه من الندم. خصوصًا إذا كان الناس لا يستطيعون النظر إلى وجه ذلك الطفل المصاب، ويديرون رؤوسهم لأنهم لا يطيقون ذلك. لقد شعرتُ بالخجل من نفسي لأول مرة عندما كنتُ في السادسة من عمري، لأنه ليس لديَّ وجه. شعرت بالحرج بكل ما أُوتيتُ من قوة. ثم وجدتُ المئات من الأسباب المختلفة للخجل مرارًا وتكرارًا. ولو عِشتُ ألف عام، لوجدتُ ألف سبب إضافي؛ لأنني لم أكن أعرف ما يمكن أن يشعر به الإنسان غير الألم والغضب تجاه نفسه.

وقفتُ أمام تلك الكنيسة في ستافانجر مثل شجرة صعقها البرق، ثم ضبطتُ أنفاسي وفتحتُ عيني ببطء. وأخيرًا كنتُ أكثر هدوءًا. لقد كان سبب نوبة الإحراج التي عشتها للتو واضحًا: كنتُ أعتقد أن أسبجورن مات بسببي، مات لأنه قابلني. لقد فقد حياته لأنه أنقذ حياتي، أو هكذا كنتُ أعتقد.

لقد كان يومًا غريبًا، لأنه كان هناك آخرون يقفون على ذلك الرصيف وهم يشعرون بالخجل لمجرد وجودهم. توجهوا إلى الأمام، وخرجوا من باب الكنيسة بخطوات صغيرة، وعلقوا شريطة زرقاء حول ياقاتهم. بفضل أسبجورن، تعرفتُ على هؤلاء الأشخاص الذين اخترق ضمائرهم شعورٌ حادّ بالذنب. كانوا ينظرون إليَّ ويشيرون بعضهم إلى بعض، رغم أنهم حاولوا عدم إظهار ذلك.

على الرغم من توسلات عائلته وأصدقائه، وحتى التهديدات بالتخلي عنه، رفض أسبجورن بإصرار العلاج من أجل التخلص من إدمانه الكحول. لهذا فقد كل ما كان لديه، وأطفاله قبل كل شيء. وعلى مر السنين، عاش بمفرده حتى تُوفي عن عمرٍ يناهز 72 عامًا. إلا إنه كانت هناك جماعة علاج ودعم قد انضمَّ إلى اجتماعاتها في سنواته الأخيرة، على الرغم من أنه عادةً ما كان ثملًا. كانت هذه المجموعة المُسماة «أطالسة مجهولون» مكونة من النرويجيين الذين يشعرون بالذنب تجاه فقر العالم لأنهم ولدوا في بلد على مستوى عالٍ من الرفاهية. وأُطلِقَ عليهم اسم أطلس لأنهم كانوا يشعرون بثقل العالم أجمع على عاتقهم. لقد دُمِّرَت علاقاتهم الاجتماعية وحياتهم اليومية بسبب الشعور بالذنب الذي أعمى مَنطِقَهم. لهذا السبب كانوا يجتمعون بانتظام مع اختصاصي علاج نفسي، ويحاولون مساعدة بعضهم بعضًا للتغلب على هذا الشعور المزعج بداخلهم. كما كانت هناك العشرات من جماعات الدعم ومنظمات المجتمع المدني التي تشبه «أطالسة مجهولون» في النرويج والدول المجاورة.

بدأ كل شيء بانتشار اكتئاب غامض بين البالغين في الدول الإسكندنافية؛ حيث كانوا يكتبون الجمل التالية في ملاحظات جلسة اختصاصيي العلاج النفسي، والذين لم يتمكنوا من فهم هذا الوباء في البداية:

«في الواقع، ليس لدي أي مشكلات، ولكني لا أعرف لماذا، لا أشعر أنني بحالة جيدة على الإطلاق. أمتلكُ كل شيء لأكون سعيدًا، ولكنني لست سعيدًا».

بعد فترة، اتَّضَحَ أن كل هؤلاء الأشخاص لديهم نقطتان مشتركتان: جميعهم كانوا يتابعون بانتظام التطورات التي تحدث في العالم، وهكذا كانوا على اطّلاع يومي بتفاصيل حياة الآخرين ممن سقطوا في الجوع والفقر والحرب. كما إنهم جميعًا نشؤوا مع غرس شعور قوي بالتعاطف. ولكن غياب وباء الاكتئاب هذا في دول الخليج العربي –الأكثر ثراءً منهم– لم يكن كافيًا لشعور أي منهم بالراحة. نتيجة لذلك، أُصيبَ أسبجورن بالاكتئاب مثل أي شخص عاقل، ومات بتَلَيُّف الكبد مدمنًا للكحول لأنه وِلدَ في عالم لا يوجد فيه عدالة ومساواة. كنتُ آخر شخص أجرى له عملية جراحية، كنت مريضه الأخير، ثم مرض هو. في تلك الليلة اختطف الموت أسبجورن مني. على الأقل هذا ما

كنا نظنه أنا وزوجته ذات الشعر الأبيض. بعد ذلك أدركنا أننا اتهمنا طفلًا يبلغ من العمر ستة أيام بالقتل، فتعانقنا كما فعلنا للتو حتى لا ينظر بعضنا إلى بعض وجهًا لوجه بعد الآن. وكان أعضاء المجموعة المسماة «أطالسة مجهولون» يقفون على الرصيف الذي أمام الكنيسة، يعانقون بعضهم بعضًا. وعلى الرغم من أنهم كانوا يتهامسون، فإنني سمعتُ كلمات العزاء تخرج من أفواههم، ورأيتُ دموع بعضهم. ربما لم يكونوا يعرفون أسبجورن جيدًا، ولكن هذا لم يكن مهمًّا. لأن الأطالسة المجهولين كانوا مترابطين بعضهم ببعض بسبب الألم. وفي هذا العالم، تتشكل العائلات الحقيقية برابطة الألم، لا برابطة الدم. لذلك لم يكونوا في حاجة إلى معرفة طعام أسبجورن المفضل أو برجه ليبكوا عليه.

كان الشريط الأزرق الذي علقوه على ياقاتهم رمزًا للذنب الذي يشعرون به. وأصبح الاكتئاب الذي كانوا يغرقون فيه سنوات خبرًا عالميًّا، فقد تمت السخرية من هؤلاء الإسكندنافيين في جميع أنحاء العالم. حتى إنه من خلال التذكير بأن السويد هي واحدة من أكبر مُصَدِّري الأسلحة، أو التذكير بالتمييز الذي يتعرض له السكان المحليون بصفتهم من الشعوب السامية، تمت الإشارة إلى متلازمة ستوكهولم فكان «المانشيت» في الصحف: «هذه المرة وقع القاتل في حب الضحية!» وكان عدد قليل من كاتبي هذا «المانشيت» صُحُفًا منشورة في تركيا؛ فعندما لا يتمكنون من العثور على عنصر إخباري، أو عندما يريدون تغيير القضايا الحالية في البلاد، فإنهم يُعيدون صياغة هذا الاكتئاب الإسكندنافي مرارًا وتكرارًا، وينشرون آراء الخبراء بأنها علامة على النفاق الأوروبي. ومع ذلك، إذا ألقى أولئك الذين أعدوا تلك الصحف نظرة فاحصة، يمكنهم أن يروا أن الأتراك –بقدر الإسكندنافيين– يعانون من الاكتئاب بسبب السياسات العامة للدول. وهكذا، كان الأتراك الذين يذهبون إلى طبيب نفسي بشكوى الاكتئاب يقولون:

«أشعر أن الناس يتجنبونني دائمًا. يبدو الأمر كما لو أن لا أحد يحبني، حتى يبدو كما لو أن الجميع يكرهونني. لديَّ أصدقاء، ولديَّ عائلة، ولكنني لا أعرف السبب، أشعر بالوحدة الشديدة».

كنتُ أعلم أنهم كانوا يقولون هذه العبارات لأن تقريرًا ربع سنويّ بعنوان تحليلات علم النفس الاجتماعي والفردي في الدول الأعضاء في مجموعة العشرين كان يتم وضعه على مكتبي. ونظرًا إلى أنني كنتُ دائمًا على الطريق ولم أجد الفرصة للجلوس على ذلك المكتب، كان عليَّ قراءة هذه التقارير من هاتفي.

في الواقع، لم يكن مدهشًا أن يعتقد الأتراك أنهم غير محبوبين، لأن عنوان أول خبر سمعوه خلال النهار هو نفسه عنوان آخر خبر منذ سنوات: «ها هو ذا عدوٌّ تركيٌّ آخر!» وكان هؤلاء الأعداء الأتراك يفرضون حظرًا اقتصاديًّا شديدًا على تركيا منذ سبع سنوات. ونتيجة لهذا، لم يتمكنوا من شراء الأدوية والغذاء إلا من العالم الخارجي. بالإضافة إلى ذلك، مرت خمسة أشهر فقط على نص قانون الوداع الذي تم التصويت عليه واعتماده من قبل البوندستاغ الألماني (المجلس التشريعي الاتحادي الألماني). ووفقًا لهذا القانون تم طرد الأتراك من ألمانيا، حيث هاجروا مرة واحدة بشكل جماعي. عندها لم يعد «Türken Raus!» (اخرجوا الأتراك!) كتابة تهديد على الجدران في كروزبرج، فلقد كان الشعار غير الرسمي لسياسة دولة مطبقة. لذلك، إذا ذهب أي تركي إلى طبيب نفسي وسأل: «لماذا لا أحد يحبني؟» سيكون هناك سببٌ كافٍ للسؤال.

بينما كنتُ أسير تجاه سيارة الأجرة عبر الطريق، ألقيتُ نظرة على لوحة الإعلانات الرقمية الموجودة فوقها. كان مكتوبًا بأحرف كبيرة حمراء باللغة الإنجليزية: «ألفية جديدة». ثم حُذِفَت كلمة ألفية وظهرت كلمة «عالم». ولأنه كان إعلان نادي قمار تم افتتاحه حديثًا، فقد حُذِفَت كلمة عالم وظهرت كلمة «حظ».

صعدتُ إلى المقعد الخلفي لسيارة الأجرة تلك، ونظرتُ إلى انعكاس صورتي في مرآة الرؤية الخلفية وقلت: «مرحبًا. دعنا نذهب إلى المطار من فضلك».

لم يستطع السائق فهم ما كنتُ أقوله لأنني لم أستطع تحريك شفتيَّ كثيرًا في أثناء التحدث. لقد تعودت ألا يفهمني الناس. قلت فقط هذه المرة: «المطار» وجلستُ متكئًا.

فكرتُ في بيتي في إسطنبول. حاولت أن أتذكر غرفة المعيشة، والشرفة، والمطبخ، والحمام، وغرفَتَي النوم. ولكن لم يُفلح الأمر. لم أنم في سريري منذ عامٍ تقريبًا. بالطبع يمكنني وصف كل ركن من أركانه بالتفصيل، ولكن المنزل لم يمر أمام عيني لحظة، حيث تحولت رحلة العمل القصيرة الخاصة بي في يناير إلى ماراثون لا نهاية له، لأنه قبل الانتهاء من أحد الملفات كان يظهر أمامي ملف آخر يتوجب عليَّ تولي أمره، فيتم جَرِّي من بلد إلى آخر، وبالتالي كنتُ أعيش في الفنادق منذ شهور. كانت ملابسي أو فرشاة أسناني تبلى، فكنتُ أشتري أشياء جديدة. لم يكن معي سوى حقيبة سفر واحدة وصندوق تشيللو أسود. في المُعتاد، عندما أركب سيارة أجرة كنتُ أضع حقيبة السفر في حقيبة السيارة، وأضع صندوق التشيللو في المقعد الأمامي مربوطًا بحزام الأمان، وأجلس أنا في المقعد الخلفي. حسنًا، هل هناك أحد ينتظرني في المنزل؟ إذا كان لتذكرتُ، لأنه لا يمكن لأحد أن ينسى أنه كان بمفرده. لقد حاولت.

تمامًا في الوقت الذي كنتُ أتصل فيه بفيديريكو رن الهاتف. كان المتصل جريس من لندن. كنتُ في هذه المرحلة من حياتي أجيب دائمًا على الهاتف بسؤال.

- هل تمكنتِ من أخذه؟
- نعم. لقد كان الأمر صعبًا، ولكنني توليتُ الأمر.
- هل قارنتِه بالتقرير الرسمي؟
- أقوم بذلك الآن...
- ثم؟
- تمامًا كما توقعنا... جميع الأرقام التي يطلقونها مزيفة. البنجلاديشيون والباكستانيون والكاريبيون والآسيويون. انخفض مؤشر منفعتهم بمقدار النصف. لقد خفضوا نقاط جميع الأقليات!
- فهمت يا جريس.
- ماذا نفعل الآن؟

قلت: «سأخبرك». ثم أغلقت الهاتف. أخذتُ نفسًا عميقًا وتراجعتُ عن الاتصال بفيديريكو، لأنه في هذه المرحلة لم يكن هناك ما يجب فعله سوى الانتظار حتى يُحفر الثقب. كان سيُحفر هذا الثقب في جدار زنزانة في قاعدة سيغونيلا البحرية الأمريكية في جزيرة صقلية. وهكذا، فإن أوجلالا سيوسو تشاستا من قبيلة لاكوتا، الذي تم سجنه في الزنزانة منذ ثلاث سنوات، سيكون قادرًا على النظر من خلال تلك الفتحة الصغيرة في الجدار ورؤية الحقيقة في النهاية. إذا كان من الممكن حفر ذلك الثقب في الوقت المناسب؛ أي قبل أن يغادر تشاستا الزنزانة. الأهم من ذلك قبل انتهاء الخدعة.

أخرجتُ الزجاجة البيضاء الصغيرة من جيبي وقطرتُ قطرتين من الدموع في عيني. ثم نظرتُ إلى مرآة الرؤية الخلفية وفَكَّرتُ أنه هكذا ينبغي أن يكون؛ أخيرًا لدي وجه يتوافق مع مزاجي. أسندتُ رأسي إلى المقعد ونظرتُ من النافذة. تخيلتُ أنني أبكي وأنا أشاهد الثلج الذي بدأ يتساقط مرة أخرى. أولًا بصمت، ثم بنحيب.

في ذلك اليوم، في سيارة الأجرة المتجهة إلى المطار، بينما أمسح الدموع الاصطناعية التي تنهمر على خدي بأطراف أصابعي، لم أكن أعرف بالتأكيد أن كل شيءٍ سيتغير في غضون أيام قليلة. ولكن سرعان ما ستأتي لحظة سحرية وسأكون شخصًا مختلفًا تمامًا، وجودي سيكون له معنى أخيرًا. لأول مرة منذ 40 عامًا بعد ولادتي كنتُ أشعر أنني على قيد الحياة حقًّا. الأهم من ذلك كله، كنتُ سأجد أخيرًا إجابات عن هذين السؤالين: لماذا لم أمت في ذلك المخيم؟ لماذا بقيتُ على قيد الحياة؟

لأنني كنتُ سأغير العالم.

الطائر الصغير ومخيم الأمان

لم تتبنَّ أي منظمة مسؤوليتها عن الانفجار الذي وقع في مخيم الأمان، فجعل هذا كل الجماعات المسلحة في المنطقة –وعلى رأسها أجهزة المخابرات والقوات الخاصة– موضع شك، ولكن في منطقة حرب، لم يكن لذلك أي معنى، لأن أي هجوم مُنَظَّم ضد المدنيين في حرب ما يُعد أمرًا قضائيًّا، وهو يعتمد على من يُنشئ المحكمة في نهاية الحرب. بناءً عليه، كان قتل المدنيين عادة من عمل أولئك الذين كانوا على يقين من أنهم سينتصرون في الحرب ويقيمون تلك المحكمة، ونادرًا ما كان من عمل تفجيرات الانتحاريين الذين رفضوا دفع ثمن أفعالهم أو المُحاسبة عليها.

ما يُميز المتفجرات اليدوية عن القنابل الأخرى أن تجارة المواد المستخدمة في صناعتها شرعية؛ حيث يتم إنتاج هذه المتفجرات من مواد يمكن لأي شخص الحصول عليها. وهكذا، يتم القضاء على كبار المصنعين، أصحاب مصانع الأسلحة غير الشرعية، أو الجنرالات الذين يبيعون القنابل في مخزون جيشهم، وتجار الأسلحة الذين يعملون بالعمولة. بناءً عليه فإن المتفجرات المصنوعة يدويًّا هي وسيلة إبادة جماعية عملية، وهي نتاج الإبداع البشري، الذي يصل مباشرةً من المُنتِج إلى المُستهلك، الذي هو أرخص بكثير من القنابل الأخرى، وهو موجود لكي يبطش بالإنسان. بينما يمكن إيقاف إنتاج المتفجرات التقليدية في المرحلة التحضيرية، يختلف الوضع بالنسبة إلى المتفجرات المصنوعة يدويًّا، تمامًا مثل الولايات المتحدة الأمريكية؛ الدولة الأولى والوحيدة التي أسقطت قنبلة ذرية على البشر، وفرضت حظرًا اقتصاديًّا على إيران، التي كانت تعمل في تخصيب اليورانيوم في ذلك الوقت، بدعوى أن ما تفعله لن يمس إيران فقط، بل سيمس بلدهم أيضًا، لا يمكن

منعهم من إنتاجها إلا بعد الانفجار، لأنه فقط نتيجة للتحقيقات التي تُجرى بعد الانفجار يمكن تحديد المادة الفعالة في القنبلة والحد من تداولها. وفي مواجهة هذا المنع، فإن أولئك الذين لا يستطيعون النوم إذا لم ينتجوا المتفجرات المصنوعة يدويًّا يتجهون على الفور إلى مواد شرعية أخرى. على سبيل المثال، إذا تم الحد من تداول الأسمدة القائمة على نترات الأمونيوم المُستَخدَمة في الزراعة، فسيجدون الحل عن طريق شراء كلورات البوتاسيوم من صناعة الأدوية. وبما أنه في ذلك الوقت كانت تجارة كلورات البوتاسيوم مُقيدة في روسيا والأراضي المُجاورة، فقد تم تحضير القنبلة التي انفجرت في مخيم الأمان باستخدام بيروكسيد الهيدروجين، المُستخدم في صناعة الورق. وأيضًا استُخدِمَ كيلوجرامان اثنان من المعدن شظايا. تم إدخال كل هذا في حقيبة الإسعافات الأولية، بعد ذلك تم تهريب تلك الحقيبة إلى المخيم بشكل غامض، وتُرِكَت بجوار صناديق القمامة خلف مقصورات المراحيض المتنقلة.

هذه هي المعلومات التي تم الحصول عليها بخصوص انفجار مخيم الأمان. ربما كان هناك أيضًا ذلك: كان مُعِدُّو المتفجرات المصنوعة يدويًّا على وجه التحديد أناسًا ينتمون إلى العالم الحديث، الذين رأوا العقبات التي واجهوها فرصة لتطوير أنفسهم، على أن تكون موجهة نحو الهدف بما يكفي للاستشهاد بها من قبل أي متحدث تحفيزي في أثناء الحديث عن قوة التفكير الإيجابية. وما دام هناك من يتناول الأدوية ويأكل الخضراوات ويقرأ الكتب، فيمكنَ أن يفجروا الأماكن، ويقتلوا 4 أشخاص ويصيبوا 17 آخرين، كما فعلوا في مخيم الأمان. ولأنهم ينتمون إلى العالم الحديث، لم يهتموا أبدًا بأن الجرحى والقتلى من المدنيين، حتى إنهم فَضَّلوا ذلك، آملين أن يكون الأمر أكثر تأثيرًا في تحقيق أهدافهم؛ لأنهم كانوا يعلمون أنه في العالم الحديث كان من الممكن التحكم في الذاكرة؛ أي تحديد من ينسى ماذا ويتذكر ماذا، أو كيف يتذكر ماذا. على سبيل المثال، إذا كانت منظمة مسلحة تقاتل من أجل الاستقلال، أمكَنَهم محو طفل قد شَوَّهوا وجهه بالمتفجرات المصنوعة يدويًّا في الماضي من ذاكرة –وبالتالي من ضمير– المجتمع الذي سيفرض ضرائب على الدولة المُسَمَّاة «النهاية السعيدة» التي سيؤسسونها في المستقبل.

يمكنهم حتى إعلان تاريخ قصف مخيم للاجئين أولَ عيد وطني، والاحتفال به كيوم الاستقلال كل عام.

على الرغم من أنه من الواضح مَن الذي ترك الرضيع في مخيم الأمان -على عكس القنبلة- فإن رائف كان الشخص الوحيد في المخيم الذي يعلم هذا. اقترب الرضيع من المخيم في حضن والدته زرا، البالغة من العمر 15 عامًا. كانت زرا قد سارت تجاه شجرة الزيتون الوحيدة على الحدود الجنوبية للمخيم، والتقت رائف الذي كان ينتظر خلف السياج. لقد كان هناك قطع في السياج تم فتحه على نطاق واسع ليُتمَكَّنَ من تمرير ثلاث علب كرتون سجائر في الوقت نفسه من قِبَلِ مُهَرِّبي البضائع الذين يتسوقون للأشخاص الذين يعيشون في المخيم، وكان كافيًا لمرور رضيع حديث الولادة. كانت زرا قد قَبَّلت وجه الرضيع المرة الأخيرة تحت ظل شجرة الزيتون، ومررته من ذلك القطع وتركته بين يدي رائف.

في ذلك اليوم، تركت زرا رضيعها في مخيم للاجئين. بالطبع، لم يكن اتخاذ هذا القرار سهلًا، فإذا كان الأمر سهلًا، لما تم اتخاذ هذا القرار، ولكنه يُعطَى، حيث لم يكن أمام زرا خيار آخر. لقد قضت زرا حياتها في عجز واضطرار، على عكس أولئك الذين يُعِدُّون المتفجرات المصنوعة يدويًا، قائلين: «هناك دائمًا خيار آخر».

ولدت في بالاز، أفقر قرية في تركيا، على بعد 400 متر من الحدود السورية، و600 متر من مخيم الأمان. سارت زرا في سن الواحدة، وتحدثت في سن الثانية، وتوقفت عن المشي في سن الحادية عشرة لأنها مُنِعَت من مغادرة المنزل، وصمتت في سن الثانية عشرة عندما علمت أنها ستتزوج، وتم القبض عليها وضربها من قبل زوجها في سن الثالثة عشرة في أثناء هروبها من المنزل ولجوئها إلى قوات الدرك، ثم تم إنقاذها وضربها من قبل زوجها في سن الرابعة عشرة في أثناء شنق نفسها ولجوئها إلى الموت، وأخيرًا في سن الخامسة عشرة، حملت زرا وبدأت تتحدث مرة أخرى. بالطبع لم تذهب إلى المدرسة قط، لأنه لم يكن مُعتَرَفٌ بها إنسانًا، ومع ذلك فقد حاولت تعلم القراءة. ونظرًا إلى عدم وجود كتاب في المنزل باستثناء المصحف العربي المُعلق على الحائط. فقد بحثت في جميع الأنحاء عن نصوص بأحرف لاتينية

كانت تعتقد أنه سيكون من الأسهل فك رموزها. ولكن كل ما استطاعت إيجاده هو منشورات أُسقِطت من طائرات تابعة للقوات الجوية الأمريكية والروسية والفرنسية والتركية؛ حيث تم إعداد كل منشور ليُوَجَّه إلى أعضاء منظمة مسلحة مختلفة تقاتل في الحرب الأهلية السورية، وإلى المدنيين الذين كانوا من أنصار تلك المنظمة. وكانت الجماعة التي حاولت كل دولة التواصل معها عن طريق المنشور مختلفة. وعلى الرغم من ترك هذه المنشورات في الأجواء السورية، فإن الرياح نقلتها إلى بالاز. بهذه الطريقة، كان لدى زرا مجموعة جادة من المنشورات العسكرية. رغم محاولات زرا فإنها لم تستطع فك الرموز للقراءة، ولكن دون أن تدرك هذا، وبفضل الأشخاص الذين جاؤوا إلى سوريا للحرب من جميع أنحاء العالم، تعلمت التعرف على كلمات بمعنى «استسلم!» و «تراجع!» بالعديد من اللغات. على الرغم من أنها لم تكن تعرف معناها.

في البلاد البعيدة في أثناء اصطدام الفتيات اللاتي يبلغن من العمر 15 عامًا بالأعمدة على الرصيف لأنهن يسِرنَ وهن ينظرن إلى الهواتف التي في أيديهن، كانت زرا التي مُنِعَت من النظر إلى أعلى في أثناء مرورها في ساحة القرية تصطدم أحيانًا بغصن شجرة، وأحيانًا تصطدم طوعًا برائف، البالغ من العمر 19 عامًا. وفقًا لزرا التي تعي جيدًا أنه في العالم الذي وُلِدَت فيه تُوَزَّع المكافآت والعقوبات من قِبَلِ الرجال فقط، فإن الطريقة الوحيدة للتخلص من كونها أسيرة لرجل أن تكون أسيرة لرجلٍ آخر تختاره بنفسها. إن سبب اختيار زرا رائف هو أنه كان يعبر الحدود في شاحنته الصغيرة كل صباح ويحضر الخبز إلى مخيم الأمان. ومخيم الأمان في نظر أهل بالاز كإل دورادو، وهي مدينة في الأساطير.

الذين رأوا المخيم من الداخل -وعلى رأسهم رائف- كانوا يتحدثون عنه طوال الوقت، فأولئك الذين رأوه ولو مرة يحكون عن مخيم الأمان أسابيع، وبتفاصيل مختلفة في كل مرة، لأن كل شيء لم يكن موجودًا في القرية كان موجودًا هناك: روضة الأطفال، والمدرسة، والمكتبة، والمستشفى، ومكتب البريد، وأنظمة التدفئة، ومياه جارية من كل صنبور، وحتى السينما. علاوة على ذلك فإنها كلها كانت مجانية. كانت هناك كهرباء في بالاز، ولكنها بالطبع كانت أيضًا مجانية في مخيم الأمان. وكان يتم تقديم ثلاث وجبات في

اليوم، وفي كل شهر كان يأتي ممثلٌ أو رياضيٌّ مشهور عالميًّا لزيارة المخيم برفقة الصحافة. الشيء الوحيد الذي يمكن لأهل بالاز فعله هو الصعود إلى سطح منازلهم ومشاهدة هذه الزيارات المزدحمة والمتألقة هناك على بعد 600 متر، ثم التجمع في مقهى القرية وتشغيل التلفاز. لأن هذه الزيارات كانت بالتأكيد في نشرة الأخبار المسائية، وكان المذيعون يروون القصة نفسها دائمًا: «المحطة التالية للمقيمين في مخيم الأمان هي أوروبا!» حتى إن البعض قد ذهب إلى أستراليا، وحتى إلى أمريكا، وكأن العالم كله ينتظر احتضان الأشخاص الذين سيأتون من مخيم الأمان بأذرع مفتوحة. ولكن لم يكن هناك خبر عن أحد من بالاز التي تبعد نصف كيلومتر. لم يتم التحدث عن بالاز في أي قناة تلفزيونية، ولم يأتِ أحد لزيارتها. حتى مسؤولو الدولة في المنطقة لم يذكروا اسمها، حيث أطلقوا على القرية اسم «الحدود». ربما كانت كذلك. ربما كانت تلك القرية مجرد حدود. وقد كان مخيم الأمان أقرب إلى بالاز من شانلي، أو أورفة، أو مرسين، وبالطبع إسطنبول. لهذا السبب، كان أبناء بالاز، مثل آبائهم أو أعمامهم أو إخوانهم، يحلمون بالهجرة إلى مخيم الأمان بدلًا من إحدى هذه المدن سعيًا وراء حياة أفضل. بناءً عليه، جاءت بالطبع لحظة في حياة كل طفل من بالاز علم بها أن هذا غير ممكن، وشعر بخيبة أمل شديدة. كانت خيبة أمل مماثلة لما شعر به الأطفال في البلاد البعيدة عندما اكتشفوا أن بابا نويل لم يكن حقيقيًّا. رغم كل ذلك، كان مخيم الأمان للذين يفرون من الحرب الأهلية، وليس للذين يعيشون في سلام؛ فكان هناك أطفال يبلغون من العمر خمسة أو ستة أعوام لم يرغبوا في قبول ذلك، وأخذوا يدعون من أجل اندلاع حرب أهلية في تركيا. ثم يتلقون صفعة شديدة من أمهاتهم اللاتي يسمعن دُعاءهم، وبمجرد أن يمسحوا دموعهم، كانوا يصعدون إلى سطح منازلهم ويواصلون النظر إلى مخيم الأمان. في الواقع كانوا ينظرون بغضبٍ قليلًا، وكان غضبهم موجهًا بشكل خاص إلى أقرانهم الذين يعيشون في المخيم، والذين لم يلتقوهم قط. فكانوا يعتقدون أن هؤلاء الأطفال محظوظون، على عكسهم، محظوظون وسعداء! لأنه كان هناك أيضًا مدينة ملاهي صغيرة في مخيم الأمان، حيث يمكن رؤية العجلة الدوارة من أسطح البالاز. لو أنها لا تتحرك لربما لم تكن لتثير كل هذه الغيرة، ولكن كما لو كانت تريد أن تدفع أطفال بالاز إلى الجنون، فالعجلة الدوارة تلك

كانت تدور باستمرار، حقًّا تدور باستمرار. حتى إن ذلك لم يكن كافيًا بالنسبة إليها، فكانت تُضيء مصابيحها الملونة عند غروب الشمس كما لو كانت تسُبُّ أطفال بالاز. ومشاهدة تلك العجلة الدوارة المُضيئة من مسافة بعيدة لا يمكن تجاوزها أبدًا، تؤلم هؤلاء الأطفال أكثر من صفعة والداتهم. حتى زرا عندما كانت فتاة صغيرة لم تبكِ عندما صفعتها والدتها لقولها: «أتمنى أن تكون حرب هنا أيضًا!» ولكن بعد ذلك بكت في أثناء مشاهدة تلك المصابيح الملونة من سطح منزلهم.

كبرت زرا وهي تتوق إلى مكان لم تطأه قدمها قط. لذلك، رغم أنها كانت في الخامسة عشرة من عمرها وكانت حاملًا في شهرها السادس، اصطدمت برائف في أثناء سيرها في القرية، وكانت تحاول أن تلتقي عيناها الشاب ولو لحظة، لأنها أرادت أن تتحقق الأحلام التي حلمت بها لنفسها ذات مرة، ولكن هذه المرة لطفلها الذي سيولد. ربما لم تستطع فعل ذلك بنفسها، ولكن رضيعها تمكن من دخول مخيم الأمان. يمكنه حتى الدخول من الأمام والخروج من الجانب الآخر من العالم، كما يقولون في التلفاز. بالطبع كانت ترغب زرا في مرافقة طفلها في هذه الرحلة، ولكنها علمت سابقًا أن بابا نويل ليس حقيقيًّا. وحتى لو نجحت في التسلل إلى المخيم، فمن المؤكد أنه سيتم الكشف عن المكان الذي جاءت منه زرا وسيتم إعادتها إلى قريتها. ولكن الرضيع حديث الولادة ليس لديه لغة ولا دين ولا جنسية. وبناءً عليه، فإنه إذا تم العثور عليه في أي أرض من الأراضي سيكون من المفترض أنه وُلِدَ هناك. خصوصًا إذا تم العثور عليه في مخيم الأمان، المُحاط بسياج من الجوانب الأربعة، فسيكون من المقبول أن تعيش والدة ذلك الطفل في المخيم. علاوة على ذلك، لم يكن هذا هو الأول؛ فكان ظهور رضيعٍ حديث الولادة بين إناءين أو خيمتين أمرًا معتادًا في مخيم الأمان، وكان يتكرر على فترات منتظمة. في الواقع، كان هذا أمرًا شائعًا على جانبي الحدود، لأنه في كلا البلدين كانت تُنجَبُ النساء أسيرات حرب، حتى في زمن السلم. سيخسرن الحرب إذا ما أُنجبن وسقطن في أسر الرجال. لهذا السبب كان أمرًا شائعًا في تلك الأراضي أن تتخلى امرأة عن رضيعها حديث الولادة لأنها تعرضت للتعذيب كأسيرة حرب طوال حياتها. حتى إنه كان أمرًا شائعًا أن يتم إعدامها بوحشية كأسيرة حرب أمام أعين الجميع.

24 من ديسمبر

ظهرًا

توقفت سيارة الأجرة عند بوابة مطار ستافانجر. نزلتُ من السيارة وألقيتُ نظرة أخيرة على اللوحة التي تعلوها: ألفية جديدة، عالم جديد، حظ جديد.

مررتُ عبر السُّيَّاح المزعجين الذاهبين في عطلة للتزلج، ودخلتُ البناء. تبقت ساعتان على إقلاع الطائرة التي سأركبها، فبدأتُ أمشي ببطء مع صندوق التشيللو المُعَلَّق على ظهري، وحقيبة السفر الضخمة التي كنت أسحبها خلفي. كان الجميع من حولي في عجلة من أمرهم، ولكن ليس لأننا كنا في مطار وهم تأخروا على طائراتهم، بل لأنهم يدمنون العجلة ولا يعرفون كيف يعيشون من دون العجلة، لأنه في هذا العصر كان كل شيء عاجلًا. كانت الحياة في الشوارع والطرق والمنازل سريعة دائمًا. لذلك، مثل أي مكان آخر، كان الناس يمرون بجواري في هذا المطار مثل سيارة إسعاف. نعم، لقد بدوا تمامًا مثل سيارات الإسعاف، لأن الشيء الوحيد الذي كان عاجلًا حقًّا هو حالة المريض الذي كانوا يحملونه بداخلهم. لأن ذلك المريض كان لديه وسواس بشأن التأخر عن كل شيء في هذه الحياة، من الحب إلى المعرفة، ومن المال إلى العطلة، فأصبح يُعاني من نوبات التأخر. ولكن المكان الذي حاولت سيارة الإسعاف الوصول إليه بشكل عاجل لم يكن مستشفى بالطبع، لقد كان الموت. بطبيعة الحال سيكون موت جميع هؤلاء المرضى عاجلًا أيضًا. سيكون الأمر عاجلًا للغاية، لدرجة أنه لن يكون لديهم الوقت الكافي لإغلاق أعينهم. أما نسل

أولئك الذين رحلوا وأعينهم مفتوحة، فسيكون ظهورهم ورحيلهم هو نفسه في تاريخ البشرية. سوف يختفون بسرعة الضوء ببراعة يد أحد السحرة. هذا هو ما يناسبهم حقًّا. لأن حياتهم لم تكن مختلفة عن عرض الساحر. إنه مثل السحر، ولكنه ليس كذلك.

لم أستطع حقًّا أن أعيش في العصر نفسه الذي يعيش فيه هؤلاء الأشخاص! على سبيل المثال، أيًّا كان المنتج الجديد الذي ظهر في الأسواق، كانوا يشترونه على الفور. بالإضافة إلى أنه يمكنهم دمج ما يشترونه في حياتهم بسهولة كبيرة، كما لو كانوا يستخدمونه منذ ولادتهم. لقد مرت أسابيع قليلة منذ إطلاق حقيبة دليل الطريق، ولكن الجميع يمتلكها الآن بالفعل. لقد رأيتُ إعلانها، إنها أحدث طراز للحقائب الذكية ذاتية التحرك بجانب مالكها، حيث يتم إعطاء أمر صوتي حول العنوان أو مكان الذهاب، وتبدأ الحقيبة في التحرك إلى الأمام. كما إنها أنقذت أصحابها من أن يتوهوا في ممرات أحد المطارات، أو من البحث عن عنوان في شوارع مدينة وطأتها أقدامهم للتو. كما كان هناك أشخاص من حولي يتبعون حقائبهم؛ فعندما تُبطئ الحقيبة لتنعطف، يُبطئ صاحبها أيضًا، أو عندما يتوقف صاحب الحقيبة لشراء القهوة، كانت الحقيبة تبدأ بالانتظار بجانبه. في السنوات التي استخدمت فيها النماذج الأولى للحقائب الذكية تم تكوين مشهد مختلف؛ فلقد كان الناس يمشون بجوار حقائبهم أو أمامها، أما الآن، فالبشر في الخلف والحقائب في الأمام. ربما هذا ما كان من المفترض أن يكون. على كل حال، منذ زمن طويل والمرء يتقدم بقيادة الأشياء. بتعبير أدق، أي شيء جديد كان يتحكم في الإنسان، فكان الرجل يعمل فقط للحصول على الأشياء الجديدة. فكرتُ في مقدار حبهم للتجديد ولكل شيء جديد. ربما حتى الأطفال كانوا محبوبين لهذا السبب، لأنهم بشر لم يُستخدموا قط، قطعة لحم على أحدث طراز، عصرية، لم يمسها أحد. على الرغم من أنهم لم يتمكنوا من فهم أي شيء خاص بي، فإنني استطعتُ أن أرى ذلك في وجوه الناس: كانوا جميعًا أكثر سعادة مع حقائبهم الجديدة، لهذا كنتُ حذرًا في أثناء المشي. كنت حريصًا على عدم المرور بين الرجل وحقيبة السفر؛ فكما لا يمكن المرور بين الكلب وصاحبه، ابتعدتُ أنا أيضًا عن الإنسان وحقيبته، أو عن الحقيبة وإنسانها، لأنه في هذه الحالة كان الشخص الذي يتبع الحقيبة مثل الكلب.

على الرغم من أنني رأيت أشخاصًا يدخلون الممرات الخطأ بسبب مشكلات فنية ويصرخون في حقائبهم بسبب ذلك، فإنني كنتُ أشعر بقوة العلاقة بينهم. كانوا يصرخون بانفعال، كما لو كانوا يوبخون أطفالهم، في الحقائب التي كانوا يرضون أن يحنوا رؤوسهم إليها وينظروا إليها من أعلى. ولكن كان هناك آخرون كانوا أكثر حماقة. لقد كانوا جاثمين أمام حقائبهم ليكونوا على استقامة واحدة محاولين التزام الهدوء؛ فكانوا يقربون وجوههم من الحقيبة التي كانوا يمسكونها على كلا الجانبين، ويكررون وجهتهم بنبرة تربوية دون أن يملُّوا: «بوابة الصعود رقم 322... بوابة الصعود رقم 322».

أولئك الذين لم يعرفوا بالضبط مكان وجود جهاز استقبال الصوت على الحقيبة، كانوا يُنَقِّلون أفواههم إلى نقطة مختلفة منها في كل مرة يعطون فيها أمرًا.

- نقطة فحص جواز السفر. نقطة فحص جواز السفر!

هؤلاء الأشخاص، الذين بدؤوا يستشيطون غضبًا بدوا وكأنهم يقبلون حقائبهم من كل مكان، أرادوا فقط أن تُسمَعَ أصواتهم. يكفيهم أن تسمعهم الحقيبة وتُعطي ردة فعل، ثم تتقدم على عجلاتها الصغيرة في أي اتجاه! أحيانًا، وبينما صاحبها قد فقد الأمل، يمكن أن تتحرك حقيبة السفر فجأة. ولكن عندما تتوقف فجأة بعد بضعة أمتار، يصطدم بها صاحبها الذي كان يتحرك بحماس كبير خلفها، ويسقط كلاهما على الأرض فجأة. ولكنهم سيقفون على الفور ويستمرون في التوسل إلى حقائبهم. وفي نهاية المطاف سينفدُ صبرهم جميعًا للاستسلام لحكمة الأشياء. لأنه عندما تأتي تلك اللحظة سيكون كل شيء على ما يُرام مثلما في مُخيلتهم، فحتى الذين كانوا يتوقون إلى حقيبة دليل الطريق سوف ينحنون تجاهها ويهمسون: «اذهبي إلى الجحيم!» وهكذا سيتمكنون من متابعة الأشياء الجديدة حتى قاع الجحيم.

بالنسبة إلي، لم تكن علاقتي بالأشياء الجديدة جيدة كثيرًا. كنتُ أقترب من الأشياء بقليل من الريبة. لماذا؟ لا أعرف. ربما... ربما كان ذلك بسبب أنه قبل سبعة أيام من الألفية الجديدة، والعالم الجديد، والحظ الجديد كنتُ في طريقي إلى معسكر اعتقال جديد سيتم افتتاحه في ألمانيا. إلى معسكر اعتقال على أحدث طراز، عصري، لم يمسّه أحد، غير مُستَخدَم من قبل.

نظرًا إلى أنني لا يمكنني العيش مع الناس في العصر نفسه، فقد بدأتُ في البحث عن مكان للتدخين ناظرًا إلى لوحات الاتجاهات على الحائط. وبعد مشي مسافة طويلة دخلتُ الغرفة الزجاجية التي كان العشرات من الناس مكتظين فيها ويدخنون. مع الحقيبة وصندوق التشيللو، شغلنا مساحة تكفي ثلاثة أشخاص، فغضب الناس بمجرد رؤيتنا، كما كانت التهوية لا تعمل. أو كما هي الحال في العديد من المطارات، لم يتم تشغيلها على وجه الخصوص. لم يرغب أحد في تشجيع الناس على زيادة التدخين من خلال تقديم هواء معتدل ونظيف، أو هكذا كانت أرخص.

كانت تلك الغرفة الزجاجية مكتظة بأشخاص أتوا من أفقر دول العالم. كالعادة، كانوا يوجدون هم فقط. أولئك الذين علموا أن حياتهم لا قيمة لها. لأنه في الدول التي وُلِدَ فيها مدمنو النيكوتين كان كل شيء يُصنَع من أرخص مادة خام محلية، وهي اللحوم البشرية؛ قنابل حية ودروع بشرية.

لم أكن مُدَخِّنًا. ليس لأنني كنتُ أعتقد أن حياتي ذات قيمة، ولكن لأنني لم أستطع التدخين، بصرف النظر عن مدى رغبتي في ذلك. ولكن بين كل هؤلاء الناس، شعرتُ أنني تَحَسَّنت. لقد كانت هناك حروب تدور في معظم البلدان التي وُلِدوا فيها. وفي هذا العالم، لم يكن من الممكن الهروب من معاناة شخص آخر إلى الأبد، لأن العالم لم يكن مكانًا كبيرًا إلى هذا الحد. لذا أينما كان المرء، ففي يوم من الأيام سيضطر إلى أن يعاني من عواقب مأساة على الجانب الآخر من العالم. مهما كان بعيدًا عن نفسه، سوف يستنشق دخان الحرب عاجلًا أو آجلًا. هذا هو سبب ذهابي إلى تلك الغرف الزجاجية أولًا في كل مطار أذهب إليه. لم أكن أرغب في الانتظار حتى يأتي الدخان إليَّ، كنت أذهب أنا إلى الدخان. كنتُ أرغب في الدخول إلى قلب الدخان في أقرب وقت ممكن واستنشاقه قدر الإمكان. ربما كانت عادة مهنية، أو أحد الآثار الجانبية لعملي. وربما أيضًا كنتُ على وشك الإصابة بالجنون لأنني لا أفعل أي شيء سوى العمل، لا أعرف.

في ذلك الصباح فقط، في أثناء الجنازة، رَنَّ هاتفي عشرين مرة على الأقل، ولكنني لم أرد. علاوة على ذلك، كنتُ أعرف أن كل تلك المكالمات كانت

مسألة حياة أو موت. على الرغم من أنني لَستُ جَرَّاحًا مثل أسبجورن، فإن المجال الذي كنتُ أعمل فيه كان متعلقًا بموت الناس أو نجاتهم.

كنتُ أعمل في مؤسسة تحمل اسم «المؤسسة الأولى للسلام العالمي» (First World Peace Foundation) منذ 13 عامًا. يقع المقر الرئيسي للمؤسسة في جنيف، ولها مكاتب في 66 عاصمة ويعمل بها 871 موظفًا. ولكن كان سبعة أشخاص فقط من هؤلاء الـ871 موظفًا يعملون مُستَضِيفين. كنتُ واحدًا منهم. وفي الواقع، الاستضافة هو مصطلح رمزي ورومانسي إلى حد ما مقارنة بالواقع. لقد كان الوصف الوظيفي في اتفاقية العمل التي وقعناها مع المؤسسة بسيطًا: استضافة الأطراف التي في حالة نزاع أو حرب بعضهم على بعض. أي تعريفهم بعضهم ببعض حتى يتمكنوا من الجلوس حول طاولة والتحدث، ثم الانسحاب. كما أستخدم تعريفًا مماثلًا على الموقع الإلكتروني للمؤسسة عند شرح الغرض من إنشائها. بدا الأمر تمامًا وكأنه عمل مزيف يقوم به رجل مُخادع: إنتاج وتطوير حوارات تُركز على السلام.

منذ الحرب العالمية الثانية كان المقر الرئيسي لهذا القطاع هو أوسلو، وتم وضع أسس مؤسسة ناجحة أكثر فاعلية هناك. ولكن مع خروج الاتحاد السوفيتي من المعادلة –أي مع نهاية الحرب الباردة– تحول المحور إلى جنيف، حيث وفر ذلك المؤسسة الأولى للسلام العالمي، التي تأسست في ذلك التاريخ. وعلى الرغم من إنشاء العديد من المؤسسات المماثلة بعد ذلك، فإن نجم المدينة كان .FWPF وكان المُستضيفون أيضًا هم من جعلوا هذا النجم يلمع. كنا نقول للذين لم يفهموا بالضبط ما كنا نفعله إننا دبلوماسيون مدنيون لا ننتمي إلى أي دولة. فكنا نرتدي مثل الدبلوماسيين، ونتحدث مثل الدبلوماسيين، ولكننا كنا نحل مشكلات لا يستطيع الدبلوماسي حلها أبدًا، لأنه لم يكن هناك دولة خلفنا يتوجب علينا أن نُقيم لها وزنًا في كل خطوة نتخذها، أو أي بروتوكول يتوجب علينا اتِّباعه. ربما كان يجب أن نطلق على أنفسنا اسم الدبلوماسيين الأشباح. لأن الدبلوماسيين الحقيقيين ينتظرون أن تُفتَحَ الأبواب، أما نحن فكنا نسير عبر الحائط إذا لزم الأمر. مقارنةً بعالمهم، كان العالم الذي عشنا فيه أكثر تعقيدًا وظلامًا، لأن مهمتنا الأساسية كانت إقناع المتحاربين، بل وحتى إرغامهم على التصالح أو وقف إطلاق النار، باستخدام

جميع الوسائل القانونية وغير القانونية. فإذا كان وزيرا خارجية أو رئيسا دولتين يوقعان معاهدة سلام في مؤتمر صحفي فاخر، فإننا بالتأكيد كنا في بداية المسيرة التي وفرت حدوث هذه اللحظة. أو إذا أعلنت أي جماعة إرهابية بالنسبة إلى البعض وفدائية انفصالية بالنسبة إلى البعض الآخر أنها تخلت عن القتال المسلح الذي واصلته منذ خمسة وسبعين عامًا، فنحن كنا في بداية الطريق إلى هذا القرار. لقد كانت تبدأ كل اللقاءات معنا، كنا دائمًا نتخذ الخطوة الأولى، وعادةً ما تأتي أجهزة المخابرات بعد ذلك. وفوق كل ذلك، كنا نحن من قَدَّمَ خدمات المخابرات بعضنا إلى بعض. لأنه مُستَضِيفين، ربما لم نكن محايدين، ولكننا كنا في منطقة محايدة، حتى إننا كنا المنطقة المحايدة بلحمنا ودمنا، لدرجة أننا، كمناطق مُحايدة للسير والتحدث، كنا في خدمة جميع المرضى النفسيين ذوي الدم البارد، والمُختَلِّين العقليين ذوي الدم الحار في العالم.

في النهاية كنتُ أبيع السلام. كنت أحاول إقناع الناس أنه سيكون أكثر ربحًا لهم التصالح، أو عدم قتل بعضهم بعضًا. وكنتُ أحاول بكل الطرق من أجل هذا؛ بالتهديد، والابتزاز، والغش، والكذب، والافتراء، والرشوة، وكل ما يخطر على البال. كل ما يتطلبه الأمر لبدء حرب في هذا العالم، كنتُ أفعل الشيء نفسه لتحقيق السلام. نتيجة لذلك، كنتُ أشعر بالتحسن فقط في الغرف الزجاجية، حيث يُدَخِّنُ الأشخاص الذين لم أكن أعرفهم.

بينما كنتُ أدخن 15 إلى 20 سيجارة بشكل انفعالي في الوقت نفسه، رَنَّ هاتفي. المتصل كان مونيكا من لاجوس، سكرتيرة كالهون، رئيس مجلس إدارة المؤسسة القادم من إدنبرة؛ أي سكرتيرة مديري. بمجرد أن أجبتُ على الهاتف سألتها: «في أي يوم من أيام الأسبوع نحن؟»

- الثلاثاء.

منذ أن غادرتُ إسطنبول وأنا أتابع الزمن من خلال التواريخ فقط؛ فالأشخاص الذين يطلقون قذائف صاروخية بعضهم على بعض لم يكونوا مهتمين بأي يوم من أيام الأسبوع، لذلك لم أكن مهتمًّا أنا أيضًا، ولم يكن للمتحاربين ساعات عمل، لذلك لم يكن لديَّ أنا أيضًا.

- شكرًا مونيكا. نعم، أُنصِتُ إليكِ.

- لقد قرر كالهون وضع تقريرك الذي ستكتبه في بيان نهاية العام. وكما تعلم، يُنشَر البيان في النصف الثاني من شهر يناير.

قبل أربعة أيام انتُهِيَ من إنشاء أول مخيم حيث سيُحبَس المواطنون الألمان من أصل تركي قبل ترحيلهم، فكنتُ سأذهب إلى هناك وأجري تقييمًا من حيث الظروف المعيشية الإنسانية، ثم أكتب تقريرًا.

- في خلال أسبوعين يجب تسليم جميع النصوص. أيمكنكَ أن تُجَهِّزَه؟

في الواقع كانت مهمة المراقبة وإعداد التقارير هذه عملًا شاقًّا كُليًّا بالنسبة إلي. بالإضافة إلى هذا، كان لدي الكثير من المهام غير المكتملة التي يتوجَّب عليَّ إنجازها. ولكن ما دام الأتراك متورطين، فإنه من الطبيعي أن يُسنَدَ هذا الملف إلي.

فقلت: «بالتأكيد! يمكنني إرسالها الآن إذا أردتِ. لأنني سأكتب ذلك فقط في هذا التقرير: لقد جِئتُ ورأيتُ ثم تقيأت».

ضحكت مونيكا، وأخذتُ أنا نَفَسًا من الدخان الذي في الهواء. ثم أغلقت مونيكا الهاتف، وتخيلتُ أنا الدخان يخرج من أنفي.

لقد أرسلت الحكومة الفيدرالية الألمانية دعوة إلى المؤسسة الأولى للسلام العالمي، التي أوضحت أنها تؤمن بحيادها، من أجل إظهار مدى صحة الظروف المعيشية في المخيمات للرأي العام. لذلك عقدنا اجتماعًا مع كالهون، فكانت الخيارات أمام كالهون هي: إما أن يخاطر بأن يصبح جزءًا من أعمال العلاقات العامة للحكومة الفيدرالية الألمانية، وإما أنه لن يتمكن أي أحد من العالم الخارجي من رؤية هذه المخيمات، حيث سيُحبَس خمسة ملايين شخص بالتوالي. قال كالهون: «شخصٌ ما يتوجب عليه رؤية تلك المخيمات. اذهب وانظر، ثم دَوِّن ما تراه».

رن هاتفي مرة أخرى. كان المتصل يوسي من بيت لحم، مسؤول مؤسسة القدس. بمجرد أن أجبتُ على الهاتف سألتُ: «هل مُجَدَّدًا؟»

- نعم، للأسف.

- كم شخصًا؟

- لا أعرف العدد بالضبط، ولكن سبع عائلات. ربما من 50 إلى 60 شخصًا.

- أين؟

- قرية صغيرة قرب رام الله...

- القرية كلها؟

- أجل. أنا أيضًا عَلِمتُ هذا الصباح. لقد كانوا جميعًا مفقودين منذ أربعة أيام. البيوت فارغة بالكامل. لا أحد يعرف أين هم. ماذا نفعل؟

- حاول أن تجد هوياتهم. ضع قائمة بالمفقودين. يوسي، شخصٌ ما يتصل. نتحدث لاحقًا.

كان المتصل ماجالي من ليون، مسؤولة مكتب المؤسسة في باريس. بمجرد أن أجبتُ على الهاتف سألتُ: «هل وصلت المناجل؟»

- ماذا؟

- هل يجد الناس أكوامًا من المناجل في ساحات القرية عندما يستيقظون صباحًا؟

- لا أستطيع فهمك.

- هل يأتي أحد بالشاحنات ويترك مناجل في القرى؟

- هاااا... لا، ليس لدينا مثل هذه المعلومات في الوقت الحالي.

- جيد، إذن ما زال لدينا المزيد من الوقت.

- لا أعرف. برأيي إذا لم يتم التدخل في أقرب وقت ممكن فإنه سيكون مثل... ماذا كان؟ أعني، ذلك الشيء قبل سنوات...

- رواندا؟

- نعم، سيكون مثل رواندا تمامًا!

- لا تقلقي يا ماجالي. إذا لم تظهر المناجل بعد، فلن يذبح أحدٌ أيَّ شخص في توجو في الوقت الحالي. نتحدث لاحقًا، شخصٌ ما يتصل.

كان المتصل سعدي من إسطنبول. كان رئيس مكتب المؤسسة في أنقرة. بمجرد أن أجبتُ على الهاتف سألتُ: «هل انتهى الاجتماع؟»

- نعم.

- ما هو القرار؟

- لقد رفضوا الطعن.

- إذن سوف يتم الأمر، أليس كذلك؟

- بلى، حتى إنهم سيصدرون بيانًا بعد قليل.

- شخص ما يتصل يا سعدي، نتحدث لاحقًا.

لم يكن هناك مُتَّصل، لقد أغلقتُ الهاتف تمامًا. أخذتُ نفسًا من دخان السجائر الذي في الهواء وغرقتُ في التفكير. يجب أن أكون في إسطنبول في اليوم الأول من الألفية الجديدة، أي في الأول من يناير. قبل كل شيء كنتُ سأصوّت، لأن المحكمة الدستورية قد رفضت لتوِّها الطعن الذي قدَّمَه حزب المعارضة الرئيسي ضد قرار الاستفتاء العام للحكومة التركية. وبناءً على ذلك، سيتم إجراء استفتاء عام في تركيا في 1 من يناير، كما هو مخطط. كان التاريخ الذي أُختِيرَ مناسبًا جدًّا أيضًا لأمر الاستفتاء؛ فأول أيام عيد الأضحى المُبارك يتزامن مع رأس السنة. لذلك، ولأول مرة في تاريخ البلاد، سيُصوَّت في اليوم الثاني من العيد. كان التصويت في هذا الاستفتاء يُعد عبادة، بأخذ مضمونه بعين الاعتبار، وإن لم يكن بقدر التضحية. من ناحية أخرى، فإن الذين لن يحتفلوا بالعام الجديد وفقًا للتقويم المسيحي بصفتهم مسلمين كانوا لن يواجهوا صعوبة في النهوض من أَسِرَّتِهم والتصويت في 1 من يناير، وهو أمر مهم للعلاقات العامة على الأقل للتأكيد على هذه الحقيقة. لأنه في هذا الاستفتاء، سيُوجَّه سؤال واحد فقط إلى الشعب التركي: «هل الله موجود؟»

اتخذت الحكومة التركية قرار الاستفتاء قبل ثلاثة أشهر، فقام حزب المعارضة الرئيسي بتقديم طلب إلى المحكمة الدستورية على أساس أن طرح سؤال كهذا على الشعب يتعارض مع مبادئ العلمانية الموجودة في الدستور. وكانت المحكمة، التي أخَّرَت قرارها أشهُرًا، الذي كان من الممكن إصداره في غضون أيام قلائل، قد أعلنت للتو أنها رفضت الطعن. وهكذا، سيتم إجراء هذا الاستفتاء، وإذا وافق أكثر من 50 في المئة من الناخبين، فسيتم قبول «وجود الله» في نتيجة المسيرة الديمقراطية. بعد ذلك، وبطبيعة الحال، سيُطَبَّق في تركيا ما قاله الله فقط. ومع ذلك، لن تكفي قراءة القرآن

لمعرفة ما قاله الله، بل سيكون من الضروري الاستماع إلى الحكومة التي نظمت الاستفتاء، لأنه مع هذا الاستفتاء ستحتكر الحكومة سماع ما قاله الله. ومع أن جميع أنحاء العالم –وبالطبع داخل البلاد– لا يعرفون ما هي الاستراتيجية الشعبوية، ومع أنه يوجد مسلمون ردوا بعنف قائلين: «كيف تُشَكِّك في وجود الله؟» فإن هذا الاستفتاء كان خطوة أولى فعالة إلى أقصى حد، بل ومنطقية، نحو إنشاء جمهورية إسلامية. بناءً على هذا، لن تكون هناك حاجة إلى تغيير جذري في نظام الحكم من خلال قمع ملايين الأشخاص في الدولة –التي تدافع عن العلمانية– تحت تهديد السلاح، وستتقدم مسيرة التحول خطوة بخطوة من خلال سؤال الشعب. على الأرجح سيُجرى استفتاء عام مرة أخرى في غضون بضعة أشهر، وهذه المرة سيُسأل الشعب: «هل القرآن الكريم كلام الله؟» لذلك كان من المهم جدًّا أن يكون السؤال الأول الذي طُرِحَ على الشعب في هذه المرحلة بسيطًا وموحدًا. فما الذي يمكن أن يكون أكثر توحيدًا من سؤال حول وجود الله؟ كما إن الاستفتاءات كانت ممتازة من حيث خلق واقعية ساحرة؛ لأن كل اقتراح يحصل على عددٍ كافٍ من الأصوات يصبح حقيقة، فلم يكن هناك شيء لا يمكن القيام به عن طريق الاستفتاء؛ حيث يمكن تغيير تاريخ كامل، ويمكن إعادة كتابة قوانين الفيزياء، وحتى الكون الموازي يمكن أن يُنشأ ويعيش في هذا الكون. لذا فإن الوسيلة التي استخدمتها الحكومة التركية كانت بالتأكيد مناسبة للغرض. وبالتأكيد سيتم تأكيد وجود الله في هذا الاستفتاء. على كل حال، كانت تركيا دولة يُزعَمُ أن 99 في المئة من سكانها مسلمون. على الرغم من عدم وجود معلومة واحدة لإثبات هذا، فإنه يمكن فهم مصدر النسبة المئوية من خلال النظر إلى تاريخ نوادي الدراجات النارية.

بعد الحرب العالمية الثانية مباشرةً، نُظِّمَ سباق للدراجات النارية في مدينة هوليستر بولاية كاليفورنيا، فرأت الصحافة الأمريكية في ذلك الوقت أن هذه فرصة لزيادة مبيعات الصحف والمجلات؛ حيث يمكنهم تسويق شِجارٍ أو اثنين من تلك التي تندلع بعد السباق على أنها ثورة ضخمة واسعة النطاق، أو حتى سرد قصص مخيفة عن بلدة أمريكية بريئة استولى عليها راكبو دراجات نارية همجيون. وفعلوا ذلك بالفعل. وحتى المراسل الصحفي لم يكن كسولًا، فقد وضع زجاجات البيرة الفارغة التي جمعها من الشارع حول

دراجة نارية، وأجلس رجلًا ثملًا كان يمر في الطرقات، والتقط صورًا لهذا المشهد الذي قام بـ «فبركته». وعندما نُشرت إحدى هذه الصور في مجلة Life مع مقال يسيل لعابه من الفقرات، وُلِدَت «كليشيهات» السِّكِّير وراكب الدراجة النارية المتشرد. لقد كانت الصورة فَعَّالة للغاية، لدرجة أن اتحاد الدراجات النارية الأمريكية، الذي كان قلقًا بشأن انخفاض مبيعات الدراجات النارية، وجد الحل من خلال القيام بتصريح. ووفقًا لهذا التصريح، فإن واحدًا في المئة فقط من راكبي الدراجات النارية الذين كانوا موجودين هناك في نهاية هذا الأسبوع كانوا مسؤولين عن الأحداث في هوليستر. هذا التصريح الذي أدلى به في الأخبار الكاذبة بالتأكيد أغضب راكبي الدراجات النارية. بالإضافة إلى أن هذا الخطاب جعله عدوًّا من خلال خلق أقلية وهمية بنسبة واحد في المئة، مما زاد من غضب راكبي الدراجات النارية. حتى كانت هناك نوادي دراجات نارية تولت الأمر من أجل محو هذا الوصف الإقصائي الموجه ضدهم. واحتجاجًا على التفرقة العنصرية التي تعرضوا لها، بدؤوا في ارتداء رقعة 1% على سترات النادي الخاصة بهم. وهكذا، بمساعدة اتحاد الدراجات النارية الأمريكية، تم تعديل نسبة الخارجين عن القانون والمنبوذين في المجتمع: 1 في المئة.

السياسيون الذين ادَّعوا أن 99 في المئة من الشعب التركي مسلمون لا يختلفون عن مُديري اتحاد الدراجات النارية الأمريكية في ذلك الوقت. في النهاية حدد هؤلاء السياسيون نسبة غير المسلمين 1% فقط من سكان البلاد؛ لأنه في العقل الباطن لهؤلاء السياسيين ومؤيديهم كان غير المسلمين مثل راكبي الدراجات النارية مع رقعة 1%، خارجين عن القانون ومنبوذين. والدليل على ذلك هو صورة أخرى تم التقاطها بعد سنوات من أحداث هوليستر.

كانت هذه الأيام معروفة باسم أحداث غيزي في تاريخ تركيا، عندما انتشرت الاحتجاجات ضد حكومة تلك الفترة في جميع أنحاء البلاد. وعلى الرغم من اختلاف سبب خروج كل مشارك والشعار الذي رددوه، فإنه يمكن وصف أحداث غيزي باختصار على النحو التالي: إنه احتشاد ومسيرة تظاهرية استمرت أسابيع ضد قيود الحكومة التعسفية منذ سنوات على حرية الاحتشاد

والتظاهر، التي هي حق دستوري. وبالطبع تم حظر هذا الاحتشاد والتظاهر بشكل تعسفي من قبل الحكومة، وحاولت الشرطة قمعه بعنف غير مناسب؛ لأن الاحتجاج من أجل الحصول على حق الاحتجاج أمر غير مقبول أيضًا! ومع ذلك، كان من المهم أيضًا أن توضح الحكومة لِنَاخِبِيها أن المتظاهرين يستحقون العنف الشديد الذي يُمارَس عليهم. فعلى كل حال، لم يرغبوا في أن يُنظَرَ إليهم على أنهم نادٍ للساديين.

في هذه المرحلة ظهرت صورة؛ صورة تم التقاطها للادعاء أن المُحتَجِّين لن يكونوا مسلمين أبدًا، أو حتى يكرهون المسلمين بقدر ما يكرهون رابطة الدفاع الإنجليزية. في اليوم التالي، وُضِعَ صندوق بيرة فارغ على أرضية مسجد في إسطنبول، حيث احتمى الناشطون السياسيون الفارُّون من الشرطة بعض الوقت، وتم التقاط الصورة، حيث كانت هذه الساحة تخدمها وكالة الأنباء الرسمية في البلاد. وكما كان مُوَضَّحًا في الصورة، فإن المتظاهرين الذين أمضوا بضع ساعات في ذلك المسجد، وبالتالي الملايين من الناس الذين نزلوا إلى الشوارع، كانوا مُعادين للدين مثل مُعجَبِي بلاك ميتال، الذين أحرقوا الكنيسة منذ وقت بعيد. وإذا كان هناك أحد لا يُصدق، فيمكنه الاستماع إلى مسؤولي الحكومة الذين أدلوا ببيان رسمي مع تلك الصورة في أيديهم.

هذا يعني أنه بصرف النظر عن التاريخ الذي يُظهره التقويم، يمكن للصور الـ «مُفَبرَكة» بعلب أو زجاجات بيرة فارغة سواء في هوليستر أو إسطنبول أن تعمل دائمًا في تكوين أقليات من 1 في المئة وإعلان عداوتهم. وفي ضوء كل هذا، لا يبدو غير منطقي أن نفترض أنه إذا كان 99 في المئة من سكان تركيا مسلمين، فإن واحدًا في المئة منهم عبارة عن عصابة دراجات نارية سارقة.

الآن أفكر في الأمر. إذا تم الإصرار على صورة صندوق البيرة الفارغ في المسجد والدراسات الدعائية اللاحقة ذات المحتوى المماثل في تلك السنوات، فمن الممكن أن تكون أحداث غيزي قد دخلت في تاريخ البشرية باعتبارها أعظم شعائر عبدة الشيطان، ولكن ذلك لم يحدث. بالطبع كانت هذه هي الحقيقة، فيجب أن تكون الإدارات اللاحقة قد وجدت مثل هذا النهج بعيدًا عن الإلزامية والمصداقية، حيث دخلت أحداث غيزي في التاريخ الرسمي للبلاد

على النحو التالي: أكبر حركة إرهابية في العالم. وعلى كل حال، لم يكن أحد ليصدق أن هناك الملايين من عبدة الشيطان أو أعداء الإسلام في تركيا. ولكن لا أحد يستطيع أن ينكر حقيقة وجود ملايين الإرهابيين في البلاد؛ لأنه من غير القانوني منذ فترة طويلة إنكار هذا.

أخذتُ نفسًا أخيرًا من دخان السجائر في الهواء وغادرتُ الغرفة الزجاجية، ثم مشيتُ نحو بوابة الصعود إلى الطائرة مع رائحة تبغ كثيفة على ملابسي.

أوقفتني امرأة عجوز تحمل كاميرا في يدها، وسألتني بالإنجليزية بدهشة كبيرة: «هل أنت على قيد الحياة؟»

قلت: «لا». وواصلتُ المشي. بعد فترة ظهرت المرأة أمامي مرة أخرى، وهذه المرة كان في يدها منديل وقلم.

- هل يمكنني أن أحصل على توقيع؟

قلت: «أنا لَستُ هو».

قالت: «بلى، أنت هو!»

هذه المرة كَذبتُ وقلت: «نعم، أنا هو. ولكن لا تخبري أحدًا».

- أنت لم تَمُت؟

وضعتُ إصبع السبابة على شفتي.

- ششششش!

إذا كان بإمكاني كنتُ غمزت، ولكن ذلك لم يكن ممكنًا طِبِّيًّا بعد.

اللغم وزرا

يوجد بعض الرجال على بعض خطوط عرض وطول هذه الأرض يتغذون على لحوم النساء. حتى إن هؤلاء الرجال يجعلون بعض النساء يمضغن لحم النساء، تمامًا مثل إطعام الدجاجِ الدجاجَ. ومثل معظم الأماكن التي وُلِدَ فيها الذين لجؤوا إلى مخيم الأمان، كانت بالاز على أحد خطوط الطول والعرض هذه، بل ربما كانت بالاز أسوأ؛ فإذا تم تناول لحم امرأة مرة واحدة في الأسبوع على الجانب السوري من الحدود، فقد يصل هذا إلى ثلاث وجبات في اليوم في بالاز، حيث كانت تقرر العائلات من ستتزوج بمن بناءً على المفاوضات. لذلك، لم تتزوج أي امرأة بالرجل الذي وقعت في غرامه، وكانت تعلم أنه إذا تم اكتشاف أنها تجاوزت التفكير في الأمر مع الرجل الذي تحبه، أو أنها تعرضت للاغتصاب من قبل أي رجل، فسوف تُقتَلُ على الفور. نتيجة لذلك، لم يكن من الممكن للنساء في بالاز أن يُولَدنَ ويَلِدنَ ويَمُتنَ إلا بموافقة عائلاتهن. بسبب هذا القانون الفيزيائي، كانت هناك شابَّات أخفين حملهن في الملابس الواسعة شهورًا، ثم أنجبن أطفالهن بأنفسهن في حقل منعزل. ويتغير المكان الذي تركن فيه أطفالهن على الحالة المزاجية التي كُنَّ فيها في تلك اللحظة. كانت بعضهن خائفات جدًّا من القتل، لدرجة أنهن ارتكبن جريمة قتل. لقد كُنَّ يغلقن أعينهن حتى لا يرين وجه الشخص الذي وَلَدنَهُ قبل ثلاث دقائق، ثم يضعن الرضيع في جِوَال من البطاطس أحضرنه معهن، ويرمين الرضيع في قناة المياه الموجودة خارج القرية. أما بعضهن، فتلتقي أعينهن أعين الرضيع، وفي تلك اللحظة كانت تقمع صرخة ضمائرهن خوفهن من الموت؛ فكن يعبرن قناة المياه، ويَسِرنَ باتجاه أشجار الحور على الطريق الرئيسي، حيث تقوم قوات الدرك بدوريات ثلاث مرات يوميًّا، تاركين الرضيع في أول

ظل يرينه، ويقمن بالدعاء حتى يتم العثور عليه قبل أن يموت. في الواقع كان يتم العثور على هؤلاء الرُّضَّع من قِبَلِ جنود الدرك وهم لا يزالون على قيد الحياة؛ لأن تلك الشابات كُنَّ يتابعن ساعات الدورية أفضل من المُهَرِّبين. لم يكن يُبحَثُ عن هوية أمهات هؤلاء الرُّضَّعِ الذين تم العثور عليهم أكثر من نصف يوم؛ حيث كان في مصلحة الجميع أن يبقى الطفل اليتيم يتيمًا. وهكذا، كما يُقال في بالاز وضواحيها، لم يكن أحدٌ يُضطرٌّ إلى التعفن في السجن من أجل زانية. وأيضًا كان هناك بالطبع نساء تم القبض عليهن متلبسات في أثناء تركهن أو قتلهن أطفالهن. ولكن، كان هذا نادرًا جدًّا، ربما مرة كل 10 سنوات. كانت زرا تبلغ من العمر 10 سنوات عندما رأت من بعيد شابة مثل تلك الشابات. كان اسم المرأة حليمة. علمت زرا في ذلك اليوم أن والدة رضيع ما يمكن أن تتخلى عنه.

جاءت حليمة البالغة من العمر 17 عامًا إلى بالاز من قرية بعيدة، وبمجرد وصولها اغتصبها ابن زوجها المشلول البالغ من العمر 81 عامًا وحملت منه. ونظرًا إلى أنها مُنِعَت من مغادرة المنزل، لم تستطع التعرف على البيئة المُحيطة بشكلٍ كافٍ، واختارت المكان الخطأ الذي ستضع فيه الرضيع سِرًّا. لقد هربت من المنزل قبل صلاة الفجر، وسارت حتى اعتقدت أنها ابتعدت بما يكفي عن القرية، وجثمت على أرضٍ اعتقدت أنها حقل، ثم تجردت من ملابسها الواسعة ووضعت. كان غير معروف ما إذا كانت تريد قتل طفلها، ومع ذلك، مهما كان ما تفكر فيه، فقد قطعت الحبل السري أولًا بسكين خبز، ثم تركت الطفل العاري حيث ولدته وبدأت في المشي. وبعد خمسين خطوة، داست لغمَ M14 أمريكي الصنع. بعد فترة وجيزة سمع أهل بالاز الانفجار، فجاؤوا ورأوا الرضيع يبكي أولًا، ثم حليمة المُلقاة على الأرض وساقها اليُسرى على وشك الانقطاع. بالطبع لم يفكر أيٌّ منهم في دخول حقل الألغام الذي يفصل بين تركيا وسوريا لإنقاذ حليمة أو الرضيع. بمُعجِزَة تمكنت حليمة من التقدم في هذا الحقل دون أن تدوس لغمًا، ولكن المعجزة انتهت بولادة الرضيع. زرا البالغة من العمر 10 سنوات، التي أخذت مكانها بين الناظرين إلى حليمة من بعيد، شهدت وسمعت بالضبط ذلك في هذا اليوم:

وقف ابن زوج حليمة الذي اغتصبها مع أقاربه كتفًا بكتف يقفزون ويصرخون على الشابة. الرجال يسُبُّون ويتوعدون، والنساء يدعون عليها. وعلى الرغم من غضبهم، لم يتمكن أيٌّ منهم من الاقتراب من حليمة بسبب وجود عشرات الألغام بينهم، فإن بعض الأقارب الذكور الشباب اندفعوا إلى الحقل مثل الكلاب الوحشية، ولكن في اللحظة الأخيرة أمسك الكبار بأذرعهم الهزيلة التي تشبه طوق الكلب وسحبوهم، والأطفال كان لا يستقر ليهم ريق. لم تتحرك حليمة منذ الانفجار، فقط حاولت الوقوف برهة، ولكنها فشلت. بعد فترة، أشعلت الشرارات الخارجة من أفواه الأقارب النار في الضمائر الجافة المُحيطة، واندلع حريق من الكراهية، فأصبح الذين لا تربطهم صلة قرابة بحليمة يصرخون عليها. وعندما بدأ السباب والوعيد والدعاء بالشر يتعالى إلى السماء مثل دخان شديد السواد، تحركت حليمة. في أثناء استلقائها على ظهرها، استندت على كوعها الأيسر ثم كفها اليسرى، فأبعدت كتفها اليسرى عن الأرض. هذه المرة لم تكن تحاول الوقوف. لقد توازنت على الجانب الأيمن من جسدها. ثم وضعت كل ثقلها على صدرها وأسقطت نفسها على وجهها. وبعد أن التقطت بعض الأنفاس، استندت على يدها اليمنى وقدمها اليمنى وأبعدت صدرها عن الأرض واستدارت، ثم أسقطت نفسها على ظهرها. لقد كانت حليمة تتدحرج. كانت تتدحرج ببطء وبالتناوب في حقل ألغام أمام أعين الجميع. وفي كل دحرجة كانت تبتعد نصف خطوة عن طفلها، الذي كان على بعد خمسين خطوة. كلما تتدحرج تستمر الدنيا في الدوران، أما الشتائم والتهديدات والدعاء بالشر، فقد انقطعت واحدًا تلو الآخر، وخمد اللهيب في الهواء وأصبح كامنًا داخل الأقارب وأهل بالاز الآخرين. في كل مرة تُسقِطُ فيها حليمة ظهرها أو صدرها على الأرض، كانت تُحبَس الأنفاسُ في قلق مُنتَظِرَة الانفجار الوشيك. لقد كانت حليمة تحاول الانتحار باللغم لأن سكين الخبز الذي استخدمته لقطع الحبل السري لطفلها قفز من يدها. حتى الرضيع توقف عن البكاء. كان يُراقب الانتحار في صمت. كانت كلمات حليمة التي أفسدت الصمت كالرعد، فلقد أخذت استراحة من التدحرج حتى ترتاح. عندئذٍ صرخت أنها تعرضت للاغتصاب، وأن ابن زوجها هو من فعل تلك الفعلة. نظر أهل بالاز على الفور بعضهم إلى بعض. وبينما كانوا يتحدثون جميعًا في الوقت نفسه، اختلطت أصواتهم: «ماذا؟»

- ماذا قالت هذه؟

- هل سمعت؟

- لم أسمع.

- أيها الناس، ماذا ستقول؟

- إنها تنطق الشهادة!

في تلك اللحظة، أرادت زرا أن تكرر ما قالته بصوتٍ عالٍ، مُعتَقِدةً أن الناس من حولها لم يسمعوا حليمة حقًّا، ولكن والدتها غطت فمها بيدها عند الكلمة الأولى. ولم تتكلم حليمة مرة أخرى مثل زرا، واستمرت في التدحرج. وأخيرًا حدث ما كان من المنتظر أن يحدث. في المرة الأخيرة أسقطت بشكل عنيف وجهها على الأرض، فصادف صدرها لغمًا. تحطم قلب حليمة، واختفى جسدها وسط سحابة من الغبار.

كان الرضيع أكثر حَظًّا. ليس لأن قوات الدرك أنقذته بعد ساعات قليلة، بل لأنه لم يُسلَّم إلى أقارب زوج حليمة.

بعد سنوات قالت مُوَلِّدَة قرية بالاز ديلي فيري: «الجميع نسي حليمة، ما عدا زرا، لم تستطع النسيان». وفي ذلك اليوم قالت والدتها شيئًا، كانت تقوله عنها دائمًا. قالت: «زوجة غبية. ألا تستطيع إيجاد مكان آخر لتترك فيه طفلها؟»

ربما لهذا السبب أصرت زرا على ترك طفلها في مخيم الأمان. فوَطَّدَت كلمات أمها هذه إعجابها بالمخيم. وهكذا، لم يكن ليقول أي رجل أو امرأة تمضغ لحم امرأة لزرا: «زوجة غبية! ألا تستطيع إيجاد مكان آخر لتترك فيه طفلها؟»

تشاجرت زرا مع رائف عدة مرات على مدار شهرين. ومع كل شجار كانت نظراتهما تطول أكثر. وأخيرًا، في صباح أحد أيام العيد، اختبآ بين الحشد في ساحة القرية، ووقفا بعضهما وراء بعض. قَبَّلَت زرا يد خالتها، ثم أدارت رأسها قليلًا.

- هرِّبْني.

قال رائف: «ولكنكِ حامل!» تحدث من فوق كتفها، ثم انحنى وقبل يد عمه الكبير.

- سنتدبر الأمر.

تساءل رائف: «كيف؟» من ناحية أخرى كان يُخرِجُ العملات المعدنية من جيبه ليُعطيها الطفل الصغير الذي كان يُقَبِّلُ يده.

- سألد، وأنت ستترك الطفل في مخيم الأمان. بعدها سنذهب إلى إسطنبول. نتزوج هناك ثم ننجب طفلًا آخر.

لم يُجب رائف، لأنه في ذلك الوقت كان يتبادل المُعايَدَة مع زوج زرا. لقد كانا قريبين في العمر، لذا لم يُقَبِّل أيٌّ منهما يد الآخر. لمَّا ابتعد الرجل همس رائف: «حسنًا».

بعد تقبيل عدد قليل من الأيدي، اتبعت زرا زوجها. استدار رائف ونظر إلى خلفه في المكان الذي كانت به، ولكنه لم يستطع رؤية وجه الفتاة. في الواقع لم يستطع أن يراه أحد، لأن زرا كانت قد أحنَت رأسها منذ زمن. توقفت عندما توقف زوجها بعد خطوات قليلة.

- بماذا كُنتِ تتحدثين يا هذه مع ذلك الوغد رائف؟

كان رائف يستطيع سماعه، ولكنه لم يستطع الاقتراب من زوج زرا، لأن الرجل الذي كان حارس القرية السابق كان يحمل رَشَّاشًا من طراز AK-47 على كتفه.

- ها؟ عن ماذا تتحدث؟ ماذا؟

كانت زرا على وشك الإجابة، حتى نزلت صفعة على وجهها، ثم ركلها زوجها في ساقها، ثم لكمها في ظهرها. ومع كل ضربة يخرج صوت مبحوح ومُختَنِق. إنه مثل ضرب وسادة. سقطت زرا على الأرض. عندئذٍ توقف الناس الذين كانوا يتبادلون المُعايدة وبدؤوا مشاهدتهما. أمسك زوج زرا بها من شعرها وأوقفها، ثم صفعها مرة أخرى، فسقطت زرا مرة أخرى. ولكن هذه المرة لم يوقفها زوجها، لقد علق البندقية -التي انزلقت حتى مرفقه- على كتفه مرة أخرى وابتعد. أما زرا، التي وضعت يديها على الأرض ووقفت بصعوبة، فنظرت أولًا إلى رائف، ثم إلى الحشد في الساحة وهي تزيل الأشواك

العالقة في كَفَّيها. لقد أطالت النظر لدرجة أن تلاقت عيناها وأعينهم جميعًا في الوقت نفسه. أدار رائف والذين في الساحة ظهورهم إلى زرا وكأن بينهم وبينها حقل ألغام، ثم واصلوا تبادل المُعايَدة. ربما غَيَّرَت زرا قرارها في تلك اللحظة، حيث استدارت وبدأت في اللحاق بزوجها. لقد كان يعرج قليلًا. وربما غيرت قرارها وهي تمشي ببطء، وربما في أثناء استمرار تعرضها للضرب في المنزل، وربما في أثناء التحديق إلى السقف وبكائها في صمت حتى الصباح. وربما في اليوم التالي، في أثناء التفكير مرارًا وتكرارًا في تلك اللحظة التي دخلت فيها حليمة حقل الألغام، وربما أيضًا بعد أسبوع. لا يُعرَفُ بالضبط في أي لحظة، ولكن زرا غيرت رأيها. لقد وجدت طريقة أخرى للنجاة من كونها أسيرة رجل، وبهذه الطريقة لم تكن هناك حاجة إلى الهروب إلى إسطنبول مع رائف كما أخبرته، وأن تكون أسيرة رجل آخر. سيعلم أهل بالاز قريبًا الطريق الذي اختارته زرا، وسيموت البعض عند معرفتهم هذا.

وبهذا الخصوص، قال رائف بعد سنوات: «والله، لم أكن أعرف ما الذي ستفعله زرا! أقسم إنني لم أكن أعرف!»

24 من ديسمبر

مساءً

كنتُ أسير في سوق الكريسماس في فرايبورغ. هؤلاء الذين اجتمعوا أمام الأكشاك التي تبيع زينة عيد الميلاد الملونة كانوا يقومون بآخر تسوق لهم. كنتُ متأكدًا من عدم وجود مكان للزينة الجديدة على أشجار الصنوبر في المنزل، ولكنهم ما زالوا يريدون شراء كل شيء لامع. هؤلاء الذين حاولوا ابتلاع اللوز المحمص المسكر الموجود في أفواههم لم يلاحظوا أن النبيذ الساخن في يدهم الأخرى كان ينسكب على الأرض بينما كانوا يمدون أيديهم بحرص فوق أكتاف الذين أمامهم لدفع المال إلى البائعين. كانوا جميعًا سعداء، على الرغم من أن بعضهم سيعود قريبًا إلى المنزل ويكتشف أنهم اشتروا الزينة نفسها قبل بضع سنوات. على الأقل كانوا يبذلون قصارى جهدهم ليبدوا هكذا. بصعوبة مررتُ عبر الزحام وخرجتُ من السوق، فمشيتُ نحو الكاتدرائية، حيث سيُقام قُدَّاس عيد الميلاد. أولئك الذين سحقوا بعضهم بعضًا في أثناء التسوق كانوا الآن في طابور عند باب ذلك المعبد التاريخي، حيث كانوا ينتظرون الدخول في صمت. وكان هناك شخص آخر هادئٌ مثلهم، امرأة شابة سمراء تقف بجانب الطابور وتحمل لافتةً في يدها. كُتِبَ على اللافتة: «لقد طردتموني من منزلي! عيد ميلاد سعيدًا!»

بمجرد دخولي إلى غرفة الفندق، أخذتُ واحدة من أوراق الرسائل الموضوعة على المكتب وكتبتُ عليها «توجو» بالقلم الرصاص الموضوع بجانبها. لقد كان عليَّ أن ألتقي الجنرال دادجو من أجل منع الحرب الأهلية التي كانت على وشك أن تبدأ في أي لحظة. في صباح اليوم التالي، كنتُ

ذاهبًا لرؤية المخيم خارج المدينة. حيث أطلقت الحكومة الألمانية على تلك المخيمات اسم «Treffpunkt»، والكلمة تعني «نقطة التقاء»، فقد تمكنوا منذ الآن من السخرية من الذين سيبقون هناك في المستقبل. لم أكن أعرف كم من الوقت سيستغرق عملي هناك، لذا قررتُ أن ألتقي الجنرال في اليوم التالي، وبدأتُ أتجول في الغرفة. كنتُ أفكر في الطريقة التي سأطبقها لحل الملف، وكنتُ أُدوِّن ملاحظات عَمَّا يخطر ببالي. كمُضيفين، اعتدنا أن نطلق على هذا العمل إعداد سيناريو السلام. لم يكن أمامنا شاشات عملاقة في غرف العمليات، مثل الضباط الذين يُعِدُّون سيناريوهات الحرب، أو الذين يطورون تكتيكات النزاع، يكفي استخدام ورقة وقلم رصاص. ولكن مثلهم، كنا نضع خططنا بناءً على معلومات استخبارية. كانت تأتي هذه المعلومات من شبكة علاقات متشابكة على مر السنين، وبالطبع من الـ «هاكر». كنتُ أطلق لقب الصياد على هؤلاء الأشخاص، الذين كانوا مهووسين بالجلوس أمام الكمبيوتر مدة 48 ساعة لمُطاردة كلمة مرور، لأنهم جميعًا كان لديهم صبر صياد، وبالطبع حرص القبطان آهاب.

بعد مشي نحو عشر دقائق، كتبتُ الكلمات التالية على الورقة التي في يدي:

اثنتا عشرة عائلة

نيزك

توقيع

ابتزاز

يمكنني التوقف الآن، لأنني وجدتُ الطريقة التي سأطبقها. وضعتُ الورقة على السرير ثم أخذتُ واحدة أخرى وكتبتُ عليها «إنجلترا»، وفي تلك اللحظة طُرِقَ الباب. فتحت، ثم دخل صبرا وشاتيلا. لقد كانت هناك أريكة كبيرة في غرفة الجناح، أشرتُ إليهما أن يجلسا. نَظَرتُ أولًا إلى الورقة التي في يدي، ثم إلى الأخوين الفلسطينيين. فَكَّرتُ كيف هما متشابهان. كان شعرهما، لحيتاهما، ونظراتهما، وحتى جلوسهما متماثلًا. لقد شَكَكتُ بالفعل أنهما توأمان منذ اليوم الذي التقينا فيه، ولكنني لم أسألهما عن ذلك بعد؛ لأنه كلما

اجتمعنا معًا أُفاجَأ أولًا بتشابههما، ثم أنسى الأمر وأبدأ في التفكير في أشياء أخرى. كما هي الحال الآن.

سألتُ قائلًا: «ماذا أفعل الآن؟»

كان صبرا هو من تحدث أولًا. قال: «أنتَ تُعطي الملفات الأولوية».

- نعم. (أُظهِرُ الورقة التي على السرير). توجو هي الأكثر عجلة.

- نعم، ماذا بعد؟

أقدَمَ صبرا مرة أخرى: «أنتَ تكتب سيناريو السلام».

قلت: «نعم». ثم أظهرتُ كلمة إنجلترا المكتوبة على الورقة في يدي. «حدث شيءٌ ما هنا قبل عامين».

كان عليهما أن يخمنا ما قصدته. خَيَّمَ صمتٌ هنيهة، وفجأةً اتسعت عينا شاتيلا.

- ثورة الأقليات!

واصل صبرا الحديث عندما رآني أهز رأسي. نظر إلى أخيه وقال: «كان الأمر يتعلق بطلبات التوظيف؛ بخصوص العنصرية في طلبات التوظيف. حتى إنه كانت هناك امرأة باكستانية، أليس كذلك؟»

أجاب شاتيلا على الفور: «نعم، بدأ كل شيء معها. كانت امرأة باكستانية تُجري مقابلة عمل للتوظيف في مكتب البريد، وكان أمامها رجل إنجليزي أبيض. تلك المرأة... أسقطت قلمها».

تذكر صبرا ذلك المشهد أيضًا.

- كانا يجلسان بعضهما مقابل بعض، وتوجد طاولة بينهما، ثم يتدحرج القلم تحت الطاولة. في الطبيعي، كان يجب على الرجل الإنجليزي النهوض والتقاط ذلك القلم...

أكمل شاتيلا: «فتصرفت المرأة الباكستانية أولًا، حيث انحنت وحاولت التقاط القلم. بالطبع لم تكن ترى ما يفعله الإنجليزي في ذلك الوقت، نظرًا إلى أنها كانت منبسطة تحت الطاولة».

سمحتُ لهما بقص كل هذا لأنني في الحقيقة كنتُ مشغولًا للغاية بالتفكير في ملف توجو. لذا كان بإمكاني سماعهما، ولكني لم أستمع. ظل الشقيقان يُذَكِّرَان بعضهما بعضًا بلقطات الكاميرا تلك التي شاهدها العالم بأسره قبل عامين. فجاء دور صبرا للتحدث: «ثم يُسقِطُ الإنجليزي فنجان الشاي الموضوع على الطاولة. ولكنه يفعل ذلك عن عمد! المرأة الباكستانية منبسطة تحت الطاولة، فتعتقد أنها حَرَّكَت الطاولة وسقطت الكأس بسببها، ثم تُصابُ بالذعر وتبدأ في التنظيف».

قال شاتيلا: «انتظر! لقد نسيتَ شيئًا... تظاهرت امرأة إنجليزية بأن الشاي قد سُكِبَ على يدها، وأخذت تصرخ وكأن يدها احترقت. وكلما تصرخ يزداد خوف الباكستانية. أرادت النظر إلى يد الإنجليزية من أجل المُساعدة، ولكن الإنجليزية سحبت يدها ودفعت الباكستانية باليد الأخرى. في تلك الأثناء تدخل رجلٌ ما، كان يمشي وكأنه يُهاجم الإنجليزية، ولكنه هاجم الباكستانية...».

قال صبرا: «بالطبع. وبعد كل هذا قالوا في الأخبار إنه هجومًا إرهابيًّا؟ حتى إنهم قالوا إنها مسلمة حاولت حرق موظف مكتب البريد بسائل ما غير معروف، واعتقلوا المرأة!»

قاطع شاتيلا أخاه: «ثم ظهرت لقطات الكاميرا، وفهم الجميع من هو المذنب. وأُطلِقَ سراح الباكستانية. بعدها انتظرت جميع الأقليات فتح تحقيق ضد تلك المرأة الإنجليزية، ولكن لم يحدث شيء. حتى مكتب البريد، والشرطة، والنائب العام، قالوا الشيء نفسه. قالوا حدث سوء تفاهم. وبدلًا من التحقيق مع تلك المرأة، حققوا مع من سَرَّب اللقطات».

هذه المرة قاطع صبرا شقيقه: «لقد كان إنجليزيًّا أبيض أيضًا. كان شابًّا. هل تذكره؟ ثم طردوه من العمل. بالطبع حدث كل هذا في غضون أسبوع أو شيء من هذا القبيل. لم يستطع الناس التحمل، فخرجت جميع الأقليات إلى الشوارع في جميع أنحاء إنجلترا، وكأنهم تواصلوا في اللحظة نفسها! كل من لن يجتمع أبدًا في الطبيعي: الكاريبيون مع الآسيويين، والهنود مع الباكستانيين، خرجوا جميعًا إلى الشوارع للاحتجاج».

قال شاتيلا: «برأيي، هذا ما أخافَ الحكومة حقًّا. تجمع جميع الأقليات؛ لهذا منعوا الاحتجاجات. ولكن لم يعد أحد إلى المنزل. ثم اندلعت الاشتباكات. هل تتذكر؟ كانوا يُلقون فناجين الشاي على الشرطة، وكانوا يلقون الصحون».

قال صبرا: «بالطبع، هناك حتى تلك الصورة الشهيرة! فرَّقَت الشرطة المتظاهرين، وأصبح شارع بيكاديلي خاويًا على عروشه. لم يكن به شخص واحد فقط، ولكن الميدان بأكمله كان ملآن بالفناجين المكسورة والصحون المُهَشَّمة، لدرجة أنكَ لا تستطيع رؤية الأرض. المكان كله مغطى بتلك القطع الملونة المكسورة».

تدخل شاتيلا في الكلام قائلًا: «حتى إن رئيس وزراء الهند أظهر تلك الصورة في الجمعية العامة للأمم المتحدة وقال: «إنجلترا المُحطمة»».

قال صبرا: «لا، لقد كان رئيس وزراء باكستان هو من أظهر الصورة، وقال ذلك: «إذا كان طقم الشاي يعني إنجلترا، فهذه هي نهاية إنجلترا!»».

تساءلتُ قائلًا: «ثم اتخذت الحكومة قرارًا... ما هو؟» فاستجمعا نفسيهما بتَدَخُّلي، لأنهما نسيا لحظات أنني كنتُ هنا. لقد انتهت الاستراحة. ابتلع صبرا ريقه وتحدث مثل طالبٍ في امتحان شفهي.

- اعتَقَدَ الجميع أنه سيتم اتخاذ التدابير ضد العنصرية، حتى الإنجليز البيض اعتقدوا ذلك. ولكن الحكومة فعلت العكس تمامًا. لقد بدؤوا مشروعًا تحت اسم «مثالية إنجلترا». وقد سرقوا هذا الاسم من كتاب إدوارد كاربنتر. هل يمكنك أن تتخيل؟ من كتاب شاعر إنساني مثل كاربنتر! من الراجح أن الرجل قد انقلب رأسًا على عقب في قبره!»

سألتُ شاتيلا قائلًا: «ماذا كان ذلك المشروع؟»

- إنهم يُجَدْوِلون جميع الأقليات في بريطانيا، ثم يفحصون القيم الاجتماعية الاقتصادية والثقافية التي يُضيفها كُلٌّ منهم إلى المجتمع، وبناءً على ذلك، فإنهم يعطون تلك الأقلية نقطة. يُطلَقُ على هذا مؤشر المنفعة. ثم ينظرون إلى مؤشر المنفعة للأقلية ويحسبون النسبة التي يجب أن تكون عليها من إجمالي السكان. أي إنه يتم تحديد حصة سكانية لكل أقلية.

تساءلتُ وأنا أنظر إلى صبرا: «من الذي يحدد مؤشرات المنفعة هذه؟»

- لقد شَكَّلوا لجنة. إنها لجنة من علماء الاجتماع وعلم النفس والأنثروبولوجيا، والفنانين، والاقتصاديين، وغيرهم. حتى إنه كان هناك فلاسفة.

وأضاف شاتيلا: «كان هناك أيضًا ممثل واحد من جميع الأقليات، حتى إن واحدًا منهم تعرض للطعن لانضمامه إلى تلك اللجنة. في الغالب شقيقه هو من طعنه أيضًا».

ثم صمتنا ثلاثتنا. أو إنهما التزما الصمت لأنني لم أتحدث. فكرتُ بضع ثوانٍ في توجو، ثم تحدثتُ: «كانت اللجنة تُعِدُّ ذلك التقرير منذ عام. لقد قدَّموه إلى الحكومة الأسبوع الماضي. حسنًا، ماذا سيحدث الآن؟»

كنتُ أوجه سؤالي إلى صبرا.

- سيعلنون عن ذلك التقرير للشعب أولًا. وبعد ذلك سيطبقون تحديد السكان على الأقليات وفقًا للحصص.

قلت: «نعم، حتى جريس».

بالطبع لم يكونا يعرفان من هو.

- استطاع مسؤول مكتب لندن الوصول إلى تلك الأرقام التي ستعلن عنها الحكومة بفضل علاقاته الشخصية. ولكننا وجدنا أن هناك مشكلة؛ لأنهم جميعًا أقل مما ينبغي أن يكونوا عليه. فبالطبع ساورتنا الشكوك. ثم نجح جريس في القيام بمهمة أخرى في غاية الأهمية؛ لقد استحوذ على النسخة الأصلية من تقرير اللجنة. واتضح هذا: لقد لعبت الحكومة في الأرقام التي حددتها اللجنة، حيث خفضوا جميع النقاط. وفي غضون أيام قليلة، سيعلنون للشعب هذه الأرقام المزيفة.

تساءل شاتيلا قائلًا: «ولكن لماذا؟ لقد قاموا بالفعل بما يريدون. لقد أغلقوا بالفعل حدودهم في وجه المهاجرين منذ وقت طويل، كما إنهم سيخططون للبنية السكانية كما يحلو لهم!»

فأجابه أخوه: «ألا تعرف السبب؟ لأنهم يريدون عددًا من البنجلاديشيين في إنجلترا فقط حسب حاجة البلاد إلى عمال النظافة. أو حسب عدد صالات

التدليك، يريدون فيتناميين يكفون للعمل هناك! أو عددًا من الباكستانيين حسب الحاجة إلى سائقي التاكسي. لا أكثر! لذلك حتى الأرقام الواردة في ذلك التقرير كانت كبيرة جدًّا بالنسبة إليهم!»

كان صبرا غاضبًا جدًّا، لدرجة أنه لم يستطع إيقاف نفسه. كان يمكنني أن أفهمه لأن هذا ما كنتُ عليه من قبل، لهذا السبب لم أقاطعه.

- أنا متأكد من أنهم كانوا يفكرون بهذه الطريقة في أثناء تخفيضهم من نقاط بعض الأقليات. قالوا يكفي أن تكون أجنبيًّا! لنترك عشرة آلاف مالي، أو خمسة آلاف كونغولي هنا... فهم من ناحية يضربون الطبول ويرقصون في الشوارع، وبهذا الشكل يضيفون لونًا إلى حياتنا اليومية، وأيضًا عندما نريد شيئًا مختلفًا نختار واحدًا منهم ونقيم معه علاقة. برأيي هذا بالضبط ما حدث. إنهم في الواقع يبنون حديقة حيوانات! أي حيوان نأخذه؟ وكم عدد الحيوانات التي يجب أن نضعها في أي قفص؟ كانوا يقررون بناءً على هذا!

قلت: «في الواقع الحكومة تراه أكثر من كونه تصميم حديقة. فكما تعلمان، الحدائق الإنجليزية مشهورة، فما يجب زرعه وأين يجب زرعه والكمية التي يجب زراعتها هي أمور مهمة جدًّا».

قال صبرا: «صحيح! لأنهم حتى لا يرون تلك الأقليات حيوانات، يرونهم نباتًا!»

تساءل شاتيلا: «حسنًا، هل سيقومون بترحيل كل هؤلاء الناس الآن؟ مثلما فعل الألمان؟»

قلت: «لا، هؤلاء إنجليز... سوف ينتظرون موتهم. من ناحية سيقومون بتقييد مثل تطبيق سياسة الطفل الواحد، تمامًا مثلما فعلت الصين سنوات. وسيكون لكل أقلية حصة ولادة مختلفة. ومن ناحية أخرى سيُرحِّلون الأشخاص حتى لارتكابهم جريمة مرور. وحتى لو عاشت عائلته في إنجلترا خمسة أجيال، فسوف يطردونه. لذلك، في غضون مئة عام، سيحظون بسكان مثاليين بالنسبة إليهم».

تساءل شاتيلا: «حسنًا، ماذا سنفعل؟»

نظرًا إلى أنني لا أستطيع أن أقول إننا لن نفعل شيئًا دنيئًا كالمعتاد، فقد قدمت إجابة أخرى.

- في هذا الوضع... عند حصولكما على معلومة غير متوقعة لا يمكنكما التحرك من تلقاء نفسيكما. في غضون ذلك، وبسبب التسلسل الهرمي للمؤسسة، تقوم مكاتب العاصمة أولًا بإخبار المُضيف الذي تتواصل معه عند تلقي معلومة مهمة، لهذا السبب أخبرني جريس أولًا. لذلك يُعطي المُضيف التعليمات الأولى بخصوص الموضوع. ولكن كما قلت، إذا تغير لون الملف من الأصفر إلى الأحمر؛ أي إذا أصبحت حالة طارئة بمعلومات غير متوقعة، فإن المُضيف لا يقرر من تلقاء نفسه، ويتصل بجنيف. على سبيل المثال، سأجري مُحادَثَةً مع كالهون بعد قليل بخصوص هذا الموضوع. ولكنني متأكد من أن هذه ستكون محادثة طويلة، لأننا سنحتاج إلى إيجاد إجابة لسؤال أساسي. في الواقع يمكنني أن أسألكما عن ذلك أيضًا.

نظر كلاهما إليَّ باهتمام كبير؛ فهذه كانت المرة الأولى التي أسأل فيها عن رأيهما في موضوع مهم.

- هناك احتمالان: إما أن يتم عرض هذه الأرقام المزيفة للرأي العام، وإما أن ذلك لن يحدث. برأيكما، في أي موقف ستُراق الدماء في إنجلترا؟ لأنه في الواقع هذا هو الأمر الوحيد الذي يعنينا بصفتنا المؤسسة الأولى للسلام العالمي.

التزم الأخوان الفلسطينيان الصمت. لم يعرفا ماذا يقولان، وأخذا ينظران بعضهما إلى بعض. لقد كانت لحظة أدركا فيها الحقيقة الكاملة لنوع العمل الذي كانا يقومان به؛ لأنهما أدركا تلك الحقيقة خلال ثوانٍ. قبل عامين، كان الملايين من الأشخاص -الذين اضطروا إلى تَقَبُّل المشروع المُسَمَّى «مثالية إنجلترا» تحت ضغط كبير- يخرجون مرة أخرى ويواجهون الشرطة عندما علموا أن الحكومة كانت تلعب في الأرقام. أحفاد أولئك الذين شعروا بالفخر لعيشهم في إمبراطورية لا تغرب الشمس بها أبدًا سيُدفَنون ويضيعون في الظلام في بلد لا تشرق فيها الشمس، لأن إنجلترا ستدخل في دوامة من العنف ستستمر سنوات. ولكن إنْ لم يعلم أحد بهذا التزوير الذي قامت به الحكومة،

فسوف يُنظَّم العديد من الاحتجاجات بسبب الأرقام المنخفضة التي ستُعلن، وسيُكسر المزيد من فناجين الشاي مجددًا. وبالطبع إلى جانب ذلك ستعيش جميع الأقليات على حصص ولادة أقل بكثير على مدار أجيال.

لم تكن مهمتنا تتعلق بحقوق الإنسان، فلم نكن نهتم مثقالَ ذَرَّةٍ بحرية الفكر أو السفر في منطقة ما. ولم نكن نهتمُّ قط بمستوى المساواة أو العدالة في مجتمع ما. كانت مهمتنا متعلقة بتجنب الصراع، والنتيجة الطبيعية لذلك كانت بقاء البشر على قيد الحياة. أما ما يجب فعله بهذه الأرواح بعد ذلك، فكان قضيتهم هم. وبالتالي، فإنه بالنسبة إلينا منع ثورة قد تخرج ضد دولة فاشية قد يعني في بعض الحالات الحفاظ على السلام، لأنه كما قال ماو: الثورة ليست عملًا من أعمال النُّبل، بل عملًا من أعمال العنف. لهذا السبب كانت هناك ثورات أخمدناها في مهدها، بصفتنا المؤسسة الأولى للسلام العالمي. وبالطبع، نتيجة لهذا لم يمت ملايين المدنيين وهم يقاتلون جيوش الديكتاتوريين، بل استمروا في العيش تحت القمع. لم نسأل الناس عن الذي يفضلونه: الحرية؟ أم البقاء على قيد الحياة؟ لقد كنا نتخذ القرار بدلًا منهم. والشخص الذي قد يتكبد العناء في القيام بهذا من غير الممكن أن يصبح مُضيفًا. لهذا سألتُ الأخوين الفلسطينيين مرة أخرى: «برأيكما، ماذا يجب أن نفعل؟ فلنعلن الحقيقة وتندلع حرب أهلية في إنجلترا؟ أم ننسى كل شيء وتستمر حالة السلام؟»

التزم الأخوان الفلسطينيان الصمت مرة أخرى. لذلك قررتُ أن أطرح السؤال نفسه بطريقة مختلفة:

«حسنًا، لأطرح السؤال بهذه الطريقة... لو كنتما مكان ذلك الشاب الذي كان يعمل في مكتب البريد، وكنتما على علم بأنه بعد تسريب لقطات الكاميرا ستكون هناك احتجاجات في الشوارع، وستستغل الحكومة هذه الأحداث كفرصة لمراقبة البنية السكانية... هل كنتما ستسربان اللقطات لتبرئة تلك المرأة الباكستانية؟»

قال شاتيلا: «لا أعتقد أنها ستندلع حرب أهلية. إذا حدث صراع لا أعتقد أنه سيكون بهذا الحجم».

لم يرد على سؤالي، بل عَبَّرَ عن أمله. وبصفتي مدربهما، كنت مسؤولًا أيضًا عن تحطيم أحلامهما عند الحاجة؛ فأمسكتُ بالقلم الرصاص الذي في يدي مثل السكين وتحدثتُ: «تلك المرأة الإنجليزية في مكتب البريد... لم تُسقط القلم صدفة. ولو شاهد الناس تلك اللقطات بدقة أكثر لما ألقوا فناجين الشاي على الشرطة، بل كانوا سيحاولون وخز الشرطة بالقلم! فكما إن تلك الأقليات لم تستطع تحمل الظلم الذي لحق بها وخرجت إلى الشارع، فإن تلك المرأة لم تستطع تحمل وجود الأقليات، فكانت تنتظر هذا بفارغ الصبر! كانت تنتظر من يُلقي الحجر الأول ويُعلن الحرب. على الأقل كانت تكتفي بالانتظار حتى ذلك اليوم؛ لأنه من الواضح أنها اتخذت قرارها بمجرد أن رأت المرأة الباكستانية، فكانت ستُلقي بالحجر الأول بنفسها. ولكن لم يكن لديها حجر، لذلك ألقت بالقلم. وتلك المرأة الباكستانية التقطت بالفعل الحجر الذي أُلقِيَ عليها. لإعادته إلى المُلقي... لأنها كانت مثلك... لم تعتقد أنها ستندلع حرب أهلية».

قال صبرا: «برأيي أنها أسقطت القلم حقًّا. وبعد ذلك خطرت ببالها فكرة إسقاط الفنجان».

لم تكن هناك جدوى من الإطالة؛ لأنني أردتُ الانتقال إلى ملفٍّ آخر في أقرب وقت ممكن. إلا إنني أردتُ أن أعطي مثالًا أخيرًا لمساعدتهما على فهم أن العالم ليس فقط ما يريانه، أو ما يعتقدان أنهما يريانه. صنعتُ علامة النصر بيدي اليسرى.

- قرب نهاية الحرب العالمية الثانية، ترك تشرشل هذه العلامة. اعتَقَدَ الجميع أنها كانت الحرف الأول من كلمة victory، فظنوا أنه كان يعني النصر. حتى وقت لاحق، خلال حرب فيتنام استُخدِمت هذه العلامة بمعنى السلام. ولا تزال تُستَخدَم على هذا النحو. ولكنني لا أعتقد أنه يعني ذلك. لأنه من وجهة نظري كان تشرشل يُظهِرُ الرقم اثنين في أثناء صنع تلك العلامة؛ فكان يقول إنه من الآن فصاعدًا سيكون العالم ثنائي القطب. وبهذا قد أخبر عن الحرب الباردة القادمة بعد الحرب العالمية الثانية. ولكن لم يلاحظ أحد هذا.

كان شاتيلا في غفلة من أمره، ولم يستطع أن يتمالك نفسه، فابتسم. ولكن بعد ذلك تلاشت ابتسامته شيئًا فشيئًا، وأومأ برأسه، ربما فهم الآن. إذا لم ير المُضيفُ ساحة معركة عند نظره إلى العالم، أو إذا لم يستطع البحث عن أثر أو رائحة الحرب في كل ما ينظر إليه، فإن عمله لن يجدي نفعًا. لهذا السبب كان كل المُضيفين -بمن فيهم أنا- مُتَشَكِّكين إلى حد الجنون. من ناحية كنا لا نؤمن بتحقق أي شيء، ومن ناحية أخرى كنا نفكر في إمكانية تحقق كل شيء. لهذا السبب كان المُضيفون هم أكثر الأشخاص إثارة للاهتمام قابلتهم في هذه الحياة. كان بعضهم موظفين في المؤسسة التي عَمِلتُ بها، وكان بعضهم موظفين في منظمات مختلفة مُشابِهة. ولكنهم جميعهم كان لديهم نقطة مشتركة: نظرًا إلى أنهم اضطروا إلى كتابة سيناريو سلام منفصل لكل ملف صادفهم، فقد بدؤوا في العيش على الحدود بين الخيال والواقع. وفي بعض الأحيان يفقدون توازنهم، وينقطعون تمامًا عن الواقع، ويتوهون في الأخيلة اليائسة. تعرفتُ على شخصٍ هكذا قبل سنوات، وكان اسمه جنجافر. لقد كان المدرب الذي أعَدَّني مُضيفًا. كان بارعًا في نسج شبكة من الناس لاصطياد أناس آخرين. وكان يستمتع بشكل خاص بعقد لقاءات سلام في مدرجات مباريات كرة القدم من دون جمهور بسبب الهتافات العنصرية. لقد كان يقول دائمًا: «يبدأ المُضيف الأحداث وينهيها، ولا يُعير البيئة المُحيطة اهتمامًا». كما كان أعظم إنجازاته أنه حصل على وقف دائم لإطلاق النار بين دولة تركيا وحزب العمال الكردستاني، بينما كان لا يزال مُضيفًا شابًّا. حتى إنه أقنع مسؤولي حزب العمال الكردستاني بإلقاء أسلحتهم داخل حدود البلاد، فنجح في ذلك دون أن يجعلهم يشعرون بالهزيمة، لأن أي شخص يُلقي أسلحته في الشرق الأوسط -حيث مقولات الآلهة بريابس أكثر من الآلهة كوبيلي- كان سيشعر كما لو أنه قطع عضوه التناسلي. لذلك، ركز جنجافر على علم النفس الفردي فيما وراء النزاعات السياسية والاستراتيجية في المفاوضات التي يقوم بها، وخلق لغة سلام من خلال اختيار كل كلمة مستخدمة في اللقاءات بعناية. أشهر عبارة في هذه اللغة كانت: «القتال يحتاج إلى سلاح، ولكن السلام يتطلب شجاعة!» خلاصة القول، إذا تَخَلَّى حزب العمال الكردستاني عن النضال المسلح في تركيا اليوم، فإن ذلك بفضل جنجافر، الذي كان يصف معنى بيع السلام على النحو التالي: «الناس يدفعون

بالمال حتى من أجل أمنية يريدون تحقيقها، فيُلقون بالمال في البرك والآبار. والسلام لا يُعطَى هدية لمن اعتاد شراء حتى أمنيته، بل يُباع». ثم ابتسم وأضاف قائلًا: «ولكن وضعي مختلفٌ قليلًا؛ فأنا لا أرمي المال في أي مكان. لديَّ بئر بداخلي، لهذا السبب كلما ألقيتُ شيئًا ما بداخلي، أتمنى أمنية!»

لقد علمني كل شيء، ثم نسي ما يعرفه تدريجيًّا. كان ينبغي أن يحدث هذا. أم أن يُصاب بالجنون في آخر أيام حياته؟

في تلك الفترة كانت هناك نزاعات مسلحة يومية بين السكان الأصليين والبيض في أستراليا، وكان جنجافر يبحث عن حل. بالإضافة إلى أن الوضع كان مُلِحًّا للغاية لأن السكان الأصليين لم يكن لديهم ما يكفي من الأسلحة والذخيرة. لذلك تحولت النزاعات إلى مذابح تدريجيًّا، حتى إنها كانت تقترب إلى إبادة جماعية للسكان الأصليين. وقد قام جنجافر بتطبيق كل سيناريوهات السلام التي كان يعرفها على هذا الوضع، ولكنه لم يستطع إقناع البيض بوقف إطلاق النار. وأخيرًا، كتب ذلك السيناريو:

كان سيطلب من رجل أعمال أمريكي يدين له بالمعروف ورئيس جمعية لدراسة الكائنات الفضائية أن يصنعا مكوكًا فضائيًّا. ثم سيظهر مكوك الفضاء هذا في إحدى الصحاري في أستراليا، وسيتم إبلاغ الصحافة. سيُفتح باب مكوك الفضاء –الذي يُشاهده العالم أجمع وهو يحبس الأنفاس– وستخرج سبع نساء متشابهات من السكان الأصليين. وكانت أجسادهن العارية ستُغَطَّى بطلاء أجساد يُسمى أولي، وسيقدمن أنفسهن سفراء. وطِبقًا لحكايات الأخوات السبع في أساطير السكان الأصليين، كُنَّ سيَقُلنَ إنهن جئن من كوكب ينتمي إلى كوكبة الثريا، ويعطين الحكومة الأسترالية إنذارًا. إما أن يُعلن وقف إطلاق النار على الفور، وإما أن أجداد السكان الأصليين الذين يعيشون على كوكب بعيد للغاية سوف يعلنون الحرب على أستراليا لإنقاذ أحفادهم الموجودين على الأرض. بالطبع كان الأستراليون سيرتعدون من الخوف، ويرجحون وقف إطلاق النار على الفور، وعندها سينقل فَنِّيُّو رجل الأعمال الأمريكي المُقَرَّبون مكوك الفضاء جَوًّا، ثم ينفجر فوق المحيط الهندي؛ وبالتالي لن تُترك قطعة واحدة من مكوك الفضاء لتُفحَص. ومن ناحية أخرى، سيبقى

السكان الأصليون القادمون من الفضاء الخارجي على الأرض حتى يموتوا، وسيراقبون أولًا عملية وقف إطلاق النار، ثم عملية السلام.

عندما أخبرني جنجافر عن هذا السيناريو لم أستطع التحكم بنفسي، وأردتُ أن أضحك كما فعل شاتيلا للتو، ولكنني بالطبع لم أستطع. وبدلًا من ذلك، التزمتُ الصمت، وراقبتُ المُضيف المُخَضرَم الذي أمامي.

كنا في غرفة فندق أيضًا، فنهض جنجافر وذهب إلى الحمام وأغلق الباب، ثم أطلق النار على نفسه. أتذكر هذا. لقد سمعتُ تلك الطلقات النارية بينما كنتُ أضحك في داخلي على عبثية السيناريو. عندما سمعتُ هذا، تجمدت تلك الابتسامة بداخلي. إنها لا تزال كامنة في مكان ما.

لم أكن أعرف حتى إن جنجافر كان بحوزته مسدس. لم يخطر ببالي قط أنه قد يكون بحوزته مسدس؛ لأن المُضيفين كانوا معروفين بعدم حملهم الأسلحة. بغض النظر عن مدى خطورة الظروف التي كانوا فيها، إلا إنهم لا يحملون سلاحًا مطلقًا. كان الجميع يعرفون هذا؛ من الجنود الصغار من جمهورية إفريقيا الوسطى إلى الأمين العام للأمم المتحدة. لهذا السبب كان يُقال إن المُضيفين مجانين؛ لأننا كنا نجد أنفسنا أحيانًا في مواقف لا يشعر فيها الشخص العادي بالأمان إلا بوجود دبابة. لذا، فإن أولئك الذين وصفونا بالجنون كان لهم الاحترام أيضًا. حتى إنه كان لا يجرؤ أحد على تفتيش مُضيف لمعرفة ما إذا كان يحمل سلاحًا أم لا، لأن ذلك سيُعَدُّ إهانة للقب المُضيف الخاص به. ونظرًا إلى كل هذه الأسباب، فعلت المؤسسة الأولى للسلام العالمي كل شيء لإخفاء انتحار جنجافر. لم يكونوا ليهتموا لو شنق نفسه، ولكن لم يكن من المفترض أن يسمع أحد عن امتلاك مُضيفٍ مشهورٍ عالميًّا السلاح. لم أكن أعرف في ذلك الوقت، ولكنني علمتُ لاحقًا أن والدتي أطلقت النار على نفسها أيضًا. لذلك كان عليَّ أن أعيش بين مسدسين وطلقتين وحالَتَي انتحار. كان ماضيَّ انتحارًا، وكذلك مستقبلي.

هل أستطيع أن أحكي كل هذا للشقيقين الفلسطينيين؟ بالتأكيد. ولكنني لم أفعل. اعتقدتُ أن الوقت لم يحن بعد. كنتُ أدربهما ليكونا مُضيفَين، كما فعل جنجافر من قبل. لقد كانا يجوبان العالم معي فقط من أجل هذا التدريب، فكانا يتبعانني أينما ذهبت منذ شهر. ولكن يجب أن أعترف أنني

كنت مُعلمًا سيئًا، بل والأسوأ، لأنني لم أشرح لهما أيَّ ملفٍّ بالكامل، ودائمًا ما كنتُ أترك المعلومات التي أقدمها غير مكتملة. لم أتمكن من نقل أيٍّ من خبراتي بالضبط كما ينبغي. وفي كل مرة أحاول أن أفعل ذلك تتداخل أفكاري أو ذكرياتي، لأن عقلي كان جحيمًا. لذا فإن الشيء الوحيد الذي كنتُ أفعله هو كتابة وتنفيذ سيناريوهات السلام. وبصرف النظر عن هذا، فإن كل يوم كنت أستيقظُ فيه أقضيه في محاولة ألا أقتل نفسي. حتى إنني اشتريتُ آلة التشيللو لهذا الغرض فقط؛ فبصفتي شخصًا لم يُحاول أن يعزف أو يتعلم على آلة موسيقية إلى يومنا هذا، فقد اعتقدتُ أن التشيللو يمكن أن ينقذ حياتي، لذلك كنتُ أحمله على ظهري أينما ذهبت، لأنه في يوم من الأيام... عندما ينتهي كل هذا، ربما يمكنني الجلوس على كرسيٍّ في المنزل، أو ربما في غرفة فندق، وأخيرًا أخرج ذلك التشيللو من صندوقه وأمسك به في يدي. ثم ربما يأتي معلم ويعطيني درس التشيللو الأول، وأواصل العيش؛ فالشيء الوحيد الذي جعلني على قيد الحياة كان اللحظة التي سأسمع فيها أول صوت يخرج من ذلك التشيللو. كنتُ أُماطِلُ نفسي منتظرًا مجيء تلك اللحظة. فضلًا عن ذلك، لا شيء يمكن أن يُعطي أملًا أكثر من بدء عزف آلة موسيقية جديدة. حتى ولادة طفل لا يمكن أن تعطي المرء مثل هذا الأمل؛ فبالطبع المخاوف التي تُصاحب تلك الولادة ستلوث الأمل. ولكن تعلُّم العزف على آلة موسيقية كان من أنقى أحلام المستقبل؛ لأنه إلى أن يُتقن المرء تلك الآلة الموسيقية، يُفتح طريق جديد أمامه كل يوم، طريق مختلف في كل مرة... مما يعني أن هذا الشخص لن يقتل نفسه غدًا. على الأقل هذا ما كنتُ أعتقده. والسبب في أنني اخترت آلة التشيللو -التي تزن جثة طفل يبلغ من العمر ثلاث إلى أربع سنوات بصندوقها وملحقاتها- آلة موسيقية، هو أنها تزن جثة طفل يبلغ من العمر ثلاث إلى أربع سنوات بصندوقها وملحقاتها؛ فالهارمونيكا التي يمكن وضعها في جيب قميصي لن تكون كافية لإبقائي على قيد الحياة. كنت أعرف ذلك... لأنني قررتُ أن أقتل نفسي بالضبط في أبريل، عندما كنتُ أسير عبر صحراء جوبي في منغوليا وجثة طفل يبلغ من العمر ثلاث سنوات على ظهري. في الساعات الأخيرة من الحرب الروسية الصينية التي استمرت تسعة أيام، والتي لم يعرف أحد سبب اندلاعها وانتهائها.

لا بد أن الأخوين الفلسطينيين تساءلا إلى متى سأبقي صامتًا؛ لذا أخذتُ نفسًا عميقًا وتحدثت: «على أي حال، دعانا ننتقل إلى ملفٍّ آخر».

AK-47 و AK-47

هناك نقطة واحدة مشتركة بين قرية بالاز ودولة الولايات المتحدة الأمريكية. في كلا المكانين كان المدنيون يمتلكون أسلحة أكثر من عددهم، حيث كان هناك 326 بندقية من طراز AK-47 في بالاز، حيث يعيش 255 شخصًا. ولكن على عكس الولايات المتحدة الأمريكية، لم يشترِ المدنيون هذه الأسلحة في بالاز من السوق، بل إن جزءًا منها فَرَّقَه حزب العمال الكردستاني، الذي أجبر المدنيين في المنطقة على الثورة المُسَلَّحة ضد تركيا منذ عقود، والجزء الآخر فَرَّقته تركيا، التي أجبرت قبل عقود المدنيين في المنطقة على أن يصبحوا حُرَّاسًا متطوعين لمحاربة حزب العمال الكردستاني. وعلى عكس القرى المجاورة الأخرى، لم تكن بالاز تنتمي إلى قبيلة. لقد كانت أشبه بمنطقة انتظار على الحدود. إنه مكان يتعثر فيه أولئك الذين لا يستطيعون الذهاب ولا يستطيعون القدوم. على الرغم من أن الغالبية من الأكراد، فإنه كانت هناك أيضًا عائلات عربية وتركمانية في القرية. لقد كانوا متفاهمين بشكل جيد للغاية، خصوصًا في القضايا السياسية، وكانوا يتحركون دائمًا معًا. بمعنى آخر، إذا أطلق أحدهم النار في الهواء في ساحة القرية وألقى الأوامر والشتائم، فإن الجميع كانوا يتحدون ويدعمون هذا الجانب. نتيجة لذلك، كان لدى كل رجل في بالاز بندقيتان: واحدة قانونية فوق الأرض، وأخرى غير قانونية تحت الأرض. كان هذا أيضًا عدد زوجات الرجال في بالاز، اثنتين على الأقل... حتى إن زرا جاءت إلى المنزل الذي كانت تعيش فيه زوجةً ثانية.

كان الوقت وفيرًا في بالاز، ولم يكن هناك ما يُفعَل سوى البحث عن شغل شاغل في المنطقة المحيطة. لذلك، منذ الصباح وحتى المساء، كانت أعين الجميع تجول فوق الجميع مثل الثعبان؛ فكان معروفًا على أيٍّ موقد يُطهى أيُّ

طعام، وأيُّ كلمة خرجت من أيٍّ فم، وما الحلم الذي شُوهِدَ، وعلى أي فراش، وأي حشرة مشت في أي حديقة. لذلك، كان على زرا توخي الحذر الشديد؛ لأنها إذا كان ستفعل شيئًا كهذا، كان عدد النقاط المشتركة بين بالاز والولايات المتحدة الأمريكية سيرتفع إلى نقطتين. ولكن كان عليها أولًا التحدث إلى ديلي فيري، مُوَلِّدَة القرية. لذا، وبينما كانت تغسل الملابس في حديقة المنزل، بدأت فجأة بالصراخ وكأنها تتألم، وأسقطت نفسها على الأرض. لم تكن تبدو وكأنها كانت تلد، بدت وكأنها قد فقدت الوعي. في ذلك الوقت صرخت زوجة زوجها الأولى، التي كانت تنشر الغسيل في الحديقة، واسمها قاضي، وركضت نحو زرا. لقد كان سبب خوف قاضي إلى هذا الحد هو أنها كانت عاقرًا. فكان هذا هو السبب الرئيسي لمجيء زرا إلى المنزل زوجةً ثانية؛ أن تُنجب الطفل الذي لم تستطع قاضي إنجابه. وإذا كان ذلك ممكنًا، فلتلد ذكرًا. لهذا السبب، عندما كان زوج زرا يضربها صباح العيد لم يضربها في بطنها مهما أراد. ولكن قاضي، التي كانت تعلم أنه إذا كانت هناك مشكلة في حمل زرا أو إذا كانت غير قادرة على ولادة طفل سليم لأي سبب فإن ضرَّةً أخرى ستأتي إلى المنزل، كانت خائفة للغاية، وركضت إلى المنزل لإبلاغ زوجها.

بعد سنوات، وصفت قاضي ذلك اليوم على النحو التالي: «كان رجلنا يشرب الشاي في المنزل. كنتُ أصرخ بشدة لدرجة أن الرجل سكب الشاي على نفسه. قلت: أسرع، لقد حدث شيء للفتاة! فأخذنا زرا مباشرة إلى ديلي فيري. لقد كانت تمتلك مكانًا للاستلقاء والنهوض. لم يكن واضحًا ما إذا كانت حظيرة أو منزلًا، فلقد كانت ملآنة بالحيوانات. هذا جنون! لقد أصبحت مُوَلِّدَة للحيوانات! قالت: ابقيا أنتما بالخارج، وأنا سأعتني بالفتاة».

زرا، التي كانت مستلقية وهي تمسك بطنها بين عنزتين بيضاوين في منزل ديلي فيري المكون من غرفة واحدة، توقفت عن الأنين أولًا عندما أُغلِقَ الباب، ثم استقامت ببطء. ومن ناحية أخرى كانت تُظهِرُ الباب لديلي فيري وتُشير إليها بالتزام الصمت، لأنها لا تريد أن يسمع من خلف الباب ما ستقوله بعد قليل.

السبب الذي جعل زرا تثق بديلي فيري هو أنها كانت المرأة الوحيدة التي تعيش بمفردها في القرية؛ فمنذ سنوات أُصيبَ زوجها بطلق ناري في قضية

أرض زراعية، وعلى الرغم من إصرار القرويين، تمكنت من عدم الزواج مرة أخرى. كانت تعيش مع الماعز، وكلما عاشت معهم صارت ماعزةَ. كانت تنظر بعينيها شديدتي السواد كالماعز، وكانت جبهتها العريضة ذات الخطوط العميقة تهدد كل من ينظر إليها. ديلي فيري -التي كانت تقف وكأنها ستنطح شخصًا ما أو شيئًا ما في أي لحظة- كانت تقترب الآن من زرا بالطريقة نفسها. لهذا السبب خافت الفتاة الشابة، وبدأت تتوسل إلى ديلي فيري بصوتٍ هامس. في البداية توسلت إليها ألا تخبر زوجها أن إغماءها كان كذبة. ثم توسلت لكي تنصت ديلي فيري إليها.

بعد سنوات، وصفت ديلي فيري ذلك اليوم على النحو التالي: «لقد وصفوني بالجنون، ولكن تلك الفتاة كانت هي المجنونة الحقيقية! حتى إنها قالت هذا بنفسها. قالت: إنكِ ستأتين إلى منزلنا عند الولادة؟ كوني وحدكِ بجانبي، أخرجي الجميع. قلت: لماذا؟ قالت: سأهرب من هناك. قلت: كيف؟ قالت: سترين. قلت: إلى أين ستهربين؟ قالت: سأذهب إلى سوريا. قلت: توجد حرب هناك، هل أنت مجنونة؟ قالت: نعم، أنا مجنونة!»

بعد سبعة عشر يومًا من هذا الحديث، قُربَ صلاة الظهر، شعرت زرا بالألم حقًّا هذه المرة. وديلي فيري، التي تلقت الخبر من طفل أرسلته قاضي، انسَلَّت من بين الماعز وركضت في القرية. في تلك الأثناء ركض صبيٌّ آخر في اتجاهٍ مختلف لإخبار رائف. ووفقًا للخطة التي وضعاها مع زرا، قفز رائف إلى شاحنته حاملًا حقيبته في يده، وداس دواسة البنزين باتجاه مخيم الأمان.

دخلت ديلي فيري من الباب الذي فتحته قاضي، والتقت وجهًا لوجه زوج زرا. وقالت للرجل: «انتظر بالخارج». على كل حال لم يكن في حالة مزاجية تدفعه للبقاء في المنزل؛ لأن المنزل لم يكن واسعًا بما يكفي للسير. لقد انتظر سنوات حتى تأتي هذه اللحظة، وكان متحمسًا للغاية. كان ينتظر الولادة في الحديقة. كان يمشي وهو ينتظر. ثم التفتت ديلي فيري إلى قاضي، وقالت: «اخرجي أنتِ أيضًا».

فتساءلت قاضي: «لماذا؟»

تحدثت ديلي فيري بقسوة شديدة لأنها لم تكن تعرف ماذا تقول.

- ليس لديكِ أطفال... ستَحسُدينها».

عند هذه الكلمة، أغلقت قاضي الباب بشدة وكأنها تهدم المنزل وخرجت.

عندما جثت ديلي فيري بين ساقي زرا رأت أن الولادة قد بدأت بالفعل منذ فترة. وقبل أن تتمكن من فعل أي شيء، وُلِدَ الطفل من تلقاء نفسه. لقد ولِدَ بكل راحة، كما لو كان قد وُلِدَ المرة الألف، لدرجة أن ديلي فيري ضحكت تلقائيًّا من الدهشة وهي تقطع حبلها السري؛ فحتى ذلك اليوم لم تَرَ قَط عنزةً أو إنسانًا يُولَد بهذه السهولة. لقد كان العثور على الرضيع بين ذراعيها أمرًا بسيطًا بعد أن قامت زرا برفع اللحاف الذي فوقها قليلًا. نظرت ديلي فيري أولًا إلى الرضيع، ثم إلى زرا. كان الأمر كما لو أنها ولدت المرة الألف. لم تخرج من فمها أي صرخة أو كلمة. مسحت زرا العرق الذي على جبهتها بظهر يدها، وتخلصت تمامًا من اللحاف. وعندها فقط رأت ديلي فيري بندقية AK-47 بيد زرا الأخرى، فحتى تلك اللحظة لم تكن قد لاحظت بندقية ميني دراكو طراز AK-47 المُزال جزؤها الخلفي المحمول وماسورتها الأمامية، لأنها كانت أسفل اللحاف. لقد أنجبت زرا رضيعها وهي تحمل تلك البندقية القصيرة وحمالتها بإحكام.

قالت ديلي فيري: «ما هذا يا زرا؟»

لم تُجِبْ زرا. أسندت مقبض البندقية على صدرها، وسحبت ذراع التصويب وتركته، ثم أسقطت ماسك الأمان، وضبطت البندقية على نصف آلية، ووَجَّهَت الفُوَّهَة نحو الباب. لقد فعلت كل هذا بسرعة أحد أفراد الكوماندوز. كان من الواضح أنها تدربت عدة مرات. الشيء الوحيد المفقود الآن هو بكاء الرضيع، ولكنه لم يكن يبكي، فنظرت زرا إلى ديلي فيري بقلق، ولحظة التقت أعينهما. عندئذٍ استعادت مُوَلِّدة القرية وعيها، وأمسكت بالرضيع من قدميه وعَلَّقته بحيث كان رأسه إلى الأسفل. فقط عندما رفعت يدها وكانت على وشك أن تصفع الرضيع بدأ الرضيع في البكاء. بدا وكأنه كان يبكي لتجنب التعرض للصفع. وكما توقعت زرا، كان الباب يُفتَحُ ببطء؛ حيث انتظر زوجها أولًا في الحديقة، ثم داخل المنزل، وأخيرًا خلف باب الغرفة الوحيدة في المنزل. والآن فتح الباب تدريجيًّا ونظر إلى الرضيع. لم يُرِدْ أن يدخل الغرفة وكأنه سيمرض من ولادة امرأة، فكان يقف عند فتحة الباب. لهذا السبب لم يستطع رؤية زرا، التي كانت تقف على ركبتيها على الفراش على بعد أمتار قليلة،

والتي كانت تصوب البندقية نحو الباب. لقد كانت نظراته إلى الرضيع، فكان يسأل ديلي فيري قائلًا: «صبي؟ «ها؟ صبي؟»

قالت زرا: «ما شأنك؟» وصرخت مُكَرِّرَةً: «ما شأنك؟!»

عندها فقط فتح زوجها الباب على مصراعيه. بعد أن رأى زرا والسلاح الذي في يدها. ضغطت زرا الزناد في تلك اللحظة تمامًا، فاخترقت رصاصة البندقية معدة الرجل. تصلبت من دون حركة لحظة، ثم سمعت صراخ قاضي، التي كانت تقف خلفه. رفعت زرا فوهة البندقية قليلًا وأطلقت النار مرة أخرى. هذه المرة أطلقت النار على خَدِّ زوجها. سقط الرجل في مكانه، وبالتالي انهار جدار اللحم بين قاضي وزرا، ثم تلاقت أعينهما. صاحت قاضي: «ماذا فعلتِ؟ ماذا فعلتِ يا زرا؟»

بعد سنوات، وصفت ديلي فيري تلك اللحظة على النحو التالي: «فقدت قاضي وعيها هناك! كانت ستخنق زرا، ولكنها لم تستطع فعل شيء بالطبع. لم تستطع حتى الاقتراب من الفتاة! لقد استلقت فوق الرجل وبدأت في البكاء، وأخذت تمزق ملابسها. أما أنا، فقد قمتُ بلَفِّ الصبيِّ في القماط، وأعطيت زرا إياه، وقلت: هل هذا ما كُنتِ ستفعلينه. فقالت: لا، هناك المزيد. ثم أخذت الطفل وغادرت».

لقد سُمِعَ صوت السلاح في القرية، ولكن لم يحظَ ذلك بأهمية كبيرة؛ فعلى كل حال يكون هناك أشخاص يطلقون النار في الهواء، أو على الزجاجات أو الغربان عدة مرات في اليوم. ولكن كانت هناك صرخات قاضي، التي جمعت أهل بالاز حول المنزل الذي فيه الجثة. في تلك الأثناء، كانت زرا تركض نحو مخيم الأمان ورأس رضيعها في إحدى يديها وبندقيتها في اليد الأخرى. ركضت حتى رأت من بعيد شجرة الزيتون الوحيدة الواقعة على الحدود الجنوبية للمخيم. ثم توقفت ووضعت البندقية أرضًا، وبدأت تمشي بخطوات سريعة تجاه السياج الشبكي الموجود خلف شجرة الزيتون مباشرةً. كان حقل الألغام الذي انتحرت فيه حليمة سابقًا على بُعد بضعة كيلومترات فقط. اقتربت زرا من رائف -الذي كان ينتظر بتوتر وأصابعه في السياج الشبكي- وهي تحمل رضيعها بين ذراعيها.

بعد سنوات، وصف رائف تلك اللحظة على النحو التالي: «بمجرد أن رأيتُ زرا سألتها، قلت: هل أدركوا أنكِ هربتِ؟ قالت: لا. قلت: أطلقوا النار الآن في القرية، فاعتقدتُ أن زوجكِ يلاحقكِ. قالت: لا أعرف، لم أسمع. ثم أعطتني الطفل وذهبت. كانت ستنتظرني على الطريق الرئيسي، وكنتُ سأترك الرضيع في مكان ما في المخيم دون أن يراني أحد، ثم آخذ زرا من الطريق، وكنا سنذهب إلى إسطنبول؛ هذا ما اتفقنا عليه. ولكن اتضح أن زرا كانت لديها حسابات أخرى».

أخذت زرا البندقية من حيث تركتها وسارت باتجاه القرية. لم تعد في عجلة من أمرها. دخلت المقبرة التي بدأت في مكان في نهاية القرية، حيث تم دفن شعب بالاز هناك. كان والد زرا وجدتها وأي شخص آخر تُوفي في عائلتها في تلك المقبرة. ولكن زرا لم تأتِ إلى هنا من أجلهم. واصلت السير، وعندما جاءت إلى القبر الذي تبحث عنه توقفت –يعود هذا القبر إلى والد زوجها– وانحنت، وبدأت تحفر في الأرض. ولكنها لم تكن مضطرة إلى الحفر كثيرًا. وأخرجت من قبر والده الذي تُوفي منذ سنوات بندقيةَ ابنه الذي توفي حديثًا، التي كانت مدفونة في كيس. وهكذا كانت زرا تمتلك سلاحي زوجها: أحدهما فوق الأرض، والآخر تحت الأرض. مَرَّرَت رأسها وذراعها اليسرى من خلال حمالة بندقية ميني دراكو، وعلقت البندقية بشكل مائل على ظهرها. كما التقطت بندقية AK-47 الأخرى التي كانت قد أخرجتها للتو من الأرض. ثم أخرجت مخزن الخرطوش ونظرت إلى الداخل، فوجدت أنه كان ممتلئًا، فوضعته في فتحته. لم تجد ضرورة لإغلاق الحفرة التي حفرتها في قبر والد زوجها. بدلًا من ذلك، نظرت إلى القرية من خلال أشجار السرو. تركت ذراع تصويب البندقية وبدأت في المشي.

سمع الجميع في القرية أن زرا أطلقت النار على زوجها وقتلته. وأبلغ زعيم القرية قوات الدرك، وقال رجال بالاز إنهم سيبحثون عن زرا، وتفرقوا في اتجاهات مختلفة. وفي صدفة غريبة، كان أول شخص يُصادف زرا هو والدتها التي كانت تجري في الأرجاء. ربما كانت تحاول العثور على ابنتها قبل أي شخص آخر، وربما كانت تتبع حفيدها المفقود حديث الولادة. لم تفكر زرا لحظة، وأطلقت النار على والدتها بمجرد أن رأتها. وقفت بجانب

المرأة التي سقطت على الأرض –إما لأنها أرادت أن تتأكد من وفاتها و إما لأنها لم تستطع السيطرة على غضبها– وضغطت الزناد أربع مرات أخرى. ثم سارت نحو ساحة القرية حيث ضربها زوجها أمام أعين الجميع صباح العيد. كانت قد خطت خطوات قليلة عندما رأت صالح، الذي وقعت في حبه من قبل. كان والد زرا قد أمسك بها وهي تتحدث إلى صالح وقد كانت تبلغ من العمر 11 عامًا في ذلك الوقت، ومنعها من مغادرة المنزل. وها هي ذي زرا كانت تبلغ من العمر 15 عامًا ولم تعد عاشقة لأحد. أراد صالح أن يهرب من البندقية المُصوَّبَة نحوه، ولكن زلت قدمه في خطوته الأولى، وسقط في بركة طينية ضحلة. لقد كانت تمطر طوال الليل؛ لذا كانت أرض بالاز زلقة أكثر من المعتاد. وكان صالح يحاول الوقوف من ناحية، ويتوسل إليها من ناحية أخرى. ولكن زرا لم تستمع لصالح، وأطلقت النار عليه في ظهره. عندما صمت صالح، سمعت صوت إمام القرية. كان يسير نحو زرا ويداه مرفوعتان في الهواء. كان يقول إن قوات الدرك ستأتي بعد قليل، وكان يحاول إقناع زرا، بصوت حنون قدر الإمكان بإلقاء البنادق والاستسلام. تظاهرت زرا لحظة بأنها تُصغي إلى الإمام، فشَجَّع هذا الرجل واقترب أكثر قليلًا، ومد يده إلى زرا. بغض النظر عَمَّا كان يفكر فيه في تلك اللحظة، رفعت زرا ماسك الأمان وحولت البندقية إلى آلية كاملة. وعندما ضغطت الزناد، خرجت سبع رصاصات من الفوهة الواحدة تلو الأخرى، وكلها اخترقت الإمام. ربما خطر على بالها أنها تزوجت من الرجل الذي أصبح زوجها عندما كان عمرها 12 عامًا فقط. تركت زرا الإمام وسارت أكثر قليلًا حتى جاءت إلى مقهى القرية. في يوم عادي كان يكتظ برجال القرية، ولكن الآن لا يوجد أحد داخله. ومع ذلك، ضغطت زرا الزناد ومشَّطت القهوة. فتحطمت النافذة الكبيرة للمبنى الصغير المكون من طابق واحد مع ضوضاء عالية، وأحدثت 15 حفرة في جدرانه. رفعت زرا إصبعها عن الزناد فقط عندما فرغ مخزن الخرطوش. ألقت البندقية التي بيدها وأحضرت البندقية المُعلقة على ظهرها أمامها. وفي تلك اللحظة تمامًا، أُطلِقَت رصاصتان من خلفها. استدارت زرا في مكانها ورأت زعيم القرية. كان الرجل العجوز بالكاد يستطيع حمل البندقية القديمة التي في يده. لم يكن بينهما أكثر من 20 مترًا. تلاقت أعينهما. لم تهرب زرا ولم تطلق النار. لقد وقفت هناك وانتظرت. ضغط الرجل العجوز الزناد، ولكنه

لم يستطع ضرب زرا مرة أخرى. عندئذ ضبطت زرا البندقية على آلية كاملة، ثم أخذت تصرخ وبدأت تمشي وهي تطلق النار على زعيم القرية، حتى أصبح جسد الرجل العجوز -الذي كان نظره ضعيفًا- مَخرومًا بالثقوب. توقفت عن الصراخ ونظرت إلى ما حولها، فإذا بالرجال الذين ذهبوا للبحث عنها لسبب ما ليسوا موجودين في الأنحاء. لم يكن هناك سوى الدجاج والديوك في شوارع بالاز. بدأت زرا بالسير نحو أقرب منزل. لا بد أنها كانت تفكر في القتل وهي تتجول من باب إلى باب. كانت قد وصلت لتوِّها إلى باب ذلك المنزل عندما سمعت صوتًا معدنيًّا قادمًا من الساحة التي تركتها للتو.

- ألقي ذلك السلاح! استسلمي!

استدارت زرا في مكانها ونظرت إلى ساحة القرية، حيث رأت قائد المركز مختبئًا خلف عربة مصفحة تابعة لقوات الدرك وممسكًا بمكبر صوت، وبجانبه أربعة جنود مصوبين فوهات بنادقهم نحو زرا.

بعد سنوات، وصف قائد مركز الدرك -وهو رقيب أول- تلك اللحظة على النحو التالي: «لم يكن يوجد أي قروي هناك! جميعهم دخلوا في حفرة واختبؤوا، حتى إنني غضبت. قلت: يا أنتم، كم عدد الرجال هنا؟ ألستم رجالًا! ألا تستطيعون التغلب على فتاة؟ على كل حال، لقد ناديتُها. قلت: استسلمي! فأخذت تنظر إلى وجهي هكذا. قلت: ألقي ذلك السلاح وإلا فسنطلق النار!

ثم بدأت تمشي نحونا. ولكنها لم تُلقِ السلاح. كنتُ على وشك أن أعطي أمرًا بإطلاق النار، ولكنها أخرجت شيئًا ما من صدرها. في البداية لم أستطع معرفة ما هو. نظرتُ، فوجدتُ أنها ورقة. قامت بتجعيدها وألقت بها نحوي. فتحتُها ونظرت... كان مكتوبًا عليها «استسلم». القوات الجوية خاصتنا تلقيها على الإرهابيين؟ قالت: ما المكتوب؟ في تلك الأوراق؟ قلت: ماذا تقصدين بما المكتوب؟ قالت: لا أعرف القراءة. قلت: مكتوب استسلم. قالت: لماذا تكذب؟ قلت: ما الذي سأكذب بشأنه؟ هذا هو المكتوب حقًّا. ثم أخرجت ورقة أخرى وألقتها، وقالت: حسنًا، ما المكتوب هنا؟ نظرتُ، فوجدت مكتوبًا عليها «استسلم» بالإنجليزية. أخبرتها، وقلت: مكتوب عليها هكذا أيضًا. أخذت تضحك. فقلت جيد، من المحتمل أنها ستستسلم. ولكن بعد ذلك، وفجأة، وضعت فوهة البندقية تحت ذقنها وأطلقت النار على نفسها».

ماتت زرا هناك على الفور، وهكذا أصبح لدى بالاز نقطة أخرى مشتركة مع الولايات المتحدة الأمريكية؛ ففي الولايات المتحدة الأمريكية تتكرر هذه الأحداث باستمرار، حيث يقتحم شباب في سن الخمسة عشر عاما مدارسهم حاملين بنادق الصيد الخاصة بآبائهم، فيقتلون زملاءهم ثم ينتحرون. ولقد حدثت حالة مشابهة في بالاز في ذلك اليوم. كان ذلك هو الاختلاف الوحيد: الأشخاص الذين قتلتهم زرا ليسوا زملاءها البالغين من العمر 15 عامًا. لأنه لم تكن هناك مدرسة تذهب إليها زرا. ربما كانت الأمور ستختلف تمامًا لو ذهبت إلى المدرسة. وحتى إذا دخلت إلى مخيم الأمان كما كانت تريد دائمًا، وبعد ذلك -على سبيل المثال- تم إرسالها إلى أمريكا وذهبت إلى مدرسة هناك، لكان كل شيء مختلفًا؛ فقبل كل شيء كانت ستحصل على تعليمٍ جيد، وربما كانت ستتعلم العزف على آلة موسيقية، ولأصبحت لديها هوايات، ومارست الرياضة، ولسَنَحَت لها الفرص لتطوير نفسها وإخراج زرا أخرى، ولَمَا قتلت زرا تلك أمها دون أن يطرف لها جفن، ولما أطلقت النار على أول حب لها، ولا على شخص مُسِنٍّ مثل زعيم القرية، ولما أنهت حياة رجل عَلِمَ لتوه أنه أصبح أبًا في أسعد يوم له، ولما أطلقت النار على رجل دين مدَّ إليها يد العون. كانت ستطلق النار على أصدقائها في الصف فقط، وربما على معلميها أيضًا، أو كانت ستنتظر بضع سنوات وتمتلك بندقية AR-15 بشكل قانوني بمجرد بلوغها 18 عامًا، ثم تقتل زبائن المحل والصراف الذي لم يبع لها البيرة لأنها لم تبلغ الحادية والعشرين بعد.

أولًا تم دفن جثة زرا في مقبرة القرية. ولكن كان من غير المقبول لأهل القرية أن تتعفَّنَ في المقبرة نفسها مع جثث ضحاياها؛ لذا تم إخراجها من هناك في اليوم التالي ودفنها في مقبرة القرية المجاورة. ولكن سكان تلك القرية لم يترددوا في الاعتراض على هذا الوضع. وفي اليوم التالي، تم إخراجها من هناك ودفنها في وسط حقول نبات القرّاص بالقرب من الحدود. ثم وضعوا قطعة خشب بدلًا من الحجر عند رأس القبر، ولم يُكتَب شيء عليها. ثم تم اقتلاع قطعة الخشب تلك وتحطيمها من قِبَلِ الأطفال. وهكذا، لم يبقَ أثر لزرا بعد وفاتها، التي لم يتم تسجيلها أيضًا عند مولدها، وكأنها لم تولد ولم تمت. ومع ذلك، فقد أنجبت وقتلت. ربما لتُثبِتَ أنها عاشت ذات مرة!

24 من ديسمبر

ليلًا

بقيت بضع دقائق على منتصف الليل، وقد كان السرير مُغطّى بالأوراق. وكان صبرا وشاتيلا -العائدان من استراحة التدخين- قد دخلا للتو. كنتُ أعلم أنهما كانا متعبين، ليس لأننا كنا نتحدث منذ ساعات بشكل متواصل مُنتقلين من ملف إلى آخر، بل لطرحهما العديد من الأسئلة التي لم يتمكنا من الإجابة عنها خلال هذه الفترة كما في حالة إنجلترا. لقد أدركا أن العمل الذي سيقومان به طوال عقود هو في الواقع يشبه الركض حول فأر تُرِكَ في متاهة. علاوة على ذلك، لم يكن هناك جبن ولا مخرج في المتاهة؛ لأننا في الواقع لم نكن نصنع السلام، بل كنا نؤجِّل الحرب. كان هذا ما نفعله فقط؛ التأجيل، التأجيل حتى تاريخ لاحق قدر الإمكان. أي إنه يعني ألا تُراق الدماء اليوم، لتُرَق بعد ذلك وقتما تُراق. ولكن كان يُقال هذا كل يوم! هذا ما كنا نفعله. كنا نجثو على الشاطئ وندفع المُحيط إلى الخلف بكفوفنا.

كتبتُ «الولايات المتحدة الأمريكية» على قطعة من الورق، وسمعتُ صبرا يقول: «تشيستا... ابن زعيم قبيلة لاكوتا... أوجلالا سو».

تساءل شاتيلا قائلًا: «هل تعتقد أنهم سيكونون قادرين حقًّا على جعل هذا الطفل يفعل ما يريد؟»

قلت: «هلا نهضتَ؟»

فنهض.

- اذهب الآن إلى الحمام. أغلق الباب وانتظر هناك.

قام شاتيلا أيضًا بفعل هذا في الشهر الماضي، حيث نَفَّذَ بالضبط ما قلته. دخل الحمام وأغلق الباب، ثم هَمَستُ بجملة في أذن صبرا. لم يُفاجأ بالأمر الذي سمِعَه؛ لأنه أيضًا كان مُعتَادًا طرُقي الغريبة. مشيتُ وأمسكتُ بالمقبض بإحكام، وسَحَبتُ باب الحمام نحوي بكل قوتي. وعند إشارتي، أطلق صبرا صرخة، فأعطى شاتيلا –الموجود خلف الباب– رَدَّ فعل أي إنسان.

- صبرا! هل أنتَ بخير؟

حاول فتح الباب، وعندما فشل، ضحك بعصبية وأخذ يُنادي: «هل تمزحان معي؟»

أشرتُ إلى صبرا للاستمرار، فبدأ بإطلاق الصرخات واحدةً تلو الأخرى. توقف شاتيلا عن الضحك وأخذ يصرخ: «ماذا يحدث هناك؟» ومن ناحية أخرى كان يصدم الباب بقوة. برأيي كان ذلك كافيًا، يمكنني إنهاء الدرس. بمجرد تركي المقبض فُتِحَ الباب. لقد كان شاتيلا مُنهَكَ النفس، فأشرتُ إلى صبرا وتحدَّثْتُ: «اهدأ! انظر، أخوك بخير. ليس هناك أي شيء به. ولكن هذا الخوف الذي شعرت به... تخيَّل أن يستمر ذلك عامين ونصف. تخيل أن تسمع هذه الصرخات طوال الوقت. تخيَّل... أن تكون مواطنًا أصليًّا في أمريكا، عمرك 25 عامًا، وأول شيء تعرفه عن نفسك هو أن أجدادك قد أُبيدوا. تسمع عن كل تلكَ المذابح والاعتداءات من عائلتك، ثم تقرأ كتب التاريخ، وعندما تعلم بذلك، تبدأ خيبة الأمل والغضب تتراكم بداخلك، لأن أحفاد الذين فعلوا ذلك بشعبك قد أغلقوا القضية منذ زمن. لا أحد يتحدث عن ذلك بعد الآن. في البداية تقول حسنًا، لن أنشغل بالماضي أيضًا. تقول إنك ستذهب إلى المدرسة، وتجد وظيفة، وتكوِّن عائلة. ولكن هناك مشكلة، هل كان صبرا يقولها قبل هنيهة؟

حديقة الحيوانات، هذا هو المكان الذي تعيش فيه. يُطلِقون عليه reservation، أي مكان ملك لأهله. ولكنه في الواقع سجن! ومن حوله إمَّا شخص مدمن للكحول، وإما على وشك الانتحار. لا مدرسة، لا عمل، لا مال، ولا أي شيء. لقد سمحوا لك فقط بفتح صالات قمار فاسدة، هذا كل ما في الأمر! وأنت مُدرك أنه لم يتغير أي شيء على مر العصور. ربما لم يُطلَق النار عليكَ وعلى رؤوس الأشهاد مثل أجدادك، ولكن من الواضح أنك لا تُعتَبر إنسانًا أيضًا. وفي تلك المرحلة، لم يعد بإمكانك المقاومة والتمرد. تريد

المساواة، وتريد العدالة، تريد أن تعيش بإنسانية. تريد إعادة كل شيء نُهب من شعبك؛ لهذا السبب تبدأ في تنظيم الاحتجاجات. تقوم بجمع التوقيعات وإعداد وتوزيع المنشورات؛ فأنت دائمًا تُفَضِّل الطرق السلمية. بغض النظر عن عدد رجال الشرطة الذين يداهمونك في الشوارع، فإنك تجزُّ على أسنانك ولا ترد. ثم ذات ليلة يأتي أشخاص إلى منزلك ويختطفونك. لا تعرف من يكونون. ثم تنجر من مكان إلى آخر أيامًا دون أن تعرف مكانك. وأخيرًا تفتح عينيك وتنظر، فإذا بك في زنزانة. تسأل: لماذا أنا هنا؟ ومن أنتم؟ ولكن لا أحد يتحدث معك. لا ضوء ولا صوت. تقف هكذا في ذلك الحبس الانفرادي. تصرخ، وتسب، وتبكي، ولكن هذا لا يُجدي نفعًا. تمر ستة أشهر. الآن أنت على وشك الإصابة بالجنون! وربما تبحث عن طريقة لتقتل نفسك. وفجأةً تسمع باب الزنزانة المُجاورة يُفتَح. ومع ذلك، حتى تلك اللحظة لا تعرف أن هناك زنزانة في الجوار. ولكنك الآن تسمع شخصًا يُلقَى في تلك الزنزانة، رجُلًا ما. ثم بالطبع تحاول التحدث معه. لديك مقعد مرحاض من الصلب في زنزانتك. يمكنك سماع صوت ذلك الرجل عندما تضع رأسك داخل مقعد المرحاض. أولًا تسأل أين أنتما، فيقول: «تعلم أننا في سجن لا يعرف عنه أحد». كما يقول إنه لا يوجد سوى سجناء سياسيين في ذلك السجن. إنه يعرف كل هذا لأنها ليست المرة الأولى التي يأتي فيها إلى هنا، فتحكي له ما حلَّ بك. ثم يتكلم الرجل، يقول إنه من قبيلة لاكوتا مثلك تمامًا، وهو مُتَّهَم بتأسيس منظمة إرهابية. فتتساءل قائلًا: حسنًا، وهل هذا صحيح؟ فيقول لكَ نعم. ويُضيف قائلًا: «ولكن هذه ليست مسألة إرهاب، هذه حرب، حرب يجب شَنُّها من أجل استقلال جميع الشعوب الأصلية في أمريكا الشمالية، لاستعادة أراضيهم!» ومدة عامين ونصف، يخبرك هذا الرجل عن منظمته؛ يشرح أيديولوجيته، والاستراتيجيات التي وضعها، والأماكن التي يُخفي فيها الأسلحة، وخطط عملياته، حتى إنه يقول إنه تم القبض عليه بينما كان على وشك ارتكاب عملياته الأولى. كما إن لديه صديقين في الخارج، وتعلم أنه لم يتم القبض عليهما. ويستمر في إعطائك أسرارًا عن منظمته. ولكن من ناحية أخرى، تسمع أن ذلك الرجل يتعرض للتعذيب كل يوم، لأنهم يحاولون جعل الرجل يتحدث. وأنت تعرف جيدًا إجابات الأسئلة التي يطرحونها، حيث يخبرك الرجل بها كل يوم، بحذافيرها. ولكن الرجل لا يتحدث مع المُعَذِّبين، حتى

إنه لا يتفوه بكلمة واحدة لهم. لهذا السبب يتعرض للتعذيب أكثر، فيصرخ ويبكي. وأنت تضرب الجدران أيضًا، تتوسل إليهم أن يتوقفوا، ويتركوا الرجل وشأنه، ولكن هذا لا يُجدي نفعًا. ثم يأتي يوم ويخبرك الرجل أنه على وشك الموت، فهو يعلم أن جسده الذي تعرض للتعذيب لم يعد يتحمل أكثر، ويطلب منك قطع وعد. يطلب منك رجل على فراش الموت أن تُقسِم... يقول: «إذا خَرَجتَ من هنا... فترأس المنظمة! افعل ما لم أستطع فعله وانتقم لأجدادنا! اقضِ على أمريكا!» فتقسم على هذا. ثم تمر بضع ساعات، ولم يعد يأتي أي صوت من الزنزانة المُجاورة، فتضع رأسك في مقعد المرحاض. تصرخ وتنادي، ولكن لا تأتي الإجابة. في تلك اللحظة تُدرك أنه لم يبقَ غيرك مواطنًا من قبيلة لاكوتا أقسم على الانتقام».

***

كان شاتيلا يستمع بدهشة، فسألتُ قائلًا: «برأيك، هل هذا الأسلوب يُجدي نفعًا؟»

لم يكن يعرف ماذا يقول، فواصلتُ الحديث: «لم تتمكن من تحمل الصرخات القادمة من الزنزانة المجاورة هنا، حتى مدة ثانيتين. تشاستا كان يستمع إلى هذه الصرخات مدة عامين ونصف. هل تعرف ما هو أسوأ شيء يا شاتيلا؟ لا يوجد شيء اسمه زنزانة مجاورة، ولا يوجد سجين كهذا... كل هذا خدعة. هناك رجل غبي من المخابرات العسكرية يتحدث إلى تشاستا. هذا الرجل يستمر في الصراخ، هذا هو عمل الرجل فقط. ثم يذهب إلى المنزل ويتناول العشاء مع أسرته».

قال صبرا: «هذا شيء مُريع!»

قلت: «نعم. بالإضافة إلى أن تشاستا ليس وحده هناك، أو بالأحرى لم يكن كذلك. في البداية كان عددهم ثمانية، ثمانية من السكان الأصليين. بدؤوا في تطبيق هذا الأسلوب عليهم جميعًا في الوقت نفسه. تُسمى طريقة الزنزانة المُجاورة. إنها في الواقع تجربة، ولكنها تجربة غريبة لدرجة أن الشيء الوحيد الذي يحافظ على استمرارها هو اختيار الشخص المحبوس في الزنزانة؛ لأن التجربة يمكنها أن تستمر فقط إذا كان الشخص مُصِرًّا على البقاء في الزنزانة».

تساءل صبرا: «وهل يمكنه الخروج إذا أراد ذلك؟»

- بالطبع. إذا أخبر حراس السجن بما قاله الرجل في الزنزانة المُجاورة لإنقاذ نفسه، انتهت التجربة في لحظة. السبعة الآخرون فعلوا ذلك. البعض فعل ذلك في اللحظة التي قدم فيها الرجل في الزنزانة المجاورة المعلومات الأولى المتعلقة بالمنظمة، والبعض صمد فترة أطول قليلًا. ولكن في النهاية، فَضَّلوا ذلك الطريق، ثم وجدوا أنفسهم في حديقة منازلهم. بالطبع لم يتمكنوا من إخبار أي شخص بأي شيء، لأنهم خرجوا مُخبِرين. تشاستا هو الوحيد من بينهم الذي لم يجرب هذا قط. حتى إنهم قاموا مؤخرًا بتدخل لا يتم تضمينه عادةً في التجربة. لقد عرضوا على تشاستا مخرَجًا لمعرفة مدى ولائه للرجل في الزنزانة المجاورة ولقضيته. قالوا إذا كُنتَ تعرف أي شيء عن المنظمة فأخبرهم واخرج من هنا. مع أن الشرط الأساسي للتجربة هو: يجب أن يصل السجين إلى فكرة المُخبِر بنفسه. فعليه أن يتخذ قراره بنفسه لاستخدام تلك المعلومات التي حصل عليها من الزنزانة المجاورة لمصلحته الخاصة، ولكنهم أفسدوا التجربة. فقط لقياس مدى صمود تشاستا. ونتيجة لذلك، وجدوا تشاستا محاربًا حقيقيًّا!

سأل صبرا نفسه بتَفَكُّر وبصوت منخفض: «من يدري ماذا كنتُ سأفعل؟ هل كنتُ سأتمكن من التحمل؟»

أما شاتيلا، فكان غاضبًا: «لو كنتُ مكان تشاستا الآن لأحرقتُ أمريكا يوم خروجي! أتحدث بجدية. كنتُ سأضرم النيران في الناس، والمنازل، والأشجار، والسيارات، وكل شيء!»

قلت: «هذا ما يريدونه. كل شيء جاهز بالفعل: الأسلحة، والمتفجرات... حتى ذلك الرجل في الزنزانة المُجاورة، لديه صديقان يُفتَرَض أنهما بالخارج؟ هما أيضًا جاهزان. اثنان من جنود المُخابرات من المواطنين الأصليين سوف يتصلان بتشاستا بمجرد عودته إلى المنزل. ثم سيخبرانه أن رأس السنة هي فرصة مثالية للعملية الأولى، وستكون أهدافهم الأولى في ولايتي كاليفورنيا وتكساس في اللحظة نفسها. لماذا برأيكما؟ ما الذي يميز هاتين الولايتين؟»

اندفع صبرا قائلًا: «كلتاهما تحاول الانفصال عن الولايات المتحدة!»

- سبب آخر؟

فأكمل شاتيلا: «تريد كاليفورنيا الانفصال لأنها أكثر ليبرالية من الحكومة الفيدرالية. ولأن تكساس أيضًا أكثر محافظة. بعبارة أخرى: تريدان إعلان الاستقلال لأسباب متناقضة. هاتان الولايتان تمثلان قطبين متناقضين لأمريكا. فبالطبع إذا انفَصَلَتَا تبعتهما ولايات أخرى».

- نعم، ولكن الحكومة الفيدرالية لن تسمح أبدًا بأي انفصال. لهذا السبب ستكون هناك حرب أهلية في أمريكا عاجلًا أو آجلًا. ولكن هناك طريقة لوقفها. ماذا سيحدث إذا تدخل تشاستا ومنظمته المكونة من المواطنين الأصليين فجأة؟ ماذا سيحدث لو قتلوا -في ليلة مثل ليلة رأس السنة- عشرات المدنيين في هاتين الولايتين المتعارضتين سياسيًّا؟ سيتذكر الجميع فجأة إلى من تنتمي الأراضي حقًّا، وممن نُهِبَت. وسيُفهَمُ أن الحرب في الأصل هي حرب على الأرض، وسيتبين أن تلك الحرب التي كان يُعتَقَد أنها انتهت منذ قرون لم تنتهِ قط في الواقع. لذلك ستؤمن كل تلك الولايات أنه يجب عليها محاربة المواطنين الأصليين أولًا، وليس محاربة بعضها بعضًا؛ فيتم تجميد جميع النزاعات بين الحكومة الفيدرالية والولايات على الفور، وأمريكا ستصبح الولايات المتحدة مرة أخرى. وبعد قرون، ستستمر حرب رُعاة البقر الهنود الحُمر من حيث توقفت! بالطبع، أنا متأكد من أن الجنود السود واللاتينيين سوف يلقون أسلحتهم في مثل هذه الحرب، ولكن...

قاطعني شاتيلا قائلًا: «حسنًا، ماذا نحن فاعلون؟»

- هذه المرة كانت هناك نجاسة يمكننا القيام بها! على الأقل سنحاول القيام بها. سنحاول إحداث ثقب في جدار زنزانة تشاستا، حتى يتمكن من معرفة من يتحدث إليه حقًّا، وأنه يتعرض للخداع. ولكن لسوء الحظ علمنا كل هذا متأخرًا جدًّا، لذا لدينا وقت محدود لذلك، بعد ذلك سيكون قد فات الأوان؛ لأن تشاستا إذا لم يرَ هذه الخدعة بأم عينيه، فلن يصدق عند خروجه من الزنزانة أن كل ما عاشه كان وهمًا، بغض النظر عمن سيخبره بهذا. حتى إذا كان هناك شخص يقول إن ذلك الرجل في الزنزانة المجاورة لم يكن موجودًا في الأصل، فإنه سيكون أول من

يستحق الموت في عين تشاستا، لأن الخائن المؤيد للدولة فقط الذي يحاول إثناءه عن قضيته هو من يمكنه أن يقول هذا.

سأل صبرا: «لماذا لا يقوم جنود استخبارات قبيلة لاكوتا هؤلاء بهذه العمليات؟» ثم أضاف: «ما هي حاجتهم إلى إزعاج تشاستا إلى هذا الحد؟»

- لأنهم يريدون حربًا طويلة، حربًا طويلة بما يكفي لجعل الأمريكيين أمة مرة أخرى. لا يمكنك شن حرب كهذه مع أناس يتقاضون رواتبهم ثم يتقاعدون. نعم، يمكنك القيام ببعض العمليات، وتفجير بعض الأماكن، ولكن هذا كل شيء. لكي تكون الحرب مُستدامة، يجب أن تكون هناك كراهية حقيقية؛ لهذا السبب لا يمكنك شن مثل هذه الحرب إلا مع أكبر عدو للولايات المتحدة الأمريكية. اليوم، هذا الشخص هو تشاستا، وهذا هو الغرض من أسلوب الزنزانة المجاورة هذا: خلق العدو الأول للولايات المتحدة الأمريكية. هؤلاء الجنود سوف يساعدون تشاستا فقط في اتخاذ الخطوة الأولى. بعد ذلك، سوف يسير تشاستا بمفرده. في الواقع سوف يؤسس المنظمة، وسيجمع الناس معًا، بعد ذلك سيخطط للعمليات، فلا تنسَ أن تشاستا قد تعلم كل شيء. إنه يعرف الآن كيف يؤسس منظمة مُسَلَّحة، ومن أين يحصل على المال. الأهم من ذلك أن تشاستا لا يزال في عمركما... إنه يبلغ من العمر 28 عامًا فقط؛ وبهذا لديهم رجل سيقاتل مدة نصف قرن على الأقل!

طُرِقَ الباب، ففتحت. ووفقًا للوحة التسمية الموجودة على صدره، كان مدير الفترة المسائية للفندق أمامي.

- مساء الخير. جاءت شكاوى من الغرف المجاورة؛ لقد سمعوا بعض الأصوات. كل شيء على ما يُرام، أليس كذلك؟

قلت: «لدينا حفل غدًا. نحن فرقة أكابيلا. كنا نتدرب». ومن دون انتظارِ رَدِّ الرجل، أغلقتُ الباب، ثم نظرتُ إلى شاتيلا وصبرا. كانا ينظران إلى الأسفل مُحاوِلَين استيعاب ما قلته للتو.

قلت: «حسنًا، يكفي هذا القدر اليوم».

كان شاتيلا يعرف ما يجب عليه فعله؛ جمع الأوراق التي على السرير وألقى بها في سلة المهملات المعدنية. في هذه الأثناء، تحول نظر صبرا

إلى علبة التشيللو الموجودة على الأرض. أشعل شاتيلا عود ثقاب ورماه في سلة المهملات، فكُلُّ شيء كُتِبَ على الورق كان سيُخَزَّن في ذاكرتنا من الآن فصاعدًا؛ لأنه بالنسبة إلى المُضيف لا توجد خزانة آمنة أكثر من الذاكرة. حتى الخزائن الشهيرة تحت الأرض في وسط بروكسل لم تكن آمنة بقدر الذاكرة. ومع ذلك، كنتُ أدفع منذ سنوات إيجار إحدى تلك الخزائن، المكونة من أربعة طوابق تحت الأرض، والواسعة بما يكفي لدخول عربة مُصَفَّحة، مع مدخل يعتقد الناس العاديون أنه جراج؛ لأن بعض الأسرار لا يمكن استيعابها في رأس المرء.

وعندما فتح شاتيلا النوافذ حتى لا يتسبب الدخان المتصاعد في إطلاق إنذار الحريق الموجود في السقف، سأل صبرا بخجل، وهو يشير إلى صندوق التشيللو: «هل يمكنني أن ألقي نظرة؟»

قلت: «لا».

فعبس وجه صبرا.

وقبل ثلاثة أسابيع، وبينما نحن جالسون في شرفة فندق في لوكسمبورغ، رأيتُ شهابًا، ولكنني لم أخبرهم. وبعد فترة وجيزة رأيتُ شهابًا آخر، فالتزمتُ الصمت أيضًا. حتى بعد بضع دقائق تذكرتُ ما يمكن أن يكون هذا الذي رأيته، فاسترخيتُ وبدأتُ أنتظر البقية؛ فكما ورد في الأخبار في ذلك الصباح، تحطمت أجزاء من مذنب كوربيجن-فيشر، الذي يمكن رؤيته من الأرض كل 120 عامًا. لقد دخلوا الغلاف الجوي بشكل متتالٍ وتضاعفوا، تاركين خطوطًا لامعة بشكل غير عادي في السماء في ظلام الليل، وكل هذا كان يحدث خلف صبرا وشاتيلا، فوق رأسيهما مباشرة. لقد كانا مشغولين بمناقشة الأخبار الآتية من يوسي من بيت لحم. لديهما الحق في ذلك أيضًا، لأنه قبل الألفية الجديدة كان الكيان الصهيوني من بين الدول التي كانت تسعى لتحقيق حملات كبيرة. وعلى الرغم من تجربة كل شيء لتحقيق ذلك، فإن الكيان الصهيوني -الذي لم يتمكن من تبخير الشعب الفلسطيني منذ إنشائه- أفرغ قطاع غزة بالكامل في شهر يناير. لقد فعل ذلك من خلال إظهار المدينة المسماة مرعش -التي كانت مغلقة ذات يوم أمام الاستيطان في قبرص- مثالًا للعالم، وجمَّد الصراع الكبير بنفسه بشكل عادل. ولكن العالم أجمع كان يعلم

أنه في الأيام الأولى من الألفية الجديدة سيبدأ الكيان الصهيوني في قرض قطاع غزة بأسنانه الحادة المُسَمَّاة المستوطنين. وهكذا، سيبدأ المواطنون الإسرائيليون الذين جاؤوا لتوهم من جميع أنحاء العالم في الاستقرار في غزة، مثل المهاجرين الأوروبيين الذين داهموا أراضي وطنهم الأصلي في أمريكا منذ قرون. وبالطبع لن يضطر هؤلاء المهاجرون الإسرائيليون إلى محاربة أحد؛ لأن سكان غزة الأصليين قد تم ترحيلهم منذ وقت طويل إلى الضفة الغربية. أما الذين رفضوا الترحيل، فقد قُتِلوا بطبيعة الحال في عملية عسكرية تسمى عملية الدفاع عن النفس، ثم أعلنوا أنهم إرهابيون. ولكن الآن، وفقًا للأنباء التي أخبرنا بها يوسي من بيت لحم، وقعت أحداث غامضة في الضفة الغربية، وتحديدًا حول رام الله. فعلى سبيل المثال، اختفى خمسون فلسطينيًّا نصفهم من الأطفال كانوا يعيشون في قرية جبلية بين عشية وضحاها دون أن يتركوا أثرًا. ونظرًا إلى أن احتمال تعرض هؤلاء الأشخاص للاختطاف من قبل كائنات فضائية منخفض جدًّا، فقد كنا نحاول معرفة الحقيقة في أقرب وقت ممكن، فمنذ شهر يناير تعيش الضفة الغربية بالفعل مصير ما كانت في السابق تُسَمَّى غزة؛ حيث كان الكيان الصهيوني يزود المنطقة بالكهرباء مدة أربع ساعات في اليوم، وكان يبذل قصارى جهده لدفع الموجودين هناك إلى الجنون من خلال تقليص الظروف المعيشية إلى مستويات الجحيم. ولكن اختفاء خمسين أو ستين شخصًا في ليلة واحدة كان أكبر بكثير من مجرد انقطاع للتيار الكهربائي. لقد استطعتُ أن أرى مدى قلق صبرا وشاتيلا؛ ففي جميع الأحوال، حصل هذان الشقيقان على أسمائهما من مخيمات اللاجئين في صبرا وشاتيلا، حيث قُتِلَ آلاف المسلمين في الماضي بأمر من وزير الدفاع الإسرائيلي. وعلى الرغم من أنهما وُلِدَا ونشآ في باريس ولم تطأ أقدامهما فلسطين قط، فإنه لم يكن من الصعب عليهما استخدام كلمات الكيان الصهيوني والإبادة الجماعية في الجملة نفسها. لهذا السبب قالا إنه يجب اتخاذ إجراءات فورية، وأن تقوم المؤسسة بأعمال حفر سرية في المنطقة، وبالتأكيد سيتم الكشف عن مقابر جماعية هناك نتيجة أعمال الحفر هذه. كانا يفعلان ذلك بحماسة شديدة، لدرجة أنني حسدتهما؛ لأنه في صوتيهما اللذين يرتفعان بالغضب وأعينهما التي تنفتح بذهول رأيتُ تلك الإنسانية التي لم أعد أشعر بها بداخلي. ربما لهذا السبب في تلك الليلة في

لوكسمبورغ كانا يُشاهِدَانني أنا والجدار الذي خلفي، أما أنا فقد كنتُ أشاهد وابل شُهُبٍ استمر دقائق. ومع ذلك، كان يكفي أن أشير إلى السماء بإصبع السبابة حتى يتمكنا من الالتفاف والنظر إلى خلفهما ورؤية هذه الظاهرة الطبيعية الفريدة. لم أكن في حاجة حتى إلى التحدث، ولكنني لم أفعل؛ لأنني بعد أن حسدتهما بضع دقائق، بدأتُ في تصميم سيناريو سلام في ذهني، وهذه المرة كان الإلهام مُستوحًى من الشهب. لذلك كنتُ مشغولًا. لا، لا، لا... كان لسلوكي تفسير أبسط بكثير. لم أكن أعرف المُشاركة. لم أكن أعرف مُشاركة الخير ولا الجمال ولا ألمي، لم أتعلم ذلك قط. مع أنني نشأتُ في مؤسسة خيرية! ربما ينبغي أن أقول: لأنني نشأتُ في مؤسسة خيرية.

السترة الواقية وجاسينتا

تم تأسيس مخيم الأمان من قبل منظمة إغاثة دولية تسمى مؤسسة «الكل للجميع»، في الأيام التي كان من المفهوم فيها أن الحرب الأهلية السورية ستستمر قرابة 100 عام على الأقل. لقد كانت واحدة من أكثر المؤسسات الخيرية احترامًا في العالم، فالاحترام كان هو كل شيء بالنسبة إلى المؤسسات الخيرية؛ لأنه بفضل ذلك الاحترام يمكن جمع الأموال من الناس. الغرض الأساسي لأي مؤسسة خيرية هو جمع الأموال، وليس توزيعها؛ لذلك كان أول شيء يجب فعله هو إقناع المتبرعين بالشفافية في إدارة الأموال. ولهذا الهدف كانت تختار مؤسسات مثل «الكل للجميع» أولئك الذين سيعملون على الساحة خصوصًا من الأشخاص الذين يعتبرهم الرأي العام موثوقًا بهم، فكانت جاسينتا من أولوت –مديرة مخيم الأمان– امرأة من بين هؤلاء.

عندما كانت محامية مشهورة متخصصة في قضايا انتهاكات حقوق الإنسان، تَخَلَّت عن حياتها المهنية التي استمرت في برشلونة وبدأت العمل في المؤسسات؛ لأنها سنواتٍ كانت تركض من قاعة محكمة إلى أخرى، ولكن دون جدوى، فلم تستطع الفوز بقضايا التعذيب التي رفعتها ضد الشرطة الإسبانية، ولا إخراج السياسيين –الذين ناضلوا من أجل استقلال كتالونيا– من السجن. لذلك، ما جعل جاسينتا محامية مشهورة ليس نجاحها في القضايا التي ترافعت فيها، بل التصريحات الصحفية التي أدلت بها أمام مباني المحكمة، والتي كادت تبكي فيها وهي توضح كيف تعرض موكلوها للظلم منذ لحظات. لقد قامت القضايا التي قاتلت من أجلها بإعادة تكوين شخصيتها للغاية، لدرجة أنها عاشت في حالة انهيار عصبي سنوات، وعكست على الفور غضبها من الظلم –الذي لحق بموكليها– على عُشّاقها.

لقد وقعت جاسينتا في الحب ثلاث مرات، وفي كل مرة كانت تحاول العيش مع الشخص الذي وقعت في غرامه، ولكن في النهاية كانت تخرج وتغلق الباب، أو تُسَلسِلُ الباب ولا تفتحه، وفقًا للموقف؛ فتركت عشيقها الأول لأنه لم يجمع شعره المتساقط من حوض الاستحمام بعد أن استحم، وتركت عشيقها الثاني لأنه يقود السيارة ببطء، أما عشيقها الثالث، فقد تركته لأنه قال: «في الواقع أنتِ تصرخين في وجهي الآن بسبب ما حدث في تلك المحكمة اليوم، وليس لأنني كسرت هذه التُّحفة عن طريق الخطأ!»

نتيجة لهذه التجارب الملآنة بخيبات الأمل، أدركت جاسينتا أنها لن تكون سعيدة أبدًا مع الأشخاص الذين تعرفهم، لذا قررت أن تُسعِدَ الأشخاص الذين لم تلتقيهم قط. بناءً على هذا تركت كل شيء وراءها، وطرقت أبواب منظمات الإغاثة الدولية. وهكذا، فإن ما لم تستطع فعله في الماضي في المحاكم يمكنها الآن القيام به ومساعدة الناس حَقًّا.

بعد هذا القرار، بدأت جاسينتا الحياة من الصفر في سن التاسعة والعشرين؛ حيث عملت في العديد من المؤسسات وعلى مشاريع مختلفة على مر السنين، واكتسبت المزيد من الصلاحيات في كل وظيفة جديدة التحقت بها. والأهم من ذلك أنه تم الاعتراف بها كشخص موثوق به في منظمات الإغاثة الدولية، لدرجة أنها بعد سبع سنوات من الخبرة علمت أنها بمجرد التحاقها بمؤسسة تسمى «الكل للجميع» سيتم تعيينها مديرة لمخيم للاجئين.

بعد سنوات، وصفت جاسينتا اللحظة التي سمعت فيها هذا العرض على النحو التالي: «كنتُ في السادسة والثلاثين من عمري. كنتُ فخورة بنفسي، ربما لأول مرة في حياتي. خطر على بالي على الفور هؤلاء الأشخاص؛ الأشخاص المُقيمون في ذلك المخيم، الذي كان منزلهم. وأنا سأكون خادمة لهذا المنزل. كان من الجميل أن تتخيل هذا. هل تعرف ماذا فعلتُ بعد ذلك؟ خرجت من مبنى الكل للجميع. لقد كان في مانهاتن... أولًا مشيتُ قليلًا، ثم... هل تتذكر عُشَّاقي هؤلاء؟ الذين كنتُ أعيش معهم؟ اتصلتُ بهم. اعتذرتُ من ثلاثتهم. في الغالب كان هذا هو اليوم الذي علمتُ فيه أنني سأدير مخيم الأمان. تمامًا في ذلك اليوم، كبرتُ بالمعنى الحقيقي. في الواقع، الآن بعد أن أفكر في الأمر، أتمنى لو لم أتصل بأي أحد؛ فما زلتُ لا أستطيع تحمل

السائقين البطيئين! فإذا كنا ذاهبين إلى مكان ما، أردتُ أن أذهب على الفور! إذا كان هناك شيء يجب فعله، فأفعله على الفور! لهذا السبب كنتُ أركض هنا وهناك دون توقف سنوات. ربما توقفتُ أول مرة في حياتي عندما انفجرت تلك القنبلة. ولكنني حقًّا توقفت. لقد توقف عقلي أيضًا، وجسدي أيضًا. لم أكن على سجيتي في الأيام القليلة التالية. هناك جثث، وهناك جرحى، وأشخاص قد قُضِيَ عليهم! كنتُ في حيرة من أمري بأي واحد منهم أهتم. من ناحية كنا ننظف الأنحاء، ومن ناحية أخرى كنا نطلب خيامًا وحاويات جديدة. ولكنني في الواقع كنتُ لا أزال في حالة صدمة من ذلك الانفجار؛ لهذا كنتُ أسأل عن اسم الرضيع وكأنه أهم موضوع في العالم! فقالوا لا نعرف. كيف لا تعرفون؟ لماذا لم تعطوه اسمًا؟ لقد كنتُ غاضبة من الجميع! حتى إنني كنتُ أصرخ! لا أعرف. ربما لم أكبر قط».

مر يومان على العملية، وعلمت جاسينتا للتو من أسبجورن أن الوضع الصحي للرضيع في تَحَسُّن. أما التحقيق الذي بدأته في المخيم للعثور على والدة الرضيع، والمقابلات الشخصية التي أجرتها مع النساء، فظل بلا نتيجة. حتى إن هذا التحقيق قد أدى إلى مشكلة أخرى لم يكن بإمكان جاسينتا توقعها؛ حيث قامت عائلتان من القرية نفسها متعاديتان منذ زمن بعيد بالافتراء بعضهما على بعض على الفور، واتهمت النساء من كلا الجانبين بعضهن بعضًا بالدناءة لدرجة ترك طفلٍ رضيع، مما أدى إلى شجار كبير في المخيم بالكاد أوقفته جاسينتا.

في النهاية لم يكن لدى أي شخص أي فكرة عمن من الممكن أن تكون أنجبت الرضيع الذي تم العثور عليه بين الخيمتين قبل ثمانية أيام. فعُهِدَ بالطفل مؤقتًا إلى امرأة شامية وصلت لتوها إلى المخيم. والمرأة، التي عملت قبل الحرب ممرضة عناية مركزة في أكبر مستشفى بدمشق، كانت تنتظر اليوم الذي ستصبح فيه ممرضة عناية مركزة مرة أخرى في مدينة أخرى بعيدة للغاية في الخيمة التي نصبتها لنفسها. ولكن هذا الاحتمال كان ضعيفًا جدًّا؛ لأن اللاجئين لا يغادرون منازلهم فحسب، بل يغادرون مِهَنَهم أيضًا. ومع ذلك، كانت المرأة تعتني بالطفل بحنان كبير، باهتمام ممرضة، حتى ماتت في الانفجار؛ حيث اخترقت كرات فولاذية جسدها... فقد كان يجري تجديد

لوحدة حديثي الولادة في المستشفى لتوسيعها. وحسب الخطة، كان سيتم الانتهاء من العمل في غضون أيام قليلة ويؤخذ الطفل من الممرضة الشامية ويوضع في تلك الوحدة. ولكن مع انفجار القنبلة، لم يبقَ هناك شيء اسمه خطة. الشيء الوحيد الذي استطاعت جاسينتا فعله هو زيادة الأمن، معتقدةً أنه قد تكون هناك صلة بين المذبحة التي قامت بها الشابة في بالاز والانفجار في المخيم. اعتقدت جاسينتا أن تلك الشابة من مقاتلي جيش الاستشهاد، الحفيد الأيديولوجي لتنظيم داعش، الذي تم تفكيكه قبل سنوات، وأن هذا التنظيم فَجَّرَ المخيم.

وبعد سنوات، عندما علمت حقيقة زرا، قالت جاسينتا: «بكل تأكيد! ففي اليوم نفسه والمنطقة نفسها يُعثَرُ على رضيع وتنتحر فتاة! بالطبع إنها والدة الرضيع! لم أفكر في هذا من قبل. في الواقع، إذا كانت انتحرت فقط ربما كان سيخطر على بالي. ولكننا لم نتلقَّ خبرًا عن انتحار فتاة مسكينة في بالاز. بل سمعنا أن امرأة قتلت خمسة أشخاص ثم أطلقت النار على نفسها. كما إننا لم نكن نعرف حتى عمره. لهذا السبب لم يخطر ببالي قط أنه قد تكون هناك علاقة بين الرضيع والفتاة. إذن فإن الأمر كذلك... أي إن تلك الفتاة لم تكن من مقاتلي جيش الاستشهاد. حسنًا، هل عرفت من زرع القنبلة؟»

كان إدريس –من اللاذقية– هو مترجم جاسينتا الذي لم يكن يُفارقها قط، والذي استهدفت طائرة حربية أمريكية بيته بينما كان يُدَرِّسُ الأدب الأمريكي المُعاصِر في الجامعة التي كان يعمل بها مُحاضِرًا. كان يُتَرجِم كلمات مُديرة المخيم: «يجب تسمية الرضيع».

كانوا يقفون عند باب المستشفى، وكان هناك حشد صغير حول جاسينتا وإدريس. إنه أحد المجتمعات الصغيرة التي تحتشد حول جاسينتا في كل مرة تغادر فيها مكتبها، مجتمع يحتاج دائمًا إلى شيء ما، ويحاول شرح هذه الاحتياجات لمديرة المخيم. كانت لديهم مشكلات أكثر أهمية من تسمية رضيع. ولكن أولوية جاسينتا كانت واضحة. اقترب الشاعر يوسف علي الحلبي من إدريس وقال: «أعتقد أنني وجدتُ اسمًا».

فسأله إدريس: «ما هو؟»

كان يوسف علي ثرثارًا كبيرًا، مثل كل الشعراء البارعين. علاوة على ذلك، كانت كلمات مجال تخصصه –لأول مرة منذ اندلاع الحرب– ستُجدي نفعا. كذلك صمت حشد المُحتاجين الصغير، وأخذوا ينظرون إليه، فعلى الرغم من أنهم لم يكونوا مهتمين باسم الطفل، فإنهم كانوا في مخيمٍ للاجئين، وهذا يعني الجلوس دون القيام بأي شيء طوال اليوم، والشعور بالملل، والتحدث طوال الوقت، أو الاستماع إلى من يتحدثون طوال الوقت. بالطبع في الأيام التي لم يكن فيها انفجار في المخيم.

يوسف علي، الذي كان متحمسًا عندما رأى أنه لفت انتباه المستمعين، أشار إلى المستشفى المُجَهَّز أولًا بيده، ثم تحدث: «هذا الرضيع لم يفعل أي شيء لأي شخص. هذا الرضيع بريء. كم يومًا مر على ولادته؟ ولكن انظروا، ماذا فعل البشر به؟ هل تعلمون لماذا أنا خائف؟ أخشى أن يكبر يومًا ما ويريد الانتقام من البشر، أخشى أن يكبر والكراهية بداخله. سيكون هذا هو التحدي الأكبر للرضيع في الحياة! سيُحارِبُ هذا الرضيع دائمًا ليُبقيَ ضميره مرتاحًا! سيُختَبَر دائمًا بنياته الحقيقية! والآن، دعونا نطلق عليه اسمًا لدرجة أنه لا ينسى أبدًا هذا التحدي. فليكن هذا الاسم حتى يعرف هذا الرضيع أن أغلى ما لديه هو ضميره. فليعرف أن كل شيء هو مسألة نية! فلتكن نياته دائمًا حسنة! فليتذكر هذا الطفل ضرورة عدم الابتعاد عن الطريق الصحيح في كل مرة يُذكَر اسمه. فليكن هذا الاسم...»

لم تعد جاسينتا تتحمل أكثر، فرفعت يدها وأسكتت يوسف علي. فنظر الشاعر الحلبي إلى إدريس وكأنه يريد ترجمة لغة الجسد هذه أيضًا. عندها قال إدريس: «لا تُطِل الحديث، قل الآن!» أكمل يوسف علي الحديث وهو ينظر إلى الناس من حوله: «فليكن اسم هذا الطفل...»

ثم صمت؛ لأنه مثل باقي الشعراء البارعين، يعرف متى من الضروري أن يصمت. تنفس قليلًا وأخذ ينظر إلى الأعين من حوله، ثم تحدث بجدية فيلسوف يشرح معنى الحياة: «فليكن اسم هذا الطفل «ضمير»!»

بالطبع يوسف علي لم يكن يعرف باللغة التركية الكلمات التي تحمل معنى الضمير والنية الخالصة بالعربية؛ ففي النهاية كان شاعرًا عاشقًا للغة العربية، ويعتقد أنه يُسمي طفلًا سوريًّا. ومع ذلك، فإن الاسم الذي يُذَكِّرُنا

بغرائز الحيوانات الوحشية، الذي أطلقه بمهارته الشعرية، تزامن مع مصير الرضيع؛ لأنه على الرغم من أن يوسف علي لم يكن على علم بذلك، فإن كلمة ضمير كان لها أيضًا معنى في اللغة الروسية: «من أجل السلام».

بموافقة جاسينتا تم إعطاء الطفل الاسم. وبينما كان المحتاجون على وشك أن يحيطوا بها مرة أخرى، رنَّ هاتفها. المتصل كان جينا من سان دييغو، التي تعيش في نيويورك، وهي مسؤولة العلاقات العامة لـ «الكل للجميع».

- جاسينتا، الجميع يلغي الزيارات.

كانت تتحدث عن زيارات المخيم، حيث يأتي الممثلون أو الرياضيون المشهورون عالميًّا مع صحفيين للقاء اللاجئين.

- بالطبع خافوا جميعًا عندما سمعوا عن الانفجار. ولكن هناك بشرى سارة! هناك شخص موجود في إسطنبول الآن لتصوير فيلم. هل تعرفين من هو؟ ديريك هالي! لقد تحدثتُ إلى مدير أعماله، ووافق على الفور. ثم اتصل ديريك. لقد قال: «أنا سعيد للغاية، وأود أن آتي على الفور».

- من هو ديريك هالي؟

- ألا تعرفينه؟ يقولون إنه سيكون جيمس بوند الجديد. سيُعلن خلال هذا الشهر من سيكون؟ وديريك بالطبع يريد أن يأتي إلى المخيم من أجل هذا. هل هناك دعاية أفضل من هذا؟ أعتقد أنك ستقابلين جيمس بوند الجديد، لأنني متأكدة من أنه سيتم انتخابه عندما تُتَداول الأنباء حول زيارته المخيم حيث لا يستطيع أحد المجيء إليه بدافع الخوف.

- هل سيتمكن من المجيء بشكل أكيد؟

- بالطبع! حتى إنه يناسبه يوم الغد. لقد رَتَّبتُ كل شيء.

بعد إغلاق الهاتف نظرت جاسينتا إلى ما حولها. في الواقع كانت تفكر أن هذا ليس هو الوقت المناسب لمثل هذه الزيارة. ولكن بعد ذلك رأت العجلة الدوارة، وكانت لا تزال تدور وعليها طفلان. كانا يضحكان كلما تدور؛ فعلى الرغم من كل شيء، كانت الحياة تستمر. ابتسمت جاسينتا واستجمعت قواها،

ثم سارت بأمل نحو فينس، الذي كان يحمل حاوية –مُحَطَّمة جراء الانفجار– على مقطورة شاحنة.

في اليوم التالي في ساعات الظهيرة، دخل الممثل الإنجليزي ديريك هالي إلى مخيم الأمان. كان يرتدي سترة واقية من الرصاص وخوذة على رأسه، فهمست جاسينتا في أذنه: «يمكنك نزع الخوذة».

في البداية لم يستطع ديريك فهم ما أرادت جاسينتا قوله، ولكنه سرعان ما أدرك أنه يبدو جبانًا في تلك الخوذة التي على رأسه مع الأطفال الذين كانوا يُحيطون به وهم يرتدون قمصانًا وسراويل قصيرة وشباشب عارية القدمين، فخلعها على الفور. كما كان على وشك خلع السترة الواقية، حتى ذَكَّرَه مدير أعماله بأن الشركة التي أمَّنَت على إنتاج الفيلم الذي كان يصوره في إسطنبول لن تسمح بهذا.

كان أول مكان يزوره ديريك هو المستشفى، وكان الصحفيون من حوله يلتقطون صورًا له مع كل خطوة يخطوها. ثم دخل المبنى المُجَهَّز خلف جاسينتا، فنظر إلى ما حوله ورأى المُصابين. وكانت جاسينتا تُقَدِّمُ ديريك للمصابين. واستمع ديريك إلى إدريس قدر استطاعته، فلقد كان إدريس يقوم بالترجمة بين ديريك والمصابين الذين يمكنهم التحدث. ثم ذهبوا إلى غرفة العناية المركزة. سارت جاسينتا نحو الحَضَّانة الموجودة في أحد أركان الغرفة ودَعَت ديريك وهي تبتسم. ثم ابتعدت جاسينتا بضع خطوات، بينما سار الممثل الشهير عالميًّا بثقة نحو الحَضَّانة؛ وهكذا سيكون في الصور التي سيتم التقاطها ديريك هالي والطفل في الحَضَّانة فقط. دخل جميع الصحفيين الغرفة، وأخذوا أماكنهم لتخليد هذه اللحظة العاطفية. ذهب ديريك عند الحَضَّانة، ثم توقف، ثم انحنى قليلًا لينظر إلى الرضيع.

بالطبع لم يكن يريد أن يحدث ذلك، ولكن في النهاية كان الإنسان عبارة عن مجموعة من ردود الفعل. وكان عدد النقاط في جسده التي لا يستطيع التحكم في عملها أكبر بعدة مرات من التي يستطيع التحكم فيها. فمثلما لا يستطيع الإنسان التحكم في تدفق الدم في عروقه وعمل أمعائه، فإنه في بعض الحالات لا يستطيع التحكم في وجهه. حتى لو كان مُرَشَّحًا لجيمس بوند!

في اللحظة التي رأى فيها وجه الرضيع المُقَطَّع والمخيط، عبس ديريك هالي بشكل مبالغ فيه، وفتح عينيه وكاد يبكي، ثم سحب رأسه إلى الوراء. كانت جميعها ردود فعل إنسانية حدثت في الوقت نفسه. وكان ضغط الصحفيين على زر غالق العدسة مُتزامِنًا مع تلك اللحظة. لقد فات الأوان، على الرغم من أن ديريك قد استجمع نفسه بعد بضع ثوانٍ ونظر بحنان إلى الرضيع ثم ابتسم؛ لأنه بعد التقاط مئات الصور مع مرضى وأطفال آخرين، لم يتبقَّ سوى إطار واحد فقط على العودة من رحلة ديريك هالي إلى مخيم الأمان. أو بالأحرى، ذكر في التاريخ: صورة ديريك هالي وهو يحدق إلى طفل مُقَطَّع الوجه ومُستَلقٍ داخل حَضَّانة باشمئزاز، وحتى بخوف. مدير أعماله، الذي بذل قصارى جهده لعدم نشر هذه الصورة، لم يستطع القيام بذلك مهما حاول جاهدًا؛ لأن مُديري أعمال المُرَشَّحين الآخرين لجيمس بوند شاركوا أيضًا في نشر الصورة. وهكذا، من المجلات إلى الجرائد المطبوعة بالأبيض والأسود، ومن المواقع الإخبارية الرئيسية إلى منصات التواصل الاجتماعي التي لا يوجد أحد لا يستخدمها، لم يبقَ مكان لم تُنشَر فيه تلك الصورة، وكره العالم الممثل الإنجليزي، فنظر الناس إلى ديريك في تلك الصورة بالطريقة التي نظر بها إلى الرضيع عابس الوجه. وفي النهاية، انتهت المسيرة المهنية لديريك هالي في التمثيل في مخيم الأمان، الذي دخله ليصبح جيمس بوند.

ومع ذلك، بينما أُطفئ نجم بسبب تلك الصورة، وُلِدَ نجمٌ آخر بفضل تلك الصورة: ضمير.

25 من ديسمبر

ما الذي من الممكن أن يحدث أيضًا؟ بالطبع كان كل شيء قذرًا. خلاصة القول: لقد كنتُ في معسكر اعتقال قذر. العنابر، والساحات، والأسِرَّة، والمطابخ، وقاعات الطعام، والمراحيض، كل شيء كان قذرًا، حتى الرجل الذي كان يقوم بالتجول معي -واسمه هيرمان- قذرٌ أيضًا. ولم يكن هناك معنى لوجودي في ذلك المعسكر؛ لأن التقرير الذي كنتُ سأكتبه لن يكون له نتائج ملموسة. على كل حال، لقد كنتُ موجودًا هناك مراقبًا فقط، وهذا يعني عيش فعالية عمل المراقب في تلك التجربة الشهيرة ذات الشق المزدوج؛ فالجسيمات دون الذرية التي تتصرف مثل المادة في أثناء مراقبتها كانت تُظهِرُ خصائص موجية عند غياب المراقب. بمعنى آخر، ستعمل قوانين الفيزياء إذا كان هناك مراقب، وإلا سيبدأ مهرجان الكَمّ. عرضٌ غامض يجعل الناس قلقين بسبب عدم القدرة على حل العلاقات بين السبب والنتيجة! وكان الوضع هو نفسه بالنسبة إلى جميع منظمات المجتمع المدني التي كانت وظيفتها المراقبة؛ فكل شيء بدا على ما يُرام في أثناء وجودهم، وبمجرد أن أداروا ظهورهم وابتعدوا تأزَّمَت الأمور. لذا فإن الوضع الذي راقبوه لا علاقة له بالواقع، لأنهم غَيَّروا سير الأحداث التي شاهدوها في أثناء وجودهم. على سبيل المثال، بمجرد أن تطأ أقدامهم بلدًا لمراقبة التعذيب المنهجي هناك، تصبح جميع حالات التعذيب حوادث منفردة. ولم تخدع منظمات المراقبة الدول فحسب، بل خدعت أيضًا الأشخاص الذين استمعت إليهم كشهود أو ضحايا؛ لأن الجميع أراد استخدامها لمصلحته الشخصية، وكانوا ينجحون في هذا. لذلك، في تقارير المراقبة التي ينشرونها، كانت هناك عشر معلومات خاطئة لكل معلومة صحيحة. وكانت هذه النسبة 1 إلى 10 هي النسبة المثالية لإغراق

الحقيقة. ولقد تعرفتُ على عشرات الأشخاص الذين أدركوا كل هذا على مدار السنين واستقالوا من هذه المنظمات في حالة يأس. استقالوا لأنهم مكترثون، وبطبيعة الحال استُبدل أولئك الذين لا يكترثون بهم؛ أولئك الذين يتقاضون رواتبهم مقابل عدم اكتراثهم. وهكذا، فإن هذه المنظمات التي أَسِّسَت ذات مرة بأهداف سامية تمتلئ الآن بجميع أنواع المُزَوِّرين، باستثناء تلك التي أنشأتها أجهزة المخابرات، فقد كان موظفوها مُزَوِّرين منذ البداية.

نظرًا إلى كل هذه الأسباب، فإن جميع منظمات المجتمع المدني التي يُذكَرُ في أي مكان من اسمها كلمة مراقبة، مثل مراقبة حقوق الإنسان، أو مراقبة حقوق الطفل، كانت تجعلني أشعر بالغثيان فترة طويلة. ولم أفوت قط فرصة للتعبير عن هذا بأعلى صوت ممكن. فعلى سبيل المثال، في العام الماضي تجمعت الظروف المواتية إلى أقصى حد، وقمتُ بما هو ضروري.

لقد حاصر نقيبٌ مع جيشه الصغير وفدًا من الذكور فقط موجودًا في مدينة بورت أو برانس لمراقبة انتهاكات حقوق الإنسان في هايتي، في فيلا كانت ملآنة بالفتيات اللاتي تتراوح أعمارهن بين 12 و13 عامًا. وبالطبع لم يكن هدف النقيب إنقاذ الفتيات من البِغَاء الذي أُجبِرنَ على فعله، بل أخذ الرشوة التي رفض الحراس الشخصيون للوفد دفعها. غير إن تلك الرشوة -التي لم تُدفع في الوقت المحدد- قد تحولت الآن إلى فدية، وزاد المبلغ بشكل كبير. في هذه الأثناء كنتُ في سانتو دومينغو، على الطرف الآخر من جزيرة هيسبانيولا، حيث التقيتُ في صالة انتظار الركاب في مطار بوانت-آه-بيتر أحد أعضاء الوفد الذي أخذه النقيب رهينة. كان دبلوماسيًّا متقاعدًا من ديجون. كان اسمه جين، وقد اتصل بي للمساعدة لأنه عرف أنني قريب. على الرغم من أنني فوجئت بأنه لم يتصل بشخص من السفارة الفرنسية، فإنني اعتقدتُ أنها قضية فدية عادية، وطلبتُ منه إعطاء النقيب الهاتف. كان النقيب أكثر ثرثرة، على عكس الدبلوماسي المتقاعد. وهكذا، عَلِمتُ أن هناك سبع فتيات بعمر الأطفال في الفيلا، وتمكنتُ من فهم سبب استدعائي بدلًا من السفارة. عندئذٍ طلبتُ جين عبر الهاتف، وأخبرته أنني لا أستطيع مساعدته من حيث المبدأ. ولكن -نظرًا إلى حساسية الموقف- قمتُ بالطبع بذلك بطريقة لطيفة: «جين، هل تسمعني؟»

- انظر، أقسم لك، لم نكن نعلم أن الفتيات صغيرات إلى هذا الحد! من فضلك لا تخبر أحدًا! من فضلك!

- حسنًا، دعك من هذا. اهدأ وأنصت إلي.

- أنا مُنصِت.

- ستفعل ما سأقوله لك بالضبط.

- بالتأكيد، بالتأكيد.

- عِدني.

- أعِدك.

- حسنًا... تبًّا لك!

- ماذا؟

- تبًّا لك. متْ هناك!

ما زال في استطاعتي سماع صرخات الرجل الذي في السبعينيات من عمره وأنا أغلق الهاتف في وجهه. وبقدر ما كنتُ أتمنى ذلك، كنتُ متأكدًا من أن النقيب لن يقتل أيًّا منهم؛ فعلى كل حال، لا يقع مثل هذا الوفد المحتمل في يده كل يوم. وبعد نصف يوم من البحث، عَلِمتُ أن الـ 100 ألف دولار التي يريدها النقيب سيتم دفعها من قِبَلِ مُنظمة المراقبة التي ينتمي إليها جين وأصدقاؤه، وأن المال سيتم إحضاره إلى الجزيرة عن طريق رحلة مُجَدْوَلَة من ميامي في حقيبة مضيفة. وأدركتُ أن الأمر سيختفي ويذهب هكذا. لذلك اتَّصَلتُ على الفور بالنقيب، وطلبتُ منه التقاط صور للرجال مع الفتيات، واتفقنا على خمسة آلاف دولار. في اليوم التالي، أخذ النقيب مبلغ 100 ألف دولار وأطلق سراح الوفد، وبعد 48 ساعة، كانت الصور التي التُقِطَت على الصفحة الأولى من صحيفة الفضائح البريطانية دايلي لايف، التي أعرف رئيس تحريرها جيدًا. فكان العنوان الفرعي: «تم ضبط وفد المراقبة الدولية في أثناء ممارسته الفاحشة مع مجموعة من البغايا في هايتي».

وأعطيتُ فكرة المانشيت لأوصل رأيي إلى العالم بخصوص جميع المراقبين المعروفين بشكل عام: «لم نفعل أي شيء، كنا نراقب فقط!»

وبالطبع رغم إصراري التام لم يُذكر اسم منظمة المراقبة في الخبر، ولم تُحَدَّد أعمار الفتيات. في الواقع، كانت وجوه جين والآخرين متجمدة في الصور. ولأنه كما كنتُ أعرف أنا رئيس التحرير كان يعرف مديرو تلك المنظمة صاحب الصحيفة، ونتيجةً للمساومة بينهم، لم يتبقَّ سوى خبر صحيفة كان فيه الجميع مجهولين. لقد شاهدتُ دفن الحقيقة عدة مرات، ومن كثب. وأحيانًا دفنتُ الحقيقة بنفسي؛ لذلك اعتدتُ كل هذا. ما لم أكن معتادًا إياه هو الموقف الذي كنتُ فيه في أثناء زيارتي معسكر الاعتقال هذا بالقرب من فرايبورغ؛ لأنني جئتُ إلى المعسكر واحدًا من هؤلاء المراقبين الذين اعتقدتُ أنهم حقًّا لا يُجْدُون نفعًا. في الواقع، من وجهة نظري كل شخص في العالم كان مُراقِبًا، لأن كل شيء كان يحدث وينتهي أمام أعين الجميع، تمامًا مثل هذا المعسكر، تمامًا مثلما حدث في العملية التي أدت إلى بناء معسكر الاعتقال هذا، والتي كان يشاهدها العالم بأسره في صمت، وربما كان يستمني بين المُشاهِدين. وهذه المرة، غَيَّر تأثير المراقب –المراقب نفسه وليس التجربة– وصنع شخصًا جديدًا تمامًا، جديدًا وفاشيًّا، لأن العيش في ظل دولة فاشية جعل الناس فاشيين بعد فترة.

وقبل عامين، في أثناء المظاهرات، عندما وعد الحزب اليميني المتطرف الذي حكم ألمانيا مدة 14 عامًا –أولًا بالائتلافات ثم بمفرده– أنه سيفوز في الانتخابات مُجَدَّدًا بجهوده لم يدهش أحد. بتعبير أدق: إن الألمان –الذين حاولوا أن يجدوا الأمر غريبًا– لم تُتَح لهم الفرصة حتى للقيام بذلك. فلقد أُعيدوا على الفور إلى منازلهم بفضل هراوات الشرطة وغاز الفلفل، وتم إسكات أصواتهم منذ البداية. لقد قال ممثلو الحزب ما يلي في تلك المسيرات:

«هذه القضية تتعلق بحق الشعب الألماني في تحديد مصيره. حتى إن الأمر يتعلق باستقلال ألمانيا! لذلك، فإن الدعوة إلى طرد الأتراك من البلاد ليست عنصرية، إنها وجهة نظر سياسية تقع في نطاق حرية التعبير.

يعتقد ملايين الأشخاص الذين صَوَّتوا لنا أن الأتراك –الذين لم يتمكنوا من التكيُّف مع المجتمع الذي يعيشون فيه على الرغم من كل الفرص المتاحة لهم– قد دَمَّروا الثقافة الألمانية. لذلك، يجب أن يغادروا جميعًا قبل أن تفقد ألمانيا هويتها؛ أي قبل فوات الأوان!

دعونا لا ننسى أن هؤلاء الأشخاص جاؤوا إلى هذا البلد عُمَّالًا ضيوفًا. ولكن الضيف يعتقد الآن أنه صاحب المنزل! حتى إنه قام بالفعل بتأثيث جزء كبير من المنزل وفقًا لذوقه الخاص، وهذا غير مقبول!

ألمانيا ليست الولايات المتحدة الأمريكية! لا توجد وصمة عار في تاريخها مثل العبودية! فلا يمكنك طرد شخص قُمتَ بتهريبه من إفريقيا وأحضرته ثم أجبرته على العمل لمجرد أنك ترغب في ذلك! ألمانيا ليست فرنسا! فلا يمكنك أن تقول: «ليُغادر العرب فرنسا!» بينما هناك شمال إفريقيٍّ كامل قد مُحيَت لغته وثقافته واقتصاده وكل شيء! ولكن إذا كان هناك عقد مُوَقَّع من قِبَلِ الطرفين بمحض إرادتهما، أمكنك إنهاؤه في أي وقت، فألمانيا –مثل أي صاحب عمل– قد وقعت اتفاقية مع دولة تركيا في الماضي ووَظَّفَت الأتراك. لقد فعلت كل ما يقع عليها كمدير! تاريخيًّا، نحن لا ندين للأتراك بشيء. ما الذي يمكن أن يكون طبيعيًّا أكثر من قيام مُدير بفصل موظف؟ خصوصًا إذا بدأ هذا الموظف في إفساد النظام في مكان العمل، أو حتى تظاهر بالسلطة، فهذا ليس اختيارًا، إنه ضرورة! أولئك الذين ينتظرون منا عاطفة تجاه هذه القضية هم أولئك الذين يريدون أن تنهار ألمانيا!

لن يستعمر المسلمون ألمانيا! لن تتخلى هذه الأمة عن مبادئها. لن تتنازل عن مبادئها باسم التهجين! على سبيل المثال، لن ترى الحجاب أو الجلباب أبدًا جزءًا من الحياة العامة! أولئك النساء ربما لا يثقن بالرجال المسلمين في البلدان التي يأتين منها. هذا خوف مفهوم؛ لأنه في تلك البلدان يتم تربية النساء على ألا يجتمعن بالرجال، ثم ينتهي الاتصال الاجتماعي الأول بينهما إما بالاغتصاب وإما القتل. ففي الأساس، المجتمع الذي يفصل بين الرجال والنساء منذ الولادة يمكنه فقط تربية المُغتَصِبين. ولكن كل هذا قضيتهم، أما هنا، فألمانيا! هل هناك أي رجل ألماني يفكر في اغتصاب امرأة لمجرد ظهور شعرها أو وجهها؟ ما الفرق بين اختباء المرأة بهذه الطريقة وبين الشخص الذي يرتدي سترة واقية في أثناء ذهابه إلى المدرسة أو العمل؟ ما رأيكم إذا جاء جاركم إلى منزلكم مرتديًا سترة واقية؟ إذا كانت السترة الواقية تعني «أنت قاتل مُحتَمَل! أنا خائف منك!» فإن هذا التخفي يعني «أنت مُغتَصِبٌ مُحتَمَل! أنا خائفة منك!» وليس الألماني هو من يخاف من الألمان!

طرد الأتراك من هذا البلد هو حركة دفاع عن النفس. الدفاع عن النفس ليس قومية! الدفاع عن النفس ليس فاشية! الدفاع عن النفس هو صراع من أجل البقاء! ومن أجل البقاء، يجب على ألمانيا التخلص من الأتراك –أكبر تجمع إسلامي على أراضيها– في أقرب وقت ممكن، وتطهير نفسها!

لا يمكنك العيش مع أناس يكرهونك ويكرهون أسلوب حياتك! الأتراك يكرهوننا! أليس لذلك عارضوا حتى زواج أبنائهم من الألمان أجيالًا؟ لم يقبلونا قط كما نحن. لماذا يجب أن نقبلهم؟ فكم يجب أن نُذَلَّ حتى نعود إلى وعينا؟ كيف يمكننا أن نعيش جنبًا إلى جنب مع من يطلقون علينا الخنازير وعديمي الأخلاق، ويطلقون على نسائنا البغايا؟ العلاقة بين ألمانيا والأتراك سامة، ويجب أن تنتهي على الفور!

نريد مخاطبة اللاجئين السياسيين الذين يقولون إن حياتهم أو حريتهم ستتعرض للتهديد في حالة عودتهم إلى تركيا. مكان الناشط السياسي هو البلد الذي يريد تغييره! اذهب وقاتل في تركيا! ألمانيا وطن الأشخاص الذين دفعوا ثمن أفكارهم، وليس الجبناء! إذا كُنتَ لا تريد أن تدفع ثمن ذلك، فإن أفكارك لا قيمة لها مثقال ذرة!

نحن نتخذ خطوة كهذه لإظهار مدى حساسيتنا تجاه القيم الثقافية والتاريخية. سيكون تُركيٌّ من برغاما من بين حراس الأمن العاملين في متحف برغاما في برلين. يمكن لهذا الشخص البقاء في ألمانيا مع عائلته ما دام يريد.

نقول أيضًا للألمان الذين يجادلون بأن الأتراك جزء لا غنى عنه في هذا المجتمع بلغة يمكنهم فهمها: «اذهب إلى تركيا!»

ما يمكن فهمه من هذه الأحاديث أن ألمانيا سلكت طريق اللاعودة. حتى إن ذلك منذ زمن بعيدٍ جدًّا. ولكن خلال كل هذه السنوات كان الأتراك يقولون: «مستحيل! لن يحدث هذا أبدًا في بلد متحضر مثل ألمانيا!» في الواقع، لم يُصدقوا إطلاقًا أنهم سيُطرَدون، لدرجة أنهم كانوا يُعادون من يقول لهم إن ذلك سيحدث عاجلًا أو آجلًا ويحذرهم. ومع ذلك، لو نظروا إلى ما حولهم بدقة أكبر بقليل، لكانوا رأوا أنهم قد طُرِدوا بالفعل، على الأقل في الأذهان؛ لأنه كان هناك ملايين الألمان الذين كانوا يحاولون فترة طويلة عدم ركوب

المصعد نفسه الذي يستخدمونه، أو يغلقون أعينهم ويتظاهرون بالنوم في مترو الأنفاق حتى لا يروا وجوههم، وبالطبع غَيَّروا الأرصفة حتى لا يعبروا جنبًا إلى جنب في الشارع. نعم، ربما لم يعد النازيون الذين ألقوا زجاجات المولوتوف داخل منازلهم عبر النوافذ وأحرقوا الأتراك أحياء -كما كانت الحال في الماضي- موجودين بعد الآن، ولكن هذه المرة ظهرت حركة أخطر بكثير من مجرد العنصرية؛ فالأغلبية -الذين لم يروا أنفسهم عنصريين قط- كانوا يفكرون قائلين: «حاولنا العيش معًا، ولكن ذلك لم ينجح». ولذلك نفوا أن تكون للقضية أي علاقة بالتحيُّز أو العنصرية. بالنسبة إليهم، كان طلب إلغاء مشروعٍ اجتماعي تمت تجربته وأثبت فشله قرارًا منطقيًّا، وليس قرارًا عاطفيًّا. تم إجراء عملية زرع عضو، ولكن الجسم المسمى ألمانيا رفض ذلك. ويتطلب اختلاف النسيج هذا حلًّا تقنيًّا كمسألة تقنية. ومع ذلك، لم يرغب أحد في التصرف قبل الأوان ورفع صوته واتهامه بالعنصرية، كان الجميع ينتظر روح العصر، مجيء اليوم الذي لن يُنظَرُ فيه إلى فكرة طرد الأتراك من ألمانيا على أنها عنصرية. وقد جاء ذلك اليوم. على الرغم من أن الأتراك لم يفكروا قط في احتمالية حدوث هذا، فإنه جاء ببطء عيانًا بيانًا، مثل قطار يقترب من مسافة ألفَي كيلومتر. في الواقع كان من المفهوم أن الأتراك لم يروا وصول ذلك القطار الذي كانوا سيظلون تحته فترة طويلة؛ لأنه لم يكن بوسع أي مجتمع تعرض لعمليات طرد مماثلة ونفي قَسري في التاريخ أن يتوقع مثل هذه الكارثة. في هذه المرحلة، يجب أن يكون هناك العديد من العوامل التي تلعب دورًا في الوقت نفسه، وتجعل الناس مكفوفين وصُمًّا: أولًا: هذا المُخَدِّر الثقيل المسمى الأمل. بعد ذلك شعور الفرد الذي يؤدي جميع واجباته الوطنية بالأمان مثل الأحمق لمجرد أنه يؤدي جميع واجباته الوطنية. وأخيرًا: إيمان غريب بأن البشر لا يمكن أن يكونوا بهذا الغدر.

ربما كان الأتراك مُحِقِّين في التفاؤل؛ لأنه في البداية كانت هناك حلول أخرى على الأجندة، فعلى كل حال، كان هناك سياسيون اعتقدوا أن طرد ملايين الأشخاص من البلاد كان خطوة متطرفة، كما قَدَّموا اقتراحًا آخر وجدوا أنه أكثر إنسانية: إقامة معسكرات استيعاب، كما فعلت الصين مع الأويغور الأتراك في الماضي. وفقًا لهذه الخطة كان سيتم سجن الأشخاص من أصلٍ تركي في تلك المعسكرات، ولن يتم إطلاق سراحهم حتى يصبحوا

ألمانًا ثقافيًا. على الرغم من الترحيب بهذا الاقتراح في البداية، فإن الأشخاص الذين لا يستطيعون تحمل وجود الأتراك ذكروا على الفور مفهوم التُّقية في الإسلام، ودافعوا بقول إن الأشخاص الذين يؤمنون أن لديهم رُخصة للكذب تحت الضغط لا يمكن الوثوق بهم أبدًا. وادَّعى أصحاب الاقتراح أنه بطبيعة الحال لا يمكن لأي إنسان تجاوز برنامج استيعاب قد يستغرق سنوات عن طريق الكذب. ولدحض هذا الادعاء، تم الاستشهاد بأتباع طائفة فتح الله، الذين تمكنوا من الارتقاء إلى رتبة جنرال في الجيش التركي -الذي اشتهر بهويته العلمانية القطعية في ذلك الوقت- من خلال التقية، التي كانوا متيقظين لها في كل ساعة؛ ففي كل ساعة كان الجيش مستيقظًا. ونظرًا إلى أنه لا يوجد برنامج استيعابي يمكن أن يكون أكثر فاعلية من التعليم العسكري الذي بدأ في سن مبكرة وسنوات عمل ضابطًا، تم إغلاق الجدال عند تلك النقطة، وتم التخلي عن هذا الاقتراح.

في النهاية، قالت ألمانيا اليوم لأحفاد الأشخاص الذين كانت تعتبرهم ذات مرة عُمَّالًا، والذين أصبحوا نُوَّابًا أو أطباء، أو معلمين، أو راقصات باليه، أو أفراد مافيا: «انتهى العمل. شكرًا على خدماتكم! الآن يمكنكم العودة إلى المنزل».

الدعاوى المُقَدَّمة إلى المحكمة الدستورية الفيدرالية لإلغاء القانون لم تُجْدِ نفعًا؛ لأنه على مَرِّ السنين خضعت أعلى سلطة قضائية في البلاد لتأثير الحكومة الفيدرالية، واتخذت القرار التالي:

وجود مواطنين ألمان من أصل تركي في ألمانيا تحول إلى مشكلة أمنية عامة. لذلك، اعتُبِرَ تعليق الحقوق الفردية لصالح النظام العام مرة واحدة بمكانة إجراء احترازي عادي.

بالإضافة إلى ذلك، أعلنت محكمة الاتحاد الأوروبي لحقوق الإنسان قرارها بشأن الإلغاء الفوري لقانون الإجلاء القسري هذا بناءً على الدعاوى المقدمة إليها، ولكن ألمانيا لم تهتم، وقالت: «إذا كانت الغرامة بضعة يوروهات، فلندفعها!»

يجب الاعتراف بأن تحقيق ألمانيا عملية كهذه ستكون بداية حقبة جديدة في أوروبا؛ لأنه بالتأكيد سيشجع الدول الأخرى التي تخفي كراهيتها للمسلمين

حاليًّا. لذلك، كانوا جميعًا يشاهدون في صمت بنظرات شغوفة وفضولية، ويحلمون بتطهير القارة بأكملها من المسلمين. وهكذا، يمكنهم البقاء فيما بينهم والعيش بسلام من مشاركة حضارة مشتركة مجددًا كما أرادوا دائمًا، وحتى بدء حرب عالمية جديدة وفقًا لعاداتهم وأعرافهم، وقتل بعضهم بعضًا بكل أريحية.

وفقًا لقانون الوداع، سيتم أولًا سحب جنسية جميع المواطنين الألمان من أصل تركي، ومن ثم ترحيلهم. فكانت الخطوة الأولى هي تحديد من يعود أصله إلى عائلة جاءت من تركيا. سيتم حل هذه المشكلة عن طريق اختبار علم الأنساب الجيني، وسيتم الكشف عن كل من جاء من تركيا –وخصوصًا من أصل تركي– واحدًا تلو الآخر. أما أحفاد الأكراد والمهاجرين من أصول عرقية مختلفة، الذين شعروا بالأمان عند التفكير في أنهم كانوا خارج نطاق القانون في الأيام الأولى من طرحه، فقد تعرضوا لصدمة كبيرة خلال المُباحَثات البرلمانية، لأن المادة المُضافة إلى القانون في اللحظة الأخيرة كانت واضحة: بغض النظر عن أصله العرقي، فإن القادم من تركيا يعود إلى تركيا.

لقد أوضح المتحدث باسم الحكومة الفيدرالية هذه المادة على النحو التالي:

«لقد قلنا مرات عديدة إننا لسنا عنصريين. لذلك، لا يمكننا القيام بأي تمييز على أساس الأصل العرقي بين أولئك الذين سيتم ترحيلهم. حتى إننا غيرنا تعريف الأصل التركي في المادة كأصل يعود إلى تركيا لهذا السبب فقط».

السؤال الوحيد الذي كان يمكن طرحه في المؤتمر الصحفي نفسه كان عن العائلات الأرثوذكسية من أصل تركي، حيث تم منحها موافقة سابقة. وأضاف المتحدث باسم الحكومة أن هؤلاء الأشخاص يمكنهم بالطبع البقاء في ألمانيا، ولكن إذا اعتنق أي شخص المسيحية لمجرد الاستفادة من مثل هذا الاستثناء فسيتم الكشف عنه بالتأكيد في التحقيقات، وسيُحكَم على من يلجؤون إلى مثل هذا الاحتيال بالسجن بتهمة الحنث باليمين قبل ترحيلهم.

أما البقية، فكانوا أولئك الذين من أصل تركي وتزوجوا من ألمان وأنشؤوا أُسَرًا، وأولئك الذين وُلِدوا من هذه الزيجات. وقد كان رأي الحكومة بشأن

هؤلاء الأشخاص في غاية البساطة أيضًا: «بالطبع سيذهبون أيضًا!» وكان رأي الحكومة بشأن الأزواج الألمان أكثر بساطة: «هل يمكن لألمانيٍّ عاشقٍ لتركي أن يكون له مكان في ألمانيا؟ لا».

كان يعيش في ألمانيا نحو خمسة ملايين شخص من أصل تركي. لذلك لم يكن من الممكن جمعهم على متن طائرات أو قطارات وترحيلهم دفعة واحدة. من أجل تنفيذ هذه العملية العملاقة، كان عليهم إنشاء معسكرات، حيث يمكنهم إحضار كل هؤلاء الأشخاص.

عندئذٍ قرروا إنشاء مئة معسكر لكل خمسة آلاف شخص في أجزاء مختلفة من ألمانيا. كان سيجتمع 500 ألف شخص في هذه المعسكرات، وسيتم حل قضية إلى أين وكيف سيتم ترحيلهم من خلال تخطيط طويل، يشمل المفاوضات مع تركيا، وسيتم ترحيلهم. ثم كان سيدخل 500 ألف شخص آخرون إلى تلك المعسكرات. حتى تصبح ألمانيا ألمانيا مرةً أخرى.

كانت الحكومة الفيدرالية تشارك هذه الخطة بأكملها مع الرأي العام بشفافية مبالغ فيها؛ حيث تم تقديم معلومات حول طريقة عمل اختبار الأنساب، الذي سيتم إجراؤه على الـ DNA، والزي الرسمي لوحدة الشرطة الخاصة المُشَكَّلة حديثًا، والمُكلفة بالقبض على أولئك الذين سيهربون. كان سبب قيامهم بذلك هو تخويف الناس قدر الإمكان، وجعلهم يغادرون ألمانيا بمفردهم في أسرع وقت ممكن. وبالتالي، سيتم تخفيض عدد الهاربين الذين ستطاردهم الشرطة في المستقبل والنفقات التي ستُنفَق. حتى المتحدث باسم الحكومة قام بالتصريحات التالية بخصوص هذه القضية:

«نحن نعلم مدى وعي الأشخاص ذوي الأصل التركي. لذا قبل أن نقوم بترحيلهم، سيختارون مغادرة هذا البلد. كما نعلم أيضًا مدى عزة نفسهم. وأنا متأكد شخصيًّا من أن أي شخص تركي لن يبقى ثانيةً على أرضٍ لا تريده!»

في الواقع لم أكن أرغب في البقاء في ذلك المعسكر ولو ثانية واحدة، ولكن لم يكن هناك الكثير الذي يمكنني فعله؛ لأنني كنت مشغولًا بالاستماع إلى هيرمان في ذلك الوقت. بتعبير أدق: كنتُ أنتظر أن يصمت هيرمان، الذي كان يصف الأرضية الخرسانية التي نقف عليها، والخطوط البيضاء عليها،

والسلال على كلا الجانبين بحماس كبير، كما لو كان أول ملعب كرة سلة تم بناؤه في العالم. ولأن لدي سؤالًا، فقد صَمتُّ.

- حسنًا، من سيكون الحراس؟

- المُرافقون... نُطلِقُ عليهم المُرافقين، وليس الحراس.

- على كل حال!

- في الواقع لا نريد أن تكون هذه المسألة مصدرًا آخر للتوتر؛ لذلك لن يكون المرافقون ألمانًا. لقد قررنا إحضار أشخاص يقومون بهذه المهمة من تركيا. حتى إن سفارتنا في أنقرة قد بدأت العمل على هذا الأمر. سيتم التوظيف هناك، ثم المُرشحون المُؤهلون.

لم أستطع التحمل فقاطعت كلامه: «ولكن، ما لا يقل عن نصف الأشخاص الذين ستحتجزونهم هنا لا يتحدثون التركية».

- نعم، بالطبع. لهذا السبب سنفعل ما يلي... كما تعلم، يوجد في العديد من الجامعات في تركيا أقسام ترجمة ولغة ألمانية. سنُوظِّف الخريجين من تلك الأقسام، ثم سيخضع هؤلاء الأشخاص لتدريب خاص، و...

لم أستطع التحمل مرةً أخرى، وقاطعت كلامه: «لقد فَعَلتُم هذا من قبل».

- ماذا؟

- لقد عَيَّنتُم الكابو اليهود رؤساء على المساجين اليهود.

هل يمكن الادعاء بأنني أنهيتُ النقاش في تلك اللحظة لأنني قارنتُ كل هذا بما فعله النازيون في الماضي؟ بالتأكيد. ولكني لم أهتم؛ لأنه في رأيي لا يمكن أن يكون هناك وقت ومكان أفضل للحجة النازية. لقد قلت للذي أمامي: «أنتَ نازي!» ولم يكن مُدَرِّسًا صارمًا أو مديرًا متجاوزًا الحد. لقد كان ممثلًا الحكومة مُصَمِّمًا على طرد ملايين الأشخاص من منازلهم. علاوة على ذلك، شَكَّلَت تلك الحكومة البنية التحتية الأيديولوجية لهذه العملية برُمَّتِها بمفهوم المجال الحيوي، وهو أحد أسس النازية. ويا لها من مصادفة! لقد ظهر هذا المفهوم –الذي يعني مساحة المعيشة– مرة أخرى في نهاية القرن. لقد كان لغمًا تُرِكَ لتاريخ فكر دولة الرايخ الثاني (الإمبراطورية الألمانية) التي كانت تحلم بتوسيع حدودها في تلك الحقبة. كما إن السياسة التي أُنتِجَت

على أساس مفهوم المجال الحيوي صَوَّرت للمستوطنين الألمان الانتقال إلى الأراضي الاستعمارية والانتشار في تلك المناطق. وهكذا، فإن مساحة المعيشة الألمانية سوف تتوسَّع أضعافًا مُضاعَفة. والآن، وفي نهاية قرن جديد، أو حتى ألفية جديدة، سعت الدولة الألمانية لزيادة مساحة معيشتها. ولكنها كانت تحاول هذه المرة القيام بذلك داخل البلاد، وليس خارج حدودها. لذلك كانت مستعدة لفعل أي شيء لاستعادة مساحة المعيشة التي اعتقدت أنها فقدتها. فكانت ستطبق أولًا قانون الوداع، ثم تحتفل بقدوم الألفية الجديدة بآمالٍ كبيرة في المستقبل. ولم تكن ألمانيا وحدها في هذا الأمر. كانت هناك العديد من الدول تحاول اتخاذ وتنفيذ قرارات جذرية، وربطت هذه الجهود بقدوم الألفية الجديدة. على كل حال، كان الشخص الذي أسس الدولة كائنًا غريبًا، فكان يقرر إجراء تغييرات في حياته في كل ليلة رأس سنة. ربما لأنه كان يرتكب الأخطاء باستمرار، فكان يحتاج إلى بدايات جديدة باستمرار. ولا يمكن أن تكون هناك بداية جديدة أفضل للإنسان من عام جديد. ومع ذلك، فإن الناس والدولة لم يتقدموا في العمر بالمعدل نفسه. مثلما يعادل الكلب البالغ من العمر عامًا واحدًا الإنسان البالغ من العمر 7 أعوام، فإن الدولة البالغة من العمر عامًا واحدًا تعادل الإنسان البالغ من العمر 70 عامًا. بالطبع ليس من حيث النضج، لأنه على عكس الكلاب، لا يمكن للدول تَعَلُّم شيء مُطلَقًا –حتى لو تعلمت شيئًا، فإنها تنساه بسرعة–، بل تتقدم في السن فقط. لذلك، فإن كل المشاريع التي أرادت الدول تنفيذها في بداية كل قرن جديد كانت في غاية الغباء. علاوة على ذلك، لم يكن هذه المرة قرنًا جديدًا فحسب، بل كان أيضًا ألفية جديدة. لقد كانوا متحمسين للغاية لهذا التغيير في التقويم، الذي يمكن لأجيال قليلة أن تُعادِلَه، لدرجة أنهم كانوا يتخذون قرارات أكثر غباءً من أي وقت مضى؛ فكانوا يبحثون عن ولادة جديدة، بخلاف البداية الجديدة. كانوا مثل مجرمين يحلمون بعملية تجميل وبدء حياة جديدة بهوية مزيفة! لهذا السبب، بينما يتخذ الناس قرارات بشأن الإقلاع عن التدخين، وممارسة الرياضة، وتناول الطعام الصحي، والعيش أكثر انضباطًا في الألفية الجديدة، كانت تُقسِمُ الدول قائلة: «لم أعد أهتم بأي شيء! من الآن فصاعدًا سأفكر في نفسي فقط! سأعيش فقط لنفسي!» بالطبع لن يكون الأمر مأسويًّا إلى هذا الحد إذا قالت ذلك أمٌّ مُحبَطة أو أبٌ في سن اليأس غاضِبَين من أطفالهما.

ولكن عندما قدمت دولة وعدًا كهذا لنفسها، نتج عن هذا مشروع مثالية إنجلترا، أو ممارسات مماثلة لما فعله النازيون في الماضي. ولكن بالطبع لم يؤيد هيرمان هذا.

- انظر، كما ذكرت حكومتنا؛ هذه المعسكرات ليس لها علاقة بمعسكرات الاعتقال في الماضي. كما ترى، كل شيء موجود هنا. فالواقع هنا عبارة عن غرفة انتظار كبيرة لا أكثر، ولن يُجبَرَ أحد على العمل هنا. سيأتي الناس إلى هنا ويبقون بضعة أشهر، ثم يُرحَّلون. لهذا السبب، مثل هذا التشبيه عدوانيٌّ للغاية، ونحن أبدًا...

بالطبع لم أتحمل مرة أخرى، وقاطعتُ كلامه: «سوف تُوقِعون بين الناس!»

- لا، لا! على العكس تمامًا، فإن هدفنا هو تسهيل حياة الناس. صدقني، هذا هو هدفنا الوحيد. هيا بنا، لنكمل.

لم أعد أفكر في مقاطعة هيرمان، مهما قال.

- بالمناسبة، نسيتُ أن أخبرك. لقد استعددنا أيضًا في حالة وصول ضيوفنا في وقت مبكر أكثر مما نعتقد وقضاء ليلة رأس السنة هنا. سنُزيِّن هذه الساحة بأكملها، وغرفة الطعام، وكل مكان.

- بالطبع سيُحبُّها الأطفال أيضًا.

في الواقع كان هيرمان يُخاطِرُ بحَظِّه، ولكنني كنتُ مُصِرًّا على التزام الصمت.

- نعم، لدينا ملعب لكرة القدم هنا كما ترى. هل تلعب كرة القدم؟ أنا أحبها كثيرًا! بالإضافة إلى ذلك...

أخذ يُطيل في الحديث، أما أنا، فقد بدأتُ في عدم الاستماع، وتظاهرتُ بالإنصات. أعتقد أنه كان يتحدث فترة من الوقت عن كونه من مشجعي نادي شالكه. لقد أصبح صوته منقطعًا تمامًا في ذهني، وكنتُ منغمسًا في عالمي الخاص عندما رن هاتفي. وهكذا، كان عليَّ أن أعود إلى عالم معسكر الاعتقال. لم أكن أعرف المتصل، في العادة لا أفعل ذلك، ولكن في تلك اللحظة كنتُ أشعر بالملل لدرجة أنني ابتعدت بضع خطوات وأجبت. كان رجلًا، ويتحدث التركية.

- اخرج من هناك فورًا!

نظرتُ إلى هيرمان –الذي كان يتظاهر بأنه غير مهتم بي– وسألتُ: «مع من أتحدث؟»

لم يأتِ أيُّ رد، وأُغلِقَ الهاتف. أيًّا كان المتحدث، فقد وجب عليه معرفة أنني أريد الخروج من هناك على الفور. لحظة وجيزة فَكَّرتُ: هل كنت أنا المتصل؟ هل اتصلتُ بنفسي؟ هل تحدثتُ مع نفسي عبر الهاتف؟ هل كان كل هذا حلمًا؟ بالطبع لا؛ لأن هيرمان كان يقف أمامي وينظر إلى وجهي وهو يستمر في الابتسام. قلت له وأنا أسير باتجاهه: «هذا يكفي. لقد رأيتُ ما يكفي».

- كما تريد. حسنًا، ماذا ستكتب في تقريرك؟

كنتُ سأقول: «سأكتب أن جميع النواب الذين صَوَّتوا لهذا القانون، وأولئك الذين صوتوا لهؤلاء النواب، وأنت بشكلٍ خاص؛ جميعكم أبناء عاهرة!» ولكن الأرض اهتزت. لقد رأيتُ ثقبًا في جدار مبنى غرف النوم، الموجود على بعد ملعب كرة سلة بيننا، مصحوبًا بضوضاء صاخبة. لقد تحطمت نوافذ المبنى، وتساقطت أجزاء على الأرضية الخرسانية مثل شلال من الكريستال. لا أعرف لماذا، ولكن صوت القنبلة بدا مألوفًا. ربما كان صوتًا من الماضي. وربما... وربما لا. لقد كانت بالتأكيد متفجرة مصنوعة يدويًّا.

كان هيرمان جاثمًا على الأرض، يُحَدِّق إليَّ في ذهول، أما أنا، فقد بقيتُ واقفًا بلا حركة في أثناء الانفجار، لأن عقلي كان في مكانٍ آخر. كنتُ أفكر في أن ألتحق ببرنامجٍ تدريبي حتى لا أستخدم الشتائم المتحيزة جنسيًّا، ولكن بعد ذلك تخليتُ عن هذه الفكرة. وبدلًا من ذلك، قررتُ الانتظار حتى تتطور اللغات التي أتحدثها لتتجاوز التحيُّز الجنسي في الشتائم. ثم رَنَّ هاتفي. كان يمكنني تخمين المتصل. أيًّا كان المتصل، فقد كان يجب أن يكون قلقًا من أن الوقت قد فات لتحذيري. أجبتُ على الهاتف. هذه المرة كنتُ أول من تحدث: «لا تقلق، لم أمت».

لا بد أنه سمع ما أراد سماعه؛ لأنه أغلق الهاتف دون أن يتفوَّه بكلمة واحدة. كانت تتدفق الدموع من عيني هيرمان ويرتعد خَدَّاه. لقد كانت اللحظة المثالية للابتسام، ولكنني بالطبع لم أستطع الابتسام. حينها رأيتُ

سحابة من الغبار الخرساني الرمادي ترتفع فوقنا من نقطة الانفجار. وفي ثوانٍ، كان سيُغطي هذا الغبار وجهي وكل مكان بي، فكان عليَّ أن أغلق عينيّ. عندما أغلقتهما، لم أعد قادرًا من الناحية التقنية على المراقبة. لذلك، كانت هذه المهمة الذميمة ستنتهي من تلقاء نفسها. لقد كنتُ سعيدًا جدًّا في تلك اللحظة، لدرجة أنني فكرتُ في أنني يجب أن أتصل بطبيبي وأشكره على قدرتي على خفض جفني. رن هاتفي مُجَدَّدًا، ولكنني لم أتمكن من الرد لأن يديَّ كانتا مشغولتين جدًّا بحماية وجهي. واعتقدتُ أنه لن يضر الاستماع إلى الأغنية –التي بدأت في الارتفاع من الجيب الداخلي لسترتي– فترة أطول قليلًا من أي وقتٍ مضى، حتى إنني تمنيتُ أن يكون المتصل شخصًا مُضطَرًّا ومتشوقًا إلى التحدث معي. وبهذا لن يتوقف عن جعل الهاتف يرن حتى يسمع صوتي، وسيتصل بشكل متكرر، وسأستمع أنا إلى الأغنية قدر الإمكان. على مدار العامين الماضيين كان هاتفي يرن بأغنية تسمى بلاك سابث. أعتقد أنها كانت مناسبة تمامًا لنغمة رنين الهاتف، وخصوصًا نغمة رنين هاتفي؛ فعلى كل حال، كانت للأغنية نفس نغمة الأخبار التي أتلقاها، والمحادثات التي أجريها عبر الهاتف، وفي كل مرة يتم تشغيلها كانت تذكرني بما سأواجهه بعد قليل. على سبيل المثال، فلقد كنتُ مدفونًا الآن في سحابة الغبار، وكانت أغنية بلاك سابث هي المُرافق المثالي مرة أخرى. لم أكن أعرف من يغني الأغنية. احتمالٌ كبير أنها تعود إلى فرقة قديمة. وربما كانت هذه أغنيتهم الوحيدة، من يدري؟ وبينما تخترق ذرات الغبار جميع مسامي المفتوحة مثل الإبَرِ الصدئة، كنتُ أفكر في اسم الفرقة التي لَحَّنَت مثل هذه الأغنية؛ لأنني لم أرغب في التفكير في أي شيء آخر في تلك اللحظة. ومع ذلك، كنتُ مضطرًا إلى إبعاد شفتي والانحناء للغثيان الذي بدأ في معدتي، حيث ضرب الضغط الناتج عن الانفجار معدتي مثل قبضة اليد. وكما أخبرتُ مونيكا من لاجوس عبر الهاتف، كان بإمكاني حقًّا أن أكتب في تقريري عن المعسكر: «لقد أتيتُ ورأيتُ وتقيأتُ».

الانتحار وجينا

كانت جاسينتا في قاعة الاجتماعات، في طابق إدارة إحدى المستشفيات الخاصة بإسطنبول. وعلى الرغم من أنها كانت تجلس أمام جينا، من سان دييغو، التي وصلت للتو من نيويورك، فإن عقلها كان في مخيم الأمان. وكانت قد اضطرت إلى إيداع الرضيع ضمير في هذا المستشفى بأمر من إدارة مؤسسة الكل للجميع، والقدوم إلى إسطنبول من أجل القيام بأعمال العلاقات العامة التي يتعين القيام بها بعد ذلك؛ لأن ضمير تحول إلى منجم ذهب بسبب انتشار صورته التي التُقِطَت مع ديريك هالي في كل أنحاء العالم. وقد كانت جينا هي الشخص الذي سيُخرِجُ الذهب من هذا المنجم. لهذا السبب كانت متحمسة للغاية رغم مشقة الطريق، وكانت تتحدث بسرعة مثل جميع البُلْه الذين يظنون أنفسهم مقنعين لكونهم يتحدثون بسرعة.

- هناك كثيرون يبحثون عن ضمير! في اليابان، وفي كندا، وفي كل أنحاء العالم... حتى إن الحكومات تبحث عنه! ويتساءلون ماذا بوسعنا أن نفعل من أجل ضمير. وهناك من يقولون لنأخذ هذا الرضيع ولنتكفل بعلاجه ورعايته وجميع مصاريفه. حتى إن هناك من يريدون تقديم منحة دراسة جامعية له من الآن. إننا نمر بمرحلة مهمة للغاية بالنسبة إليه. علينا أن نفعل الأمر الأنسب لضمير. هل تفهمين ما أعنيه؟

قالت جاسينتا: «نعم، بكل تأكيد! حسنًا، هل اتخذتم قرارًا؟ ماذا ستفعلون؟»

- سوف نطلق حملة. وستستهدف هذه الحملة الأطفال الرضع فقط.

- هل ستكون من أجل الأطفال الصغار؟

- لا، لا. هناك بالفعل العديد من الحملات التي تستهدف الأطفال الصغار. والمنافسة في هذا المجال على أشدِّها.

«منافسة؟ أي منافسة؟!» كان من الممكن أن تطرح جاسينتا هذا السؤال، ولكنها لم تفعل؛ لأنها اعتقدت أن هذه الكلمة زلة لسان. وواصلت جينا حديثها: «سوف نركز على الرُضَّع المصابين في الحرب في سوريا فقط. لمن هم دون سن عامين. وسوف نسعى لجمع المال بقدر الإمكان، ثم بهذه الأموال سنضمن إخراج هؤلاء الرضع من منطقة الحرب وتنشئتهم في بيئة آمنة وتعليمهم تعليمًا جيدًا».

عندئذٍ تساءلت جاسينتا: «وماذا عن الأُسَر؟»

- ماذا؟

- ماذا عن أُسَرِ هؤلاء الرُّضَّع؟

- أولويتنا ستكون للرُضَّع الذين لا أُسَرَ لهم.

- ولكن بكل تأكيد لهم أقارب؛ لذا لا يمكنكِ أخذ الرضع والذهاب كيفما شئتِ!

كانت جاسينتا تعتقد أن جينا ليست على دراية تامة بالواقع السوري، فكانت تريد أن توضح لها التالي: إن الرُّضَّع لا يُلقون في شوارع سوريا على الأرض مثل إطارات السيارات، ولا ينتظرون من يحتضنهم ويحملهم إلى فيينا أو واشنطن. ولكن من الواضح أن جينا لم تكن تريد أن تفكر في هذا في هذه المرحلة.

- دعينا لا نفكر في هذا الآن يا جاسينتا. إن هذه أمور تقنية. لنركز على الرضع. أو بتعبير أدق: لنركّز على الحملة التي سنطلقها من أجل الرضع.

سألتها جاسينتا: «حسنًا، ماذا تريدين مني؟»

- نريدكِ ألا تفارقي ضمير طوال الحملة. سيأتي الصحفيون والإعلاميون إلى هنا، وستُجرين لقاءات معهم. ستحكين لهم عن الانفجار الذي حدث في المخيم، وتخبرينهم كيف تم إنقاذ حياة ضمير من خلال العملية التي أُجرِيَت له في مستشفى المخيم. وبعد ذلك...

ثم قاطعت جاسينتا كلام جينا قائلة لها: «إلى متى ستستمر هذه الحملة؟»

- شهرًا على أقصى تقدير.

- مستحيل. يجب أن أعود. الناس ينتظرونني هناك.

- بكل تأكيد سوف تعودين. ولكننا الآن في حاجة إليكِ هنا.

- غالبًا أنتِ لم تفهميني! ينبغي لي العودة بشكلٍ عاجل إلى مخيمي! ولذا...

كانت جينا أيضًا في عجلة من أمرها؛ لهذا قاطعت جاسينتا باحترافية، وقالت: «إن هذا المخيم ليس مخيمكِ يا جاسينتا. إنه تابع لمؤسسة الكل للجميع. لنوضح هذا أولًا. إنني أتفهم جيدًا مسؤوليتك تجاه الأشخاص الموجودين في المخيم هناك. ولكنهم لا يدفعون راتبك؛ لذا مسؤوليتك الرئيسية تجاه المؤسسة. لهذا فإننا نطلب منكِ بصفتنا مؤسسة الكل للجميع أن تبقي هنا وتدعمينا طوال الفترة التي نحتاج إليكِ فيها».

صمتت جاسينتا بلا حول منها ولا قوة بعد أن انهالت الحقائق كالصفعات على وجهها. وسألتها جينا: «هل تريدين أن تدعمينا؟»

فهمهمت جاسينتا قائلةً: «نعم».

رَدَّت جينا: «شكرًا لكِ. إذن لندخل في التفاصيل. ما أريده منكِ هو ألا تقولي في هذه اللقاءات الصحفية إنه عُثِرَ على الرضيع في هذا المخيم».

- لماذا؟

تجاهلت جينا هذا السؤال وواصلت كلامها: «ستقولين إننا عثرنا على الرضيع تحت أنقاض بناية في منطقة نزاع قريبة من المخيم. حتى إننا وضعنا تصَوُّرًا لما ستقولينه عن لحظة العثور عليه، وهو كالتالي: كما قلتُ لكِ، ستقولين إن هناك نزاعًا في منطقة قريبة من المخيم، وإنكِ ذهبتِ مع فريقكِ إلى هذه المنطقة لمعرفة ما إذا كان هناك شخص في حاجة إلى المساعدة. وهناك حدثت المعجزة، وعَثَرتِ على الرضيع. ما رأيكِ؟ أعتقد أنها فكرة جيدة للغاية. هل اتفقنا؟ لن تَنسَي ما قُلتُه هذا، أليس كذلك؟»

لم تستطع جاسينتا السيطرة على نفسها، ورفعت صوتها وكأن آثار الصفعات التي أخذتها منذ قليل قد زالت: «أتريدين مني أن أكذب؟»

ونظرًا إلى أن جينا لم تكن على علم بماضي جاسينتا، فقد سألتها بكل هدوء: «هل هناك مشكلة بالنسبة إليكِ؟»

- بالطبع!

نظرت جينا إلى جاسينتا لحظة، ثم أحنت رأسها وفتحت الملف الموجود أمامها وبدأت تُقَلِّبُ صفحاته. لم تكن جاسينتا تعرف ما معنى تصرف المرأة التي أمامها هذا وما المغزى منه. وبعد أن ساد الصمت عدة دقائق، فكرت جاسينتا وناجت نفسها قائلة: ربما جوابي المكون من كلمة واحدة كان كافيًا. وربما تكون جينا تشعر بالخجل الآن لأنها طلبت مني أن أكذب حتى إنها لا تستطيع النظر إلى وجهي، ولذا تظاهرت بأنها مهتمة بالملف الموجود أمامها. وبينما جاسينتا تفكر في هذا، دفعت جينا الملف الذي أمامها نحو جاسينتا وأشارت إلى الصفحة المفتوحة.

- هذا عقدكِ. ووفقًا لهذا العقد يمكننا إنهاء علاقتك بمؤسسة الكل للجميع اليوم. سأُجري الآن مكالمة هاتفية مع نيويورك، وسيتم إنهاء بعض الإجراءات الورقية الخاصة بكِ، وبهذا ينتهي عقدكِ ويصبح في خبر كان. ويمكنكِ إنْ أردتِ أن تخرجي من هنا وتذهبي إلى المخيم، ولكن ستذهبين زائرةً فقط. بالطبع إذا استطعتِ الحصول على إذن. ولكنني لا أعتقد ذلك؛ لأنه كما تعلمين، الأعمال مؤخرًا في المخيم كثيرة للغاية؛ لهذا السبب لا يمكنهم الموافقة على استقبال الزائرين!

في أثناء حديث جينا، كانت جاسينتا تنظر إلى العقد الموجود أمامها، ولكنها لم تكن ترى المكتوب؛ لأنها بمجرد أن سمعت أول جملة لجينا، سرحت جاسينتا. لقد كانت تفكر في التهديدات التي تلقتها حتى هذا اليوم؛ فقد تلقت عشرات التهديدات بالقتل في أثناء عملها محامية في قضايا حقوق الإنسان، حتى إنه كان هناك من يتصلون بها بإصرار يوميًّا ويهددونها بقولهم إنهم سيغتصبونها، أو سيحرقون بيتها ويسببون إعاقة لوالدتها. ولكن جاسينتا لم تتلقَّ تهديدًا قط من موكليها الذين كانت تحاول مساعدتهم، فلو كان حدث ذلك بالطبع كانت ستشعر بهذا الشعور؛ ستشعر كما لو أنها تعرضت للخيانة. لقد كان صوت جينا العالي هو الذي رفع الضباب الذي أمام عينيها وسمح لها برؤية العالم مرةً أخرى.

- ولكننا لا نريد أن نفعل هذا يا جاسينتا! نحن نريد العمل معكِ! ولكنكِ تعرفين أن هناك فرقًا كبيرًا جدًّا بين طفل تُرِكَ في مخيم وطفلٍ خرج من تحت أنقاض بناية في منطقة حرب. ونحن يمكننا جمع الأموال من الناس بسبب هذا الفرق. هل تفهمين ما أعنيه؟ فَكِّري في ضمير! فَكِّري في هؤلاء الرضع الذين يمكننا مساعدتهم بفضل ضمير! وبالإضافة إلى ذلك، فإنه تقنيًّا هذا لا يُعَدُّ كَذِبًا؛ لأنه في النهاية هناك حرب في هذا البلد، ولا فرق بين من هو داخل المخيم ومن هو خارجه. هل هناك فرق بالنسبة إليكِ؟

لم تعطِ جينا جاسينتا فرصةً للرد؛ لأن السر في أن تكون خبير علاقات عامة ناجح يكمن في عدم الانخراط التام مع العامة، فمن الممكن طرح السؤال على العامة، ولكن لا توجد ضرورة للاستماع إلى الإجابة. لذا أجابت جينا عن سؤالها بنفسها: «بالطبع لا يوجد فرق! ولكن هناك فرق بالنسبة إلى المتبرعين؛ لأن الناس يحبون القصص البسيطة. هل تفهمين قصدي؟ ومن المُربِكِ أن تتخلى أمٌّ عن رضيع بمجرد ولادته في مخيم الكل للجميع، أليس كذلك؟ إنه كذلك برأيي. لهذا السبب نحتاج إلى قصة أكثر بساطة. وإذا كُنتِ لن تقومي بهذا العمل، فسنضطر إلى العثور على شخصٍ آخر غدًا، وأنا على يقينٍ من أن هذا الشخص سيفعل ما بوسعه من أجل مساعدة ضمير وجميع الرضع الآخرين. حتى إنه لن يخطر بباله أن يتساءل عن مثل هذا التغيير الصغير في القصة بينما هناك الكثير من الرضع المعرضين لخطر الموت. وحتى إنْ خطر بباله، فلن يستطيع أن يقوله لي؛ لأنه سيخاف أن يُساء فهمه. سيخاف أن يبدو وكأنه يفكر في مبادئه وقيمه أكثر من الرضع! لذا هل تعرفين ما الذي سيقوله لي؟ سوف يسألني: هل هناك شيء آخر تريدين مني أن أقوله يا جينا؟ وسيسأل: ماذا يمكنني أن أفعل أيضًا من أجل هؤلاء الرضع!»

لم تجد جاسينتا ما تقوله؛ لأنها في تلك اللحظة أدركت أن اختيار جينا كلمة المنافسة لم يكن بالتأكيد زلة لسان. وأدركت جاسينتا أن السيارة ماركة المؤسسات غير الربحية التي لطالما ركبتها على مقعد السائق قد اصطدمت بحائط. والآن، حقيقة أن مؤسسات الإغاثة لا تختلف عن أي شركة أخرى

قد انفجرت في وجهها كالوسادة الهوائية، لذا شعرت بأن أنفها يؤلمها، وأن صدرها يؤلمها، وأن نفسها يضيق؛ لأن إعلان منظمة ما أنها غير ربحية كان أيضًا إعلانًا عن أنها يمكن أن ترتكب جميع أنواع الاحتيال عاجلًا أو آجلًا للبقاء واقفة على قدميها. والدخل الأعلى كان في التزييف، وليس في الربح. أدركت جاسينتا كل هذه الأشياء، وكلما أدركت شيئًا كان صدرها يضيق، وتنظر بخيبة أمل إلى جينا، التي تقود سيارة الخداع والتزييف. وحتى ذلك اليوم لم تكن جاسينتا رأت هذا الجانب المظلم من مؤسسات الإغاثة؛ لأنها لم تعمل قط في مبنى الإدارة إلا بعد أن تولت إدارة مخيم الأمان.

وبعد سنوات، وصفت جاسينتا شعورها في هذه اللحظة بهذه الكلمات: «إنه إحساس قذر!»

***

كانت جينا تكسب عيشها من خلال التظاهر بالاهتمام بالناس، واستخدام كلمة الرعاية بقدر المُستطاع. ولاحظت جينا خيبة الأمل التي في نظرات جاسينتا، وأكملت قائلةً: «أعلم أنكِ الآن غاضبة مني، ولكنكِ ستفهمين في الوقت المناسب. وسيأتي يوم تفهمين فيه ما هو المهم حقًّا في هذا العمل. نحن نحاول التعامل مع الكوارث، والزلازل، والحروب، والجفاف... وأنتِ تعلمين مدى صعوبة مواجهة هذه الكوارث، لأنك تعيشينها! ولكنكِ في الجانب الذي يُنفق الأموال، أما أنا، ففي الجانب الذي يجمع هذه الأموال... ولهذا يجب عليكِ أن تساعديني. علاوة على ذلك، هل تعتقدين أن ضمير سيهتم بهذا في المستقبل؟ وهل سيهتم بالمكان الذي عُثِرَ عليه فيه؟ أم سيشكرنا طوال حياته لأننا أنقذنا حياته؟ المهم أن نساعد الناس يا جاسينتا. وصدقيني، أقول لكِ من واقع خبرتي: لا يهم أبدًا كيف نفعل ذلك. دعيني أحكي لكِ قصة».

رفعت جينا الكوب الورقي –الذي تبلغ سعته نصف لتر– الموجود أمامها، وأخذت رشفة من قهوتها الباردة وتحدثت: «إنكِ تعرفين هجوم بيرل هاربر. تعرفينه، أليس كذلك؟»

أومأت جاسينتا برأسها وتحيَّرَت أكثر. ما العلاقة التي يمكن أن تكون بين ضمير وهجوم بيرل هاربر؟

- في هذا الهجوم تُوفي 2500 شخص، وأُصيب أكثر من ألف شخص. وتحرَّك الصليب الأحمر على الفور، وبدأ حملةً لتأسيس بنك دم. واصطفَّ الناس للتبرُّع بدمائهم بشكلٍ طبيعي. ولكن أتدرين ماذا فعل الصليب الأحمر؟ لم يقبل دم السود. مع الأسف حدث ذلك. ولكن بعد ذلك، أدركوا أن الجنود السود في حاجة إلى نقل دم، فبدؤوا يجمعون الدم من المتبرعين السود. ولكنهم بكل تأكيد قَسَّموا الدم إلى قسمين: دم البيض ودم السود. هل تتخيلين؟ الصليب الأحمر الأمريكي الذي قاتل مع هتلر المدافع عن تمييز العرق الآري.

ولكن السؤال الآن: هل تعتقدين أن الصليب الأحمر فصل دماء البيض عن السود لأنه مؤسسة عنصرية؟ أم إن العنصرية كانت سائدة في أمريكا في ذلك الحين بحيث كان من المستحيل على الصليب الأحمر أن يتصرف بطريقة أخرى؟ واليوم، إذا سألتِ أي أحد عن هذا التصرف ألقى باللوم على الصليب الأحمر. حتى إنه سيقول إن هذا التصرف وصمة عار على جبين الصليب الأحمر. ولكنني بالتأكيد لا أفكر بهذه الطريقة؛ لأنني أعلم أنه لم يكن أمام إدارة الصليب الأحمر خيار آخر، فلقد أرادوا مساعدة المُصابين في أسرع وقت ممكن. ولقد خاطروا بكل شيء من أجل هذا! فإنْ استدعت الحاجة ممارسة العنصرية، فبكل تأكيد سوف يفعلون هذا! لأنه لا أهمية للعنصرية مُقارنةً بحياة الإنسان، أليس كذلك؟ في رأيكِ أليست هذه أمورًا سطحية؟

انحنت جينا صوب المنضدة وواصلت كلامها بصوت منخفض: «إنْ كُنتِ ستقومين بهذا العمل طوال حياتك، فسيكون من الأفضل لو اعتدتِ هذه الأمور. إن مهمة مؤسسة الإغاثة ليست محاكمة المتبرعين، بل توزيع المال التي تجمعه منهم على المحتاجين. إياكِ أن تنسي هذا».

هذه المرة لم تومئ جاسينتا برأسها، بل أحنته فقط، وكان رد فعلها الصامت هذا كافيًا لجينا. سحبت جينا الملف من أمامها وأغلقته ثم ابتسمت. ولم تهمس هذه المرة، بل قالت بصوت مسموع: «إذن اتفقنا!»

رفعت جاسينتا رأسها، ولم تكن جينا هي الوحيدة في غرفة الاجتماعات تلك التي تعرف تاريخ الصليب الأحمر الأمريكي. وقالت: «حسنًا، هل تعرفين ماذا فعل الصليب الأحمر في الكساد الكبير؟ لم يفعل شيئًا قط! ظل الملايين

من الناس عاطلين عن العمل، ومات الكثير منهم جوعًا، ولم يساعد الصليب الأحمر أي أحد. هل تعرفين لماذا؟ لأنهم قالوا إن الأزمة الاقتصادية ليست كالزلازل أو السيول، لأن هذه الأزمة ليست كارثةً من عند الله! بل هي كارثةٌ من صنع البشر أنفسهم! لهذا السبب قالوا: لن نتدخل».

قالت جينا: «أحقًّا هذا؟ لم أكن أعلم قط». ولكنها قالت ذلك بلا مبالاة، لدرجة أن جاسينتا أدركت أنه لا فائدة من الإطالة في الحديث.

ثم سألتها قائلة: «حسنًا، وماذا عن ضمير؟ كُنتِ قد قُلتِ إن علينا أن نفعل الأمر الأنسب له».

قالت جينا: «سنفعل هذا بكل تأكيد. سيكون ضمير واجهة هذه الحملة!»

إن مؤسستنا ليست في حاجة إلى إصابة ضمير، كما تفعل العصابات التي تُعمِي أو تُشَوِّه الأيتام وتجبرهم على التسول في الشارع. لأن أولئك الذين أعَدُّوا المتفجرات يدوية الصنع قد تَوَلَّوا هذا العمل بالفعل. لذلك كان كل ما على مؤسسة الكل للجميع فِعلُه هو أن تجعل الرضيع يتجول هنا وهناك ويتسول. فترة زمنية محددة؛ لأن ضمير عندما يكبر سيكون قادرًا على التسول بنفسه.

ربما كانت جينا محقة. إن أنسب شيء لرضيع مشوه الوجه أن يكون واجهة لحملة تبرعات. وفى النهاية، فإن جينا أمريكية، وقد منحتها الحياة ليمونةً تسمى «ضمير». والعبارة الشهيرة التي تقول إنه كان عليه أن يصنع من هذه الليمونة عصير ليمون ظهرت أول مرة في نعي في أمريكا، حيث كتبها ألبرت هوبارد في نعي لصديقه الممثل الكوميدي الأمريكي مارشال بي. وايلدر. وكان وايلدر هذا قزمًا أحدب، أضحك آلافًا من المشاهدين طوال فترة حياته. أما ضمير المشوه الوجه، فعمله أسهل بكثير؛ فلقد كان كافيًا لجعل آلاف الناس يبكون.

تساءلت جينا: «ما رأيكِ؟ إنها فكرة جيدة جدًّا، أليس كذلك؟» وبصفتها خبيرة في العلاقات العامة، فَضَّلَتْ انتظار رد العامة هذه المرة. ولكن بدلًا من ذلك، نُفِخَ دخانٌ في وجهها؛ فلقد أشعلت جاسينتا سيجارة متجاهلةً عيني جينا المتسعة من الذهول. وفي الوقت الذي كانت جينا على وشك التعبير عن مدى عدم ارتياحها بكحة مزيفة، تلقت رسالة نصية على هاتفها المُلقى على

الطاولة. فنظرت –بعد أن استدارت– إلى هاتفها، ثم إلى جاسينتا في دهشة، وقالت: «انتحر ديريك هالي».

كان عقل جاسينتا في مخيم الأمان، وكان الدخان يتصاعد من فمها وهي تتحدث.

- من ديريك هالي؟

وبعد سنوات، قالت جاسينتا: «بعد ذلك بالطبع تذكرتُ من هو على الفور».

26 من ديسمبر

لم تكن هذه أول مرة لا تُغمض فيها عيناي، لذا كنتُ مُعتادًا الأمر، حتى إنني واجهتُ خلال الأعوام الثلاثة عشر الأخيرة العديد من المواقف التي تتطلب إغلاق العينين، لدرجة أنني طوَّرتُ بعض الترجيحات بخصوص ذلك الأمر. على سبيل المثال، كنتُ أكره الشريط اللاصق المقاوم ماركة باتكس، لأنه لم يُصنَع بالتأكيد ليتمَّ لصقه على وجه الإنسان. لقد كان شريطًا سميكًا باللون الفضي مُقاومًا للماء، مع قدرة إضافية على الالتصاق؛ فعند سحبه وانتزاعه كان يبدو الأمر كما لو أن جلد الشخص سينفصل عن وجهه مع الشريط، لدرجة أن ذلك الشخص -إذا كان لا يزال على قيد الحياة- كان يرى بالتأكيد قليلًا من حاجبيه على السطح اللاصق للشريط، ويحتاج على الفور إلى النظر إلى المرآة. أما أقنعة النوم، فلم تكن سيئة، ولكنها أيضًا بعد ساعات طويلة كانت تضغط على الرأس إلى حد الألم، وكان مطاطها يترك أثرًا على الصدغين بعض الوقت. في الواقع، في البيئات التي يُعتبر فيها إغلاق العينين إجراءً احترازيًّا عاديًّا، كان من الممكن أن نفهم من الآثار الموجودة على صدغي الشخص أنه كان يرتدي منذ قليل قناع نوم، ما لم يكن بالطبع شخصًا يرتدي نظارات. وفي هذه الحالة تشير الآثار الحديثة على الصدغين إلى أن ذلك الشخص قد اختُطِف، وأن هذا الأمر حدث في مكان قريب، وأن نظارته أصبحت غير صالحة للاستعمال، لأنه بنسبة كبيرة قد قاوم؛ فمثل الآثار الموجودة على أصابع أولئك الذين خلعوا خواتم زواجهم في أثناء خيانة زوجاتهم، تُشير آثار أذرع النظارة الموجودة على الصدغين أيضًا إلى أن شيئًا ما قد كُسِرَ في الماضي.

أنا أُفضِّلُ الأكياس الصغيرة السوداء. ولكنها لم تكن قط مخيطة من خيط القنب، لأنه لم يكن خيطًا، فقد كان عبارة عن سلكٍ شائك تقريبًا، وكان يخدش الجلد مثل ورق الصنفرة. كما لم يكن من الممكن التنفس براحة في أكياس النايلون، أو أي كيس بلاستيكي؛ فهي في الأساس كانت تستخدم بكثرة من قِبَلِ المُهاجِرين غير الشرعيين المُختَبئين في الشاحنات الموجودة في سفن شحن السيارات للعبور من با دو كاليه إلى دوفر. فقد كانوا يحاولون العبور من فرنسا إلى إنجلترا عن طريق وضع تلك الأكياس على رؤوسهم والحفاظ على أنفاسهم لأنفسهم، حتى لا يتم القبض عليهم من قبل شرطة الجمارك، الذين كانوا يتجولون مع أجهزة الكشف عن ثاني أكسيد الكربون بين الشاحنات لمعرفة ما إذا كان هناك كان أي كائن حي بداخلها. وفي الواقع، كنتُ مثلهم تمامًا، لأنني كنتُ أحمل معي شيئًا أضع فيه رأسي. ولكن الذي معي بالطبع لم يكن كيسًا بلاستيكيًّا، لقد كان كيسًا أسود مصنوعًا من نسيجٍ قطنيٍّ بنسبة مئة في المئة، ومخيط خِصِّيصي وفقًا لحجم رأسي، وكنتُ أغسله بالطبع باستخدام مُنَعِّمِ أقمشة برائحة اللافندر. وبالنسبة إلى أشهر الصيف، فكان لدي كيسٌ آخر مصنوع من قماش رقيق مُحكَم. لقد كان هدية من جنجافر، وعلى الرغم من أنه كان قديمًا، فإنني لم أُلقِه في القمامة. وفترةً معينة، كنتُ أَسَلِّمُ أحد هذه الأكياس –التي تم اختيارها وفقًا لفصول السنة– إلى أولئك الذين لا يريدونني أن أرى ما يدور حولي، أو أين أكون؛ حيث كان أصحاب الخبرة مقتنعين بأنهم سيحاولون منعي من الرؤية إذا لزم الأمر، فسمحوا لي باستخدامها. ولكن إذا كان الحديث عن هاوٍ، أو شخصٍ مصاب بجنون العظمة قد دخل حديثًا إلى عالمي، فلن يستطيع الوثوق في خاصية حجب الرؤية للكيس لمجرد أنه خرج من جيبي.

والآن كنتُ في مثل هذا الموقف مرة أخرى، حيث لم يقبل الحمقى المُلَثَّمون الذين التقيتُهم عند مدخل الغابة قبل نصف ساعة كيس الشتاء الأسود. وبدلًا عن ذلك، فَضَّلوا أداة أخرى لإغلاق عينيّ، الشريط اللاصق المُقاوم ماركة باتكس، الموجود في تلك السلال الكبيرة بالقرب من خزينة دفع النقود في المتاجر، وهو دائمًا عليه تخفيض لسبب ما! وبهذا حقق أولئك –الذين حَدَّدوا أماكن المنتجات في أقسام المتجر لزيادة الاستهلاك– أهدافهم مرةً أخرى. بمعنى آخر: اشترى هؤلاء الحمقى أول شريطٍ صادفهم، لذلك، على الرغم

من اعتراضي الكامل، لصقوا الشريط على عيني، وكان قويًّا بما يكفي ليكون رقعة على قارب بحري، فكنتُ آملُ ألَّا يصاب وجهي بأذى عند إزالته، حتى لا أضطر إلى أن أشرح السبب لطبيبي، وإلا ماذا كنتُ سأقول؟ إنه كان عليَّ أن أضع شريطًا لاصقًا على عينيَّ في أثناء ذهابي إلى موقع أحد المعسكرات في منطقة الغابات السوداء بألمانيا حيث لم يُرَد مني معرفة موقعه؟ ففي النهاية، كان طبيبي واحدًا من ملايين الأشخاص الذين اعتقدوا أن الطريق إلى السلام يكون من خلال طاولات خشبية كبيرة حولها كراسي جلدية، مع أعلام صغيرة وأطباق من السندويشات، وبناءً عليه، غرف اجتماعات مريحة. ولم يكن هناك مانع بالنسبة إليَّ من اعتقادٍ كهذا، فقط كنتُ غاضبًا من نفسي؛ لأنني كنتُ متوقعًا مثل هذا الاحتمال. على كُلٍّ، كان الأشخاص الذين كنتُ سألتقيهم قد خطوا للتو إلى الجانب المظلم من العالم؛ لذا كنتُ متأكدًا من أن صناديق السيارة ملآنة بالأدوات الخطأ، ولهذا السبب فكرتُ في شراء بخاخ مزيل ومُذيب للشريط اللاصق من الصيدلية المجاورة للفندق مباشرةً، ولكنني نسيتُ أن أفعل ذلك؛ لأنه في تلك الأثناء رنَّ هاتفي، ومن ثم تحدثتُ مع كالهون طويلًا. وعندما قلت إنني سألتقي الأشخاص الذين وضعوا القنبلة في معسكر الاعتقال في فرايبورغ، قال كالهون بالضبط: «من فضلك لا تهمل توجو، فهذه هي وظيفتك الأساسية».

لقد عَلَّقَ قضية مؤشر المنفعة المزور في إنجلترا كما توقعت. وكان تعليق كالهون أحد الملفات يعني أحد شيئين: إما أن ذلك الملف سيختفي في ثقب أسود، وإما أنه سيعود إلى حياتي بعد عشر دقائق. في السابق، عندما سألني عن اقتراحي، قلت بالطبع إنه لا ينبغي الكشف عن أنه قد تم التلاعب بالتقرير. وبصراحة، لم يكن سبب قيامي بهذا منع الناس من قتل بعضهم بعضًا، بل كان هدفي ألا أكون تحت عِبءٍ أكبر؛ لأن إنجلترا كانت في نطاق مهامي الوظيفية، لذلك كنتُ أنا الشخص المسؤول عن وقف حرب أهلية مُحتَمَلَة، وأنا أفضل أن يكون هناك مواطن من بيرو أو المغرب يعيش في إنجلترا دون أن يكون لديه أطفال على أن أنشغل بملفٍّ جديد.

عندما قلت إن الفتحة في جدار زنزانة تشاستا لم تُفتَح بعد، قال كالهون: «سنحاول حتى آخر لحظة». ولم نتحدث عن الاستفتاء العام في تركيا، لأنه

لم يكن من سُلطة المؤسسة بعد. أما قضية اختفاء الفلسطينيين في الضفة الغربية، فكانت أكثر تعقيدًا، فقال: «لننتظر ونرَ». ثم أنهينا المكالمة.

تذكرتُ فجأة أنه يمكنني أيضًا استخدام مادة أخرى لتخفيف التصاق الشريط، فسألت: «هل يوجد كحول في المعسكر؟»

حينها سَمِعتُ رجلين -بين ذراعيَّ كانا يحاولان قيادتي للمشي- يضحكان أولًا في الوقت نفسه، ثم تحدث الرجل الذي على يميني: «هل يمكن ألا يكون؟ هناك راكي!»

لقد كانت هذه الأداة خطأ، خصوصًا بالنسبة إلى منظمة مُبتَدِئة ارتكبت أول أعمال عنف لها بالأمس فقط. ونظرًا إلى أنهم يفكرون في الراكي فقط عندما تُقال كلمة كحول، فلم تكن معهم حقيبة إسعافات أولية. ولكن تاريخ المنظمات المسلحة غير الشرعية كان ملآن أيضًا بقصص أولئك الذين عندما لا يعرفون ماذا يفعلون من مُضايَقات في مناطق المعسكرات السرية، يبدؤون على الفور في تعاطي المخدرات أو الكحول، ويتم القبض عليهم أو قتلهم في أثناء نومهم لتسللهم عاجلًا أو آجلًا.

واصلنا السير. في تلك الغابات السوداء التي كانت ملأى ذات يوم بالسائحين السعداء الذين يتجولون في الطبيعة، والتي أصبحت الآن موطنًا لأناس مُختلفين تمامًا. فبناءً على سياسة المدينة النظيفة التي طبقتها الحكومة التي طردت الأتراك من البلاد في السنوات الأولى من وصولها إلى السلطة، وجد المشردون الذين اضطروا إلى مغادرة مراكز المدينة الحلَّ في القدوم إلى الغابات السوداء. في البداية تم نصب عدد قليل من الخيام، ثم ظهر مشهد مشابه لمنطقة لا جانجل الموجودة في إقليم با دو كاليه. وهكذا، تجمع عددٌ كبير من مدمني الـ «كراك»، والمهاجرين غير الشرعيين، والمشردين في الغابات السوداء، وتوجه السائحون -الذين لم يرغبوا في مقابلة هؤلاء الأشخاص- إلى مناطق طبيعية أخرى للقيام بجولات في الطبيعة. بمرور الوقت، أغلقت شركات السياحة في المنطقة واحدة تلو الأخرى، وأصبحت الغابات السوداء أرضًا مُقفِرَة، ومكانًا محتملًا لحكايات الأخوين غريم المُرعِبة. ولكن هذه المرة لم يترك هانسل وغريتل فُتاتَ خبز على الأرض. وبدلًا من ذلك، كانت هناك مصابيح كهربائية مكسورة مستخدمة

لتعاطي الميثامفيتامين، وملابس داخلية ملطخة بالدماء، وأحذية لا تتشابه فَردَتَاها بأي حال من الأحوال. نتيجة لذلك، قامت الحكومة الألمانية بحبس الأشخاص –الذين لا تريد رؤيتهم في المدن– في الغابة، وسحبت الشرطة من تلك المنطقة. وبناءً عليه، كان من المنطقي تمامًا إنشاء معسكر تنظيم مسلح في الغابات السوداء، حيث لا يسري الآن سوى قانون الغابة.

وصلنا إلى موقع المعسكر بعد قرابة نصف ساعة من المشي، برفقة هرير الرياح، وحفيف أوراق الشجر، وزقزقة العصافير، والأزيز القادم من الأنوف المسدودة للرجلين بجواري، اللذين خَمَّنتُ أنهما خلعا الأقنعة الخاصة بهما من أجل الراحة. أما أنا، فقد كنتُ أحدق إلى الشريط الذي أزلته عن وجهي منذ قليل بعناية فائقة قدر المُستَطَاع، وبالطبع كان حاجباي عليه.

- المعذرة!

رفعتُ رأسي ونظرتُ إلى الرجل المُلَثَّم الذي أمامي. وهكذا، ارتفع عدد الرجال المُلَثَّمين إلى ثلاثة.

- لقد اتصلنا بك متأخرًا قليلًا.

كان يرتدي مثل الآخرين ملابس الصيد، حتى إنه برأيي كان الأمر مُبالغًا فيه قليلًا. كان الأمر كما لو أنه دخل أحد متاجر بيع مستلزمات الصيد واشترى كل شيء على الرفوف وارتداه.

قلت: «لقد أخبرتموني، هذا هو الشيء المهم. أيضًا شكرًا على اتصالكم».

مَدَّ يده، وقال: «على الرحب والسعة! أنا جلال».

في المقابل لم تكن هناك حاجة إلى أن أقول اسمي؛ لأنهم يعرفونني جيدًا بما يكفي لمعرفة رقم هاتفي، ومكان وزمان وجودي.

فقلت: «سُرِرتُ بمعرفتك».

تصافحتُ أنا وجلال فترة طويلة. بالطبع لم يكن هذا اسمه الحقيقي، ولم يكن ليترك يدي بأي حال من الأحوال. هذا الوضع –الذي قد يكون غير مريح بالنسبة إلى شخص عادي– كان على العكس تمامًا بالنسبة إليَّ؛ لأنه على مر السنين أدركتُ أنه من الأسهل بكثير التواصل مع الأشخاص الذين يرتدون الأقنعة فوق رؤوسهم، والذين يمكن رؤية أعينهم فقط، فالوجه البشري كان

مثل مُعادِل الصوت في أجهزة الستيريو القديمة، أو لوحة البورصة، أو لافتة توضح حالة الطقس. لذلك، بالإضافة إلى معنى القاموس، كان لكل كلمة أيضًا معنى آخر بالحركات الجسدية، أي إنه إذا خرجت كلمة من فم شخص فإنه يُضاف إليها معنى آخر من خلال تعابير الوجه. ولكن المعنى المتعلق بتعابير الوجه يظل دائمًا مفتوحًا للتفسير. علاوة على ذلك، كانت كل مُعادِلات الصوت تلك واللوحات واللافتات في الغالب مؤشرات خاطئة. ووجه الإنسان أيضًا كان مقياس ضغطٍ جوي فاسدًا عند الولادة؛ ففي النهاية كان مخلوقًا يصرخ بملء فمه بمجرد ولادته. ولو أُخِذَتْ هذه الصرخة الشديدة على محمل الجد، لأصبح من الواجب قتل الأطفال بمجرد ولادتهم حتى لا يعانوا بعد الآن. أما في أثناء التحدث إلى شخص مُلَثَّم، فإن الكلمات كانت تقتصر فقط على مُقابِلها في القاموس. على سبيل المثال، لم يكن شخصان مُلَثَّمَان ليفترضا قط السخرية بعضهما من بعض عند التحدث، لأن النتيجة قد تكون دموية للغاية، حتى إنني أعتقد أن التواصل هو كل ما يتبقى بعد تنحية السخرية من أي محادثة. وربما كان السبب في تفاهمي الجيد مع هؤلاء الأشخاص هو أنه كان لدينا الكثير من النقاط المشتركة؛ حيث لم يكن لدي تعابير على وجهي أيضًا. لذلك كنا جميعًا بلا وجوه، فلم نُضَيِّع وقتنا في محاولة معرفة ما يعنيه بعضنا لبعض، كما يفعل الأشخاص ذوو الوجوه المكشوفة. وبدلًا من ذلك، كنا نحاول معرفة إلى أي حدٍّ يكون ما نسمعه كذبًا.

لقد فَكَّرتُ في كل هذا وأنا أصافحُ جلال، لأن تلك المصافحة استمرت طويلًا جدًّا. وأخيرًا، ترك جلال يدي وتحدث: «لقد رآك أصدقاؤنا. لقد رأوك في أثناء دخولك مع ذلك العاهر المدعو هيرمان».

على سبيل المثال، لم أكن في حاجة إلى رؤية وجه جلال لأدرك أنها كانت كذبة. نعم، لقد دخلتُ إلى المعسكر في سيارة هيرمان الشخصية، ولكن لم يستطع أحد رؤيتنا، حيث كانت نوافذ السيارة مظلمة مثل الحائط.

- بالطبع تعرفوا عليك على الفور. قالوا لنتصل على الفور ونخبره.
- من أين حصلوا على رقمي؟
- على أي حال، من الجيد أنهم اتصلوا في الوقت المناسب، ولم يحدث لكَ أي شيء.

فَهِمتُ أنني لا أستطيع أن أعرف من جلال من أين حصلوا على رقم هاتفي، وبالطبع لن أُصِرّ. عندئذٍ نادى أحد الرجال ذوي الأنف المسدود: «يا أخي، المائدة جاهزة!»

كان أمامنا طاولة وكرسيان بين خيمتين من نوعية خيام الصحاري، وكان من المستحيل تقريبًا رؤية الخيام بسبب كثافة الأشجار والنقوش التمويهية. وفي أثناء سيري خلف جلال نحو الطاولة، نظرتُ إلى ما حولي على أمل أن أرى أي سلاح؛ لأنه يمكنني أن أنظر إلى أي سلاح وأكَوِّنَ فكرة حول حامل هذا السلاح، فيمكنني تخمين من أين ومِن مَنْ تم أخذ السلاح، وبناءً عليه يمكنني قياس مدى خطورة الموقف. ولكن لم يكن هناك سلاح واحد في الأنحاء. وبدلًا من ذلك، كانت هناك طاولة راكي في وسط الغابة.

قال جلال: «تشرب الراكي، أليس كذلك؟»

قلت: «مع الأسف لا أشرب، فأنا أتناول الدواء».

وعلى الفور تَدَخَّلَ في الحديث المُلَثَّمون الآخرون الذين لم يتفوَّهوا بكلمة واحدة حتى الآن.

- ولكنك كُنتَ تتساءل ونحن في الطريق: هل هناك أي كحول؟

كان هذا هو الصوت الذي حَذَّرَني بالأمس في الهاتف. وكنتُ على وشك الرد، حتى تعالت صرخة قصيرة لرجلٍ من الخيمة التي على يميني. وبضع ثوانٍ، حَدَّقتُ أنا والرجال الثلاثة الملثمون في الخيمة. نظرًا إلى أننا اضطررنا إلى التظاهر بأننا لم نسمع تلك الصرخة. قال جلال: «تعال». وجلسنا بعضنا قبالة بعض. ثم كشف جلال عن فمه بثني القناع من رقبته إلى أنفه (بالتأكيد كان لديه شارب) ورفع كأس الشاي الملآن بالراكي الموجود أمامه ونظر إليَّ. حتى لو لم أشرب، يمكنني رفع الكأس وقرعه. أخذ جلال رشفة من الراكي وسأل: «هل يغادر المرء منزله ويذهب؟»

كنتُ أعلم أنه لم يكن يطرح عليَّ هذا السؤال.

- لا يذهب! لهذا السبب لا نذهب إلى أي مكان. لدينا بلدان: أحدهما تركيا، والآخر هنا. لن نغادر هذا البلد. سنقاوم. سنحارب. ولكننا ما زلنا في بداية الطريق بالطبع. لا نريد أن يتأذَّى أحد أيضًا.

تعالت صرخة أخرى من الخيمة، ولكننا تظاهرنا بأننا لم نسمع مجددًا.

- حتى إنك رأيت ذلك. لقد زرعنا تلك القنبلة بدقة شديدة، فقط كتحذير.

لا بد أن شخصًا ما يتعرض للتعذيب داخل تلك الخيمة. ولكن من كان يفعل ذلك كان يستخدم طريقة هادئة للغاية، على الأرجح كان يستخدم سكينًا.

- مُشكلتنا ليست القتل. وبالفعل أردنا التحدث معك من أجل ذلك.

نظرًا إلى أنه كان يصرخ فقط، لم يكن الهدف هو جعله يتحدث، أو على الأقل حتى الآن.

- كيف تقوم بهذه الأعمال الآن؟ لا أعرف...

هذا يعني أنه لم يكن يتم استجوابه، بل كان يتم تعذيبه.

- نفكر في أن تذهب وتُقابل أحد هؤلاء العاهرين... وتقول إن هناك تشكيلًا، وإنهم لا يخشون شيئًا، لهذا تراجعوا عن هذا الأمر... وإلا ستُراق الكثير من الدماء.

- هل تعتقد أن المُخابرات الداخلية الألمانية ليست على علم بكم؟

- بالطبع على علم. ولكنهم يعرفون بقدر ما نريدهم أن يعرفوا.

- هل أنت متأكد؟

ضحك جلال وقال: «اترك لنا أمر هذا الجانب».

قلت: «حسنًا». ثم تساءلتُ: «ما اسمه؟»

- اسم ماذا؟

- التشكيل.

توقف جلال وفكر، ثم نادى صوب الخيمة: «ميرزا! تعال يا بُنَي».

انتظرنا. حيث كان لا بد للإجابة عن سؤالي من الخروج من الخيمة. وبالفعل، بعد عدة دقائق ظهر أمام الخيمة رجل مُلثم ببنطال ذي تصميم مموه، وعارٍ من الأعلى. وكانت لديه بُقَع دماء حديثة على ذراعيه وصدره. بالطبع إذا كان يُعذب أحدهم بالداخل فإن الدماء ستتناثر فوقه. لقد كان هيكله العضلي يُشبه ملاكمًا، حيث كانت لديه خطوط حادة تكفي لتكون احترافية. فضلًا عن ذلك، تمكنتُ أخيرًا من رؤية ما كنتُ أنتظره؛ فقد كان

يحمل في يده بندقية من طراز AK-101. لا بد من أنني كنتُ في يوم حظي، لأنني كنتُ أرى في الواقع بندقيتين. كما كانت هناك قاذفة قنابل GP-30 تم تركيبها تحت فوهة البندقية.

قال جلال: «أظهر كتفك».

اقترب الرجل مني وانحنى قليلًا وأظهر كتفه. لقد كتب اسم تشكيلهم حفرًا على جلده. استغرقت قراءتي قليلًا؛ ليس لأنه باللغة الألمانية، بل لأنه كان طويلًا مثل تهويدات الأطفال: حركة الوحدة والعدالة والحرية للأتراك الألمان. كان مدروسًا بشكلٍ جيد للغاية، وكان حقيقيًّا لدرجة أنه يبدو كاسم دائرة استخبارات. لأن «الوحدة والعدالة والحرية» كان اسم النشيد الوطني الألماني وأول مصراع فيه. وهكذا، فإن هؤلاء الأشخاص، الذين سيحاربون من أجل البقاء في ألمانيا، لن يُتَّهموا بأنهم قوميون أتراك، بل على العكس، كان سيُعتقد أنهم وألمانيا كيان واحد بصفتهم أتراكًا ألمانًا. فعلى الرغم من أن هؤلاء الرجال لا يبدو أنهم قد حصلوا على درجة النجاح في اختبار الجنسية الألمانية المُسمى اختبار الولاء، الذي يُطَبَّق على المسلمين فقط، والذي تُذكَر فيه أسئلة مثل: «ماذا سيكون رد فعلك إذا أرادت ابنتك الزواج من غير مسلم؟» فإنهم بالاسم الذي اختاروه لتشكيلهم أعلنوا بكل وضوح أنهم يعتبرون أنفسهم ألمانًا. ومع ذلك، أعتقد أنه في حاجة إلى تعديل.

- كان يجب أن تقولوا حزبًا بدلًا من حركة.

قال جلال: «لماذا؟»

- لأنه سيأتي يوم يموت فيه مدنيون بسبب عملية قمتم بها. شيءٌ كهذا سيحدث عاجلًا أو آجلًا. وبطبيعة الحال لن تكون هذه العملية من مسؤوليتكم، حتى إنكم ستنكرون القيام بهذه العملية؛ لأنكم ستقولون «نحن لسنا تشكيلًا إرهابيًّا، نحن حركة سياسية، لا نقتل المدنيين أبدًا». وفي أثناء قول هذا، سيكون من المفيد أن تكون كلمة حزب في نهاية اسمكم. وأيضًا إذا تغيرت الظروف يومًا ما، فإنكم سوف تدخلون الانتخابات بالاسم نفسه. بالإضافة إلى ذلك، لقد قلت إن المدنيين سيموتون بالتأكيد في المستقبل، أليس كذلك؟

لذا يجب تأسيس تشكيلٍ آخر يتبنى هذه العمليات. بالطبع سيكون هذا التشكيل خياليًّا. سيقومون بالعمليات التي كأنكم لم تفعلوها قط، وستنشرون أيضًا بيانًا في كل مرة بصفتكم حركة سياسية، فتستنكرون ذلك التشكيل، وستقولون: «لا علاقة لنا بهم أبدًا». ولكن اسم ذلك التشكيل لا ينبغي أن يكون اسمًا رسميًّا. يجب أن يكون أكثر بأسًا، حتى إنه يجب أن يكون هجوميًّا. وبالطبع يجب أن يحتوي على كلمات مثل: الانتقام، أو الهجوم، أو أسماء حيوانات، مثل: ذئاب كذا، أو صقور كذا. هل استطعتُ التوضيح؟

بالطبع استطعتُ التوضيح. لقد فهم جلال ما أردتُ قوله، نظرًا إلى أنه كان يستمع في صمت، حتى إنه أومأ برأسه عدة مرات؛ مما يعني أنه أُعجِبَ بالاستماع إلى نهجي هذا. فقط الملاكم -الذي كان يقف بجانبي- لم يكن سعيدًا. مطلقًا! ولم يكن عليَّ أن أرى وجهه لأفهم ذلك؛ لأنه إذا قَبِل جلال أو أيُّ شخص من قادته اقتراحي، فسيكون هو الشخص الذي سيُجرى التعديل على جلد كتفه. ولكن كان من واجبي أيضًا تقديم كل هذه الاقتراحات، لأنني أردتُ منهم أن يثقوا بي. حتى إنني كنتُ أريد أن أضع يدي على أكتافهم وأنظر إلى أعينهم بتعاطف وتفهم وأقول لهم: «يمكنكم إخباري بكل شيء يا رفاق. أنتم تعرفون هذا، أليس كذلك؟» ولكن كان عليَّ أن أنتظر حتى يُشفى وجهي تمامًا لأتمكن من النظر إلى أي شخص بتعاطف وتفهم. وبدلًا من ذلك، تصرفتُ كمنظم زفاف لا يُطلِقُ أحكامًا على أحد، واقترحتُ ألوانًا ووجهات نظر مختلفة، فعلى مدار السنين، فهمتُ أن هناك تشابهًا بين التنظيمات المسلحة المُشَكَّلة حديثًا والعرائس اللاتي يتجهزن للزفاف؛ حيث تُريد كلتا المجموعتين أن يكون كل شيء مثاليًّا، لأنهم يؤمنون أن كل شيء يمكن أن يكون مثاليًّا من خلال الرومانسية التي عَطَّلَت منطقهم. وبالطبع سيستغرق الأمر وقتًا أطول قليلًا حتى تستيقظ التنظيمات المسلحة، في أثناء تتخلص العرائس من هذا الحلم الرومانسي في أثناء الزفاف، أو في صباح اليوم التالي على أبعد تقدير. وفي بعض الأحيان لا يستيقظون أبدًا، ويموتون. ومع ذلك -تمامًا مثل العرائس اللاتي يتجهزن لليوم الذي يعتقدن أنه أهم يوم في حياتهن- فإن أعضاء التنظيم المسلح -الذين يعتقدون أنهم قاموا بأهم عمل في حياتهم- يشعرون بالخوف في داخلهم من حدوث خطأ ما؛ لذلك فإنهم دائمًا قلقون، ويبحثون عن شخص قريب منهم يمكنهم الوثوق به.

وأنا أردتُ أن أكون ذلك الشخص، مُنَظِّمَ الزفاف الذي يستسلم له الجميع! وهكذا، يمكنني أن أكون على دراية بالخطوات التالية التي سيتخذها جلال والآخرون، وأن أتنبأ بنوع الحرب التي سأواجهها. ثم تحدثتُ: «كما أعتقد أنه ليس من العملي إظهار أعضائك؛ لأنه عليكَ إخفاء هوياتهم. إذا كُنتَ لا تريدهم أن يذهبوا إلى السجن، فعليكَ أن تخفيهم».

قال جلال: «لن يذهبوا إلى السجن».

فقلت: «فهمت. إذن ليس هناك مشكلة».

ثم واصل جلال حديثه بحماس عروس، تمامًا كما تدلل مقولة «الحرب هي عُرسُ التركي»: «لن يذهبوا إلى السجن لأنهم سيموتون! بعد هذه الساعة سنغادر ألمانيا بموتنا فقط. قل هذا لهؤلاء العاهرين أيضًا. ليس هناك تراجع عن هذا الأمر. لقد بدأنا في إرسال الأطفال والنساء إلى تركيا. الرجال فقط سيبقون هنا. ثم بعد ذلك سنفعل ما يُعيننا الله عليه».

أخذ جلال رشفة من الراكي وواصل الحديث: «قل لهؤلاء العاهرين أيضًا إنهم عملوا مثل الكلاب لتقوم ألمانيا هذه، وسيهدمونها مثلما أقاموها».

قلت: «فهمت، أمهلني أسبوعًا واحدًا لأتفقد مكانين، ثم اتصل بي ونتحدث. ولكن خلال هذا الأسبوع لن تقوم بأي عملية أبدًا. سوف تنتظر حتى تتحدث معي. حسنًا؟»

وبدلًا من الإجابة، التفتَ جلال إلى الملاكم وأشار إلى الخيمة، وقال: «أحضر هذا». ثم نظرَ إليَّ وسألني بغضب: «هل سَمِعتَ الأخبار؟ لقد رفضت المحكمة الدستورية الاستئناف».

- سمعت.

- هل هناك سؤال يا هذا يقول هل الله موجود؟ لا حول ولا قوة إلا بالله! أي نوع من الرجال هم؟

كان يمكنني أن أفهم خيبة أمل جلال. على كلٍّ، كانوا الوحيدين في هذا العالم الذين لديهم أوهام بخصوص تركيا. ولم يكن المستشرقون في هذا العصر رسامين أو شعراء أوروبيين، بل أُطلِقَ عليهم اسم مغتربين.

قال جلال: «ولكنني لَستُ متفاجئًا على الإطلاق. هل تعلم؟ إنهم يفعلون كل شيء. والله! في الأساس...»

لم يكمل كلامه؛ لأنه في تلك اللحظة خرج رجل من الخيمة ويداه مقيدتان خلف ظهره. في الواقع، لقد «اندفع» أكثر من كونه «خرج». لا بد أن الملاكم قد رماه مثل كرة البولينج. وبعد بضع خطوات غير متزنة سقط على وجهه على الأرض. كان يحاول الآن الوقوف على ركبتيه وهو يتأوَّه. أشار جلال إلى الرجل وتحدث.

- تعرف هذا، أليس كذلك؟

قلت: «أعرفه». فعلى الرغم من أن وجهه كان مغطى بالدماء، فإنني عرفت من هو بمجرد أن رأيته. اسمه فريدون، وكان رئيس جمعية الإخوة الألمان الأتراك. كان يُعَدُّ حلقة الوصل بين الحكومة التركية والمافيا التركية في ألمانيا. في الحقيقة، لقد فوجئتُ برؤية فريدون في هذه الحالة. فنظرًا إلى أنهم تمكنوا من اختطاف هذا الرجل، الذي يجوب شوارع برلين عادة بجيش صغير، فإن جلال وتشكيله كانوا خارج نطاق الهواة الغاضبين. لم يكن هؤلاء الأشخاص طَبَّاخي شاورما، أو ميكانيكيي سيارات حملوا السلاح حتى لا يغادروا ألمانيا. لقد تضمنت قائمة عملياتهم تفجير معسكر اعتقال وخطف رجل يتمتع بحماية فائقة.

قال جلال: «هل تعرف ماذا قالت؟ أعني هذه المُسَمَّاة بدولة ألمانيا؟ كل من أتى من تركيا سيعود إلى تركيا. فقالت حكومتنا أيضًا: لا يا أخي، لا يمكننا استيعاب هذا العدد الكبير من البشر. وبما أنك لا تعرف جواز السفر المزدوج، فهذا يعني أنهم ألمان بموجب قانونك. ثم لماذا تسألني؟ لماذا يجب أن آخذهم؟ حتى إنهم قاموا بذكر العديد من الأعذار مثل هذه. لقد اعتقدتُ أن حكومتنا تحمينا. إنها تضع سياسة حتى لا نخرج من هنا.

على كُلٍّ، بعد ذلك قال الألمان شيئًا بالطبع: ولكنك ذات مرة قَبِلتَ ملايين اللاجئين السوريين! ألا تأخذ هؤلاء الأشخاص الآن؟ علاوة على ذلك، هم من أبناء ملتك! فقالت حكومتنا: الأمر مختلف. لقد كانت الظروف مختلفة حينها. وبالطبع فهم الألمان الأمر على الفور، فقالوا سنتعامل مع الأمر. وكما ترى، إنهم يقومون بصفقات الآن. أرادت الحكومة التركية 4 آلاف على الشخص،

فأعطاهم الألمان ألفين. بعبارة أخرى، إذا قالت تركيا حسنًا اليوم، فإنها ستأخذ 5 ملايين شخص، وستدفع ألمانيا 10 مليارات يورو. هذه هي القصة! نحن على استعداد لأن نموت من أجل العيش هنا! انظر إلى الوتد الذي ألقتنا به دولتنا! بدلًا من الضغط على ألمانيا لإبقائنا هنا، فهي تقوم بصفقات!»

كان جلال غاضبًا حقًّا. نظر إلى فريدون وبصق على الأرض، ثم التفت إليَّ.

- اتضح أن عديم الشرف هذا كان موجودًا في الصفقة أيضًا! لقد شَكَّلَ الألمان فريقًا، فريقًا سيضغط على الحكومة التركية لخفض السعر. لقد اشتروا هذا الفريق أيضًا. بالتأكيد! من غيرهم سيفعل؟ هل يوجد عاهر أفضل من هذا؟ أتعلم أنه توجد لجنة في إنجلترا؟ إنها تقرر عدد الأشخاص الذين يجب وجودهم من أي أمة.

- نعم؟

- هذا العاهر مثل التركي الموجود في هذه اللجنة! كما أرسلنا خبرًا إلى زوجة ذلك السيد. قلنا: إياك أن تقبل بهذه المهمة! حتى لو مت لا تنضم إلى هذه اللجنة! ولكن زوجته لم تهتم، فذهب وجلس على تلك الطاولة! ليس لديه مكان للنوم أيضًا. كلهم تم شراؤهم! كلهم خونة!

نظرًا إلى أنهم عرضوا عليَّ الشخص الذي عذبوه، كان عليَّ عمليًّا أن أغتنم فرصتي كدبلوماسي مدني.

- يمكنني استلامه إذا انتَهيتَ من عملك. أعطني إياه، سأرسله إلى منزله.

قال جلال: «لا. هذا الحيوان لن يعود إلى منزله! ألم تقل لا تقوموا بعملية أخرى؟ لهذا السبب أعرضه عليك. إذا قُلتَ انتظروا أسبوعًا واحدًا انتظرنا. ولكن إذا لم يكن هناك أخبار من الألمان، فإننا سوف نقتله ونلقيه أمام بوابة البوندستاغ! أخبر هؤلاء العاهرين بذلك أيضًا!»

قلت: «لا أعتقد أن هذه فكرة جيدة على الإطلاق. لا تزال في بداية الأمر، وإذا كُنتَ تريد الوصول إلى مكان ما بالعنف، فإنك ستزيد الجرعة شيئًا فشيئًا. لذا فإنه من السابق لأوانه تهديد أشخاص بقتل الرهينة التي تحتجزها».

قال جلال: «أنت على حق». ثم أخرج مسدسًا من حزامه. «إذن دعنا لا نهدد أحدًا».

ووجه فوهة المسدس نحو فريدون وصرخ: «لنقتل هذا الكلب الآن!»

- قف! لا تفعل ذلك! استمع إليَّ!

نظر جلال -الذي كانت إصبعه على الزناد- إليَّ لحظة. لقد كان Glock Atomic 6 هو ثالث سلاح أراه. رفع فريدون -الذي كان على الأرض- رأسه أيضًا محاولًا أن تتلاقى عيناه وعيني. لا بد أنه يتساءل عما سأقوله لإنقاذ حياته.

- ألن تُصَوِّتوا في القنصليات من أجل الاستفتاء؟ إذن دَعْ فريدون يذهب! ثم أيًّا كان من يجتمع معه من الجانب التركي، دعْهُ يقول له هذا: إذا لم تبذل تركيا قصارى جهدها لإبقائكم هنا، فسيتم الإعلان عن الصفقة على الفور للرأي العام، ثم ستبدأ الحملة هنا غدًا. وسيقول ملايين الأشخاص الذين يعيشون في ألمانيا ويحملون جوازات سفر تركية لا للسؤال المطروح: «هل الله موجود؟» وبالطبع لن يصوتوا هم فقط بـ «لا»، بل أقاربهم في تركيا أيضًا.

لم أهتم إنْ كان وافق جلال على اقتراحي أو لا، فقد كان التردد كافيًا بالنسبة إلي. ونظرًا إلى أنني لن أسمح بارتكاب جريمة قتل أمامي، فقد أكملتُ الحديث: «بالطبع هذا التصويت بـ «لا» لا يعني أن الله ليس موجودًا! سيكون هذا تصويتًا احتجاجيًّا. أي إنكم ستقولون هذا للحكومة التركية: إذا كنتم تبيعوننا بالمال... إذا كنتم تبيعون أخاكم التركي، أخاكم المسلم... فمن الواضح أنه ليس لديكم إله! هل فهمت؟»

لم يخفض جلال المسدس بعد، ولكنه رفع إصبعه عن الزناد، وهذا كان كافيًا بالنسبة إلي.

قلت: «فكر في الأمر». ثم نهضت. التفتُّ إلى الرجال الذين قادوني عبر الغابة وأحضروني إلى المعسكر. «وأنتم، إياكم أن تستخدموا هذا الشريط لتعصبوا أعين الناس مرة أخرى! الآن، اسمحوا لي!»

أخرجتُ الكيس الأسود من جيبي وأدخلتُ فيه رأسي، وقمتُ بضبط ربطة عنقي. وانتظرت سماع طلقة نارية في الظلام بضع ثوانٍ. بدلًا من ذلك، سمعتُ صوت فريدون المبحوح يخرج بصعوبة: «يا ضمير، هؤلاء السفلة...»

لم يُكمل جملته؛ فلا بد أن أحد المُلَثَّمين قد غَطَّى فمه. بيده أو بالأرض.

فقلت: «أيها السادة، هل يمكننا الإسراع قليلًا من فضلكم؟ لدي موعد عليَّ اللحاق به».

على الرغم من تأخري ثماني دقائق، فإنني تمكنتُ من اللحاق بموعدي الذي كان في باريس بفضل القطار السريع. طوال الرحلة فكرتُ فيمن أسس هذا التشكيل، وأخذتُ أسير كثيرًا. لقد كانت عادة من طفولتي؛ كلما ركبت قطارًا كنتُ أبدأ بالسير في الممر وأنظر إلى وجوه الأشخاص الذين أمرُّ بهم. كنتُ أسير حتى أجد الشخص الذي يناسبني من بين تلك الوجوه، ثم أعود إلى مقعدي وأغمض عيني، وأتخيل أن الوجه الذي رأيته للتو هو وجهي. ولكن منذ فترة طويلة وأنا أسير في ممرات القطار فقط لأفكر. لذا كنتُ أنظر إلى تلك الوجوه الآن فقط لأفكر. كان البعض يجلس بجانب بحيرة، والبعض الآخر ينظر إلى الأفق ليُفكر، أما أنا، ففَضَّلتُ المُضي قدمًا في نهر بشري، لأن السير بسرعة بين تلك المقاعد الممتلئة كان يبدو هكذا بالضبط. وفي ذلك النهر البشري بالطبع كنتُ أتقدم عكس التيار، أي إنني كنتُ أسير دائمًا باتجاه آخر عربة؛ فعلى كل حال، كان يجب أن تكون المقاعد في مواجهتي حتى أتمكن من رؤية الوجوه. الكراسي المزدوجة، والكراسي الفردية على جانبي الممر، كانت كل منها عبارة عن كوكب منفصل. كنتُ أتنقل من مقعد إلى آخر َمع كل خطوة أخطوها، إذا كان هناك زوجان يتبادلان القبل على أحد تلك الكواكب، كان هناك طفل يبكي على الآخر. أو كان يجلس رجل يدعي ويُسَبِّح أمام امرأة تنزع أظفارها المُستَعارة. وأنا مثل رائد فضاء، كنتُ أنظر إلى كل تلك الكواكب من أعلى، وكالعادة، لم أكن أرى أي دليل على الحياة في أيٍّ منهم، فكنتُ أواصل المشي.

لذلك مشيتُ أيضًا في قطار باريس هذا. من ناحية كنتُ أفكر فيمن أسس تشكيلًا يُسمى حركة الوحدة والعدالة والحرية للأتراك الألمان. ومن ناحية أخرى كنتُ أفكر في جهاز المخابرات التركي بينما كنت أسير بجوار طفل

وضع قطعة شوكولاتة في فمه أكبر مما يمكنه مضغها فبدأ بالسعال. ربما كان هذا عملهم. فلو كان حقًّا يُبرِمُ صفقة مع ألمانيا، لكان بإمكان تركيا أن تطلب 5 آلاف لكل شخص في ظل وجود تشكيل كهذا! علاوة على ذلك، فلقد فعلت ألمانيا شيئًا مُشابِهًا في الماضي، حيث دعمت حزب العمال الكردستاني سِرًّا عقودًا، على الرغم من أنها اعترفت رسميًّا بأنه تنظيم إرهابي. حتى إنها منحت حق اللجوء السياسي لأتباع طائفة فتح الله، التي سجنت العديد من الصحفيين، على الرغم من انتقاداتها الرسمية لسجن الصحفيين في تركيا. لأن «السياسة الواقعية» كانت كلمة ألمانية، ووفقًا للسياسة الواقعية نفسها، يمكن أن تقدم تركيا أيضًا الأسلحة والأموال لشخص سيسفك الدماء على الأراضي الألمانية. في الواقع، إن مثل هذه الحملة تتناسب تمامًا مع مبدأ المعاملة بالمثل في العلاقات الدولية.

ثم بدأتُ أفكر في جهاز المخابرات الخارجية الألمانية –دائرة الاستخبارات الاتحادية الألمانية– في أثناء مروري برجلين كانا في حالة سكر تامة، وكانا يطلقان القهقهات بينما يسكبان الجعة عليهما. ربما هم من أسسوا هذا التشكيل. وهكذا، بعد بعض العمليات العنيفة، يمكنهم بسهولة سَنُّ قانون مثل قانون باتريوت آكت، الذي مَكَّنَ الولايات المتحدة من إنشاء معتقل تعذيب مثل أبو غريب. أو يمكنهم سن قانون عملي أكثر، كما فعلت تركيا ذات مرة، واتهام الناس بمساعدة تنظيم إرهابي على الرغم من أنهم ليسوا أعضاء. وفي كلتا الحالتين كان بإمكانهم إعلان ملايين الأشخاص من أصل تركي إرهابيين، ومصادرة ممتلكاتهم الموجودة في ألمانيا بشكل قانوني. على كل حال، قضية العقارات المملوكة للمُرَحَّلين لم تُحسَم بعد. إلى جانب ذلك، هل كان من الممكن أن تكون الحكومة، التي كانت تحترق لارتكاب جرائم ضد الإنسانية دقيقة وباحثة عن القانون في مسألة ذات أهمية ثانوية مثل مصادرة الممتلكات؟ طبعًا، لأن كل شيء كان ممكنًا في هذا العالم.

منذ سنوات، حضرتُ محاكمة جنديٍّ أنغولي متهم باغتصاب امرأة ثم قتلها في أثناء الحرب. وبحسب تقرير الطب الشرعي، فإن الجندي الذي كان مُعتَرِفًا بارتكاب جريمة الاغتصاب دافع عن نفسه على النحو التالي: «ولكنني لم أقتل تلك المرأة. لقد كانت ميتة بالفعل عندما وجدتها!»

ربما كانت الحكومة الألمانية مثل ذلك الجندي، الذي فَضَّلَ أن يكون مريضًا بالنيكروفيليا على أن يكون قاتلًا، وربما أرادت قول هذا: «لم نصادر منزل أي شخص بالقوة. لقد كانوا جميعًا فارغين عندما وجدناهم».

بينما كنتُ أفكر في ذلك، كانت المقاعد التي مررتُ بها فارغة أيضًا؛ حيث كنتُ الآن في العربة الأخيرة، وعندها خطر فريدون على بالي. لقد كان يحاول إخباري بشيء ما. قال: «يا ضمير، هؤلاء السفلة...» ثم انقطع صوته. من يعرف كيف كانت ستنتهي هذه الجملة؟ من الناحية التقنية، كانت هذه آخر كلمات فريدون في هذه الحياة؛ لأنني كنتُ متأكدًا من أنه يوقن أنه سيُقتل هناك، ونادرًا ما يكذب المرء على فراش الموت. بناءً على هذا، كان من الممكن إخفاء سر مُتعلق بتأسيس التشكيل في هذه الجملة غير المكتملة.

على أي حال، اضطررتُ إلى تجميد هذه القضية في ذهني الآن والتركيز على الملف التالي في أسرع وقت ممكن. في الواقع لم يكن لدي خيار آخر، لأنني كنت قد نزلت بالفعل من القطار، وكنت جالسًا على الطاولة الوحيدة في فان دو سياكل، أحد أقدم المطاعم في باريس، في قسم خاص مفصول بستارة مخملية. والأهم من ذلك، أن الجنرال دادجو من قبيلة إوي، الذي حكم لومي –عاصمة توجو– وضواحيها كان أمامي، وكان يحدق إليَّ وينظر إلى وجهي بفضول.

كان الجنرال قد جاء إلى المدينة للقاء تجار السلاح. وعندما قلت إنني أريد أن ألتقيه على وجه السرعة، وافق على أن نلتقي لتناول العشاء. يمكنه أن يكون لطيفًا ومتفهِّمًا جدًّا عندما يريد ذلك، ولكن في غضون أيام قليلة كان هو الشخص الذي سيجمع المناجل في ساحات القرية في جنوب توجو، وبالتالي يبدأ حربًا أهلية. لقد تعرفنا بعضنا على بعض منذ فترة طويلة؛ أتذكره عندما كان نقيبًا. حتى إنني أتذكر اليوم الذي تمت فيه ترقيته من نقيب إلى جنرال مع الانقلاب في توجو. وبموجب مهنتي، كنتُ من أوائل الذين هَنَّؤوه. بصراحة، لم أجد صعوبة في تهنئة شخص قتل آلاف الأشخاص واستولى على السلطة في ليلة واحدة؛ لأنني في ذلك الوقت كنتُ مثل ذلك الجندي الأنغولي. كنتُ أعتقد أنني لم أقتل العالم، بل أنه كان ميتًا بالفعل عندما وُلِدتُ.

قال الجنرال: «عزيزي ضمير، إن هذا الوجه يُناسبك حقًّا!»

- شكرًا جزيلًا. أنت أيضًا تبدو جيدًا جدًّا.

ضحك الجنرال في البداية، ثم بدأ يأكل بسرعة. كان يحب اللحم المُدمم. وعلى الرغم من أنني حاولت عدم التفكير في الأمر، فإن جملة «يا ضمير، هؤلاء السفلة...» جاءت في ذهني مرة أخرى؛ لأن شريحة اللحم على طبق الجنرال كانت تشبه وجه فريدون. أو أيًّا كان ما نظرتُ إليه حينها، كنتُ أرى وجهًا ملطخًا بالدماء. وربما ترك فريدون تلك الجملة الأخيرة عمدًا غير مكتملة ليُثبِتَ أنه أعظم من المفكرين العظماء الذين سُطِّرَت كلماتهم الأخيرة في التاريخ. على كل حال، الحياة أيضًا غير مكتملة.

القناع والوجه

كانت جاسينتا تكره إسطنبول؛ حيث كانت تكره المباني المتراصة بعضها فوق بعض التي تشبه قطيع حيوانات يدهس بعضه بعضًا، والسيارات المزدحمة في المرور، والمارة الذين يدهسون بعضهم بعضًا على الأرصفة الضيقة كقطيع الحيوانات، ثم يملؤون الطرقات. وفي الشهور الأولى من إقامتها بالمدينة، كانت تكره السياح الذين يزاحمون بعضهم بعضًا كقطيع ماشية في ممرات المتاحف، أو في السوق المغلقة التي يتجولون فيها. وكانت تكره الأوروبيين الأمريكيين، أو الذين يطلقون على أنفسهم مغتربين (expat)، والذين هم في رأي جاسينتا لا يختلفون عن قطيع حيوانات يدهسون بعضهم بعضًا، وذلك لأنهم لا يقومون بشيء سوى إقامة حفلات تضم 60 شخصًا في شقق سكنية مساحتها 60 مترًا، ويدهسون بعضهم أقدام بعض، ويصرخون بعضهم في آذان بعض، وبعد ذلك يضاجعون بعضهم بعضًا. وكان مجرد سماعها لكلمة مغترب هذه كافيًا لإثارة غضبها؛ لأنه إذا ذهب الشرقي إلى الغرب فإنه يُدعى مُهاجِرًا هناك، ولكن إذا ذهب الغربي إلى الشرق فدائمًا يُدعى مغتربًا. وهذا التعريف -الذي يعني الانفصال عن الوطن- كان يحمل أيضًا معنًى خفيًّا بالنسبة إلى جاسينتا؛ وهو أن الإنسان قد ترك وطنه الذي ولد وترعرع فيه طواعية. فكان كل من يصف نفسه بأنه مغترب يحاول بالفعل التأكيد على هذا المعنى. وهكذا، فإنه يميز نفسه عن المهاجرين الذين أُجبروا بسبب الظروف على مغادرة أوطانهم. وكان يقول: «أنا في الجانب الآخر من العالم لأنني أريد ذلك». وبناءً عليه، يصبح المُشَرَّد في غوا مغتربًا كنديًّا، والطبيب في مونتريال مهاجرًا هنديًّا. وكان هذا المنظور يُذَكِّر جاسينتا بكلمة أخرى تبدأ بحرفي ex أيضًا: الاستثنائية (Exceptionalism)!

هذا المصطلح يُذكرها بالنظرية الصدئة المُسماة الاستثنائية الغربية، التي تجادل بأن الغرب له مكانة متميزة وهوية استثنائية بين جميع الثقافات والمجتمعات الأخرى. وكانت جاسينتا تغضب كلما رأت آثارًا لهذه النظرية في العقل الباطن لمعظم الناس الذين تعرفت عليهم. كما كانت تكره الإسبان الموجودين في معهد ثيربانتس؛ لأنه على الرغم من أنهم يتحدثون اللغة نفسها، فإنهم لا يفهمون بعضهم بعضًا على الإطلاق، خصوصًا في موضوع إسطنبول؛ لأنهم كانوا يهيمون حُبًّا في هذه المدينة. لهذا، عندما اضطرت جاسينتا إلى الذهاب إلى المعهد، كانت تتحدث الكتالونية فقط؛ فمن وجهة نظرها، جميع المغتربين الموجودين في إسطنبول -باستثنائها- كانوا جهلاء وأغبياء مثل أولئك الذين أطلقوا على تلك اللوحة الشهيرة لبارميجانينو اسم «العبد التركي» لمجرد أن غطاء رأس المرأة في الصورة يشبه غطاء الرأس العثماني. وفي هذه المدينة المسماة إسطنبول، التي بدت وكأنها كومة من القمامة مُلقاة على جانبي مضيق البوسفور، كانت جاسينتا تستخدم هذه الكلمات وهي تتحدث عبر الهاتف مع والدتها، وكانت متوترة وكأن انفجار غاز الميثان سيحدث في أي لحظة. حتى إن ملايين الأشخاص الذين ولدوا في الأناضول وهربوا من الشقاء الموجود في مدينتهم، وسقطوا في شقاء أعمق في الأحياء الفقيرة بالمدينة التي أتوا إليها لم يكرهوا إسطنبول بقدر كره جاسينتا. وتشرح جاسينتا هذا بقولها: «لأن هذه المدينة تشبه المُخَدِّر! فمن يأتي إليها يتخدر لدرجة أنه لا يدرك نوع الجحيم الذي يعيش فيه! ومن تُسميه إسطنبوليًّا هو في الواقع مدمن! مسكين، يبيع نفسه كل يوم لمجرد أن يعيش في إسطنبول!»

حين كان المغتربون يسمعون هذا الكلام، كانوا يقومون -بالتأكيد- بإيجاد طريقة للابتعاد عن جاسينتا، على الرغم من ضيق حيز الحركة في الشقة التي أُقيمَت فيها الحفلة المكونة من 60 شخصًا؛ لأنه لا أحد يريد إضاعة الوقت مع امرأة تعيسة وغاضبة مثلها. ولم تكن جاسينتا ترغب أيضًا في إيذاء عينيها بالنظر إلى إسطنبول، ولهذا السبب خاطرت بالعيش في حيٍّ بعيد عن مكتبها الموجود في ليفينت، واستأجرت إحدى الشقق على ساحل السويدية فقط لتجنب رؤية المدينة، حيث كان بإمكانها رؤية الطريق الساحلي وبحر مرمرة وجزر الأميرات فقط من نوافذ منزلها، وفي الوقت نفسه أيضًا كانت

تُدير ظهرها تمامًا إلى إسطنبول. ولكن هذه المرة كانت تخشى أن تطلق عليها إسطنبول النار في ظهرها.

وبعد سنوات وصفت جاسينتا هذا الشعور بقولها: «كان الناس يتحدثون باستمرار عن زلزال كبير يمكن أن يحدث في إسطنبول. حتى إنه قيل إن تسونامي يمكن أن يحدث في بحر مرمرة في حالة الزلازل الشديدة للغاية. ولكنني كنتُ أتوقع أن يثور هذا التسونامي من مكان آخر، من ذاك البحر الخرساني الموجود خلفي! كنت أشعر كما لو أن تلك المباني سترتفع وتسقط فوقي مثل موجة عملاقة في أي لحظة، ثم تبتلعني. ودون حدوث زلزال واحد حتى! فقط لأن إسطنبول تريد أن تبتلعني! أو لأنها تعرف كم أكرهها!»

في الواقع، كان هناك سبب واحد بسيط للغاية وراء كل كراهية جاسينتا لإسطنبول؛ أنها لم تكن في المكان الذي تريد أن تكون فيه، ولم تكن تفعل ما تريد القيام به. لذلك، لا علاقة لإسطنبول بالموضوع. فكان يمكن أن تعيش هذا الشعور في أي مدينة أخرى في العالم. حتى لو ماتت جاسينتا وهي كاثوليكية ودخلت الجنة، ربما كان سيعتريها هذا الشعور أيضًا. أينما كانت جاسينتا كانت ستكره المكان التي هي فيه، لأن عقلها مشغول بمكان آخر. فمن وجهة نظر جاسينتا، كان عدم وجود جسد المرء وعقله في الإحداثيات نفسها كارثة! على سبيل المثال، إذا كان عقل الإنسان على الأرض وجسده في الجنة، فحتى الجنة ستبدو جحيمًا بالنسبة إليه. حتى إنها كانت سترى الموتى المُنَعَّمين المُحيطين بها في تلك الجنة مثل قطيع من الحيوانات يدهس بعضه بعضًا، ولا يمكن لشيء أن يجعلها تغير فكرتها هذه سوى عملية جراحة فصية، أو سوى الله، خالق الإنسان الذي اخترع هذه الجراحة الفصية. وبناءً عليه، اعتقدت جاسينتا أنها لا تستطيع الخروج من المأزق الذي هي فيه إلا إن حدث ثقب في جمجمتها، أو بعون من الله؛ لأنها عندما أرادت أن تكون في مخيم الأمان كانت تعيش في إسطنبول، وعندما كانت تريد مساعدة الناس كانت تقضي أيامها في مكتبها في ليفينت.

جُمِعَت ملايين الدولارات في وقت قصير في حملة الرُّضَّع المصابين في الحرب الأهلية السورية، التي بدأت بالاستفادة من شهرة ضمير. وبناءً عليه، عقد مجلس إدارة مؤسسة الكل للجميع اجتماعًا طارئًا وقرر فتح مكتب

للمؤسسة في إسطنبول؛ حيث تعتبر إسطنبول نقطة لوجستية رئيسة. وبالإضافة إلى ذلك تُعَدُّ إسطنبول مركزًا للسياحة العلاجية منذ زمن بعيد؛ حيث كان العديد من المستشفيات الخاصة يقدم خدمة علاجية مطابقة لمعايير الاتحاد الأوروبي. وكانت هذه المستشفيات تقدم هذه الخدمات أرخص بكثير من المستشفيات في الاتحاد الأوروبي. لذلك كان من المنطقي إخراج الرُّضَّع المُصابين من سوريا إلى إسطنبول وعلاجهم هناك. وحتى لو انتهت الحرب الأهلية السورية مستقبلًا، فسوف يستمر هذا المكتب في إسطنبول في العمل؛ لأن الجميع كان يعلم أنه عندما تنتهي حرب في الشرق الأوسط، فستبدأ حرب أخرى. وهذا يعني أن مؤسسة الكل للجميع لن تجد صعوبة في العثور على الرضع المصابين.

وبعد صدور قرار فتح مكتب إسطنبول، كان التساؤل من سيتولى إدارة هذا المكتب، ورَشَّحَتْ جينا جاسينتا لهذه المهمة. وأخذ مجلس الإدارة برأي جينا، مسؤولة العلاقات العامة في المؤسسة، وأصدر قرارًا بتعيين جاسينتا مديرةً للمكتب. وهكذا تولت إدارة مكتب إسطنبول امرأة تكره إسطنبول على مدار 24 ساعة في اليوم. وعلى الرغم من أن جاسينتا أظهرت أكثر من مرة رغبتها في البقاء في منصبها في مخيم الأمان عندما تم إبلاغها بهذا القرار، فإنها لم تنجح في ذلك. حتى إن آخر جملة في الرد الطويل الذي رد به رئيس مجلس الإدارة على جاسينتا كانت: «أنا متأكد من أنكِ سوف تحبين إسطنبول كثيرًا!»

بالطبع كان يمكن لجاسينتا ألا تقبل هذه الوظيفة الجديدة، وأن تستقيل على الفور، ولكنها لم تستطع فعل هذا.

وبعد سنوات تحدثت عن هذا الموضوع بقولها: «إذا كان عملك هو مساعدة الناس... وإذا كنت تقوم بهذا بشكل احترافي، فلن يمكنك شخصنة الموقف أبدًا. لنفترض أن مهمتك توزيع الطعام على الأطفال في قرية ما، فإنك إذا بدأت في النظر إلى أعين هؤلاء الأطفال، أو إذا بدأت في معرفة أسمائهم، أي إذا بدأت حقًّا في رؤية هؤلاء الأطفال وأصبحت على دراية بهم، فإنك لن تترك هذه القرية أبدًا. حتى إنك سوف تكرس نفسك حتى أنفاسك الأخيرة لهؤلاء الأطفال، ولن يمكنك الذهاب إلى قرى أخرى بعد ذلك! لن يمكنك توزيع

الطعام على أطفال آخرين! لهذا السبب ستكون هناك دائمًا مسافة بينك وبين الأشخاص الذين تساعدهم. أليست هناك طُرود مساعدات يتم إسقاطها من الطائرة بالمظلة؟ هكذا يجب أن تكون المسافة العاطفية بينك وبين الأشخاص الذين تساعدهم! وكلما ارتفعت تلك الطائرة عن سطح الأرض، ابتعدتَ أنت عن هؤلاء الأشخاص. لأن وظيفتك هي التوزيع! تسليم المساعدات. أنت ساعي بريد فحسب، ومهمتك أن توزع كل ما لديك في حقيبتك. لذا لا تبدأ في كتابة الرسائل لإسعاد الناس! لأنك إذا بدأت في القيام بذلك، فإنك لن تتمكَّن من أداء وظيفتك الرئيسية، لن تتمكن من توزيع الرسائل! هل تفهم؟ لقد ارتكبتُ هذا الخطأ، وتجاوزتُ الخط الذي كان يجب ألا أتجاوزه. كنتُ مرافقة لضمير في المستشفى منذ أن كلفوني بإدارة هذا المكتب. كنتُ على وشك إغلاق الهاتف في وجوههم عندما قابلت ضمير وجهًا لوجه. فكرتُ قائلة: يا له من رضيع هادئ! ثم تبادر إلى ذهني أنه لن يكون قادرًا على البكاء أبدًا، هذا ما قاله الأطباء. وفجأة بدأتُ في البكاء. لم أستطع تمالك نفسي. هل تعلم لماذا كنتُ أبكي؟ لأن ضمير لن يستطيع البكاء طيلة حياته، هذا كل ما جال بخاطري في هذه اللحظة. لم أكن أستطيع التفكير في شيء آخر. أتذكر أن الهاتف سقط من يدي حينها، وبدأت أرتجف... وبعدها لم أُدرك أي شيء. أُصِبتُ بانهيار عصبي، هكذا قالوا لي. لقد كنتُ مُحرَجة للغاية! لأنه ناهيك بالانهيار العصبي، لم أكن قد فقدتُ وعيي حتى ذلك اليوم ولو مرة واحدة. وبعد ذلك أتى طبيبٌ نفسي، وسألني عَمَّا إذا كان قد حدث لي شيء مؤخرًا أم لا، وهل أُصِبتُ بصدمة مؤخرًا أم لا، فأجبته: لا. فقال لي: هل أنتِ متأكدة؟ فأجبته: نعم، متأكدة. وبعدها تجمدت في مكاني. ولاحظت أنني نسيت تمامًا الانفجار الذي حدث في المخيم. كان قد مر عليه ثلاثة أسابيع على أقصى تقدير، ولكنني لم أكن أستطيع تذكر هذه اللحظة، تم محوها من ذاكرتي تمامًا. كأن هذا الانفجار لم يحدث قط! كيف يمكن للمرء أن ينسى مثل هذا الشيء؟ كيف؟

على أي حال، اتصلتُ بنيويورك في اليوم التالي، وقلت إنني قبلتُ الوظيفة؛ لأنني علمت أنه لم يعد بإمكاني مفارقة ضمير. لم يكن بإمكاني تركه هناك. ربما كنتُ أخاف من أن أُصاب بانهيار عصبي مرة أخرى إن تركته وذهبت. لا أعلم. ولكن بعد ذلك، هل تعلم ما الذي علمته؟ اتضح أنني لم أكن الوحيدة. أي إنني لم أكن الوحيدة التي أغمي عليها بسبب ضمير؛ فبعد سنوات تلقيتُ

خطابًا من أسبجورن، ذلك الطبيب الذي أنقذ حياة ضمير. كان قد هرب من المخيم، حتى إننا ظننا أن جيش الاستشهاد اختطفه، والحال أنه هرب بإرادته. وقد كتب إليَّ خطابًا من أجل ضمير، ومن أجل أن يعتذر مني؛ لأنه كان في فريق العلاج. كان رجلًا أشبه بمدمني الكحول المجهولين حسب ما أعتقد. وكان خطابه أشبه بتلك الخطابات التي كانوا يكتبونها في الماضي إلى الأشخاص الذين آذوهم ويعتذرون منهم. وقد شرح أسبجورن كل شيء في هذا الخطاب؛ شرح لي لماذا اختفى عن الأنظار، ولماذا ترك مهنة الطب. وقال: «إن هذا الرضيع بالنسبة إليَّ كان القطرة الأخيرة التي أفاضت الكأس! لقد قلب هذا الطفل حياتي رأسًا على عقب...»

تبين أن أسبجورن كان يشعر بنفس شعوري! ولكنه على الأقل كان قادرًا على كتابة كل هذا والاعتراف به لنفسه. أما أنا، فلم أستطع فعل ذلك. وربما هذا هو سبب تعرضي للانهيار العصبي الأول والأخير في حياتي في ذلك المشفى؛ لأنني لم أستطع أن أكون صادقة حتى أمام نفسي. مع أن كل شيء كان واضحًا. لقد صمدنا أمام كل ما رأيناه في الحرب حتى ذلك الحين، ولكن ضمير كان كثيرًا بالنسبة إلينا. بالطبع لم يكن أول رضيع مصاب نراه، ولكن ضمير كان مختلفًا عنهم جميعًا. هل هناك صمت كصمته هذا؟ إنه لا يبكي أبدًا. وكنا قد اعتدنا الصخب، اعتدنا الصراخ والبكاء، ونحيب الأطفال الذين يبحثون عن أمهاتهم، ثم فجأة ظهر لنا هذا الرضيع. وبقدر ما كانت الحرب صاخبة، كان ضمير هادئًا! عادةً ما يستيقظ المرء عندما يسمع صوتًا، أليس كذلك؟ نحن نعلم ذلك. ولكن ليس الأمر كذلك في الحرب، حيث اتضح أن هذه الأصوات تجعلنا ننام. لقد أدركتُ هذا هناك. إن ما أيقظني كان صمت ضمير! وعندما استيقظتُ رأيتُ أين نحن، وأي وحشية نغوص ونتخبط فيها! وبالطبع كان هناك التالي، كانت سلامة مخيم الأمان مسؤوليتي، وقد زرع أحدهم قنبلة في المخيم! لهذا السبب كنتُ ألوم نفسي! كنتُ أقول لنفسي إن ما فيه ضمير الآن بسببي. لذلك أصبح موضوع ضمير أمرًا شخصيًّا تمامًا بالنسبة إليَّ. ولكن عليَّ أن أعترف أنه كانت هناك علاقة غريبة تربطني بضمير.

لقد بقيتُ في إسطنبول من أجله، ولكن لم أكن أتحمل حتى الوقوف بجانبه؛ لأن رؤيته على هذه الحالة كانت تؤلمني جدًّا. دقيقة واحدة من

فضلك! هل يمكنك إيقاف التسجيل؟ شكرًا لك. لا أريد أن يسمع ضمير آخر ما قلته. دعه لا يعرف عن خطاب أسبجورن. يُرجى حذف هذه الأجزاء من التسجيل؛ لأنه إذا علم ذلك، فإنه سوف يحزن جدًّا، ثم يلوم نفسه. كان هكذا عندما كان طفلًا؛ كان دائمًا يلوم نفسه، يلوم نفسه على كل شيء. حتى إنه لام نفسه عندما تم اختطافه! هل لكَ أن تتخيل؟ طفل يلوم نفسه على اختطافه! هذا هو سبب رغبتي ألا يعرف ضمير شيئًا عن هذا. حسنًا؟ حسنًا، ماذا كنتُ أقول؟ أين توقفنا؟ تذكرت! كنتُ أشرح إلى أي مدى أكره إسطنبول. على كل حال... وقعت حادثة الاختطاف تلك. وحسب ما أتذكر كان ضمير في السابعة من عمره. لا، ليس السابعة...

***

كان ضمير في السادسة من عمره، وكان في إسطنبول منذ 6 سنوات، لقد كان يعيش مع جاسينتا. وقد خضع لاثنتي عشرة عملية جراحية في هذه السن الصغيرة، وقد رعته ثماني ممرضات مختلفات. بالطبع كانت العمليات الجراحية ضرورية بسبب حالته الصحية الحرجة، ولكن تغيير الممرضات كان اختيار جاسينتا. فجاسينتا، التي كانت تجد طريقة دائمًا لمجادلة تلك السيدات -ممرضات العناية المُركزة-، كانت تطردهن أولًا، وبعد ذلك، عندما يهدأ غضبها، كانت تبدأ في البحث عن ممرضة جديدة وهي في حالة من الذعر. لقد كانت توجه إلى الممرضات الاتهامات نفسها التي كانت تترك بسببها عُشَّاقها في الماضي: إما أنهن لم يكنَّ دقيقات بما فيه الكفاية، وإما كُنَّ بطيئات، أو كُنَّ يقلن الحقيقة في وجهها عندما توبخهن.

وبعد سنوات، علقت جاسينتا على هذا الموضوع بقولها: «لا تهذِ! بالطبع طردهن ليس له علاقة بما قُلنه في وجهي! لقد اضطررت إلى طردهن، لأن جميعهن كُنَّ غبيات!»

ومع ذلك، كان ضمير متفاهمًا جيدًا مع ممرضاته؛ لأنه لم يكن هناك أحد حوله غيرهن يمكنه التعايش معه. وكان مشغولًا جدًّا بالنسبة إلى طفل عمره ست سنوات؛ حيث كان لديه برنامج يومي عليه اتِّباعه، فوفقًا لهذا البرنامج اليومي كان يشارك ضمير في أفلام ترويجية قصيرة كواجهة لحملة الرضع المصابين، وفي إجراء مقابلات صحفية مكونة من ثلاث جُمَل مع الصحفيين،

وتكرار هذه الجمل نفسها كالآلة على المنصات المُقامة في قاعات الاحتفالات بالفنادق. وهكذا، كان العالم كله يشفق على ضمير. باستثناء أقرانه، فلم يكونوا يحبون ضمير على الإطلاق؛ لأنهم حين لا يكملون وجبة طعامهم التي أمامهم، أو عندما يطلبون لعبة باهظة الثمن، دائمًا ما كانوا يسمعون هذه الكلمات نفسها: «اشكر الله على حالك! ألا ترى ما يعيشه ضمير؟»

ومع ذلك، كان المطربون والممثلون -الذين كانوا على وشك إصدار ألبوم أو فيلم جديد- يحبون ضمير أكثر من غيره من الأطفال؛ فكان هناك من قطعوا آلاف الكيلومترات لالتقاط صورة معه لنشرها على حساباتهم على مواقع التواصل الاجتماعي. كان البعض يضعون أذرعهم حول كتف ضمير بشكل طبيعي، بينما كان يتردد آخرون في لمسه، ويكتفون بالوقوف بجانبه والابتسام. أما ضمير، فكان ينظر إلى العدسة وكأنه آندي وارهول صغير، الذي هو أكثر شهرة من كل هؤلاء الأشخاص المشهورين على مستوى العالم، ويرسم نفس تعابير الوجه في كل صورة.

لم تكن لدى جاسينتا أي فكرة عن تربية الأطفال؛ ولهذا السبب كانت تعامل ضمير كما لو كان جهاز كمبيوتر، وتحاول تحميل معلومات جديدة في دماغه خلال الوقت المتبقي من يومه بعد إنهاء كل أنشطته. وكانت تركز في البداية على حل مشكلة اللغة. أولًا، كان ضمير في حاجة إلى التحدث باللغة الإنجليزية حتى يتمكن من التواصل مع البرامج التلفزيونية في أي مكان في العالم وسرد قصته. لهذا السبب كانت جاسينتا تتحدث مع ضمير باللغة الإنجليزية طوال الوقت، ولم تكذب عليه قط. وهكذا، فإن الجمل الأولى الحقيقية في هذه الحياة التي فهمها ضمير من جاسينتا هي: «لا، أنا لَستُ والدتك. نادِني جاسينتا».

ونظرًا إلى أن جاسينتا كانت كتالونية اختفت لغتها الأم في حقبة مظلمة من التاريخ، فقد كانت تهتم بأن يتعلم ضمير اللغات المستخدمة في وطنه الأم، حيث كانت تعتقد أنه سوري. لهذا السبب حرصت أن يأخذ ضمير دروسًا في اللهجات الكردية والعربية خلال العام الماضي، وكان يتحدث التركية مع ممرضاته. وقد مَكَّنَت جاسينتا ضمير من التحدث بهذه اللغات كأحد أبناء قرية بالاز تمامًا، على الرغم من عدم معرفتها بهذه اللغات. وعلى أي حال،

فإن الجملة في قرية بالاز تبدأ باللغة الكرمانجية وتستمر باللغة العربية، ثم تنتهي باللغة التركية. وكانت والدة ضمير كردية، ووالده تركمانيًّا، ومولدته عربية، ولذا لم يكن تحدثه مختلفًا. وعلاوة على ذلك، كان ما يزال في السادسة من عمره، فكان عقله يمتص كل هذه اللغات بسهولة مثل الإسفنج؛ ولذا بدت عملية التعلم هذه طبيعية للغاية بالنسبة إليه، لدرجة أنه كان يعتقد أن أي طفل في الشارع يمكنه تحدث هذه اللغات مثله. ومع ذلك، كان يجد صعوبة في التبديل من لغة إلى أخرى أحيانًا. على سبيل المثال، توجه بالشكر باللغة الإنجليزية، ثم باللغة العربية، وأخيرًا باللغة التركية أمام عشرات الكاميرات إلى وزير الأسرة والسياسات الاجتماعية الذي منحه الهوية التركية عندما كان عمره 4 سنوات فقط. وفي الوقت الذي لم يتمكَّن ملايين الأطفال اللاجئين حتى من الحصول على بطاقة هوية من المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، حصل ضمير أيضًا على جوازات سفر سويسرية وأمريكية. وبهذا حصل ضمير على ثلاث جنسيات وألقاب.

ونظرًا إلى أن جاسينتا كانت تواجه صعوبة في اختيار لقب له، فقد رأت جينا -كعادتها دائمًا- أن هذه فرصة مناسبة، واغتنمت الموقف؛ لأن ضمير يمكن أن يصبح أكثر قيمة إذا ما حمل لقبًا مناسبًا. فيجب أن تتبادر معاناة ضمير إلى الذهن بمجرد سماع لقبه، وأن يجعل الأعين تذرف الدموع. ولذا لم تستغرق جينا وقتًا طويلًا للعثور على هذا اللقب. في الواقع، كانت الكلمة الأولى التي تبادرت إلى ذهنها هي الأنسب. إنها كلمة تتعلق بالمكان الذي بدأت فيه قصة ضمير؛ مخيم الأمان. ولذا، فقد دَرَّبَت جينا ضمير وحَفَّظَته أن يبدأ جميع خطاباته بالجملة نفسها: «اسمي ضمير أمان».

إن ضمير لم يكن يلتقي أقرانه، وكان يعيش حياة مؤسسية، وكانت الطفلة الوحيدة التي نادرًا ما يتحدث معها هي أسما، البالغة من العمر 8 سنوات، وكانت مصابة بسرطان الدم؛ حيث كانا يجتمعان أحيانًا في غرفة الانتظار في استوديو تلفزيوني، وأحيانًا في أثناء سيرهما في أروقة المستشفى برفقة الصحفيين. وكانت أسما مثل ضمير، تُستَخدَم واجهة لحملة جمع تبرعات. وكان يُشتَرَط أن يكون لكل حملة جمع تبرعات وجهٌ؛ لأن الناس يفتحون محافظ نقودهم فقط حين ينظرون إلى تلك الوجوه. على سبيل المثال، على

الرغم من أنه من المعروف أن ملايين الأشخاص يتضورون جوعًا في كل منطقة من العالم، فإن هذا ليس كافيًا لجمع التبرعات، ولذا يجب إحضار أحد سكان هذه المنطقة وعرضه للعالم، لأن رابطة التعاطف لا يمكن تأسيسها مع ملايين الأشخاص في الوقت نفسه، ولا يمكن لأي شخص أن يدرك بمفرده حقيقة وجود الملايين من الجياع، ولكن الملايين من الناس يمكنهم أن يدركوا جيدًا جوع شخص واحد.

كانت أسما تجمع الأموال للأطفال المصابين بسرطان الدم. وحين تكون بمفردها مع ضمير، كانت تتفحص وجهه بدقة كبيرة كما لو كانت تنظر إلى كائن من كوكب آخر، ثم تقول له: «أتعلم؟ إنني سأموت». وعلى الرغم من أن ضمير كان يحزن لسماع ذلك في البداية، فإنه بمرور الوقت بدأ يتجاهله، حتى إنه بدأ يشعر بالغيرة تجاه الفتاة الصغيرة. ليس لأنها ستموت، ولكن لأنها ترتدي دائمًا قناعًا على وجهها. لأن وجهه كان يخطف أنظار معظم الذين رأوه حتى ولو لحظة، بما في ذلك أولئك الذين التقطوا الصور معه. وفي كل مرة يخطف الأنظار، ينكسر شيء بداخله.

ومع ذلك، فكما قالت جينا -التي كانت على علم بالموضوع- لجاسينتا: «إن ضمير كان يجمع المال من خلال إظهار وجهه؛ لذلك لم يكن من الممكن أن يحضر المقابلات الصحفية واللقاءات التلفزيونية بقناع». وعلى الجانب الآخر، كانت أسما قد سئمت ارتداء القناع وتريد أن تخلعه، ولكن لم يُسمح لها أيضًا. ليس فقط بسبب الفيروسات في الهواء، بل لأنها أيضًا كانت تجمع التبرعات بقناعها هذا.

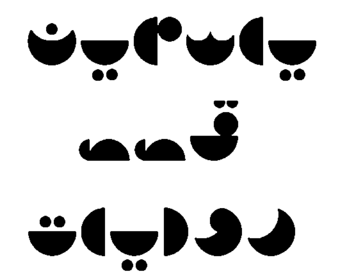
وذات يوم كان ضمير وأسما يجلسان بمفردهما، ينتظران دورهما في ردهة استوديو للتصوير الفوتوغرافي، وقال ضمير لأسما: «أتمنى يومًا ما أن يحدث شيء ما، وأن يضطر الجميع إلى ارتداء أقنعة! وحينها سأرتديه أنا أيضًا، أليس كذلك؟»

ضحكت أسما قائلة: «هل يمكن أن يحدث شيء كهذا! كيف يمكن أن يُصاب الجميع بسرطان الدم!»

ثم نادى مساعد المصور أسما، فغادرت الردهة وتركت ضمير بمفرده. وفى تلك الأثناء خرجت جاسينتا خارج المبنى لتُدَخِّنَ سيجارة، ولكنها رأت

أن علبة السجائر الموجودة في حقيبتها قد نفدت، فذهبت إلى الكشك الموجود في الشارع لشراء علبة جديدة. وبينما ضمير يفكر في نوع الكارثة التي يجب أن تحل بالعالم كي يرتدي جميع الناس قناعًا، دخل رجل ما. وحين رأى هذا الرجل ضمير لم يدر بصره أو رأسه، بل على العكس من ذلك، نظر إلى عينيه.

وبعد سنوات، قال ذلك الرجل: «لا، أنا لَستُ نادمًا على ذلك. ولم أندم قط! لقد خطفتُ ذلك الطفل لأجد ابني. هل تفهم؟ أخذوا ابني، فأخذتُ ضمير!»



27 من ديسمبر

كانت توجو عبارة عن مستطيل ضيق، تَحُدُّها غانا من الغرب، وبنين من الشرق. وفي ذلك البلد الذي تَحدُّه بوركينا فاسو من الشَّمَال، وشَمَال المحيط الأطلسي من الجنوب، كان بإمكان الحكومة المركزية فقط السيطرة على العاصمة لومي والمناطق المحيطة بها، بينما كانت بقية توجو مسرحًا لنزاعات قَبَلية لا تنتهي أبدًا. ومع ذلك، وفترةً طويلة، لم يصل عنف هذه النزاعات إلى مستوى يجب أخذه بعين الاعتبار. ولكن الآن، كان الجنرال دادجو يستعد لحملة من شأنها أن تُخِلَّ بجميع التوازنات في البلاد؛ حيث كان يخطط لمهاجمة مركز المستطيل المسمى توجو، بالتحديد سوكودي، والمناطق المحيطة بها، لأنه أراد الاستيلاء على مناجم الذهب والماس في تلك المنطقة. ولكنه بالطبع لم يستطع تبرير ذلك، فكان يحاول اختلاق سبب للحرب التي سيشعلها، تمامًا مثل الولايات المتحدة الأمريكية، التي احتلَّت العراق في السابق من أجل النفط. فكان يعتقد أنه من المنطقي إشعال حرب دينية؛ لأنه لا يستطيع قول: «نحن نُطَبِّق الديمقراطية». لأن الأقلية المسلمة الكوتوكولية كانت تعيش في منطقة سوكودي، التي خطط لمهاجمتها. فإذا تمكن من تحريض المسيحيين في العاصمة لومي والمناطق المحيطة بها الواقعة في الجزء الساحلي من منطقته، والقبائل الواقعة في شمال البلاد، أمكَنَه أن يبدأ هذه الحرب الدينية. ففي النهاية، كان نصف سكان توجو من المسيحيين، وبقية سكان توجو يؤمنون بالفودو، باستثناء المسلمين. علاوة على ذلك، كانت هناك مجتمعات مسيحية تقع في شمال منطقة المسلمين، وكان معظمهم من قبيلة الكابية، وهم مثل قبيلة إوي التي ينتمي إليها الجنرال دادجو، لم يكونوا يمانعون في انقراض المسلمين.

في نهاية المطاف، كان قرابة مليون مسلم مُحاطين بالمسيحيين وعبدة الفودو. ولكن المسلمين أيضًا كانوا على استعداد للحرب؛ فجماعة بوكو حرام، التي انتشرت من نيجيريا إلى أقصى إفريقيا على مدى عقود، وعاشت بعد تنظيم داعش الذي تأسس في الوقت نفسه، قد بذلت قصارى جهدها لتسليح أهل كوتوكو، ونجحت في ذلك. لأن رغبة بوكو حرام الوحيدة كانت أن تكون جزءًا من حرب دينية؛ وهذا لأن الحروب الدينية كانت تستمر فترة طويلة مثل الثأر، بحيث يمكن للأطراف المتحاربة الصمود عدة أجيال أخرى؛ فصراع مسيحي إسلامي صغير في أي بقعة من إفريقيا يمكن أن يضيف 40 عامًا على الأقل إلى عمر بوكو حرام.

لذلك كان الجميع يريد إراقة الدماء في توجو في أسرع وقت ممكن، وهذا هو المكان الذي تدخلتُ فيه. وبناءً عليه، كان وقف حَربٍ تَصُبُّ في مصلحة الطرفين صعبًا للغاية، ويتطلب إجراءات استثنائية. لذلك اضطررتُ في ذلك المطعم في باريس إلى مشاركة دادجو سرًّا لا يعرفه سوى قلة من الناس. وبعد أن انتهيتُ من حديثي، أسنَدتُ ظهري ونظرتُ إلى عيني الجنرال، اللتين كانتا مفتوحتين بدهشة. وكان فمه أيضًا مفتوحًا.

- حقًّا؟

- نعم.

- لقد استدعوني، أليس كذلك؟

- بلى أيها الجنرال. إنهم ينتظرونك.

- قالوا نحن ننتظر الجنرال دادجو، أليس كذلك؟ أي إنهم سمعوا باسمي! هم يعرفونني؟

- أجل. كما قالوا إنهم سيكونون سعداء للغاية بلقائك.

- كنت أعلم! كنت أعلم. حتى إنني كنت أقول ذلك، ولم يكن يصدقني أحد. ولكنني كنت أعلم أنهم حقيقيون.

- نعم أيها الجنرال.

- منذ كم من الأعوام ونحن نعرف بعضنا بعضًا! لماذا لم تخبرني من قبل؟

- أعتقد أنك ستُراعي أن هذا أكبر سر في العالم. لذلك...

- أنت مُحِق، أنت مُحِق. لذا، فهم يحكمون العالم، أليس كذلك؟

- كما قلت، يمكننا الذهاب غدًا إذا كنتَ ترغب في ذلك.

- بالطبع، بالطبع. بالتأكيد سنذهب. هذا أمرٌ رائع!

- نعم! هذا أمرٌ رائع!

رفع الجنرال دادجو رأسه ونظر إلى السقف المُزخرف حيث كانت الملائكة تطير، وتحدث إلى نفسه في عالمه الوهمي: «الاثنتا عشرة عائلة التي تحكم العالم... سألتقيهم!»

- في الواقع لن تلتقي سوى شخص واحد من العائلات.

لم يسمعني حتى.

كان يقول: «خارق! ممتاز!» ثم توقف فجأة وسأل بفضول شديد: «يا تُرى لماذا يريدون مقابلتي؟»

- ليس لدي علم.

- يا تُرى أي نوع من الناس هم؟

- سترى. إنهم متواضعون إلى أقصى حد.

ثم سأل: «هل تعتقد أنني يجب أن أحضر هدية؟» بعد ذلك أجاب نفسه بسؤال آخر: «ولكن ما الذي يُعطى إلى من يملك العالم؟»

- يمكن إعطاء الوعود.

بمجرد سماعه هذا انفجر من الضحك؛ لأنه كان يعرف نفسه. بتعبير أدق: كان يعرف صفته في القارة واحدًا من أكبر المحتالين في إفريقيا، كان يعلم علم اليقين أن وعده كان بلا قيمة. وعند انتهاء ضحكه واصلنا الحديث.

وفي الساعات التالية، تطرق الحديث إلى الخطط التي وضعناها للعام الجديد، وبالطبع كذب كلانا. لقد أوضحنا أننا نريد دخول الألفية الجديدة مع أحبابنا، في حين كان دادجو يأمل في قيادة إبادة جماعية بحلول ليلة رأس السنة، أما أنا فلم يكن لديَّ من أحبه.

قضينا الليلة في فنادقنا، والآن نحن على متن طائرة الرئاسة المتجهة إلى أمستردام. لقد مرت بضع دقائق فقط على مغادرة المجال الجوي الفرنسي، وكان الجنرال دادجو يشخر. على الرغم من أنني كنت أجلس بعيدًا جدًّا، فإنني كنت أستطيع سماع الضوضاء التي يُحدِثُها. في الماضي شعرتُ بالغيرة من فتاة مصابة بسرطان الدم تُدعى أسما لأنها كانت ترتدي قناعًا، والآن كنت أشعر بالغيرة من أن دادجو –الذي كان إبليسًا بما يكفي ليكون له مكان على أبواب الجحيم للفنان رودين– كان قادرًا على النوم براحة كبيرة. فحتى اليوم، كان قد أمر بقتل عشرات الآلاف من الناس، وكان يخطط لزيادة هذا العدد إلى مليون في غضون أسابيع قليلة، ولكنه كان قادرًا على النوم مثل طفل أخذ قيلولة للتو، فالأطفال الذين أحرقوا الحشرات وانتزعوا أجنحة الذباب كانوا قادرين على النوم أيضًا.

لم يكن الديكتاتوريون ذوي نمط واحد، لقد عرفتهم جيدًا على مر السنين. فعلى سبيل المثال، كان ديكتاتوريو آسيا الوسطى يتمتعون بجدية المكتب السياسي المتبقي من الاتحاد السوفيتي؛ فكانوا يبدون وكأنهم بيروقراطيون متواضعون، ويتحدثون قليلًا مثل ضابط مخابرات بارد، وبعد ذلك، وبشكل غير متوقع، ينشئون تماثيلهم البالغ ارتفاعها أربعين مترًا في وسط عاصمتهم، أو يكتبون مقدمات لكل الكتب التي سمحوا بنشرها في بلدهم. بتعبير أدق: كانوا يجعلون آخرين يكتبونها ويوقعون هم تحتها فقط.

أما الديكتاتوريون في أمريكا الوسطى والجنوبية، فكانوا ودودين أكثر؛ حيث كان من الممكن شرب النبيذ معهم والتحدث عن كرة القدم أو عن رقصة التانجو جنبًا إلى جنب في قاعات قصورهم. كانوا يتحدثون مثل تشي جيفارا، ولكنهم يتصرفون مثل بابلو إسكوبار. لذلك حتى إطعام أي منهم نمورهم كان يعتبر ضرورة ثورية. علاوة على ذلك، كانوا يقرؤون الشعر في اجتماعاتهم، وبالطبع يوجد شاعر يصفونه قائلين: «إنه المفضل لدي». ومن وجهة نظري، أفضل قصيدة في أدب أمريكا الجنوبية كانت مكتوبة في رسالة انتحار أحد هؤلاء الشعراء. ولقد كان اسم القصيدة: أن تكون الشاعر المُفَضَّل لديكتاتور.

وبالنسبة إلى ديكتاتوريي الشرق الأوسط والخليج، فلقد كانوا الأكثر سلاسة في التعامل؛ فلم يكونوا يلعبون الشطرنج مثل نظرائهم في آسيا

الوسطى، ولم يكونوا يجمعون سجلات مثل نُظَرائهم في أمريكا الجنوبية. وعلى عكس الديكتاتوريين الآخرين الذين كانوا يعملون من أجل أن يصبحوا أصحاب ثروة وسلطة خلال ساعات العمل، كانت هوايات هؤلاء الرجال هي أن يصبحوا أصحاب ثروة وسلطة. لذلك يمكنهم النظر إلى جميع جوانب الحياة من هذا المنظور وإبرام صفقات لكل شيء؛ فيمكنهم حتى بيع الأرض التي يحكمونها في غضون ساعات قليلة إذا اتفقوا على السعر. ثم يُسارِعون بالتوجه إلى الصك الإسلامي -سوق الاستثمار الحلال في بورصة لندن- لمُضاعفة هذه الأموال. فكانوا الأكثر انسجامًا، حيث كانوا مسطحين ويمكن توقعهم، مثل الصحراء التي كانوا يعيشون فيها.

ولكن الديكتاتوريين الأفارقة كانوا على العكس تمامًا! لقد كان كل منهم تجسيدًا لعدم الانسجام والاتزان؛ فكانوا يتحدثون بسرعة، ويحاربون بسرعة، ويتصالحون بسرعة. لأنهم لم يتمكنوا قط من السيطرة الكاملة على المنطقة التي كانوا يحكمونها، وكانوا يعلمون أنه يمكن الإطاحة بهم بضربة واحدة في أي لحظة. وهذا من شأنه أن يحولهم إلى أشخاص مصابين بجنون العظمة الذي عاشوا فيه يومًا بعد يوم. إن أفضل طريقة لفهم أن الديكتاتورية جريمة عالمية هي النظر إلى أعينهم؛ لأنه يكون هناك خوفٌ دائم من الوقوع في هذه الأعين. ولقد حاولوا قمع هذا الخوف بكل ما وجدوه؛ ففي بعض الأحيان يكون بالكوكايين، وفي أحيانٍ أخرى يكون بالجنس. ولكن الأهم من ذلك كله أنهم كانوا يهدؤون من خلال إخافة الآخرين. ولم يكن الجنرال دادجو استثناءً.

لم يكن هناك ديكتاتور تعرفت إليه يمتلك آلة قطع بقوة دفع الماء مثل دادجو. هذه الآلة -التي تستخدم عادة في صناعة الطائرات- كانت موجودة في صالة الألعاب الرياضية بقصر الرئاسة في لومي. كانت عريضة ومرتفعة مثل طاولة البينج بونج المجاورة لها، وكانت تحتوي على ثمانية صنابير متجاورة، تُسمى رؤوسًا، على جسر متصل يمكنه أن يتحرك ذهابًا وإيابًا فوق الطاولة. هذه الصنابير عالية الضغط كانت تدفع الماء بسرعة 800 متر/ ثانية، ويمكن لشفرات الماء هذه قطع أي شيء، من الجرانيت وحتى الفولاذ. ولكن دادجو بالطبع كان مهتمًا بقطع اللحم البشري؛ حيث كان يُوضع الشخص المُراد تقطيعه على الطاولة ويُربَط من ساعديه وكاحليه،

ثم يمر الجسر الذي يحمل الصنابير ببطء فوق جسده؛ فكان ينتج عن هذا سبع قطع بشرية مقطوعة بشكل مثالي. وعندما كان يُسأل دادجو عن سبب عدم استخدامه منشارًا عاديًّا لهذا الأمر، كان يجيب بواحدة من إجابتين وفقًا لحالته المزاجية في تلك اللحظة: «لأن الحياة بدأت في الماء وستنتهي في الماء!» أو «لأن كل شيء في هذا العالم عبارة عن سلاح إذا كُنتَ تعرف كيفية استخدامه!» ولكن من وجهة نظري، السبب الحقيقي لاستخدامه تلك الآلة كان ذلك السؤال الذي يطرحه لتهديد الناس: «هل تريد الماء؟» كل شيء كان فقط من أجل أن يطرح هذا السؤال ثم يبتسم مثل طفل.

ولكن طفولة دادجو لم تكن تنتهي عند هذا الحد؛ فلقد كان يصنع أعضاء اصطناعية، التي كانت نُسَخًا طبق الأصل من أثمن ما يملكه؛ عضوه، وكان ينظم الحفلات ويوزعها على الأشخاص الذين يختارهم من محيط القصر.

في الواقع، بدأ كل شيء منذ سنوات بخطاب ألقاه دادجو متأثرًا في عشاء مزدحم في القصر، حيث كنتُ موجودًا أنا أيضًا. حيث أشاد بوزير الداخلية -الجالس بجانبه مباشرةً- عدة دقائق، وأخذ يوضح مدى نجاحه في قمع المعارضة في العاصمة؛ ففي الواقع كان أي شخص مُعارض لدادجو عاجزًا عن الكلام، ولا يمكنه الخروج إلى الشارع من الخوف.

ثم التفت الجنرال إلى الوزير وقال بحماس كبير: «كل شيء حدث بفضلك! لقد ضاجعتُ هؤلاء الحيوانات بفضلك!»

وبعد صمت قصير، قال تلك الجملة التي سُطِّرَت في تاريخ ثقافة الديكتاتورية: «في الواقع، أنت عضوي!»

على الرغم من أن عددًا قليلًا من الأشخاص الجالسين حول المائدة لم يستطيعوا إلا أن يضحكوا، فإنهم جميعًا أعربوا عن أسفهم لرؤية جدية دادجو.

قال الجنرال: «نعم، نعم! أنت هكذا بالضبط؛ لأنني ضاجعت هؤلاء الخونة بواسطتك! عزيزي الوزير، أنت عضوي!»

في تلك اللحظة لم يكن وزير الداخلية يعرف كيف يتصرف، فالتزم الصمت وأحنى رأسه في خجل. ثم نظر إلينا دادجو وقال: «هذا أكبر إطراء يمكنني أن أقدمه لشخص كالرجل».

بناءً على هذه الكلمات، صفقنا جميعًا للوزير وهنأناه على هذا الإطراء الرائع من دادجو. وبالطبع أولئك الذين لم يستطيعوا السيطرة على أنفسهم وأخذوا يضحكون في البداية صفقوا بحرارة.

بعد أسابيع قليلة من تلك الليلة، نظم دادجو احتفالًا وقدم واحدًا اصطناعيًّا -نسخة طبق الأصل منه- إلى الوزير. وقد كنتُ أنا السبب في اختياره اصطناعيًّا من السيليكون بدلًا من تمثال له من البرونز. في الواقع كنتُ أمزح.

- إذا كان تمثالًا، فإن معالي الوزير لن يتمكن من استخدامه!

ولكن الجنرال أخذ الأمر على محمل الجد.

- استخدام؟ لم أفكر في ذلك على الإطلاق. حسنًا، ماذا أفعل؟

فاضطررتُ إلى الإجابة: «ربما إذا كان اصطناعيًّا...»

قال: «أجل!» ثم بدأ على الفور في التخيل. إذا كان لديه واحد اصطناعي، فإن عضوه سيدخل ويخرج هنا وهناك حتى في أثناء نومه، وهو نجاح عظيم كان من الصعب تحقيقه حتى بالنسبة إلى الديكتاتور. وكان من المؤكد أن واحدًا اصطناعيًّا سيقوي علاقته بأتباعه؛ لأنه من وجهة نظر دادجو، كانت جميع النساء تحبه، وجميع الرجال كانوا يريدون أن يكونوا مثله. وبفضل هذا الشيء الاصطناعي، كان سيتمكن من دخول كل غرفة نوم، والمشاركة في اللحظات الأكثر خصوصية للأشخاص الذين يحكمهم، حتى لا تكون هناك منطقة واحدة لم يتدخل فيها في الحياة اليومية! لم يعد الأمر مقتصرًا على وزير الداخلية فقط؛ حيث كان يجب أن يُعطي واحدًا إلى كل من يستحقه! فإذا كان لدى فرنسا وسام جوقة الشرف، فإن دادجو كان لديه وسامه الخاص!

قال: «هذه فكرة عظيمة!» ثم سأل أين يمكن صنع شيء كهذا؟ ومن يمكنه هذا؟ الشيء الذي سيكون نسخة طبق الأصل منه. ولسوء الحظ، كانت لدي فكرة عن ذلك أيضًا.

نتيجة لذلك، تم صنع الأعضاء الاصطناعية، وبدأ دادجو في توزيعها أولًا على وزير الداخلية، ثم على الآخرين. أولئك الذين يحق لهم الحصول على واحد بفضل خدمتهم للدولة وولائهم للجنرال، اعتقدوا في البداية أنها مزحة سخيفة، ولكن عندما رأوا الأبواب التي فُتِحَت أمامهم، أدركوا أن

الوضع كان جادًّا للغاية. لم يمضِ وقت طويل، حتى أصبح عضو دادجو هو أعلى لقب في المنطقة، حيث بدأ أولئك الذين حصلوا على أعضاء بتشكيل الطبقة الأكثر نُخبوية في لومي. كما كانت حياة أولئك الذين أخذوه تتغير، فيكتسبون حصانة بكل ما تحمله الكلمة من معنى؛ حيث كانت مناقصات الدولة وعمليات التعدين تُمنَح فقط إلى هؤلاء الأشخاص، كما كانوا يسيطرون على وسائل الإعلام. ومع ذلك، إذا ارتكبوا أدنى خطأ، فإن دادجو كان يستعيده على الفور، والذي كان يعتبر أكبر إذلال؛ ففي الواقع، غالبًا ما كان يأخذه الجنرال ويستبدل به مسدسًا ويقول: «الآن، اذهب إلى منزلك وأطلق النار على نفسك. لا تنجس قصري!» لهذا السبب كان الجميع يبذل قصارى جهده لمنع استرجاع الأعضاء الاصطناعية.

كان عضو دادجو المصنوع من السيليكون مثل نشان الخدمة الأعلى مرتبة، يُعرَضُ في أركان واضحة بالمنازل الأكثر فخامة، أو كان يُخفى مثل كنز في أكثر الخزائن أمانًا. فعلى كلٍّ، كان هذا هو الإرث الأثمن الذي سيتركه الناس لأطفالهم. وبطبيعة الحال، كانت أيضًا مسألة غيرة بين عائلات كبار الدولة في لومي؛ فكان هناك من أقاموا عشاءً احتفاليًّا في منزلهم وأعلنوا أنهم حصلوا على واحد من دادجو. أما أولئك الذين لم يحصلوا بعد على اللقب، فكانوا يعضّون شفاههم من الغضب. لقد كانت له قوة فعالة، لدرجة أنه كان يتم تزييفه؛ حيث كان يتم استخدامه أيضًا للحصول على امتيازات صغيرة في الحياة اليومية. على سبيل المثال، يمكنهم بسهولة اجتياز فحص الشرطة، أو الحصول على قرض صغير من أحد البنوك، أو إنقاذ قريب يتعرض للتعذيب في مركز الشرطة؛ فعلى كل حال، لا يمكن لأي شرطي أو مدير بنك أن يأخذ هذا الشيء الاصطناعي ويطرق باب دادجو ويختبر صحته من خلال مقارنته بالحقيقي. ومع ذلك، كان هناك شخص واحد تم القبض عليه وهو يحاول تمييز نفسه بواحد مزيف؛ حيث اشتبهت الشرطة، الموجودة في نقطة الفحص، في بقعة وردية صغيرة على العضو الاصطناعي، وبعد أن كشطت قليلًا حول تلك البقعة، أدركت أنه قد دُهِنَ بالكامل باللون البنيِ بواسطة ورنيش أحذية؛ فكان مزيفًا ومختلف اللون على حد سواء. عندئذٍ اتُّهِمَ الرجل بأنه جاسوس، وتم تعذيبه واستجوابه. حيث سُئِل: «أنت عضو من؟ أنت عضو أي رجل أبيض؟»

بالتأكيد لم يستطع الرجل الإجابة عن هذه الأسئلة. كل ما استطاع قوله هو: «لقد قمتُ بتهريبه من غانا. فقط لتجنب رشوة الشرطة في المرور. أقسم إنني لم أكن أعرف أنه يخص رجل أبيض!»

ومع ذلك، تم تجاهل كل ما قاله، ثم مثل أمام دادجو، فقال للرجل: «هل تريد الماء؟» وابتسم مثل طفل. حتى الآن أعتقد أنه كان يبتسم. كنتُ متأكدًا من أنه كان يضحك حتى في حلمه، لأنه كان سيقابل واحدًا من العائلات الاثنتي عشرة التي تحكم العالم.

حتى هبوط الطائرة الرئاسية في مطار سخيبول، كنتُ أنظر إلى صندوق التشيللو بجانبي وأتخيل أنني أعزف على التشيللو الذي بداخله. ولكن ذهني كان ممتلئًا لدرجة أنني لم أستطع أن أعزفه حتى في خيالي.

وبينما كنتُ أنزل على درج الطائرة، رن هاتفي. كان المتصل فيديريكو من باليرمو، وكان يتحدث كما لو أن العالم قد انهار عليه.

- أنا آسف يا ضمير. لقد فشلت. لم أستطع فتح ذلك الثقب... أخرَجوا تشاستا من الزنزانة هذا الصباح.

قلت: «لا تحزن، لقد فعلتَ ما بوسعك».

- ماذا سيحدث الآن؟

- لا أعرف يا فيديريكو... يبدو أن تماثيل الهنود الحمر الغاضبة ستعود مرة أخرى.

وبينما كنا نسير باتجاه سيارات الليموزين التي تنتظرنا، رن هاتفي. كان المتصل يوسي من بيت لحم، وكان يتحدث كما لو أن الشمس قد غابت للتو.

- هذه المرة اختفى أكثر من مئة شخص يا ضمير؛ لقد اختفوا ليلة أمس. كما أدلى جيش الكيان الصهيوني ببيان الآن. قال إنه لا يوجد شيء اسمه الفلسطينيون المفقودون، وإن كل هؤلاء الأشخاص قد عبروا الحدود وذهبوا إلى الأردن. ولكن هذه كذبة بالفعل! فلا أحد يعرف مكان هؤلاء الناس. عدد المُختَفين تجاوز الألفين. ماذا سيحدث الآن؟ ماذا سنفعل؟

- لا أعرف يا يوسي.

أغلقتُ الهاتف، ثم قلت لسائق الليموزين: «نحن ذاهبون إلى فليفولاند». كنا سنذهب أمام موكب من أربع سيارات، وكان دادجو في سيارة ليموزين خلفنا مع عشيقتين وسكرتيرته وحارسين شخصيين. وسيارات الليموزين الأخرى كان بها أيضًا حراس شخصيون وسكرتيرات. أما أنا، فكنتُ أذهب مع طبيب دادجو وممرضته وكونا. كان كونا ساحرًا وعَرَّافًا ومُعالِجًا، وكان أفضل شخص تعاملتُ معه في المحيط القريب لدادجو؛ فلقد كنا نعتني بعضنا ببعض وندعم بعضنا بعضًا عند الضرورة، لأنه كانت لدينا نقطة مشتركة؛ كلانا كنا نكذب على دادجو طوال الوقت.

قال السائق متسائلًا: «هل يمكنني الحصول على العنوان؟»

فأجبته: «لا، ليس بعد».

تحركت السيارة، ورن هاتفي. كان المتصل جريس من لندن، وكان يتحدث كما لو كان يلتقط أنفاسه الأخيرة.

- لقد سرقوا التقرير يا ضمير... حصلوا على نسخة من تقرير مؤشر المنفعة بأرقام حقيقية. لم يتضح من أخذها، لذلك يمكن لأي شخص أن يعلنه في أي وقت.

- إذا حدث ذلك فلن يتم كسر أطقم الشاي فقط هذه المرة في بيكاديلي. ماذا سنفعل؟

- لا أعرف يا جريس.

لم أعد أعرف شيئًا حقًّا. بتعبير أدق: لم أكن أرغب في المعرفة. كنتُ أقول لنفسي: ليعرف الآخرون. آخرون... مُضيفون آخرون. وفي تلك اللحظة خطر على بالي كريستيل من نوكا، إحدى المُضيفين الثلاثة للجمعية الإنسانية العالمية. نظرًا إلى أن جنجافر لم يعد على قيد الحياة، فقد كانت تُعتبر أفضل مُضيفة في العالم. لقد كانت في طليعة الآخرين الذين قد يعرفون شيئًا ما. فاتصلت بكريستيل.

- هل أنتِ متفرغة؟

- مرحبًا يا ضمير. أنا بخير، شكرًا لك. كيف حالك؟

- أنا على عجلة من أمري يا كريستيل! الأمر يتعلق بالكيان الصهيوني...

- هل الفلسطينيون المفقودون؟
- نعم. ومن فضلكِ لا تقولي لي إنكِ لا تعرفين أي شيء!
- بالطبع لن أفعل؛ لأنني أعلم. فمثلًا أعلم أن لديك الكتاب.
كان بإمكاني أن أسأل أي كتاب.
- نعم، لدي.
ولكن التحدث إلى كريستيل التي تعرف كل شيء كان هكذا.
- إذا أحضرتَ الكتاب، أمكَنَنا التحدث. وربما يمكنك حتى معرفة ما يحدث في فلسطين.
أغلقتُ الهاتف، ثم نظرتُ إلى كونا الجالس أمامي. لقد كان يُراقبني منذ مغادرتنا.
- إنك تعمل كثيرًا يا ضمير.
- نعم يا كونا، للأسف هذا صحيح.
- أعتقد أنك تحاول عبثًا؛ فعلى كل حال لا يمكنك إنقاذ هذا العالم.
- ربما سينقذني العالم.
ضحك كونا ونظر إليَّ طويلًا وأخذ يفكر. كان من الواضح أن شيئًا ما كان يدور في ذهنه. وأخيرًا لم يستطع التحمل، وسأل: «ما هو دينك يا ضمير؟»
- لا أعلم. لم أفكر في الأمر قط.
لم نتحدث بعد ذلك مرةً أخرى. وبعد خمسين دقيقة تحرك بالسيارة، طلبتُ من السائق أن يخرج من الطريق السريع. وبعد نصف ساعة، أشرتُ إلى طريق ريفي ليدخله، حيث أصبحت الحقول ممتدة على مرمى العين على جانبينا. مقارنةً بمساحة معظم البلدان ذات الأراضي الصالحة للزراعة، كانت هولندا بحجم نخلة. ومع ذلك، كانت ثاني أكبر مصدر للمنتجات الزراعية في العالم. كما كانت من الممكن أن تكون أول من استخدم الدراجات؛ فالدراجة، التي شجعت الدولة على استخدامها خلال أزمة النفط في الماضي البعيد أصبحت الآن وسيلة نقل ذات تفوق عبور في حركة المرور. أما في مدن أو قرى ما يُسمى دول العالم الثالث، فكنتُ أرى ميكانيكيي الدراجات يجلسون

عاطلين بين الإطارات المُقطَّعَة أمام أكواخهم المتهالكة. لقد كانوا أشخاصًا اختاروا أن يكونوا ميكانيكيي دراجات في حين كان هناك الكثير من الأعمال التي يمكنهم القيام بها في المنطقة، ولكن لن تكون هناك دراجة واحدة في الجوار؛ لأنه في تلك المدن والقرى لم يكن أحد يهتم بالدراجات باستثناء الأطفال. لذلك، لا يمكن القول إن هؤلاء الميكانيكيين قاموا بهذا العمل من أجل المال. أعتقد أنهم كانوا يفعلون ذلك من أجل الحب؛ لأنهم وقعوا في حب الدراجات. بعد ذلك أتخيل أنني على سبيل المثال قمتُ باختطاف أحد هؤلاء، الذين يعيشون في إحدى دول المستعمرة الهولندية القديمة، والذين لم يغادروا قريتهم على الإطلاق، وأحضرته إلى هولندا –جنة ميكانيكيي الدراجات–، وربما تركته في وسط مدينة أوترخت وفتحتُ عينيه. من يدري كيف سيشعر عندما يرى راكبي الدراجات يمرون بجانبه ذهابًا وإيابًا بين الحين والآخر؟ هل هناك أي مكان في هذا العالم يمكنني أنا أيضًا أن أشعر فيه بهذا الشعور؟ وهل كان لدى أي شخص مثل هذا الحلم بالنسبة إليَّ؟ حلم أن يختطفني أحد ويأخذني إلى مكان يعتقد أنني سأكون سعيدًا فيه، فيوصلني ويتركني؟ لم أكن أعتقد ذلك قط؛ لأنني تعرضتُ للاختطاف عندما كنتُ طفلًا في السادسة من عمري، وأتذكر جيدًا جدًّا المكان الذي فتحتُ فيه عيني. لم يكن يبدو مثل الجنة على الإطلاق!

قلت للسائق: «ابقَ خلف تلك السيارة التي أمامك!»

نزلتُ ومشيتُ إلى الخلف نحو سيارة الليموزين التي كان دادجو بداخلها، ففتح نافذته.

- أيها الجنرال، يمكنك النزول... سنذهب بتلك السيارة بعد ذلك.

كنتُ أشير إلى سيارة لاند روفر قديمة واقفة على جانب الطريق. وبينما كان الحارسان الشخصيان على وشك الخروج من الليموزين قلت: «ولكن أنا وأنت فقط».

قال دادجو: «إنك تهذي كثيرًا!»

- تلك هي القواعد أيها الجنرال. ولكن لا تقلق أبدًا. (كنتُ أشير إلى السماء) تتم مراقبتنا الآن بالفعل. صدقني، لا يوجد مكان أكثر أمانًا في العالم من هنا.

قال دادجو: «انتظر لحظة». تجادل مع حارسيه الشخصيين -اللذين رَفَضا تركه بمفرده- بلهجة كانت تقسو تدريجيًّا، ثم نزل من سيارة الليموزين حاملًا حقيبة صغيرة.

- ولكن لا يمكنك اصطحاب سلاح معك.

ابتسم دادجو وقال: «هذا ليس سلاحًا. إنها هدية!»

أم إنه كان هناك عضو اصطناعي في الحقيبة؟ هل كان سيعطي حقًّا أحد أعضائه الاصطناعية إلى واحد من العائلات الاثنتي عشرة التي تحكم العالم؟ بصراحة، لن أتفاجأ على الإطلاق؛ لأنه كان دادجو!

كانت سيارات الليموزين ستذهب إلى المدينة التي على بعد 10 كيلومترات، وكان وفد دادجو سينتظر هناك بينما نعقد نحن اجتماعنا.

كان مفتاح اللاند روفر فوقها. ربما بسبب العادة، توجه دادجو إلى المقعد الخلفي.

- أيها الجنرال، اجلس بجانبي من فضلك.

- هل هذه القواعد أيضًا؟

- نعم، إنها كذلك.

ثم بدأتُ تشغيل السيارة. وبعد مسافة قصيرة دخلتُ طريقًا صغيرًا بين حقلين. لقد كان دادجو ينظر إلى ما حوله بدهشة. من الواضح أنه لم يكن هناك شيء يسير كما كان يتوقع؛ فلم يكن هناك قصور تشبه تاج محل، ولا رجال مسلحون، فقط الحقول والمزارعون الذين يعملون بعيدًا. لم أرغب في ترك دادجو يتساءل أكثر من ذلك.

***

«تبدأ قصة هذه العائلات الاثنتي عشرة مع الثورة الصناعية. جميعهم كانوا يكبرون أولًا، ثم يحتكرون قطاعات مختلفة. لقد صنعوا ثروتهم الأولى في ذلك الوقت، ثم انتهزوا كل فرصة أتت في طريقهم، فهم يدخلون في أي شيء يمكن أن يخطر ببالك؛ من تجارة الرقيق، وحتى صفقات النفط الأولى مع الشرق الأوسط، من إنتاج الأسلحة، وحتى إنشاء البنوك المركزية للدول. في الواقع هناك المزيد من العائلات ما زالوا في البداية؛ لذا هم أكثر من اثنتي

عشرة، ولكنهم دائمًا في منافسة. أحيانًا تتحد عائلتان أو ثلاث لتدمير عائلة ما. ولكن بعد ذلك، هؤلاء الشركاء أيضًا يدمرون بعضهم بعضًا. هناك العديد من الصراعات من هذا القبيل، مما يؤدي إلى اختفاء العديد من العائلات. فقط هذه العائلات الاثنتا عشرة باقية، وهم أيضًا لديهم اتفاقية بعضهم مع بعض. اتفاقية جنتلمان التي تنص على أنهم لن يقوموا بأي أعمالٍ من وراء ظهورِ بعضهم بعضًا. بالطبع هناك تساؤل حول ما يجب فعله بهذه القوة الكبيرة.

أول ما يبدر إلى الذهن هو التدخل في السياسة. ولكنهم أدركوا على الفور أن هذا خطأ كبير! لأن السياسة تعني أن تكون أمام الأعين، وأن يتم استجوابك طوال الوقت. وسرعان ما أدركوا أن أفضل طريقة لخوض السياسة هي شراء الحكومات. وبصرف النظر عن ذلك، فهم يفهمون شيئًا آخر؛ أنه كلما زاد ظهورهم كان من الصعب عليهم الحفاظ على قوتهم. ولهذا السبب قرروا الاختفاء. أولًا يقومون بحذف الأسماء الأخيرة من أسماء الشركات، ثم يؤسسون شركات فرعية أخرى، ولا يُظهِرون أنهم المالكون المباشرون لأي شيء. فإذا كُنتَ غير مرئيّ، فإنك لن تكون هدفًا! ولكن المشكلات لا تنتهي هنا؛ فبمرور الوقت يبدأ الفساد في العائلات بسبب كل هذه القوة والمال اللامحدود؛ حيث الجيل الرابع والخامس يفقدون أنفسهم كثيرًا، لدرجة أن بعض العائلات وصلت إلى نقطة الانهيار. خصوصًا الشباب، فهم يبدؤون في العيش بلا هدف مع الراحة التي تجعلهم يحصلون على كل شيء، أو يبدؤون في التساؤل عن قوة عائلاتهم. وبينما يوجد الكثير من الفقر وعدم المساواة في الدخل في العالم، هناك من لا يقبلون أن تكون عائلاتهم غنية إلى هذا الحد وينتحر. وقد اجتمعت العائلات الاثنتا عشرة لمناقشة هذه القضية. يفكرون فيما يمكنهم فعله لإنقاذ أجيالهم القادمة؛ لأن لديهم كل شيء، ولكن أطفالهم ليسوا سعداء. ثم يطرح قائد أحد العائلات مفهوم العمل، فيقول: إن أعظم سعادة في هذا العالم هي العمل والإنتاج، ولكننا لا نفعل ذلك. نحن نجني المال من المال. نقوم بالسمسرة. لهذا يُصاب أطفالنا بالجنون. ثم يعطي قائد عائلة أخرى مثالًا على حياة المزارعين البسيطة لكن السعيدة. فيتحدث عن المزارعين الذين يعملون من أجل الإنتاج ويشعرون بالاكتمال عندما يأخذون مقابل عملهم. وفي ذلك الاجتماع، يتخذون قرارات تغير حياتهم بأكملها. بناءً على هذه القرارات، ستقوم الاثنتا عشرة عائلة أيضًا بالزراعة. والأهم من ذلك،

لن تعرف الأجيال الجديدة أن عائلاتها تدير العالم. وستعيش الاثنتا عشرة عائلة في المنطقة نفسها لدعم وتفقد بعضها بعضًا. أما إدارة الثروة والنفوذ، فسيقوم بها فردان مُنتَخَبان من كل عائلة، وسيتم إسناد مسؤوليات العائلة إليهما؛ حيث سيتم اختيارهما في سن مبكرة، وسيتم تربيتهما وفقًا لذلك. هؤلاء فقط سيعرفون حقيقة عائلاتهم، وسيحكمون الإمبراطوريات في العالم الخارجي. ولن يعرف أفراد الأسرة الآخرون أي شيء، وسيعيشون مزارعين. هنا أيها الجنرال يعيش هؤلاء الأشخاص، في تلك المنازل التي تراها أمامك. هؤلاء الأشخاص السعداء لعدم معرفتهم ماهيتهم. كما ترى، هذا هو الشيء الذي تم شراؤه بأكبر ثروة في العالم؛ الجهل. والآن سنلتقي مسؤول أحد العائلات قريبًا. اسمه ناثان. كان هو من أراد رؤيتك».

***

استمع دادجو إلى كل ما قصصته وهو ينظر إلى بيوت المزارعين البعيدة، وظل صامتًا بعض الوقت. كانت القصة التي استمع إليها بعيدة جدًّا عن تجاربه الحياتية الخاصة، لدرجة أنني شعرتُ أنه يواجه صعوبة في فهمها؛ لأنه في حين كان هؤلاء الناس يسيرون في الوحل بأحذيتهم المطاطية، كان قصر دادجو يحتوي على صنابير ذهبية. ولكنه كان دادجو على كل حال، فحتى لو لم يكن يفهم، فقد كان جيدًا في التظاهر بأنه يفهم.

قال: «بالطبع! يمكنني تفهُّم ذلك. ففي النهاية، إنها لعنة أن تكون بهذه القوة وبهذا الثراء. لهذا من وجهة نظري لقد فعلوا الصواب».

توقفنا أمام منزل كبير من طابقين فيه جرار في الباحة. وقد كان الجانب الوحيد الفاخر للمنزل البسيط إلى أقصى حد هو سقفه، المصنوع من القش ببراعة عالية. كان الرجل الواقف أمام بابه المفتوح ينظر إلينا ويبتسم، وهو إنجليزيٌّ أبيض الشعر في الستينيات من عمره.

قلت لدادجو –الذي بدأ جبينه يتعرق–: «ها هو ذا ناثان». لقد كان متحمسًا حقًّا.

أوقفتُ السيارة ونزلت. وفي تلك اللحظة، رأيتُ أن يد ناثان التي مدها للمصافحة ظلت في الهواء؛ لأن دادجو أعطى السلام العسكري بمجرد خروجه

من السيارة. لقد كان جنرالًا على كل حال! ومع ذلك، فقد ندم على ذلك على الفور، وتمكن من خفض يده بسرعة عن جبهته ومصافحة ناثان.

قال ناثان بلغته الأم: «أهلًا وسهلًا!» ثم أشار إلى الباب المفتوح ودعانا للدخول.

كان المنزل من الداخل بسيطًا مثل الخارج. كان منزلًا قرويًا حقيقيًّا؛ به أعمدة خشبية عمرها قرون موجودة على السقف، ونوافذ صغيرة. هذا هو السبب في أنه كان يُعَدُّ مُظلِمًا بعض الشيء. ثم دخلنا غرفة فيها ثلاثة جدران مغطاة بالكتب، وكان الحطب الطازج يحترق في المدفأة التي على الحائط الرابع. كما كان أمام المدفأة طاولة قهوة وثلاثة كراسي حولها.

قال ناثان: «تفضلوا!» فجلسنا. هذه المرة تحدث الفرنسية.

كان دادجو يُمسك الحقيبة بإحكام، ولم يكن يعرف أين يضعها. ابتسم ناثان وأسند ظهره.

- أيها الجنرال، إذا سمحتَ لي، أريد الدخول في الموضوع مباشرةً.

قال دادجو: «بالطبع، تفضل».

لم يعد ناثان للابتسام.

- سيسقط نيزك على توجو.

لم يستطع دادجو التظاهر بالفهم هذه المرة.

- ماذا؟ لا أفهم!

- وفقا للمعلومات التي تلقيناها من وكالة ناسا صباح أمس، سوف يسقط نيزك على توجو في غضون ستة أيام، ولسوء الحظ هذا ليس نيزكًا صغيرًا. إنه كبير بما يكفي لتدمير ما لا يقل عن عشرة آلاف كيلومتر مربع، أي إنه سيتم تدمير خُمسِ مساحة توجو.

ولكن دادجو لم يفهم بعد.

قال: «كيف؟ كيف سيُدمر؟»

قال ناثان: «أعرف أنه أمر يصعب استيعابه. لا أحد يعرف الآن. أردتُ أن تعرف أنتَ أولًا. لهذا السبب اضطررتُ إلى الاتصال بك على وجه السرعة من خلال صديقنا ضمير. الآن، أود منك ...»

قاطع دادجو كلام ناثان وهو في حالة ذعر قائلًا: «ولكن لم يخبرني أحد بأي شيء!» وأكمل قائلًا: «لماذا ليس لدي علم بالأمر؟ لماذا؟»

ثم تساءل وهو ينظر إليَّ: «لماذا؟ لماذا لم تخبرني وكالة ناسا؟»

قال ناثان: «أيها الجنرال، من فضلك اهدأ. لم تخبرك ناسا لأنني أردتُ أن أخبرك شخصيًّا. انظر... أنا والعائلات الأخرى، جميعنا في خدمة شعب توجو. يمكنك الوثوق بنا لإخلاء المنطقة المُهَدَّدَة بالخطر. يمكننا حشد كل إمكانياتنا وتسوية الأمر في غضون 24 ساعة. وبالطبع نحن في حاجة إلى مساعدتكم أيضًا».

ظل دادجو يردد: «لا أستطيع أن أصدق! كيف يمكن أن يحدث شيءٌ كهذا؟»

واصل ناثان حديثه بنبرته الهادئة: «النيزك سوف يسقط على المنطقة الوسطى من توجو. على منطقة سوكودي».

لم يكن في وسع دادجو حتى السماع. لقد كان يتأرجح في مقعده ذهابًا وإيابًا، ورأسه مَحنيّ، ويتحدث إلى نفسه: «لقد قال كونا ذلك! قال إن الأرواح الشريرة تلاحق توجو! اتضح...»

توقف دادجو فجأةً ورفع رأسه ونظر إلى ناثان.

- سوكودي؟

قال ناثان: «نعم. لذلك، يجب إخلاء تلك المنطقة على وجه السرعة».

كل تلك الإثارة، والذعر، والقلق، والخوف على وجه دادجو... اختفت جميعًا في ثوانٍ، وحَلَّت محلها ابتسامة كبيرة.

- سوكودي! أي إنه سيسقط على سوكودي؟ حقًّا؟

زادت الابتسامة إلى ضحكة، ونظرنا أنا وناثان بعضنا إلى بعض.

قال الرجل الإنجليزي: «بالطبع إنها صدمة كبيرة بالنسبة إليك. لذا من الطبيعي أن يكون هذا رد فعلك».

قال دادجو: «لا، لا!» وكان لا يزال يضحك.

- أنا لا أضحك من الصدمة، أنا أضحك حقًّا! دعهم يموتون كلهم! لا يمكن لأحد منهم أن يدخل لومي! لا يمكنهم أن يطؤوها حتى! دعهم يبقون هناك ويموتون!

- أعلم أن لديك خلافات مع القبائل المسلمة في تلك المنطقة أيها الجنرال، ولكن هذه حالة أخرى، هذه حالة إنسانية.

- لا، إنها ليست حالة إنسانية، إنها حالة مقدسة! هكذا يريد الله! هذا عمل الله!

- فكر في كل هؤلاء الأطفال، والنساء، والرُّضَّع. من فضلك...

- ماذا يمكنني أن أفعل يا سيدي؟ هل يمكنني أن أعارض إرادة الله؟

- برأيي، فَكِّر في الأمر، كُنْ ضيفي الليلة، ولنتحدث مرة أخرى غدًا. بالإضافة إلى ذلك، يستمر تدفق المعلومات من وكالة ناسا. قالوا إن بإمكانهم تقديم المزيد من التفاصيل غدًا. إذا كُنتَ هنا، فإنه سيكون من الأسهل بالنسبة إليَّ مشاركة هذه المعلومات معك.

على الرغم من أن دادجو قال إنه لن يغير رأيه، فإنه وافق على أن يكون ضيفًا لمعرفة المزيد عن النيزك الذي سيدمر سوكودي، وكان سعيدًا لدرجة أنه شرب زجاجة ويسكي في تلك الليلة، حتى إنه شرب الويسكي من الزجاجة في البداية! كنا فقط نحن الاثنان في المنزل مع شاب تركه ناثان لرعايتنا. كان دادجو يشعر بالنعاس جدًّا. علاوة على ذلك، كان لسانه متلعثمًا، ولم يستطع العثور على الكلمات التي كان يبحث عنها، ومع ذلك كان يستمر في الكلام.

- هؤلاء السفلة البُلْه! لو كنتُ مكانهم لكنتُ فعلت الكثير! الرجل ناعم جدًّا! إنه يشكر ويعتذر ويرجو باستمرار! لم يكن لدي أي احترام للرجل، هل تفهم يا ضمير؟ هذا السافل المدعو ناثان مثل امرأة! لن أقدم هديتي إليه أيضًا. تراجعت.

قلت: «أنت مُحِقٌّ جدًّا. لا داعي للهدية!»

ثم أخذتُ الزجاجة التي بجوار دادجو وسكبتُ ما تبقى من الويسكي في كأس وأعطيته إياها. أومأ دادجو برأسه وشكرني بصمت ورفع الكأس. بينما تجمدت الكأس وهي لا تزال بين شفتيه.

لأنه في قاع الكأس الكريستالي كانت هناك صورة مبتسمة لناثان، فكانت ستتلاقى عينه وعين ناثان وهو يشرب. أشار دادجو إلى الكأس وقال: «هذه بالفعل فكرة جيدة! سأفعلها أيضًا!»

قلت: «بالطبع، يجب أن تفعلها بالتأكيد!»

في اليوم التالي أيقظتُ دادجو في ساعات الظهيرة، وكان يريد أن ينام ساعات أكثر. كان يصرخ عليَّ: «ابتعد عني!» ولكنني لم أستطع الابتعاد، لأن كل شيء قد تغير.

- أيها الجنرال، عليك أن تنهض حالًا! لقد حدث شيء سيئ للغاية! أيها الجنرال، استيقظ!

استقام على السرير وقال: «ماذا هناك؟ ماذا حدث؟» ثم ضغط على صدغيه بكلتا يديه وقال: «رأسي يؤلمني بشدة».

- ارتدِ ملابسك الآن وادخل. ناثان في انتظارك.

عندما دخل دادجو الغرفة ذات المدفأة لم يكن قد استجمع نفسه كليًّا، فكان يرتجف.

قال ناثان: «أيها الجنرال، اجلس من فضلك».

قال دادجو وهو يلقي بنفسه على المقعد الفارغ: «لو تناولنا الفطور أولًا...»

- أيها الجنرال، من فضلك أنصت إليَّ بعناية! لقد تحدثتُ للتو مع وكالة ناسا. اتضح أنه حدث خطأ في الحساب. النيزك سوف يسقط عليك؛ سوف يسقط على لومي.

استفاق دادجو في تلك اللحظة، حتى إنه قفز على قدميه.

- ماذا تقصد بأنه سيسقط على لومي؟ لا، سيسقط على سوكودي! لا يمكن أن يسقط على لومي!

- أنا آسف جدًّا أيها الجنرال. ولكن من وجهة نظري فإنه من الضروري التخطيط لإخلاء المدينة في أقرب وقت ممكن.

- ربما ارتكبوا خطأ مرة أخرى! أليس كذلك يا ضمير؟

قال ناثان: «لا، أيها الجنرال. لا يوجد خطأ. سوف يسقط بالتأكيد على منطقتك. لقد تحدثتُ إلى الشيخ حديد الآن...»

قال دادجو: «ابن العاهرة!» عند سماعه اسم عدوه، لم يستطع السيطرة على لسانه.

- أخبرته بالوض ع، ولكنه ردَّ بمثل رَدِّك؛ قال إنه لن يقبل شعبك في منطقة المسلمين. وبالطبع أصررتُ، وقلت إن هذه حالة إنسانية. ولكنه قال: هذا عمل الله، لن أتدخل. وقال أيضًا إنكم إذا دخلتم أراضيه فإنه سوف يهاجمكم. وبحسب ما فهمت، ستدعم بوكو حرام أيضًا الشيخ حديد. وبالطبع بعد سقوط النيزك على منطقتك، سيكون من المستحيل أن تتمكن من مواصلة حرب كهذه من الناحية اللوجيستية.

كان دادجو يعرف هذا أيضًا؛ لذا كان عليه أن يجد حَلًّا آخر في أسرع وقت ممكن. وقد وجده.

- سآخذ شعبي إلى غانا أيضًا! سنهرب إلى هناك! أليس كذلك يا ضمير؟ هذا هو أفضل حل.

قلت: «ولكن هناك ألغامًا».

- أي ألغام؟

- الألغام التي زَرَعتَها. على الحدود مع غانا. كما توجد ألغام على الحدود مع بنين. هل تتذكر؟ قبل ثماني سنوات اندلع نزاعٌ حدودي...

صرخ دادجو قائلًا: «تذكرت! حسنًا، تذكرت!» لقد بدأ يدرك تدريجيًّا أنه مُحاصَر: هناك ألغام على جانبيه، والمحيط الأطلسي تحته. لم يكن لدى قبيلة إوي مكان تلجأ إليه سوى منطقة سوكودي، الخاضعة لسيطرة الشيخ حديد. ألقى دادجو نفسه المرة الثانية على نفس كرسي هذا الصباح. أولًا، نظر إلى السجادة الموجودة على الأرض وقال: «ماذا سأفعل؟» ثم نظر إلي.

- إذا تحدثتَ إلى هذا الحثالة، فربما استمع إليكَ.

- بالطبع سأفعل. ولكن لا أعتقد أنني أستطيع إقناع الشيخ حديد. فقط ربما...

- ربما ماذا؟

- ربما إذا قدمنا إليه شيئًا... شيئًا مُقنِعًا. ما هي أكبر مخاوف حديد؟ الإبادة. ربما يمكننا أن نقدم اتفاقية بذلك الشأن؛ اتفاقية على أن الأقلية المسلمة ستكون آمنة من الآن فصاعدًا. وهكذا سنقضي أيضًا على بوكو حرام؛ لأن اتفاقية السلام بين المسلمين والمسيحيين ستضر بهم أكثر من غيرهم، فلن تبقى لديهم حجة لدخول توجو. فكر أيضًا في كيف ستُعامَل في زيارتك الأولى إلى الأمم المتحدة في حالة قُمتَ بالتوقيع على مثل هذه الاتفاقية! سوف يصفقون لك بحفاوة بالغة! وبالطبع بعد سقوط النيزك، سيتحرك العالم كله لإعادة بناء لومي. نصيحتي لك هي تحويل هذه الأزمة إلى فرصة. أنت بطل حرب أيها الجنرال، الجميع في إفريقيا يعرف ذلك. وقد حان الوقت لأن تكون بطل سلام!

أنصتَ دادجو إليَّ باهتمام بالغ، وقال: «ولكن الجميع سيفهم».

- سيفهم ماذا؟

- أنني تصالحتُ مع المسلمين فقط للهروب من النيزك.

قلت: «هذا سهل. نقوم بتغيير تاريخ الاتفاقية. لنضع تاريخًا قبل ستة أشهر، ثم لنَقُل إنه لم يتم الإعلان عنه للرأي العام لأنه اتفاق سري. هذا بالضبط ما سنفعله: أولًا: الشيخ حديد سيُصدر بيانًا ويقول إن هناك اتفاقية سلام سرية موقعة بينكما منذ ستة أشهر، ويقول إنه أصدر هذا البيان لتكذيب الإشاعات التي ترددت عن اعتدائك على المسلمين في الأشهر الأخيرة. ثم تصدر أنت أيضًا بيانًا وتؤكده. وفي اليوم التالي تعلن وكالة ناسا عن موضوع النيزك. بعد ذلك، يدعو الشيخ حديد أبناء قبيلة إوي الشقيقة إلى إخلاء منطقة لومي والقدوم إلى أراضيهم، على مرأى ومسمع من الرأي العام. حتى إنني وجدتُ اسم الاتفاقية: السلام في الألفية الجديدة. إذا وافقتَ الآن، أمكننا التعامل مع كل هذا بمساعدة ناثان. أليس كذلك يا ناثان؟»

- بالتأكيد! نحن نساند شعب توجو بصفتنا الاثنتي عشرة عائلة. لا شك في هذا أيها الجنرال.

ظل دادجو صامتًا فترة، ثم نهض وخرج من الغرفة. نظرنا أنا وناثان بعضنا إلى بعض، وعندما كنت على وشك النهوض والخروج خلف دادجو، فإذا به يدخل الغرفة وفي يده الحقيبة الصغيرة. جاء أمام ناثان ومد إليه الحقيبة.

- أشكركم باسم شعب توجو. أرجو قبول هذه الهدية.

وقف ناثان وأخذ الهدية بثقل مناسب لجدية اللحظة.

- أشكركَ، أيها الجنرال.

- في الواقع، أنا متأكد من أن لديك واحدًا، ولكن... لم أكن أعرف ما الذي أهديه إلى شخص مثلك. إنه أغلى شيء لدي.

بعد هذه الجملة الأخيرة، صَدَّقتُ كليًّا أن قضيبًا اصطناعيًّا سيخرج من الحقيبة.

قال دادجو: «افتحه من فضلك».

فتح ناثان الحقيبة ووضع يده بالداخل، ثم أخرج صندوقًا بحجم علبة النظارات بدلًا من قضيب اصطناعي. ترك ناثان الحقيبة وفتح غطاء الصندوق. أولًا حاول أن يفهم الشيء الذي يراه، ثم نظر إلى دادجو.

- ما هذا؟

- الحشرة الخفية. هذا هو اسمها. أطلقوا عليها هذا الاسم لأنها تشبه أجهزة التنصُّت القديمة.

- هذه أول مرة أراها. شكرًا لك.

لا بد أن غرور دادجو اللامتناهي قد بدأ يتضخم لأنه فاجأ الرجل الذي يحكم العالم بهديته، ولا بد أنه نسي أمر النيزك الذي سيسقط على قمة قصره. وإلا لما بدأ في وصف تفاصيل الجهاز.

- إنها تقنية صُنِعَت للجيش الصيني. حتى إنهم قاتلوا الروس من أجلها؛ لأن الروس سرقوا النموذج الأوَّلي لها.

كان دوري لأتَفَاجأ؛ فهذا يعني أن هذا كان سبب تلك الحرب الغامضة التي استمرت تسعة أيام.

- ولكنهم تصالحوا بعد ذلك بطريقة ما. والآن، الصينيون والروس يتعاونون لمزيد من تطوير هذا الجهاز.

سأل ناثان: «حسنًا، كيف وصل إليك؟»

- لقد أهدتني إياه الحكومة الصينية. في حالة طرأ وضعٌ غير مرغوب فيه.

قلت: «حَربٌ مثلًا».

- نعم، بالضبط في مثل هذه الحالة. يمكنني أن أكون غير مرئي وآمنًا. فكما تعلمان، فإن علاقات توجو مع الصين كانت دائمًا جيدة جدًّا منذ القدم.

في الواقع كان ذلك بسبب قيام دادجو ببيع كل توجو تقريبًا إلى الشركات الصينية. حيث كان الصينيون يديرون جميع الموارد الطبيعية فوق وتحت الأرض. لذلك يمكنني أن أفهم سبب رغبة الصين في حماية محتال مثل دادجو بأحدث التقنيات؛ فعلى كل حال، كان على وشك الدخول في حرب حتى يوم أمس. وبصرف النظر عن أنه يعتقد أنه لم يعد في حاجة إليه، فإن إعطاء دادجو ناثان هذا الدرع الخفي كان حقًّا بمكانة حماقة تفاخر. ومن الممكن أيضًا أنه بدأ فجأة في احترام ناثان عندما تم تغيير المكان الذي سيسقط عليه النيزك.

قال ناثان: «شكرًا جزيلًا. إنها حقًّا هدية خاصة. إذن كيف يتم استخدامها؟»

قال دادجو: «اسمح لي أن أريك». ثم أخذ الصندوق وأخرج قرصًا أسود صغيرًا بحجم بطارية الساعة. «كل ما تريد جعله غير مرئي، عليك الإمساك به».

أخرج دادجو جهاز تحكم عن بعد صغيرًا من الصندوق به زران.

- هذا الزر لتشغيل الجهاز، وهذا لضبط حجم المنطقة التي تريد جعلها غير مرئية. فلنفترض أنك تريد جعل بناية غير مرئية...

- بناية؟

قال دادجو: «أجل. لقد اختفت بناية من ثلاثة طوابق أمام عيني! هل تتخيل؟ يمكنها أن تؤثر على مساحة كبيرة جدًّا! بحسب ما فهمت، فإنها تقوم

بخداع بصري، أو شيء من هذا القبيل. لذلك عندما تنظر إلى شيء ما، لا ترى ذراته، بل ترى الفراغ بين ذراته. على أي حال، هناك أيضًا هذا...» ثم أخرج من الصندوق عدسة بداخلها واقٍ صغير شفاف. «برأيي، هذا هو الشيء الرائع حقًّا! لأنه عندما ترتدي هذه العدسة، يمكنك رؤية ما هو غير مرئي. ولكن بالطبع أنت فقط من يمكنه رؤيته».

قال ناثان: «إنه بالفعل أمرٌ خارق للعادة. حسنًا، هل يعمل هذا الآن؟ هل جربته؟»

قال دادجو: «أجل، إنه يعمل. ولكن حتى تتمكن من استخدامه، يجب أن أبلغ الصينيين أن لديك الآن هذا الجهاز؛ لأنه بمجرد تشغيله يمكنهم رؤيته من القمر الصناعي، ويمكنهم إيقاف تشغيل الجهاز عن بُعد في غضون 10 ثوانٍ إذا تم استخدامه دون موافقتهم».

قال ناثان: «لا داعي. لا داعي لإخبار أحد، فلا أعتقد أنني سأستخدمه».

غضب دادجو عند سماع هذا.

- لماذا؟

- من الممكن أن تكون له آثار جانبية. لا نعرف حتى الآن نوع الضرر الذي يلحقه بصحة الإنسان، أليس كذلك؟ على أي حال، شكرًا لكَ مرة أخرى أيها الجنرال. سأحتفظ به ذكرى منك.

اخترقت كلمات ناثان هذه دادجو مثل السكين؛ حيث تم التعامل مع المنتج التكنولوجي الأكثر تقدمًا في العالم على أنه مجرد تذكار عادي. ولكنه لم يعد من الممكن استعادته. ثم استدار نحوي فجأة وقال: «لنذهب الآن. دعنا ننجز هذه الأمور المتعلقة بالاتفاقية على الفور».

قلت: «بالطبع. في الحال!»

بينما دادجو يخرج من الغرفة، بقيتُ أنا وناثان في الخلف وتواصلنا بالأعين. على الرغم من أنه أراد الاحتفاظ بها لنفسه، فإنني نظرتُ إلى ناثان لدرجة أنه اضطر إلى إعطائي الصندوق الذي يحتوي على الحشرة الخفية. ضحك ناثان وهو يضع الصندوق في الجيب الداخلي لسترتي، مُتخيِّلًا أنني أضحك. وعند مشاهدة وابل النيازك من شرفة غرفة الفندق في لوكسمبورغ،

بدا أن خطتي قد نجحت. بالطبع كنتُ محظوظًا جدًّا؛ لأنه في هذا العرض كان شريكي كاذبًا ومُحتالًا مثل ناثان، فبينما لم يكن يحكم العالم، كان يخدع العالم. لقد كان يفعل ذلك بادِّعائه أنه يحكم العالم، فعلى كل حال، كان الجميع يريد مقابلة الرجل الذي يحكم العالم، لأنهم كانوا يريدون أن يؤمنوا بوجود مثل هذا الشخص؛ فبهذا لم يكن المليارات يبنون الجحيم على الأرض لبنةً لبنةً من جيل إلى جيل، وربما كان هذا ما يجعل دادجو يستطيع النوم كالطفل، حيث كان بإمكانه الشخير بكل أريحية كلما تخيل العائلات الاثنتي عشرة التي تحكم العالم وألقى اللوم عليهم. فتهويدة أولئك الذين لا يصدقون ما يرونه، هي أن كل شيء كان غير مرئي.

بالإضافة إلى ذلك، كان من المتوقع أن يقع أولئك الذين لا يؤمنون بنظريات المؤامرة عاجلًا أو آجلًا ضحية مؤامرة، لأنهم كانوا الأسهل خداعًا. لم يكونوا يصدقون أن أي شيء كان كما يبدو عليه، لذلك كان بإمكانهم تصديق أي شيء سوى ما يبدو عليه. في الواقع، بدأ جنون العظمة الجماعي هذا بحروب بُنيت على الأكاذيب في العالم الحديث. فعلى كُلٍّ، كان الفعل المُسَمَّى الحرب ممكنًا فقط بقبول الفرد أن يقدم روحه وفقًا للأسباب التي أوضحتها الدولة: حيث كان إرسال الفرد إلى الحرب أعلى ممارسة لسلطة الدولة. ومُقابل هذا تطلَّبَتْ أعلى ثقة من الفرد في الدولة. ولكن بمرور الوقت، تم خداعُه كثيرًا في هذا الصدد، لدرجة أن الفرد لم يعد لديه ثقة في الدولة؛ لأنه إذا كانت الدولة يمكن أن تكذب حتى في مسألة حياة أو موت مثل الحرب، فإنها يمكنها أن تخدع الفرد في كل أمر. وفي أثناء مواجهة هذا الاحتمال القوي، كان لدى الفرد الوهم بأنه لا يوجد شيء حقيقي في أثناء محاولة معرفة ما هو حقيقي. فبعد أن تعرَّض للخيانة من قبل الدولة الأكثر ثقة بالنسبة إليه، أُصيب بالجنون، وانتشر هذا الجنون في كل مكان بمرور الزمن، مما أدى إلى تسمم دادجو.

ونتيجة لذلك، لم يعتقد آخرون اليوم حتى إن الأرض كروية، فقد تم غزو العراق في الماضي بذريعة امتلاك أسلحة دمار شامل، مما أسفر عن مقتل مليون شخص. لم يكن ذلك غير حقيقي، لأن العالم الذي قُتِلَ فيه الكثير من الناس بكذبة واحدة يمكن أن يكون مجرد دائرة مسطحة ودموية. تمامًا مثل ساحة القتال! لهذا السبب كان الإنسان يقتل أخاه الإنسان منذ الولادة، وهذه الوحشية التي لم يكن لها جمهور سوى النجوم لم تنتهِ قط.

المقص والشعر

عند النظر من الشارع، لم يكن يُرى ما بداخل المحل المكتوب على بابه صالون نيسا للتجميل، والموجود في محافظة أسن يورت بمدينة إسطنبول؛ لأن زجاج واجهة المحل كان مُغطى بصور العناية بالأظفار وقصات الشعر. لقد كان مَحَلًّا واسعًا أسفله مخزن. كان من المفترض أن يكون صالون تجميل، ولكنه لم يكن كذلك؛ فقد كان عيادة غير قانونية يديرها زوجان سوريان، وكانت تخدم النساء السوريات غالبًا. ولم يكن من قبيل الصدفة وجود هذه العيادة في أسن يورت تحديدًا، وذلك لأن هذه المنطقة هي أكثر منطقة مكتظة بالسوريين في المدينة. ومن جانب آخر، كان زواج القاصرات شائعًا بين المهاجرين السوريين، إلا إن ذهاب فتاة دون سن 18 عامًا إلى المستشفى للولادة له عقوبات قانونية في تركيا. على سبيل المثال، كان الزج بالأب في السجن إحدى هذه العقوبات. ولحل هذه المشكلة فُتِحَت عيادات غير قانونية مثل صالون نيسا للتجميل. وبالإضافة إلى ذلك كان يُجرى به عمليات إجهاض للحوامل اللاتي حملن من الاغتصاب ولا يردن أن يفتضح أمرهن. وكانت معظم العاملات في هذه العيادات من المُوَلِّدات اللاتي لم يكن لديهن أي معرفة بالطب سوى خبرتهن الخاصة، والباقون كانوا من أطباء أمراض النساء الذين سُحِبَ منهم ترخيص ممارسة المهنة. وأهم ما يميز صالون نيسا للتجميل عن غيره من هذه الأماكن أنه كان يُجرَى فيه عمليات غشاء البكارة أيضًا؛ أي إنه يتم عمل ترقيع لغشاء البكارة. وكان عدد زبائن هذه العيادة اللاتي يُجرين عمليات غشاء البكارة يفوق عدد الزبائن اللاتي يجرين عمليات ولادة غير قانونية. لهذا السبب كانت هناك سيدة تنتظر على الرصيف المقابل لهذا المحل من الصباح حتى المساء تراقب الفتيات الداخلات والخارجات من

باب المحل؛ حيث كانت تحاول معرفة من التي دخلت من أجل إجراء عملية غشاء بكارة، ومن التي خرجت دون إجراء العملية بعد أن عرفت تكاليف العملية. وحين تعرف ما تريد معرفته، كانت تلاحق أولئك الفتيات اللواتي يسرن مُطأطِئات رؤوسهن، وتقترب منهن في أول فرصة وتهمس بشيء في آذانهن. لقد كانت تحاول بيع غشاء البكارة الصيني الصنع، الذي هو أرخص بكثير من إجراء عملية غشاء البكارة.

باختصار، كان صالون نيسا للتجميل عبارة عن محل يحقق أرباحًا بفضل بعض الأعراف والتقاليد التي جعلت من العالم سجنًا للنساء. بعبارة أخرى، فإن هذا المحل مدينٌ بإيراده اليومي إلى مفهوم الأخلاق القائم على النشاط الجنسي الأنثوي.

لم يكن ضمير –البالغ من العمر ست سنوات، الذي سار بعد ظهر ذلك اليوم بين ذراعَي رجل يُسمى حمزة– لديه علم بأي شيء عن هذا، أو بالأحرى، لم يكن موجودًا بعد.

كان حمزة هذا سوري الجنسية، وهو قريب الزوجين صاحِبَي صالون التجميل، وقد هُدِمَ بيته في حماة بقصفٍ جوي، وتُرِكَ طفله الرضيع البالغ من العمر سبعة أشهر تحت الأنقاض. وقد سار كل شيء كما أرادت جينا، وطبقًا للكذبة التي لَقَّنَتها جاسينتا لتقولها. كان حمزة قد أخرج طفله الرضيع من تحت الأنقاض وهرع به إلى عيادة مؤسسة الكل للجميع في وسط المدينة، وهناك تم عمل الإسعافات الأولية للطفل، ولكن الأطباء أخبروه أنه يجب إرسال طفله إلى إسطنبول لعمل المزيد من الإجراءات اللازمة. ولكن لم يكن من الممكن أن يغادر حمزة حماة؛ لأنه كان لديه طفلان آخران وزوجته لا يزالون تحت الأنقاض. وكان لن يستطيع الذهاب إلى أي مكان دون العثور عليهم.

قالوا لحمزة: «لا تقلق. سوف نرسل طفلك الرضيع إلى إسطنبول ونقوم بعلاجه هناك. وعندما يُشفى، سنعيده ونسلمه إليك».

ثم وضعوا أمامه بعض الأوراق. قال حمزة: «لا أستطيع القراءة». لهذا السبب بصم حمزة على الأماكن التي أشاروا له إليها. ثم قَبَّلَ طفله الرضيع وعاد إلى حُطام منزله. ومرت ثلاثة أشهر كاملة منذ ذلك اليوم، ولم يُسَلَّم إليه طفله بعد.

كان حمزة يغدو ويروح إلى عيادة مؤسسة الكل للجميع عدة أسابيع، وفي كل مرة يحصل على إجابات مختلفة. أحيانًا يُقال له إنه لا يوجد سجل لهذا الطفل، وأحيانًا أخرى يُعطى وعودًا بأنه سيتم إحضاره الأسبوع القادم. وهكذا، وصل حمزة تدريجيًّا إلى حد الجنون. ليس فقط لأنه لم يستطع استعادة طفله الرضيع، ولكن أيضًا لأنه أخرج بيديه جثث زوجته وطفليه من تحت أنقاض منزله.

وذات يوم، بينما كان حمزة ينتظر أمام مكتب الاستعلامات ليسأل عن طفله في العيادة، وقعت عين حمزة على التلفزيون الموجود على الحائط. كان يُعرَض فيلمٌ ترويجي لمؤسسة الكل للجميع على شاشة التلفزيون، وكان ضمير يُمَثِّلُ دور الراوي في هذا الفيلم، وكان يتحدث عن مكتب المؤسسة في إسطنبول. وعرض الفيلم العائلات التي سلمت أطفالها الرضع المصابين إلى مسؤولي مؤسسة الكل للجميع وأعادتهم المؤسسة إليهم وهم بصحة جيدة. وفي أثناء حدوث كل هذا، كان الجميع يبتسمون باستثناء ضمير. كأنهم يسخرون من حمزة! كان حمزة قد قرر الذهاب إلى إسطنبول في أثناء مشاهدته هذا الفيلم. حاول إيجاد طريقة للذهاب إلى إسطنبول والعثور على رضيعه، حتى لو استلزم الأمر أن يهدم المكتب الموجود في إسطنبول على رأس من فيه. ولكنه لم يستطع إيجاد طريقة للذهاب إلى إسطنبول.

وبعد سنوات، تحدث عن هذا الموضوع وقال: «سرقتُ أول مرة في حياتي! سرقتُ شاحنة وبِعتُها. وسافرت بأموالها إلى إسطنبول!»

كان صالون نيسا للتجميل هو أول محطة لحمزة في إسطنبول. وبمساعدة أقربائه -الزوجان- استطاع حمزة الوصول إلى مكتب المؤسسة في ليفينت ودخوله. مر حمزة من أمام مكتب السكرتيرة كالسهم، واقتحم مكتب جاسينتا. أخبرها باسمه أولًا، ثم صاح فيها: «أين ابني؟»

حاولت جاسينتا أن تهدئ من روع حمزة. ثم أجلسته أمامها وتحدثت معه قليلًا. بعد ذلك، قَلَّبَت في الملفات التي أخرجتها من دولاب الأرشيف، وسرعان ما وجدت ما تبحث عنه. وطِبقًا للأوراق التي أمامها، فإن ابن حمزة خرج من المستشفى بعد وصوله إلى إسطنبول بثلاثة أسابيع، وركب الطائرة من مطار هاتاي مع مرافق له من أجل إرساله إلى سوريا، وتم تسليمه إلى والده عند

معبر جلفاجوز. وأشارت إليه جاسينتا على بصمة إصبعه أسفل الأوراق التي أمامها.

قال حمزة: «نعم، هذه بصمة إصبعي، ولكن لم يُسَلِّمني أحد ابني! أين ذاك المرافق؟ اسأليه الآن! إلى من سلم ابني؟»

على الرغم من أن المترجم الذي يترجم كلام حمزة كان يتكلم ببطء، فإن حمزة لم يكن يستطيع إيقاف نفسه. وفي أثناء استمرار حمزة في الحديث، اتصلت جاسينتا بالمرافق. وأقسمت الفتاة وهي تبكي إنها سلمت الطفل الرضيع إلى والده، فطلبت منها جاسينتا أن تصف الرجل الذي استلم منها الطفل الرضيع، فذكرت الفتاة بعض الصفات البدنية على حد تَذَكُّرِها، إلا إنه لم ينطبق أيٌّ منها على حمزة. أغلقت جاسينتا الهاتف وتجمدت في مكانها.

لم تكن تعرف جاسينتا كيف ستجيب حمزة الثائر كالبركان. وبعدها تلعثمت بكلمات على شاكلة: «أعدك... سأبذل قصارى جهدي لإيجاد طفلك!»

ولكنها لم تكن تعرف ما بوسعها أن تفعل. وبعد أن خرج حمزة بصعوبة من المكتب، اتصلت بجينا وحكت لها ما حدث وهي قلقة. وكانت جينا هادئة على عكس جاسينتا. كانت هادئة جدًّا، وردت عليها: «لا شيء يمكننا فعله. يمكنه اللجوء إلى المحكمة إذا أراد. على كل حال لدينا الأوراق التي تثبت أنه تسلم ابنه. لا تحزني. كثيرًا ما تحدث مثل هذه الأمور».

بعد أسبوعين من هذه المكالمة الهاتفية اختَطَفَ حمزة ضمير. والآن يجلس الاثنان جنبًا إلى جنب على صندوق، يحدقان إلى فتاة تبلغ من العمر 14 عامًا كانت تنزف حتى الموت وهي مستلقية على نقالة في مخزن صالون نيسا للتجميل. بتعبير أدق: كانا يشاهدان الزوجين يركضان حول النقالة في حالة ذعر. وفي أثناء ركضهما كانا يرتطمان بجِوال مُلقى على الأرض؛ كان جِوال، معجنات وكان بداخله رضيع ميت قد ولد للتو.

اتصلا بطبيب أمراض النساء الذي عملا معه مدة عامين، والذي يتقاضى أجرًا مقابل كل حالة، ولكن لم يتمكنا من الوصول إليه. كان هاتفه مغلقًا، لأنه كان قد اعتُقِل في مداهمة للشرطة في اليوم السابق في أثناء إجرائه عملية إجهاض في عيادة غير قانونية أخرى على الجانب الآخر من المدينة.

كان وجه الفتاة المستلقية على النقالة يشحب تدريجيًا. كان الرجل والمرأة –التي تستبدل بالمناشف الملطخة بالدماء بين ساقيها النحيلتين أخرى نظيفة– يصرخان بعضهما في بعض، وحمزة يدخن السيجارة تلو السيجارة، وضمير يشاهد ما يحدث في رعب.

كان الرجل يقول: «لنستدعِ سيارة إسعاف!»

وكانت المرأة تقول: «مستحيل! سوف يعتقلوننا! وسيزُجُّون بنا في السجن!»

- ولكن الفتاة سوف تموت! ماذا سنفعل إذن؟
- كان يجب أن تفكر في ذلك قبل أن تفتح الباب! لماذا سمحت للفتاة بالدخول؟ لماذا لم تذهب إلى مكان آخر لتضع نذلها!

قال الرجل: «وما أدراني أن هذا سوف يحدث؟»

وبينما يواصل الزوجان الصراخ على بعضهما بعض، بدأ ضمير في التبول، ولم يلاحظ أحد هذا. في تلك اللحظة ماتت الفتاة. وساد الصمت، صمت استمر وكأنه سنوات. لم يُسمَع إلا قطرات تتساقط من بين ساقي ضمير على الأرض، ولكن لم يسمعها أحد سوى ضمير نفسه.

غطى الرجل الفتاة بملاءة بيضاء، ثم التفت إلى ضمير وحمزة وقال: «انهضا». فقاما عن الصندوق، وحينها ظهر أثر البلل على غطاء الصندوق.

قالت المرأة: «ما هذا؟»

قال ضمير: «أنا فعلتها».

كانت المرأة ستفتك بضمير، ولكن زوجها منعها. واستدارت المرأة إلى حمزة وقالت له: «هيا! بسرعة! أفرغ هذا الصندوق!»

لم يفهم حمزة مقصدها.

- لماذا؟
- ماذا تقصد بقولك لماذا؟ سوف نضع الفتاة فيه! هيا!
- وماذا سيحدث بعد ذلك؟
- سوف نأخذها ونلقيها في أي مكان.

- مستحيل أن يحدث شيء كهذا!
- سيبحثون عنها يومين، ثم يقولون إنها هربت. بعد ذلك يتوقفون عن البحث عنها. هل تعرف كم عدد الفتيات اللاتي يُفقَدن هنا كل يوم؟ ماذا علينا أن نفعل؟ نذهب ونعطيها إلى أهلها؟ ثم نُسجن بعد ذلك؟ هل تريد ذلك؟ لا تنظر إليَّ هكذا أيها الأبله الأحمق! هيا، أفرغ هذا الصندوق!

تُرى هل كان بيد حمزة حيلة أخرى؟ ربما، ولكنه رَجَّحَ الاستجابة للمرأة، لأنه تذكَّر الردَّ الذي حصل عليه من العيادة أول يوم ذهب ليسأل عن ابنه: «ربما يكون طفلك قد تُوفي». حينها جُنَّ جنون حمزة، وصرخ فيهم: «كيف مات؟ آاااه يا ابني يا فقيدي!» كان يفكر في عائلة الفتاة، ويقول لا يجب أن يعلموا أنها ماتت. دعهم يظنون أنها هربت أو فُقِدَت، هذا أفضل لهم، لأنه مر بالمرحلة نفسها والشعور نفسه، حين كانت آماله في العثور على طفله المفقود لا تزال حية. مر بتلك الفترة التي يُعتقد فيها أن الطفل المفقود أفضل من الطفل الميت. ولكن مع مرور السنين سوف يتغير هذا، وفي يوم من الأيام سيقول: «ليتني أجد جثته!» وحينها كان سيقول إن الطفل الميت أفضل من الطفل المفقود. ونتيجة لذلك، لو كان رضيع حمزة مفقودًا منذ 30 عامًا وليس ثلاثة أشهر فقط، ما كان سينهض قط لدفع هذا الصندوق وتفريغه.

صاح الرجل: «توقف! إن بداخل الصندوق زجاجات مصل! كن حذرًا كي لا تنكسر! أخرجها واحدة واحدة!»

وبناءً عليه، فتح حمزة غطاء الصندوق وبدأ في إخراج الزجاجات. وأحضرت المرأة طردًا فارغًا، ونظرت إلى ضمير وقالت له: «تعال هنا، ساعدني!»

فعل ضمير ما قيل له، واقترب من المرأة الجاثية على ركبتيها. وبدؤوا يأخذون الزجاجات التي يناولهم إياها حمزة ويضعونها في الطرد. كان الجميع صامتين، لأنه لم يكن هناك داعٍ للصراخ. وفجأة، التقت عيناها عيني ضمير، وهمست ناحية وجهه: «يا لكَ من طفل مشؤوم! لقد ماتت الفتاة بسببك! ماتت بسبب وجهك الشيطاني!»

لم يتفوه ضمير بكلمة واحدة. مد يده وأخذ الزجاجة، لكن لم يستطع وضعها في الطرد؛ لأن يده كانت ترتجف. بدأ يشعر بألم في جبينه، وسرعان

ما انتشر الألم في جميع جسمه، فانزلقت زجاجة المصل من يده. ولم يسمع صوت الانكسار، لأن أذنيه كان بهما طنين. ولأول مرة في حياته يندم ضمير على أنه على قيد الحياة.

وفي اللحظة التي سقطت فيها الزجاجة وتهشمت، بدأ أحدهم يطرق بقوة على باب الطابق العلوي ويصيح: «افتح! الشرطة!»

كان طبيب أمراض النساء المعتقل قد أخبر الشرطة بعناوين جميع العيادات غير القانونية التي يعمل فيها؛ لأنه سئم هذا العمل الذي أقحم نفسه فيه يومًا ما بسبب إدمانه القمار.

وبعد سنوات، تحدث الطبيب عن هذا بقوله: «وأيضًا... ضربوني كثيرًا في مركز الشرطة. وبالطبع هذا كان له تأثير على اعترافي!»

علم طبيب أمراض النساء أنه بفضل المعلومات التي أدلى بها قد ساعد في إنقاذ طفل كان مختطفًا، ورأى أن هذه علامة إلهية، وغير حياته كلها مدة شهرين، ثم عاد من جديد للعب القمار وخسارة المال. ولكن كان قد تم تشميع جميع العيادات غير القانونية، لذلك لم يستطع إيجاد مكان للعمل. حتى افتتحت المرأة -التي كانتِ تبيع غشاء البكارة الاصطناعي- عيادةً في الجانب الآخر من صالون نيسا للتجميل. وهذه المرة، بدأت امرأة أخرى في الوقوف أمام عيادتها لبيع غشاء البكارة الاصطناعي المصنوع في الصين.

كان ضمير محظوظًا جدًّا، وردد الجميع هذا بعد ذلك. صحيحٌ أنه كان محظوظًا جدًّا بالنسبة إلى طفل بلا وجه، لأنه أُنقِذَ في اليوم الذي اختُطِفَ فيه. في المرة الأخيرة التي رأى فيها ضمير حمزة، كان يحكي للشرطة -التي كانت تسحبه من ذراعه- عن طفله المفقود، ولكن لم يستمع إليه أحد منهم.

وحين رأت جاسينتا ضمير في مركز الشرطة، أسرعت نحوه وضمته إلى صدرها. كانت تبكي وتقول: «لقد مر كل شيء. ها أنا ذي بجانبك».

وكان ضمير يقول: «لقد حدث هذا بسببي».

- لا، لم يحدث أي شيء بسببك. لا ذنب لك.

بالطبع كان ضمير يقصد وفاة الفتاة التي كانت في العيادة، ولكن جاسينتا لم تكن تعلم هذا. ولم تعرف عنه شيئًا قط بعد ذلك.

أقلق اختفاء ضمير –حتى ولو مدة نصف يوم فقط– جاسينتا كثيرًا. كما كانت هناك قضية أخرى تشغل بالها؛ قضية رضيع حمزة.

في مساء ذلك اليوم، بعد أن وضعت ضمير في سريره، فتحت زجاجة نبيذ ونظرت إلى أضواء بويوك أضه من نافذة منزلها، ثم وعدت نفسها بأنها ستجد هذا الطفل.

في اليوم التالي اتصلت بمخيم الأمان، وطلبت من مساعديها السابقين في المخيم أن يبحثوا عن الأطفال الآخرين المفقودين. ولكنها طلبت منهم أن يفعلوا ذلك سِرًّا، ودون أن يعلم المقر الرئيسي في نيويورك شيئًا.

وبعد أيام قليلة، علمت أن هناك أطفالًا آخرين مفقودين غير ابن حمزة. والسبب في عدم اكتشاف هذا حتى ذلك الحين هو أن عائلاتهم قد تفككت بسبب الحرب. وكان إجمالي عدد الأطفال المفقودين تسعة. ولكن الأمر المثير للاهتمام هو أن عدد الأطفال الذين تم علاجهم وتسليمهم إلى أسرهم في غضون ست سنوات يقترب من الألف، لذلك كان من الغريب أن يُفقَدَ هؤلاء الأطفال التسعة فقط.

وبناءً عليه، اتصلت جاسينتا مرة أخرى بالمرأة المرافقة التي سلمت الأطفال إلى عائلاتهم عند معبر جلفاجوز. ووفقًا لما حكته هذه المرأة، لم يكن هناك نقص في أوراق أولئك الذين استلموا الأطفال الذين تم تحديد أنهم مفقودون. وكان هؤلاء الأشخاص الذين تسلموا هؤلاء الأطفال يبدون وكأنهم آباؤهم أو أمهاتهم، حتى ولو على الورق. حينها شعرت جاسينتا أنها تسير في طريق مسدود. وهذه المرة اتصلت ببرشلونة، وتحدثت مع أصدقائها الصحفيين الذين تعرفت إليهم حين كانت تعمل محامية. ولكن هذا لم يُجدِ نفعًا؛ لأنه لا أحد منهم يريد أن يورط نفسه في دعاوى تعويضات بسبب أنه اتهم مؤسسة حسنة السمعة مثل مؤسسة الكل للجميع من دون أدلة كافية. علاوة على ذلك، فإن أُسَرَ هؤلاء الأطفال الرضع لم يكونوا يبحثون عنهم! فقط حمزة هو من هرع للبحث عن ابنه، ولكنه طُرِحَ في السجن.

وبعد سنوات، قالت جاسينتا عن هذا الموضوع: «بعد ذلك خطر ببالي ضمير. إن الجميع يعرفه، ويمكنني أن أستغل ضمير في هذا الأمر». وبالفعل قامت بذلك.

في البداية حَفَّظت جاسينتا ضمير بعض الجمل، وبعد أن تأكدت أنه جاهز، اتصلت جاسينتا بقناة إخبارية كانت قد طلبت منذ وقت طويل أن تجرى مقابلة تلفزيونية مع ضمير. وكان شرط جاسينتا الوحيد هو أن يُبَثَّ البرنامج بَثًّا مباشرًا. واتفقت مع القناة على هذا الموضوع، وظهر ضمير على الشاشة. وبدأ ضمير حديثه قبل أن يسأله الصحفي أي سؤال: «أريد أن أعلن عن نبأ مهم. لقد فُقِدَ تسعة أطفال سوريون كانوا قد سُلِّموا إلى مؤسسة الكل للجميع لتلقي العلاج. فإذا كان لدى أي أحد أخبار عنهم، يُرجى التواصل مع مكتب المؤسسة في إسطنبول».

وبمجرد انتهاء البرنامج، رَنَّ هاتف جاسينتا، بالتأكيد المتصل هي جينا، قالت جينا لجاسينتا مُهَدِّدةً: «غدًا تجعلين ضمير يظهر في البرنامج نفسه، ويقول إن كل هذا كان مجرد سوء فهم، ويقول إنه ليس هناك أطفال مفقودون، وإن كل الأطفال سُلِّموا إلى عائلاتهم. هل فَهِمتِ يا جاسينتا؟ إذا لم يظهر ضمير غدًا في البرنامج، فإنكِ سوف تُطرَدين من عملك في الحال! ولكن لن تُفلتي من العقاب! سوف نرفع ضدك دعاوى قضائية، حتى تتحيري إلى أين تهربين!»

كان صوت جينا يرتجف من الغضب. والآن تبدلت الأدوار؛ وأصبحت جاسينتا هادئة، هادئة جدًّا.

- إن ضمير بجانبي الآن، حتى إنني فتحت الميكروفون، وهو يسمعك. لقد أبرمنا عقدًا مع ضمير يا جينا. لن يتكلم ضمير أبدًا حتى يتم العثور على هؤلاء الأطفال المفقودين. ولا يمكنه أن يفعل ما تقولينه هذا غدًا. ولكن إذا كُنتِ تريدين طردي من العمل، فاطرديني. لن أستطيع مَنعَكِ. ولكنني إن تركتُ العمل وذهبتُ أنا، فسوف تفقدين ضمير أيضًا. لا تنسي هذا، حسنًا؟

حينها لم يعد صوت جينا يرتجف، بل بدا مثل الرعد.

وبعد سنوات، تحدثت عن هذا الموضوع وقالت: «في اللحظة التي قابلت فيها جاسينتا، فَهِمتُ إلى أي مدى هي غبية. إنها حقًّا أشبه بكاريكاتير! يبدو أن هؤلاء الأشخاص دائمًا ما يفكرون في الآخرين، ولكنهم في الواقع جميعهم متعجرفون جدًّا. إنهم يتصرفون باستمرار كما لو كانوا في مهمة مقدسة،

ولديهم دائمًا بعض الأهداف النبيلة! لهذا السبب من السهل جدًّا توجيه هؤلاء الأشخاص. فقط اجعلهم يشعرون أن خلاص البشرية بأيديهم، وحينها سيفعلون كل شيء. بصراحة، لهذا السبب أردتُ أن تترأس جاسينتا مكتب إسطنبول. سار كل شيء على ما يُرام مدة ست سنوات. ولكن بالطبع لم يكن ذلك كافيًا لجاسينتا. لم تكتفِ بإنقاذ البشرية، كان عليها إنقاذ هؤلاء الأطفال أيضًا! ولكن كان هناك الكثير الذي لم تكن تعرفه: بتعبير أدق: لم تستطع رؤيته. على أي حال، كما قلت: لم تستمع إليَّ حتى في المكالمة الهاتفية، وهددتني، هددتني بضمير لأنه تحت يدها. إن هذا خطئي، خطئي أنْ تركتُ ضمير لها. لقد اقتربا بعضهما من بعض أكثر من اللازم».

في الواقع، لولا جاسينتا لما كان هناك ضمير. لم تستطع جينا تَحَمُّل أكثر من ذلك، وصرَّحَتْ بالحقيقة الكاملة في نهاية تلك المكالمة الهاتفية: «إن جميع هؤلاء الرضع بخير وبصحة جيدة! وجميعهم الآن في سويسرا. حسنًا، هل أنتِ سعيدة؟ ها أنتِ ذي قد علمتِ!»

صرخت جاسينتا قائلةً: «سوف يأتون إلى هنا! جميعهم سيكونون في إسطنبول غدًا!»

- ثم ماذا سيحدث؟ هل ستأخذينهم إلى سوريا؟ ستأخذينهم إلى ذلك المستنقع وتتركينهم فيه؟ إنهم ليس لديهم عائلات هناك حتى! ربما يمكنكِ العثور على عَمَّة لديها عشرة أطفال وتسليمهم إليها. وربما تجدين خالة لا تزال طفلة، أو جدة لا تستطيع حتى الاعتناء بنفسها! تذهبين إليها وتقولين لها: تَفَضَّلي، هذا الطفل قريبك! برأيك ماذا سوف يحدث بعد ذلك؟ وأي بؤس سيعيشون فيه؟ هل فكرتِ يومًا في ذلك؟ الآن أرسل إليكِ صورًا للأماكن التي يعيشون فيها الآن. انظري جيدًا إلى هذه الصور.

ثم بدأت الصور تصل إلى هاتف جاسينتا الواحدة تلو الأخرى. وفي كل صورة فتحتها، رأت أزواجًا يبتسمون للعدسة وبين أذرعهم طفل. والتُقِطَت بعض الصور في غرف الأطفال المزينة بأجمل الديكورات، وبعضها في الحدائق المثمرة للمنازل ذات الأراجيح وحمام السباحة، والبعض الآخر في

الصالات الفخمة لتلك المنازل. لم يكن هناك صوت مسموع سوى صوت جينا، لأن جاسينتا وضمير كانا يحدقان في صمت إلى الصور.

- إن لديهم كل شيء! والأهم من ذلك أنهم لديهم مستقبلًا! علاوةً على ذلك، فهم محبوبون جدًّا. هل ستسرقين هذه الحياة منهم الآن؟ هل ترغبين في فعل ذلك؟ جاسينتا، أنتِ تعلمين جيدًا... إذا عاد هؤلاء الأطفال إلى سوريا... لا أريد حتى التفكير في الأمر! أنا من اخترت هؤلاء الأطفال، حسنًا؟ اخترتهم من صورك، ومن ملفاتك! حين رأيت إصاباتهم، لم أستطع التحمل! لم أستطع تحمل ذلك، لدرجة أنني أُصِبتُ بالدوار! لقد فعلتُ أشياء لم أكن لأفعلها في حياتي؛ لقد ارتكبتُ جريمةً لإنقاذ هؤلاء الأطفال يا جاسينتا! هل تفهمين؟ لقد خاطرتُ بالدخول إلى السجن! لقد تلاعبتُ بالأوراق! لقد استأجرتُ رِجالًا لاستلام الأطفال على الحدود! أنا نادمة جدًّا الآن، وأقول يا ليتني استطعتُ إنقاذ تسعمئة طفل بدلًا من تسعة! ليت هؤلاء الأطفال الألف ما عادوا إلى سوريا! يا ليتني تمكنتُ من إنقاذهم جميعًا! يا ليت!

كانت جاسينتا تستمع إلى جينا وهي تنظر إلى الصور وعيناها تذرفان الدموع. أمسك ضمير بيدها وتلاقت أعينهما. أرادت جاسينتا إنهاء المكالمة، ولكن يدها كانت ترتعش. لمس ضمير الشاشة، وانقطع صوت جينا. وهكذا، تركوا هؤلاء الأطفال التسعة في واحدة من أغنى دول العالم. كانت جاسينتا تفكر في حمزة في تلك اللحظة. أما ضمير، فكان يفكر في الفتاة التي تُوفيت في العيادة، والطفل الرضيع الذي كان في الجِوال، وهذه المرة ليس فقط ضمير وحده يلوم نفسه، ولكن كانت جاسينتا أيضا تلوم نفسها؛ لأنها لم تستطع الوفاء بالوعد الذي قطعته على نفسها. وبتعبيرٍ أدق: لأنها نسيت في أي عالم تعيش عندما قطعت هذا الوعد على نفسها.

وفى مساء اليوم التالي، ظهر ضمير على القناة الإخبارية نفسها في البرنامج نفسه، وبدأ كلامه كما حَفَّظَته جاسينتا: «لقد حدث سوء فهم». وكانت هذه أول كذبة قالها ضمير بوعي وتعمد وهو في سن السادسة من عمره. كان محظوظًا، لأنه على الرغم من احمرار وجهه، فإنه لم يكن مفهومًا.

وبعد سنوات، قالت جاسينتا: «اتضح أن العاهرة التي تُدعى جينا أخذت مالًا من تلك العائلات السويسرية! ولكننا علمنا هذا بعد ذلك بكثير بالطبع. ومع ذلك، أعتقد أنها كانت على حق. أو لم تكن، لا أدري. ما هو الصواب؟ هل هو أخذ هؤلاء الأطفال من سويسرا وإرسالهم إلى سوريا؟ دعني أسألك. إذا كنت في مكاني في تلك اللحظة، ماذا كُنتَ ستفعل؟»

طرحت جاسينتا هذا السؤال على أشخاص آخرين في أوقات مختلفة. كانت تأمل أن تُثلِجَ الإجابات التي تسمعها صدرها وتريح ضميرها، ولكنه لم يحدث. كانت متأثرة للغاية، لدرجة أن شيئًا ما بداخلها انكسر. وشعرت جاسينتا أن مثاليتها -التي هي بمكانة عمودها الفقري- قد انكسرت. وبدأت في الاتكاء على عكازين لتبقى واقفة على قدميها، وهما: التقبل والتكيف. وبعد فترة، ألقت هذين العكازين بعيدًا، وأخذت يد اللامبالاة وبدأت تسير نحو حياة جديدة، والآن هي امرأة أخرى. كان لا بد من ذلك، لأن جاسينتا القديمة لا تستطيع ابتزاز أي شخص، ولن يخطر ببالها حتى أن تهدد شخصًا. ولكنها الآن لم تتردد قط حين اتصلت بجينا. ولم تجد أي صعوبة وهي تهدد جينا وتقول لها: لو لم تنقلوني من مكتب إسطنبول وتعينوني في مكانٍ آخر، فسوف أبوح للصحافة بكل شيء. لقد تغيرت جاسينتا كثيرًا، لدرجة أنها لم تعد تريد العودة حتى إلى مخيم الأمان بعد الآن. كانت تريد الذهاب فقط؛ الذهاب إلى مكانٍ بعيدٍ جدًّا. وبالطبع رضخت جينا لهذا التهديد، لأن التهديد يعتبر مجرد شكل من أشكال التواصل في عالم المجرمين، حتى إنها شعرت بنفسها لأول مرة قريبة من جاسينتا؛ لأنها رأت أن المرأة -التي كانت تعتبرها كومة من المبادئ حتى ذلك اليوم- قد انتهكت القواعد من أجل مصالحها، وهذه إشارة إلى أنهما يمكن أن تكونا شريكتين في جرائم أخرى في المستقبل. على الأقل هذا ما فكرت فيه جينا، وأرادت أن تكون جاسينتا قريبة منها.

بعد بضعة أسابيع، وطئت قدم جاسينتا نيويورك وبرفقتها ضمير -الذي كان يمسك بيدها- بعد أن سَلَّمت مكتبها في إسطنبول على عجل إلى شخص آخر. سيعيشان الآن هنا، وبالطبع سوف يلتقيان جينا كثيرًا. انتقلا أولًا إلى شقة مكونة من غرفتي نوم في تشيلسي استأجرتها لهما المؤسسة. ثم نُظِّمَت حملة كبيرة لجمع التبرعات، وأُعلِنَ عن وصول الأمير الصغير المُسمى

ضمير إلى المدينة. وبعد ذلك اليوم، استمر العرض من حيث توقف. لذلك لم تتغير الأمور كثيرًا بالنسبة إلى ضمير. وكالعادة، أظهر وجهه الغائب، وجمع التبرعات، وكذب عند الضرورة. في كل مرة كان يبدو أقل انزعاجًا مما قبلها، حتى جاء يوم لم يكن يشعر ضمير بأي شيء وهو يكذب، لدرجة أنه كان يستطيع قول الحقيقة والكذب بالأعراض الفسيولوجية نفسها؛ أي إن عمره كان ثماني سنوات فقط عندما وصل إلى النقطة التي تمكن فيها من التغلب على جهاز كشف الكذب. وكانت الأكاذيب التي قالها تتعلق في الغالب بالمحادثات التي أجراها مع الأطفال ضحايا الحرب. والحقيقة أنه لم يتحدث إلى أحد. وسرعان ما علم أن هؤلاء الأطفال غير موجودين، ومع ذلك، كان بإمكانه الخروج بلا خجل أمام ألف شخص في قاعات الاحتفالات في فنادق مانهاتن، وسرد المحادثات الوهمية التي حفظها. وقد كتبت جينا نصوص هذه المحادثات بأسلوب يقتل المستمع حزنًا. كان أولئك المستمعون لأحاديث ضمير يكتبون شيكات التبرعات حتى لا يموتوا من الحزن. وحين بلغ ضمير التاسعة من عمره، بدأ يلعب دوره ممثلًا محترفًا، وبدأ في الخروج عن النص وتوسيع القصص. وعلى الرغم من أن جينا كانت ضد هذا الأمر في البداية، فإنها قررت عدم التدخل حين رأت قدرة ضمير على الارتجال. واختلق ضمير العديد من المُحادثات منها:

«قادر طفل في السابعة من عمره. تحدثتُ معه على الهاتف بالأمس. كانت قد انفجرت قنبلة وهو يلعب مع والدته في منزلهما في حلب، فماتت والدته. أما قادر، فهو الآن يرقد في أحد المستشفيات في إسطنبول. إنه مصاب بجرح خطير في رأسه. وقد قام الأطباء بإزالة خصلتين طويلتين من الشعر من هذا الجرح. وبعد ذلك سألوا قادر: كيف كان شعر والدتك؟ فوصفه لهم قادر. وحينها فهم الأطباء أن هاتين الخصلتين الطويلتين تعودان إلى شعر والدة قادر. وحين علم قادر بهذا، قال لهم: من فضلكم لا ترموهما! أعطوني إياهما. والآن سيخضع قادر لعملية أخرى، ولكن هذه العملية باهظة التكاليف. لكي تُبصِرَ عيناه النور مرة أخرى. لأن عينيه كانتا قد أُصيبتا أيضًا. أتدرون ماذا قال لي؟ قال لي: أريد رؤية شعر والدتي، هذا كل ما أريده. إنه لا يترك هاتين الخصلتين من يديه أبدًا. وقد طمأنتُ قادر وقلت له: لا تقلق، يوجد هنا كثير من الناس الطيبين. سوف يساعدونك، وسوف ترى شعر والدتك!»

ويتضح من هذه القصة التي ألَّفَها ضمير أن إحزان الناس وإبكاءهم أصبح لعبة بالنسبة إلى ضمير. وكلما كانت القصة التي يختلقها ضمير مؤلمة ومُحزِنة، شعر بمتعة أكبر. ولم يعد ضمير يكترث ولو بمثقال ذرة بمن يبكون وينتحبون أمامه. وكلما تطورت موهبته في الكذب والارتجال، كان يفقد عاطفته. حتى إنه كان يفتخر بنفسه حين يرى الدموع في أعين الناس في نهاية حديثه. لقد تربى ونشأ ضمير ليكون متسولًا غير عادي في تلك القاعات. كان غير عادي لأنه لم يكن يتسول لنفسه! علاوة على ذلك، كان في أنسب مكان ليكون متسولًا. إن هؤلاء الناس الذين لا يريدون دفع الضرائب كانوا يريحون ضمائرهم بالتبرعات التي يتبرعون بها في نيويورك. في هذه المدينة، تجد الأشخاص الذين قالوا: «لا يمكن دفع تكاليف علاج السرطان للمدخن من ضرائبي!» والذين عارضوا نظام الضمان الاجتماعي يتنافسون فيما بينهم لتقديم أكبر تبرع في ليالي جمعيات مكافحة السرطان. وكان يوجد في هذه المدينة أيضًا جميع أنواع المنظمات؛ حيث يُميِّز المتبرعون عند تقديم التبرعات والمساعدة وفقًا لرؤيتهم العالم. لذلك يمكن للجميع -ابتداءً من الأكثر ليبرالية، وحتى الأكثر تَحَفُّظًا- العثور على مؤسسة أو جمعية مناسبة، ومن المؤكد أن المبلغ الذي سيتبرعون به سوف يخصمونه من الضرائب في نهاية العام. ومن الطبيعي أن تكون المدينة التي تُباع فيها الكوكاكولا بعشرات النكهات المختلفة ثرية بتنوع المؤسسات الخيرية أيضًا ثراءً يليق بهذا المجتمع الاستهلاكي. على سبيل المثال، كان الليبراليون يتبرعون للمنظمات الخاصة بعمليات الإجهاض، بينما كان المحافظون يمولون البرامج التدريبية. وعلاوة على ذلك، يمكن قياس مستوى الاستغلال في مدينة ما بالنظر إلى عدد المؤسسات الخيرية في هذه المدينة. وبناءً عليه، كانت نيويورك عاصمة الرأسمالية مركزًا لقطاع الأعمال الخيرية. ومع ذلك، فإنه يمكن لهذا القطاع أن يزدهر في الأماكن التي لا توجد بها عدالة في الدخل فقط. وكانت المناطق الجغرافية التي لا يحقق فيها الوضع الاجتماعي للفرد الحماية اللازمة مثاليةً لهذا العمل؛ لأنه في تلك المناطق تجد أن الدولة قد انسحبت وتركت الفقراء تحت رحمة الأغنياء. وكانت نيويورك أفضل مثال على ذلك؛ حيث كان لدى الأثرياء في مانهاتن نهج مماثل لمافيا العمل الخيري بشكل عام. كانوا يعرفون أن الثروة الهائلة التي يمتلكونها أساسها جريمة ما،

وحاولوا نسيان هذا، أو حتى جعل الآخرين ينسونه. ولكي يكون الشر أمرًا مُستَدامًا، فلا بد من تبريره. ولهذا السبب أطلق ضمير فيما بعد على الأعمال الخيرية لهؤلاء الناس مصطلح الخير الأسود، أو الخير المُلوَّث؛ لأن مصدر هذه الأعمال الخيرية كان الجريمة، مثلها تمامًا مثل المال الأسود. لذلك، لم يكونوا مختلفين عن تجار الكوكايين الذين بنوا المستشفيات أو المدارس لتلميع صورتهم في عيون المجتمع. ومع ذلك، فقد أنتجت الحضارة الأنجلوسكسونية أيضًا ثقافة روبن هود. ولكن لو كان روبن هود على قيد الحياة اليوم، لكان من المحتمل أن يسرقها من إنجلترا ويعطيها مستعمراته السابقة!

باختصار، كانت الجمعيات الخيرية كحاجز بين الأغنياء والفقراء؛ حيث يمكن للغني مساعدة الفقير دون مقابلته، وبهذا يمكنه العودة إلى منزله بملابسه نظيفة دون أن تتسخ. بالطبع كان من الطبيعي أن يحدث كل هذا في الولايات المتحدة؛ لأن الأعمال الخيرية كانت إحدى أدوات السياسة الخارجية للدولة. على سبيل المثال، فرضت الولايات المتحدة الأمريكية حظرًا اقتصاديًّا على فنزويلا، وتسببت لها في خسارة 20 مليار دولار في السنة، ونتيجة لهذا حدثت مجاعة في الدولة. وبعد ذلك تحدثت كافة وسائل الإعلام العالمية عن هذه المجاعة، وعرضت صورًا لها. وبالطبع لم يستطع القبطان أمريكا تحمل رؤية هذه المجاعة، ولم تستطع أن تنام وجارتها جائعة، ولذا قررت إرسال مساعدات إليها بقيمة 20 مليون دولار. ولكن كان يجب أن تضمن سلامة وصول المساعدات إلى المحتاجين، بسبب الاضطرابات الاجتماعية التي بدأت مع الحظر الاقتصادي المفروض على الدولة. أما ما بعد ذلك، فقد كان عملية حسابية بسيطة: إذا كان كل جنديين أمريكيين سيحملان جِوال دقيق، فكم جِوال دقيق تحتاج إليه أمريكا لاحتلال فنزويلا؟

في النهاية، كانت الولايات المتحدة الأمريكية هي الدولة التي اخترعت برنامج النفط مقابل الغذاء، وذلك لكي تسرق بترول العراق. وكما سيقول ضمير بعد سنوات لوزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية، فقد لخص السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية في الكلمات التالية: «الدم مقابل النفط. النفط مقابل الغذاء. الغذاء مقابل الدم».

حدق الوزير إلى ضمير، الذي وجه هذه الكلمات، ولكنه لم يسهب في الحديث عنها كثيرًا، لأنه كان يعلم أنه مخترع تقنية الاغتيال التي تسمى «حظًّا سعيدًا». وفي تلك الأثناء تدخل جنجافر على الفور، وغيَّرَ الموضوع. وكالعادة، فإن جنجافر كان يقف بجانب ضمير في كل وقت يحتاج إليه، ويحميه من العالم أجمع. وكان جنجافر هو الصديق الوحيد لضمير طوال حياته التي استمرت 40 عامًا، فلم يُقرِّب ضمير أحدًا منه سوى جنجافر وجاسينتا؛ حيث كان يرى كل الناس واحدًا، وأن أي شخص سيقترب منه سوف يستغله. وفي الحقيقة فإن ضمير قد بدأ استغلال الناس وهو في التاسعة من عمره؛ لأنه كان يبلغ من العمر 9 سنوات فقط عندما أدرك أن المتطوعين هم الجماعة الأكثر استغلالًا من قبل الجمعيات الخيرية. وبناءً عليه، كان الشيء الوحيد الذي يفعله ضمير هو تقليد الأعمال المؤسسية لمؤسسة الكل للجميع. أي إنه إذا كانت المؤسسة تعامل المتطوعين بشكل مقزز، فعندئذٍ كان يجب على ضمير أن يعاملهم المعاملة نفسها، وقد كان يفعل. هؤلاء الأشخاص أمثال جاسينتا الذين كانوا في وقت من الأوقات ينفقون كل وقتهم وطاقتهم من أجل المثالية، ويبذلون قصارى جهدهم دون أن يطلبوا أي شيء في مقابل ذلك، على أكتاف هؤلاء الأشخاص قامت المؤسسات الخيرية، ولكن للأسف كانوا أول من تم استغلالهم؛ فلم يأخذهم أحد على محمل الجد، بل كانوا يُطرَدون من أجل أصغر الأخطاء، ويُعامَلون جميعًا مثل العبيد. وعليه، كان هناك عديد من المتطوعين الذين أبكاهم ضمير وأحبطهم بسبب أهوائه ونزواته. ومع ذلك، لم يقل أيٌّ منهم كلمة واحدة سيئة لهذا الوحش البالغ من العمر 9 سنوات. بالطبع ساعد التسامح اللامتناهي ضمير على إدراك مكانته في المجتمع. وتمكن ضمير من ممارسة القسوة وسوء الخلق كما شاء، ولا يمكن لأحد أن يعاقبه؛ لأنه عانى أكثر من أي شخص آخر! كان واضحًا من وجهه! كان فوق الجميع بصفته ضحية. وبمجرد أن أدرك ضمير ذلك، تحول إلى فرعون صغير، ولم يشفق على أحد. نعم، ربما لم يجمع الكثير من الدم أكثر من اللازم كما فعل الصليب الأحمر بعد هجوم البرجين (أحداث 11 من سبتمبر)، ولكنه جعل الجميع يتقيأ دمًا.

كان طفلًا غاضبًا جدًّا، لدرجة أن الناس كانوا يخافون الاقتراب منه، لأنه لم يكن من المتوقع ماذا سيفعل بعد ثانية واحدة. وأحيانًا كان يبدو هادئًا

جدًّا، ثم يبدأ فجأة في الصراخ، ويستمر في الصراخ ساعات لتحقيق أمنياته الحمقاء. وبالطبع يفقد لباقته. ضمير، الذي كان يتحدث باحترام شديد مع المحيطين به في إسطنبول، تحول إلى سفيه بذيء اللسان في نيويورك. ولو توقف الأمر عند مجرد السباب فحسب لما كانت هناك مشكلة، ولكن المشكلة أن ضمير بدأ التحدث بطريقة متعالية وساخرة. علاوة على ذلك، كان ناجحًا جدًّا في هذا الصدد. ومثلما يجعل الناس يبكون في غضون عشر دقائق في صالات الفنادق، كان بإمكانه أيضًا إثارة غضب الآخرين في الحياة اليومية في الوقت نفسه. كانت مهارته في الاستفزاز على وجه الخصوص عالية جدًّا؛ حيث كان يبدأ حديثه بصوتٍ هادئ ورتيب، ويُعدد كل العيوب الملموسة والمجردة للشخص الذي أمامه، ثم يبذل قصارى جهده لجعل هذا الشخص يشعر بأنه عديم القيمة. كان الجميع في عينيه عديمي القيمة، يأخذون أكبر من حجمهم، وأغبياء، وكان أي أحد يصب له ماء قليلًا في الكوب الذي يحمله ولا يُنفذ له أوامره هو ابن عاهرة عديم الرحمة في نظره. وكان يلعب بمشاعر المحيطين به كالمشعوذ، حتى يسبب لهم انهيارًا عصبيًّا. وهناك الكثير ممن وقعوا في هذا الفخ وتأثروا بكلماته، وهذا ما كان يريده ضمير. كان يريد أن يفقد الناس أعصابهم، فهدفه هو جعلهم يفعلون أشياء يندمون عليها لاحقًا. وقد شعر بالارتياح نوعًا ما عندما كشف عن العنف الموجود بداخل الأشخاص العاديين الذين لم يتعاملوا بوقاحة وغلظة مع أي شخص حتى ذلك اليوم. وبهذا، تأكدت الحقيقة الخيالية التي خلقها في ذهنه: إن كل إنسان في هذا العالم بداخله وحش لا يرحم، ويفعل الإنسان أي شيء لإخفاء هذا الوحش. لذلك فإن كل شخص في هذا العالم كاذب منافق.

وبعد سنوات، تحدثت جاسينتا عن حالة ضمير هذه بقولها: «كل ذلك كان بسبب هؤلاء الرضع التسعة! برأيي فإنه بسببهم بالتأكيد! لأننا لم نستطع إخراج هؤلاء الرضع من عقلنا. وقد أُصِبتُ بالاكتئاب، واستشاط ضمير غضبًا، فكان يهاجم كل من صادفه في طريقه كحيوان وحشي. لقد كان يعاني من ألم شديد، لدرجة أنه أراد أن يعاني الجميع مثله!»

كان صحيحًا أن جاسينتا أُصيبت بالاكتئاب في نيويورك، ولكن بالطبع لم يكن هؤلاء الأطفال التسعة هم السبب الوحيد لغضب ضمير. السبب الرئيسي

أنه بدأ الحياة من قاع الجحيم. هل إذا وُلِدَ إنسان في الجحيم، هل يرفض أن يكون شيطانًا؟ ربما نعم. ولكن ضمير لم يجد صعوبة في التحول إلى شيطان. لا سيما أن وجهه كان مخيفًا، كما قالت المرأة التي رأته في صالون نيسا للتجميل، مخيفًا كوجه إبليس. حقيقة أن عدم إدراك جاسينتا هذا حتى بعد سنوات كان دليلًا على مدى انغلاقها على نفسها في ذلك الوقت. ومع ذلك عاشت في إسطنبول، وسعت للحصول على وظيفة لم ترغب في القيام بها سنوات، وذلك من أجل البقاء مع ضمير. ولكن الآن أصبحت العلاقة بينهما علاقة عمل فقط؛ فبعد أن تعانقت روح جاسينتا وضمير على مدار عامين مضيا، انفصلا بعضهما عن بعض، رغم أنهما يعيشان في المنزل نفسه. حتى إن كلًّا منهما قد سلك طريقًا مختلفًا، ولكنهما لم يغيرا العنوان بعد. كان من الواضح أن جاسينتا كانت تحلم بحياة ليس فيها ضمير، على الرغم من أنها لم تعترف بذلك لنفسها. على الأقل هذا ما كان يشعر به ضمير. لذلك انشغل كلٌّ منهما بهَمِّه، وغرق في هذا الهم. وقد تذكرت جاسينتا أشياء عن أيام الغضب التي عاشها ضمير. وحكت هذه القصة بعد سنوات:

«كانت هناك فتاة لطيفة للغاية اسمها آمي. كانت إحدى المتطوعات، وكنا في هيلتون غالبًا. كنا قد نظمنا إحدى ليالي التبرعات. وكانت بجوار القاعة مباشرةً غرفة صغيرة، وكان ضمير هناك. ثم جاء دور ضمير للخروج على المسرح، فدخلت آمي الغرفة لإخبار ضمير، وفى هذه الأثناء كان ضمير مشغولًا ببعض الأشياء. قالت له آمي: لقد جاء دورك للخروج على المسرح. ولكن ضمير لم يُعِرها اهتمامًا، ولم ينظر إليها حتى. فظنت الفتاة أن ضمير لم يسمعها، فأعادت عليه ما قالته. ولكن ضمير لم يُجِبها، وحينها اتجهت آمي نحوه وأخبرته. عندئذٍ، التفت ضمير فجأة، وطعن ساق الفتاة بمقص كان في يده. بالطبع صُدِمنا! وهرعنا بآمي إلى المستشفى على الفور، ولم نكن نريد أن يعلم أحد بما حدث؛ ولذا قلنا إنه حادث. وقد كانت آمي فتاة طيبة جدًّا، وقالت: لا تقلقوا لن أتفوَّه بشيء. إنني لا أنسى هذا الموقف أبدًا!! حتى بعد أن أركبناها سيارة الإسعاف، كانت آمي تقول لنا: من فضلكم، لا تُلحِقوا أذى بضمير، إنه ما زال طفلًا ولا يدري ما فعل. وبعدها خرج ضمير على المسرح وكأن شيئًا لم يكن، وألقى كلمته. وبمجرد انتهاء الفعاليات، قلت له معاتبة: ماذا فعلت؟ وكيف تجرأت على فعل هذا؟ ولكنه لم يتفوَّه بكلمة واحدة. نظر

إلى وجهي فحسب. وسألته: أين عثرت على المقص؟ ثم اتضح أنه كان يصنع قناعًا من الكرتون لنفسه، حتى إنه طلب المقص من آمي، وهي من أعطته إياه. حينها أدركت أن هذا موضوع لا يمكنني أن أحله؛ لأنه موضوع يتجاوز صلاحياتي. وبعدها أعطينا ضمير أدوية مهدئة، وعلاجًا كثيرًا. لقد كافحنا سنوات للتغلب على غضب ضمير. وعندما كبر، ازداد الوضع سوءًا؛ لأنه بدأ في ضرب الناس والتشاجر معهم. لقد أصبح كابوسًا! كنت أخاف أن يقتل أحدًا!»

ولكن لم يحدث ما كانت تخشاه جاسينتا. ولم يقتل ضمير أحدًا طوال الفترة التي قضاها تحت وصاية جاسينتا. لقد فعل الصواب، وانتظر حتى يعمل في مؤسسة سلام من أجل أن يرتكب الجرائم.

28 من ديسمبر

هذه المرة كنتُ أنا ودادجو في الليموزين نفسها، ومشينا ببطء شديد على ذلك الطريق السريع الذي مشينا عليه يوم أمس وكأننا نتجول في السوق. ولكننا الآن نسير في الاتجاه المعاكس بسرعة الرصاصة، كما لو كنا عائدين من عملية سطو مسلح على بنك وأطلقنا النار على شخص ما في ذلك السطو؛ لأن دادجو لم يستطع الانتظار لركوب طائرته والإقلاع إلى توجو في أسرع وقت ممكن. لم يكن يهتم لأمر الناس، ولكن كان لديه الكثير من الأشياء التي كان يريد إنقاذها من النيزك، وخصوصًا في قصره. من ناحية، كان يحصي الأشياء التي يريد جمعها بشكل عاجل وإرسالها إلى قصره في باريس، ومن ناحية أخرى كان يقرأ نص الاتفاقية التي أعددتها. لم تكن مختلفة كثيرًا عن معاهدة قادش، حيث عُرِفَت أقدم معاهدة سلام في العالم –التي عُلِّقَت نسخة منها على أحد جدران الأمم المتحدة– باسم المعاهدة الأبدية. ولكنني لم أكن متكبرًا إلى هذا الحد؛ فإذا كان النص الذي كتبته سيبقى بضع سنوات فقط، فقد كان ذلك كافيًا بالنسبة إلي. في الواقع، أول مادتين كانتا ملخصًا للمعاهدة بأكملها:

1- حق السكان المسلمين في توجو في الحياة مكفول للحكومة بقيادة الجنرال دادجو.

2- من أجل ضمان سلامة السكان المسلمين، يُعتبر أي هجوم مُحتَمَل على المُجتمعات المعنية قد تم ضد الحكومة التي يقودها الجنرال دادجو.

قال دادجو: «أيًّا ما يكون، حسنًا، مناسب».

ومع ذلك، كانت هناك نقطة أخيرة أقلقتني.

- أيها الجنرال، لي رجاءٌ عندك. لا ينبغي لأحد أن يعرف عن هذه الاتفاقية حتى يعلنها الشيخ حديد. لا ينبغي لأحد أن يعلم، خصوصًا حول القصر.

في البداية قال: «حسنًا». وبعد بضع ثوانٍ لم يستطع التحمل، وسأل: «لماذا؟»

- كما تعلم، هناك الكثير من حوادث الثأر في المنطقة، ومعظمها بين مسلمين ومسيحيين. وإذا سُمِعَ الآن أن معاهدة سلام كهذه ستُبرَم، تحركت كل الأطراف. وسيحاولون قتل أكبر قدر ممكن قبل توقيع المعاهدة. لأنه لسوء الحظ كان الأمر دائمًا على هذا النحو. فعندما ينتشر خبر بأن السلام سيُعلَن في منطقة حرب، تزداد الوفيات دائمًا. حتى إن هناك قضية شهيرة بخصوص هذا الأمر معروضة أمام المحكمة الجنائية الدولية في لاهاي. في اليوم الأخير من الحرب، قام نقيب بالاستيلاء على بلدة ما مع كتيبته. ونظرًا إلى أن الحرب لم تنتهِ رسميًّا بعد، يبدو في الوهلة الأولى أنه لا توجد مشكلة. ولكن اتضح بعد ذلك أن النقيب كان يعلم سابقًا أنه سيتم التوقيع على معاهدة السلام؛ لهذا السبب اندفع إلى تلك البلدة، التي لم يكن يهاجمها عادةً. ثم تمت محاكمة هذا النقيب بالطبع.

- هل دخل البلدة للنهب؟

- نعم أيها الجنرال.

بدا الأمر منطقيًّا للغاية بالنسبة إلى دادجو.

- بالتأكيد، هذا طبيعي.

- ولكن النقيب لم يُحاكم بتهمة النهب، لقد حُوكِمَ بتهمة الحرب، التي لم تكن ضرورية، لأنه كان سيتم إبرام معاهدة سلام. وقد قررت المحكمة بالفعل أنها جريمة حرب.

- سخيفٌ جدًّا! هل هذه جريمة حرب؟!

***

برأيي، يجب أن تكون كذلك، ولكن بالطبع لم تكن موجودة بعد؛ لأنه لم تكن هناك قضية مثل هذه قط. ولكن كان هناك جنود عندما يسمعون أن السلام سيُعلَن كانوا يُمَشِّطون القُرى، أو ينهبون المنازل، أو يغتصبون النساء؛ باختصار كانوا يفعلون كل شيء للاستفادة من الساعات الأخيرة للحرب لإنهاء حساباتهم غير المكتملة! بشكل مفرط! في الحقيقة، قبل إغلاق المتجر البربري المسمى الحرب، تشكلت طوابير من أولئك الذين أرادوا القيام بآخر تسوق لهم، فكان هناك من يركضون في الأرجاء حاملين جِرَابًا لإكمال مجموعة الآذان المقطوعة. فلقد كانت الفرصة الأخيرة للانتقام أو الخيانة. إنها الفرصة الأخيرة لمن لم يقتل أحدًا خلال الحرب لارتكاب جريمة قتل! لأنه سرعان ما سيتم حظر كل هذا؛ فبينما كان رفض حشو جمجمة شخص ما بالرصاص يعتبر خيانة للدولة الآن، فإن محاولة تنفيذ هذا الأمر ستصبح جريمة قريبًا! لهذا السبب، في مثل هذه المواقف كان الجميع يطاردون الضربة الأخيرة قبل صوت الناقوس.

لذلك اضطررتُ إلى اختلاق هذه القضية في لاهاي؛ لأن أكبر مخاوف أمثال دادجو كان أن يجدوا أنفسهم متهمين في لاهاي عندما تنقلب عليهم موازين القوى في العالم. بالإضافة إلى ذلك، أفكار أمثال دادجو كانت تتغير فقط في مواجهة المكافأة أو العقوبة. وبعد القليل من التفكير، قال لسكرتيرته: «سمعتِ، أليس كذلك؟ لن يعرف أحد عن المعاهدة!»

كل ما تبقى هو الاتصال بالشيخ حديد وشرح الموقف. لقد كنتُ متأكدًا من أن الرجل العجوز سيبكي فرحًا، لأنه مثل معظم القادة الدينيين الذين أعرفهم، كان يحب البكاء. وعلى وجه الخصوص كان يبكي وهو يصدر أحكام الإعدام. فعلى الرغم من أنه كان يتحدث عن الرحمة صباحًا ومساءً، فإنه كان يضطر إلى إعدام 10 أشخاص على الأقل في الشهر. للأسف كان كذلك! وعلى حد قوله، فإنه كان يصدر أحكام الإعدام هذه على الرغم من نفسه، مُضحيًا بشفقة روحه من أجل خير شعبه. وبطبيعة الحال كان يبكي في أثناء قيامه بكل هذا. حتى إنه عندما وصل إلى تلك المنصة العالية التي أُقيمت في الساحة الوحيدة بسوكودي لم يكتفِ بالبكاء، بل بالتأكيد كان يرفع يديه وينظر إلى السماء ويبدأ في التضرع متأثرًا: «يا إلهي، أتوسلُ إليكَ، اقبض روحي! اقبض

روحي وأنقذني! اكتب عليَّ الموت هنا الآن! اقبض روحي حتى لا أُضطَرَّ إلى الأمر بإعدام هؤلاء المنافقين!»

كان يقول هذه الكلمات بصدق، لدرجة أنه من بين أولئك الذين علموا أن أقاربهم سيتم إعدامهم قريبًا، كان هناك من نسوا كل شيء وشعروا بالحزن على الشيخ حديد. فكلما قال حديد: «لتُقبض روحي»، كان الحشد يبدأ في الصراخ قائلًا: «لا تُقبَض روحك، لتُقبَض أرواحهم هم!» وبالطبع كان يحدث ما يقولون. فكلما بدأ حديد يتوسل إلى الله أن يموت، كان الآخرون هم من يموتون بالتأكيد. لسبب ما، لم يكن يُقبَل دعاء حديد قط، وكان من قُبِضَت أرواحهم دائمًا هم السجناء.

بكاء حديد هذا كان أيضًا موضع ترفيه بين ضباط جهاز المخابرات الفرنسي الذين كانوا يمتلكون بيوتًا في المنطقة؛ حيث كان هؤلاء المسؤولون يرشون حديد بانتظام في مقابل بقائهم أصحاب منازل في المنطقة. لم ينتبه حديد إلى ذلك، ولكن الأموال التي كان يتلقاها كانت تأتي دائمًا في حقائب لاكوست. ولكن أعتقد أن هذه المزحة كانت ظلمًا للتماسيح؛ لأنه ما من تمساح يذرف الدموع مثل الشيخ حديد. على سبيل المثال، لم أكن أعتقد أنه يمكن أن يكون هناك تمساح يعدم 27 شخصًا -من بينهم ست نساء وأربعة أطفال- في الوقت نفسه في ساحة المدينة ويجبر عائلاتهم على مشاهدتهم، ثم يبكي بصوت أعلى بكثير من تلك العائلات.

نتيجة لذلك، كنتُ واثقًا من أن الشيخ حديد سيوافق بكل سرور على المشاركة في مسرحيتي الصغيرة. وهكذا، كان سينقذ شعبه من الحرب ويُبعِدُ عن أرضه بوكو حرام، التي تُراقِبُ سلطته الدينية. بالإضافة إلى أن خداع دادجو كان حلم الجميع في إفريقيا!

بعد بعض الإجراءات البيروقراطية، تمكنتُ من إغلاق ملف توجو وإبلاغ كالهون.

- وماذا سيحدث عندما لا يسقط ذلك النيزك يا ضمير؟

كنتُ قد تركتُ دادجو في المطار واستأجرتُ سيارة.

- هل يمكنك إخباري؟

لقد كنتُ في طريقي من أمستردام إلى بروكسل.

- عندئذٍ، ماذا سيفعل دادجو؟

كنتُ أتحدث على الهاتف مع كالهون. أو بتعبير أدق: كنتُ أنتظر انتهاء أسئلته حتى أتمكن من التحدث.

- عندما يعلن حديد عن الاتفاقية، سيُدلي دادجو ببيان ويؤكدها. ما سيحدث بعد ذلك ليس من شأننا.

- ماذا يعني ليس من شأننا؟

- سأقول إن النيزك يتفكك عندما يدخل الغلاف الجوي، أو إنه غَيَّر الاتجاه مرة أخرى.

- هل تعتقد أن دادجو سيصدق ذلك حينها؟

- أعتقد أنه من الناحية الفنية يمكنه تصديق أي شيء، لأنه يسافر بصحبة الساحر فودو. ولكن بالنسبة إلينا، لا يهم ما إذا كان يصدق ذلك أم لا؛ لأنه ليس فقط حديد من سيعلن عن الاتفاقية، ولكن دادَجو أيضًا.

- وهل تعتقد أن رجلًا مثل دادجو سيكون مناسبًا له هذا لمجرد أنه أدلى بتصريح عام؟

- في رأيي سيكون مناسبًا. لأن التظاهر بكونه رجل دولة يجلب السلام لبلده سوف يفيده على الأقل فترة من الوقت. ولكن إذا تسبب في المشكلات، فإن العملية الأصلية ستكون قيد التنفيذ. لأن قصة الاثنتي عشرة عائلة والنيزك هي مجرد غطاء؛ فقد كان الهدف الرئيسي هنا هو أن تكون وحيدًا مع رجل مثل دادجو، الذي لا يتجول مطلقًا من دون حراسة. ثانية واحدة...

***

أرسلتُ صورة إلى كالهون.

صَمَتَ أولًا، ثم...

قال كالهون: «فَهِمتُ».

- نبيذ وروهيبنول ورجل أبيض... ثلاثة أشياء لا يجب على أي ديكتاتور إفريقي أن يدخلها إلى حياته في الوقت نفسه أبدًا!

كان في الصورة الشاب الذي تركه ناثان معنا لخدمتنا، ودادجو، الذي عيناه نصف مفتوحتين مع روهيبنول مُضاف إلى نبيذه. وأيضًا كل ما يلزم لفضيحة جنسية على الطراز القديم.

كان إعجاب دادجو بأمريكا هو السبب في أنني فضلتُ روهيبنول، خصوصًا في ظل وجود الكثير من المخدرات والعقاقير التي يمكن أن يكون لها التأثير نفسه. بدأ هذا الإعجاب عندما كان طفلًا، عندما جاءت مجموعة من النساء من كارولاينا الشمالية إلى قريته. بتعبير أدق: مع التيشيرتات التي وزعتها في القرية تلك النساء، اللاتي كن متطوعات في مؤسسة خيرية إنجيلية. في ذلك الوقت، كان دادجو يبلغ من العمر 12 عامًا فقط، وكان مثل الأطفال الآخرين في القرية؛ يتجول عاريًا أحيانًا، وبقطعة قماش كينتي ملفوفة حول خصره أحيانًا أخرى. ولكن ذلك التيشيرت الذي عليه العلم الأمريكي على صدره وشعار المؤسسة على ظهره والصليب قد غير كل شيء. فبمجرد أن ارتدى دادجو ذلك التيشيرت الذي كان كبيرًا جدًّا عليه، بدأ يكره الملابس التقليدية لقبيلته، حتى إنه بدأ في احتقار الملابس الطويلة المزخرفة المُسماة الداشيكي، التي يرتديها الكبار فقط في المناسبات الخاصة. لهذا السبب لم يخلع التيشيرت قط يومًا واحدًا، على الرغم من أنه تعرض للثقب والاهتراء، وبهت لونه على مر السنين. لقد كان يتجول نصف عارٍ، معتقدًا أن قماش الكينتي الذي كان يلفه حول خصره سيبدو كخِرقة بدائية بجوار التيشيرت. وقد كان أقرب متجر لبيع السراويل على بعد 260 كيلومترًا، في بهو فندق ماريوت، المبنى الشاهق الوحيد في لومي. وبالطبع، لم يكن من المعقول أن يتمكن دادجو من دخول هذا الفندق المُحاط بجدران بارتفاع ستة أمتار لحمايته من السطو المحتمل، لأنه لم يكن يعلم بوجود مثل هذا المكان، ولا بوجود المال لشراء تلك السراويل. لذلك كان يسحب طرف التيشيرت خاصته حتى ركبتيه العاريتين ويتجول هكذا. لم يكن سبب إحراجه كونه نصف عارٍ؛ فهذا الأمر الذي كان طبيعيًّا جدًّا في وطنه، ولكن لأنه لم يكن لديه أي

شيء غربي يمكنه ارتداؤه تحت التيشيرت. وقد التُقِطَت تلك الصورة الشهيرة لدادجو خلال هذه الفترة.

كان المصور الإنجليزي ويليام جونيور جويس قد سافر إلى القرية لتوثيق الفقر والجوع في غرب إفريقيا، وبينما يتجول بين الأكواخ المبنية من الطوب اللبن، رأى دادجو وابن عمه الذي يشبهه كثيرًا. وكان ابن عم دادجو يحمل رمحًا في يده، وعقدًا مصنوعًا من عظام الحيوانات حول رقبته، وحبلًا من القش حول خصره، وقطعة من جلد الثعبان تتدلى من هذا الحبل وتغطي العانة. كان ويليام قد طلب من الولدين -اللذين كان يعتقد أنهما توأمان- النظر إلى العدسة، ثم ضغط زرَّ التصوير. بعد ذلك، أعدَّ الملصق الذي كان محل جدل كبير في إنجلترا؛ حيث كتب على الملصق: «أيهما فقير؟» أسفل دادجو وابن عمه يقفان جنبًا إلى جنب. دادجو، الذي يرتدي التيشيرت الممزق مع الجزء السفلي العاري؟ أم ابن عمه؟ ومن المثير للاهتمام أن ابن العم - الذي يكاد يكون عاريًا بالكامل- لا يبدو فقيرًا على الإطلاق في تلك الصورة، بل على العكس، يبدو مع الكبرياء الذي في نظراته مثل ملك العالم. رغم أنه من الناحية الفنية، كان دادجو يرتدي قماشًا أكثر. ولكن كل شخص نظر إلى دادجو رأى أن إفريقيا كانت في البداية فقيرة بسبب الاستغلال، ثم أصبحت معتمدة على المستغلين، وهذا بسبب ذلك المنتج الذي يحمل العلم الأمريكي والمهترئ، والذي ربما يكون صناعة صينية. فلخص ويليام تاريخ القارة في صورة واحدة. لقد تمت مُصادَرَة كل ثروات إفريقيا، ومُنِحَ هذا التيشيرت في المقابل. لذلك لا يمكن لأي طفلٍ إفريقيٍّ عارٍ أن يبدو أفقر من دادجو الذي يرتدي ذلك التيشيرت.

بعد سنوات، أنكر دادجو -الذي عرف مدى شهرة هذه الصورة- كونه الطفل الذي في الصورة، ولكن ابن عمه أخبرني بكل شيء. ولكن أَخْذَ كل شيء من المجتمع وتقديم التيشيرتات فقط في المقابل لم يقتصر على إفريقيا فقط؛ حيث اشترى الهولنديون الأوائل -الذين وطئت أقدامهم الأراضي المعروفة اليوم باسم الولايات المتحدة الأمريكية- السهول والمرتفعات من السكان الأصليين، وقَدَّموا خَرَزًا مُلَوَّنًا في المقابل، مما يُبَرهِنُ على أنهم أفضل صائغي مجوهرات في العالم. حتى إنه بفضل هذه الصفقة المُربِحَة بشكل

لا يُصَدَّق، كان من الممكن الاعتقاد بأنه أصبح من التقاليد الأمريكية تنويم شخصٍ ما بشكل أو بآخر واستغلاله. وإلا، فهل سيكون هناك الكثير من حالات الاغتصاب بالمخدرات في الجامعات الأمريكية اليوم؟

لهذا السبب أردتُ تخدير دادجو –الذي كان يقول: «حياتي حلم أمريكي في إفريقيا!»– بالروهيبنول؛ لأنه كان أكثر المخدرات استخدامًا في حالات الاغتصاب هذه في تلك الجامعات. فكنتُ أفكر أنه إذا اكتشف دادجو يومًا ما في المستقبل ما حدث له في منزل القرية هذا في هولندا، فربما تمنح هذه التفاصيل ذات الطراز الأمريكي دادجو بعض العزاء! وكنتُ أيضًا أفكر في أشياء أخرى، أشياء أكثر سوادًا بكثير. على سبيل المثال، أشياء مثل اغتصاب شخص ما؛ لأنني بالطبع قد أحضرتُ أحد الأعضاء الاصطناعية التي وزعها دادجو على ذلك المنزل، ولكنني لم ألتقط الصور بنفسي. لقد جاء فريق مختص من برلين من أجل هذا العمل. كانوا يعملون في صناعة الإباحيات، وكانوا يعرفون بالضبط ما يجب تصويره، ومن أي زاوية. بفضل هذا، لم يكن لدى دادجو أي مكان يؤلمه في صباح اليوم التالي سوى رأسه. لأن الفن الإباحي في الواقع كان فنًّا للوهم؛ فقد كانت الصورة الإباحية مجرد مسألة ضبط زاوية صورة لا أكثر. فبينما يقوم جزء من الجسد نفسه بمهمته الإباحية في زاوية تلك الصورة، يمكن للبقية فحص بريدهم الإلكتروني على هاتفهم. لذا، فإن العمل مع الخبراء في هذا العمل جعل كل شيء أسهل. بالإضافة إلى ذلك، كانوا هم الذين صنعوا قالب عضو دادجو منذ سنوات، وقد صنعوا هذه الأعضاء الاصطناعية في الصين. كما كان هؤلاء هم الأشخاص الذين رأيتهم في الغابات السوداء، والذين سأزورهم لمعرفة أماكن شراء الأسلحة التي في أيدي الأتراك الألمان. عليَّ أن أتقبل أننا كنا نعيش في عالم غريب. أم يجب أن أقول: كان من الشائع في هذا العالم الغريب أن يعرف الأشخاص نفسهم عن طريق الأعضاء الاصطناعية والأسلحة.

- إذا وصل الأمر إلى حد استخدام هذه الصور...

قاطعتُ كلام كالهون قائلًا: «لا تقلق! لن يصل الأمر إلى هذا الحد. ولكن إذا أُجبِرنا على استخدامها، فإن ناثان سوف يبتزنا. حتى إنه وفقًا للوضع قد أكون إحدى ضحايا ذلك الابتزاز. على أي حال، الدور الأكبر هنا بالفعل

لا يعود إليَّ ولا إلى ناثان. الدور الرئيسي يعود إلى مئات الملايين من البشر الذين ما زالوا يهتمون في هذا القرن بمن أقام علاقة مع من! فإذا لم يكونوا موجودين، فما فائدة هذه الصور؟ في السابق، كانت هناك عيادة غير قانونية في إسطنبول، حيث اعتادت النساء ترقيع غشاء البكارة هناك. هل هناك ثقافة تجبر أولئك النساء على فعل ذلك؟ هؤلاء الأشخاص حاولوا بجنون أن ينقلوا تلك الثقافة من جيلٍ إلى آخر؟ والأشخاص الآخرون الذين يفكرون مثل هؤلاء؟ كل الشكر لهم! فمن دونهم لم نكن لنفكر حتى في تهديد دادجو بهذه الطريقة اليوم! حتى المُبَشِّرين الذين حملوا المسيحية إلى القارة الإفريقية، علينا أن نشكرهم هم في المقام الأول؛ لمحاولة جعل قارة ضخمة تتذكر أن العُرِيَّ خطيئة! لذا أستطيع أن أقول هذا بكل راحة: إذا كان هناك سلام في توجو، فإن الأبطال الحقيقيين لهذا العمل -أي المهندسون المعماريون الحقيقيون- هم جميع أبناء العاهرة الرجعيون المتعصبون في العالم! فلنأمل ألا يغيروا فِكرَهم فجأة! فلو استيقظوا صباح غد وقالوا: «ما شأني بمن ضاجع من؟» حينها ماذا سنفعل؟ سنهلك!»

***

في الواقع، كان من الممكن ألا تجدي هذه الصور نفعًا في ثقافة أخرى أو بلد آخر. ولكن المثلية الجنسية كانت غير قانونية في أكثر من ثلاثين دولة. حتى الديكتاتوريون الأفارقة مثل دادجو أعلنوا الحرب على مجتمع الميم في بلادهم. لقد رأوا هؤلاء الناس على أنهم حشرات يجب سحقها. وعلى الرغم من ضغوط المجتمع الدولي، فإنهم لم يتوقفوا عن وصف المثلية الجنسية بأنها جريمة يُعاقَبُ عليها بالسجن. لهذا السبب أردتُ أن يكون الشخص المجاور لدادجو في تلك الصور رجلًا وليس امرأة.

ضحك كالهون وأنا أتحدث، ولكنه فجأة أصبح جادًّا، وقال: «ضمير، من فضلك لا تستخدم تلك الألفاظ النابية الجنسية بعد الآن! أعتقد أنه يجب عليكَ أن تَعِدَ نفسك بهذا في ليلة رأس السنة. في الألفية الجديدة...»

أغلقتُ الهاتف ودستُ دواسة البنزين. كنتُ على بعد ساعة من بروكسل، ولكنني وصلتُ في غضون 34 دقيقة. كان المبنى الذي أتيتُ إليه -والذي يمر عبر الشوارع الضيقة في وسط المدينة- مكونًا من طابقين وبلا نوافذ.

في الواقع، كان هذا البناء مثل الأخ الصغير قصير القامة بالنسبة إلى مبنى شركة الاتحاد المركزي للهواتف في مانهاتن. كانت ناطحة السحاب تلك في شارع توماس عبارة عن كتلة خرسانية بالضبط، تم بناؤها مثل ملجأ فوق الأرض، وهي أحد أكثر الأمثلة وحشية على الهندسة المعمارية الوحشية؛ حيث لم تكن هناك نافذة واحدة في المبنى المكون من 29 طابقًا. كانت ناطحة السحاب تلك –التي تحمل الاسم المستعار تايتانبوينت– تستخدم وكالة الأمن القومي للتنصت خفية على جميع أنحاء مانهاتن وإخفاء كل ما تسمعه، وكنتُ أستخدم المبنى المكون من طابقين الذي كنتُ أقف أمامه لغرض مماثل؛ لأنه كان قبوًا عملاقًا.

كان من الممكن أن تمر من بابه –الذي يشبه مدخل موقف سيارات مُغلق– بواسطة اختبار الـ DNA، ثم تنزل إلى منطقة كبيرة تحت الأرض. كانت هذه المنطقة –التي تشبه أيضًا موقف السيارات– تحتوي على أبواب متجاورة على جدرانها الأربعة، وهي واسعة بما يكفي لمرور السيارات. وكان كل باب يُفتَح على خزانة خاصة؛ حيث يأتي أصحاب الخزائن إلى أحد تلك الأبواب بسياراتهم أو حافلاتهم الصغيرة، حتى إنهم غالبًا ما كانوا يركنون بظهر السيارة. ثم يخرجون من سياراتهم ويسحبون الستائر المعدنية المنتفخة على جانبي الباب. وبالتالي، فإن السيارة المتوقفة أمام الباب ستكون غير مرئية لأصحاب الخزائن الآخرين. وأخيرًا، يتم إدخال كلمة المرور الخاصة بالخزانة على اللوحة الرقمية التي فوقها، ويُنتَظَر أن يتم فتح الباب بالصعود إلى أعلى. وكل ما يتبقى هو نقل كل ما تم أخذه من السيارة إلى الخزانة. هذه الخزائن –التي تبدو كجراج خاص– تم بناؤها بالطبع من أجل أخطر الناس في هذا العالم. ولم يكن كافيًا دفع المال من أجل الإيجار، بل كان مرجع العميل ضروريًّا. لذلك كان هذا المكان مثل نادٍ اجتماعي، نادٍ يحتوي على أناس بأسرار تزن عدة أطنان، حيث يعرف الجميع بعضهم بعضًا بطريقة ما. ولكن وفقًا لقاعدة النادي غير المكتوبة، فإنهم ببساطة يتجاهلون ذلك؛ لأنه لم يرغب أحد في تحية شخص ما في أثناء حمله مئة سبيكة ذهب مسروقة، أو مئتي كيلوجرام من الكوكايين من نقطة إلى أخرى. فعلى كل حال، الشخص الذي يلقي التحية يمكن أن يكون المالك الحقيقي للذهب أو الكوكايين. لذلك فإن معظم أصحاب الخزائن كانوا ينظرون أمامهم فقط. ونادرًا ما كان هناك

من ارتدوا الأقنعة لتجنب التعرف عليهم. كما هو مفهوم، كان عالمًا مختلفًا تمامًا عن غرفة الخزانة في أي بنك. ففي حين لم يكن من الممكن لأي شخص الدخول من بوابات تلك البنوك بقناع دون تنبيه حراس الأمن، فإن هذا كان يعتبر أمرًا طبيعيًّا في هذا المكان المُجَهَّز. لأن هذه كانت خزانة أولئك الذين سرقوا خزانة البنك. لهذا السبب لم تكن هناك لافتة على المبنى المكون من طابقين. أما بالنسبة إلى زبائن المطاعم المجاورة، أو السياح الذين يمرون من أمامه في أثناء ذهابهم إلى الميدان الكبير، فقد كان مجرد كتلة خرسانية قبيحة، صندوقًا أسود مجهول الهوية. في الواقع كان هذا اسم المكان بالفعل: الصندوق الأسود. ولكن لم يكن أحد في حاجة إلى معرفة ذلك. لأنه كما قال كارلو من مدينة زيورخ –صاحب الصندوق الأسود– لا وجود لشيء اسمه الصندوق الأسود.

كان يقول: «حقًّا، لا وجود له! أتعرف اللون البرتقالي اللامع لأجهزة التسجيل تلك؟ إذا سقطت طائرة فإنه سيتم ملاحظتها في موقع الحادث، وسيمكن العثور عليها بسهولة. لذلك، من الناحية الفنية، لا وجود لشيء اسمه الصندوق الأسود. لا توجد لافتة له هنا. لأن الصندوق الأسود غير موجود أصلًا!»

لقد كان كارلو مُحِقًّا. لأن هذه الخزائن لم تكن موجودة لدى دولة بلجيكا. على الأقل، كان من الجيد التظاهر بعدم وجودها حتى تظل بروكسل منطقة آمنة ومحايدة، المكان الذي يتم الاحتفاظ بالأسرار فيه ولا تُرتَكَب أي جريمة ولا يمسه أحد. وأيضًا الشخص الذي احتفظ بالأسرار كان لديه دائمًا ميزة استراتيجية. لهذا السبب سمحت دولة بلجيكا لبعض الديكتاتوريين بإخفاء كنوزهم الدموية وسط العاصمة على سبيل المثال. لأن بلجيكا –التي تضم العديد من صالات القمار– تعرف جيدًا هذا: الخزانة دائمًا تفوز!

في الواقع كان وجود الصندوق الأسود في وسط المدينة إجراءً أمنيًّا؛ ففي عملية سطو محتملة، لا يمكن لطائرة هليكوبتر العثور على فراغ والهبوط، ولا يمكن لسيارة الهروب سريعًا. أما المباني الشاهقة حول الصندوق الأسود وحركة المرور في المدينة، فهي التي كانت تحميه. والآن كنتُ أعبر هذا

المرور وأدخل هذا التابوت الخرساني. أشاهد باب الخزانة التي استأجرتها قبل سنوات يُفتَح ببطء.

أخذتُ نفسًا عميقًا كما أفعل دائمًا ودخلتُ؛ لأنه كانت توجد مشكلة رائحة في هذه الخزائن لا يمكن حلها. أو إنه كان هناك الكثير من الأشياء القذرة بداخلها لدرجة أن رائحتها كانت مثل الجيفة. ضغطتُ الزرَّ الموجود على الحائط وأغلقتُ الباب خلفي. بجوار هذا الزر مباشرةً كان هناك جهاز اتصال داخلي للتحدث إلى حراس الأمن في حالة الطوارئ. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك مفتاح إضاءة. ونظرًا إلى أنني لا أحب نغمة الضوء القادمة من الأضواء المعلقة بالسقف، فقد قمتُ بإطفائها وإضاءة الأباجورة المصنوعة من العاج، التي كانت هدية من دادجو. كانت الأباجورة توجد على المكتب العتيق الماهوجني، الذي كان ملكًا لجنجافر، والمُغطى بجلد أخضر غامق. وعلى حد قول جنجافر، خرج المكتب من قصر سيسيلينهوف، حيث عُقِدَ مؤتمر بوتسدام بعد الحرب العالمية الثانية، واستخدمه تشرشل أولًا، ثم ستالين. ولكن برأيي، فإنه كان على عكس ذلك؛ لأنه يوجد حروق صغيرة على أجزاء مختلفة من الجلد الذي عليه. ونظرًا إلى أنه لا يمكن تقديمه إلى ستالين بهذه الطريقة، فلا بد أن يكون تشرشل هو آخر شخص استخدمه، وأحرق جميع أنحاء المائدة بالسيجارات التي كان يحتفظ بها في فمه.

على الأرض بجوار المكتب مباشرةً كان هناك صندوق، وهذه المرة كان أسود حقًّا. بتعبير أدق: خزانة صغيرة. كانت هذه الخزانة مُحكَمَة الإغلاق ولا يمر بها، الهواء بحيث يمكن تعديل درجة الحرارة والرطوبة، وهي النموذج المُفَضَّل لمُهَرِّبي الآثار الذين يريدون حماية جميع أنواع المخطوطات القديمة، المصنوعة من القطن –وحتى المصنوعة من الرق– من الفساد، مثل التحميض أو تكون الفطريات. علاوة على ذلك كانت خفيفة للغاية، لأنها مصنوعة من ألياف الكربون. أي إنه كان من الممكن لأي شخص الهروب أو المطاردة في أثناء وجود هذه الخزانة تحت ذراعه. وقد كانت درجة الحرارة في الداخل عادةً 18 درجة مئوية، والرطوبة 45 في المئة. وعلى الرغم من عدم إمكانية معرفة حالة الطقس في الجنة، فإن هذه الخزانة في عالم المهربين كانت تسمى الجنة. في الواقع، هذا المصطلح كان متعلقًا بالكونياك، الذي من

المتعارف عليه شربه بين الطرفين بعد الاتفاق على بيع قطعة نادرة. بتعبير أدق، كان متعلقًا بصنع الكونياك؛ فعندما كان البراندي -الذي تُرِكَ ليُعَتَّق في براميل من خشب البلوط- يصبح ناضجًا بدرجة كافية، كان يتم نقله إلى قناني زجاجية مُحكَمَة الإغلاق، ثم توضع هذه القناني في مخزن لا يصل إليه الضوء حتى ينتهي تعتيق البراندي. وهذا المخزن الذي كان يقف عنده الزمن كان يُسمى الجنة في هذه المهنة. لم أكن أعرف من أول من وجد الاسم نفسه مناسبًا للخزانة السوداء، ولكن أيًّا كان، فقد كنتُ متأكدًا من أنها لم تخطر على باله عند أول كأس.

عندما فتحتُ غطاء الصندوق، اختلَّ توازن جميع درجات الحرارة والرطوبة في الجنة، ولكنني لم أهتم؛ لأنه بعد إزالة الرواية التاريخية المصورة المكونة من 14 صفحة الموجودة بالداخل سيكون فارغًا. وضعت 14 ورقة سمرقند مصنوعة من لحاء شجرة التوت واحدة تلو الأخرى على مكتب تشرشل لإلقاء نظرة أخيرة عليها. لقد كان أمامي 14 رسمة مصنوعة من الفوة الصبغية، معظمها باللون الأزرق والأحمر والبني. تم العثور عليها في كهف في مدينة بُخارى، في كيس من جلد الماعز. وعلى الرغم من عدم وجود كتابة عليها، فإنه كان من الواضح أن القصة في الصور حدثت في بُخارى.

بأمر من الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، دخل قتيبة بن مسلم مدينة بُخارى مع جيشه وجرب طُرقًا مُختلفة، من الأكثر دموية إلى الأكثر دبلوماسية، لتحويل غالبية الشعب الأتراك إلى مسلمين. وكان أحد هذه الطرق إقامة العرب المسلمين في منازل الأتراك؛ فمن وجهة نظر قتيبة، كان الأتراك سيتعلمون الإسلام من هؤلاء الذين سيضطرون إلى العيش معهم في المنزل نفسه، ونتيجة لهذا التنوير، كانوا سيتخلصون من الوثنية ويجدون الطريق الصحيح. مع ذلك، كان من الواضح أن الأتراك لم ينفد صبرهم تجاه مثل هذا التنوير؛ ففي ذلك العصر كان هناك الكثير من المعابد التي تعود إلى معتقدات وعقائد مختلفة في بخارى؛ من الزرادشتية وحتى البوذية. حتى إنه مرتين في السنة كان يتم عرض الأصنام وبيعها في السوق المُسمَّاة «ماه روز»، وكان الجميع من الشامانيين إلى عبدة النار يكونون هناك. وقد كان التركي -رسام الرسومات التي أمامي- أحد هؤلاء الذين صنعوا تلك الأصنام. وبالنظر إلى

الدقة في الرسومات وتقنية التظليل التي كانت سابقةً عَصرَها، تأكدتُ أنه كان نحاتًا عظيمًا. علاوة على ذلك، ولد في المكان والزمان المناسِبَين ليكون نَحَّاتًا؛ ففي النهاية كان هناك أشخاص يعبدون التماثيل التي كان يصنعها. ولكنه كان يعيش أيضًا في المكان والزمان الخاطِئَين ليكون وثنيًّا؛ بسبب وجود قتيبة، الذي كان يريد تحطيم التماثيل التي صنعها. وفي الواقع، حتى لو ترك بخارى وذهب إلى الغرب -على سبيل المثال- فإنه سيظل يواجه ضغوطًا مماثلة. وحتى لو نحت تماثيل ليسوع بدلًا من الأصنام، فلن يتغير مصيره؛ لأنه بعد خمسة عشر عامًا على الأكثر كانت ستبدأ فترة تحطيم الأيقونات الدينية في الإمبراطورية البيزنطية. وعلى كل حال، كان يعود الصراع بين الأديان التوحيدية وعبادة الأصنام إلى قديم الأزل. كان هذا الصراع شرسًا للغاية، لدرجة أن النبي موسى صهر العجل الذهبي -وهو صنم مصنوع من الذهب كما يُفهَم من اسمه- وخلطه بالماء، ثم ألقاه في البحر أمام الذين عبدوه! نتيجةً لذلك، تم التضييق على التركي -مُبدِع هذه الرواية المُصَوَّرة- في بُخارى ،التي تُعَدُّ فيها عبادة الأصنام، أو بطبيعة الحال صناعة الأصنام من الجرائم المميتة. وبالطبع لم تكن فوبيا الأصنام في ذلك الوقت مختلفة عن الإسلاموفوبيا اليوم. لذلك كانت تبدأ الرواية التركية المصورة بتحطيم الأصنام المعروضة في السوق المُسمَّاة ماه روز. فيهرب التركي إلى منزله ليجد العربي المُسلم -رفيقه الجديد المفروض عليه- ينتظره عند الباب. وبالنظر إلى الخنجر الذي في خصره، فإن هذا الرجل يبدو يمنيًّا. بدأت العائلتان في العيش معًا، وبشكل طَبيعي كان الأتراك خائفين جدًّا من اليمنيين؛ لأنه من الواضح أن اليمني لم يأتِ ليُعَلِّمَ الدين فقط، بل كان نوعًا من الشرطة الدينية في الوقت نفسه. ولكن على عكس المُطَوِّع الذي يقوم بدوريات في شوارع المملكة العربية السعودية اليوم، فقد كان اليمني يعيش في منزل الشخص الذي كان يراقبه؛ وهذا يعني المراقبة مدة 24 ساعة. فكانت إحدى الصور التي تصور الحياة المنزلية اليومية كما يلي: بينما كان التركي يحاول أداء الصلاة التي تعلمها للتو دون أي خطأ، كان اليمني يراقبه من فتحة الباب. في هذه المرحلة، كنتُ على يقين من أن التركي تظاهر بذلك -رغم أنه لم يؤمن بالإسلام- من أجل سلامته وسلامة أسرته. لأنه بعد بضع صور، وجد اليمني صنمين مدفونين في حديقة المنزل. وبعد أن حطمهما بغضب كبير،

أخذ يجلد التركي حتى غروب الشمس. ولكن بعد هذه الأزمة الصغيرة، حدثت كارثة غير متوقعة، ومرض ابن اليمني البالغ من العمر 9 إلى 10 سنوات ومات فجأة. بعد هذه الرسمة، انطوى اليمني على نفسه فجأةً، ولم يعد مهتمًّا بتحول التركي إلى مسلم، وحتى لم يكن يقيم صلاته هو؛ فلقد كان اليمني -الذي بدا وكأنه قطع علاقته بالعالم- في حدادٍ عميق على ابنه، والتركي كان ينظر إليه من بعيد ويحزن على حاله. في هذه المرحلة اعتقدتُ أن التركي كان يُزَيِّفُ الحقيقة ليُقَدِّمَ نفسه كشخص صاحب فضيلة. فعلى كل حال، كان يعيش في منزله مثل العبد منذ وقت طويل. علاوة على ذلك، كان لديه الكثير من الأسباب لكراهية اليمني، نظرًا إلى كل الاستبداد الذي كان مُجبَرًا على تحمله حتى ذلك اليوم. ومع ذلك، فقد صوّر التركي وهو يحاول مواساته، ولكن دون جدوى. ثم في إحدى الليالي، كان التركي يُخرِجُ بعض أدواته التي كان يخفيها في منزله، وحبس نفسه في الحظيرة وعمل حتى شروق الشمس. فكانت الصور الثلاث الأخيرة للرواية المُصورة هي:

1- قام التركي بعمل تمثال نصفي للطفل المتوفى وأرى اليمني إياه. فاعتقد اليمني في البداية أنه صنم، واستلَّ سيفه وهاجم التركي.

2- تجمد اليمني وسيفه في الهواء عندما رأى وجه ابنه مصنوعًا من الطين.

3- في منزل في بخارى، حيث يُمنَعُ منعًا باتًّا النحت، يحتضن اليمني التمثال النصفي ويبكي، والتركي يراقبه من فتحة الباب.

أعطاني إيغور من موسكو هذه الصفحات الأربع عشرة لأن شيئًا مشابهًا للقصة حدث بيننا. ولكنني لم أصنع تمثالًا نصفيًّا لابنه، لقد أنقذتُ حياته. حاول نجل إيغور -الذي كان يبلغ من العمر 18 عامًا فقط في هذه الأثناء- إقناع والده -أحد قادة المافيا الروسية- بالقيام بالعملية بمفرده، وخطف قاربًا مملوءًا بالناس مع أصدقائه. كانت عبارة عن باخرة خاصة انطلقت من ميناء طرابزون ذاهبة إلى سوتشي. كانت خاصة لدرجة أن رُكَّابَها كانوا رجالًا فقط، حيث كانوا متوجهين إلى سوتشي لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في السياحة الجنسية. وبالطبع لم تكن الزوجات والعائلات على علم بذلك. لذلك، على الورق، كانت فئة من المنطقي اختطافها؛ حيث يمكن لأي شخص الاقتراب من الباخرة بقارب سريع والصعود على متن الباخرة بالأسلحة،

ويمكن للرجال الذين لم يرغبوا في معرفة هذه الرحلة دفع المبالغ المطلوبة على الفور. ولكن لم تجرِ الأمور كما كان يأمل نجل إيغور، وتم احتجازه رهينة؛ لأنه بين الركاب كان هناك أربعة من جيش الاستشهاد تُركِيّو الجنسية، وكان هدفهم أيضًا هو اختطاف الباخرة، وإبلاغ الصحافة أولًا، ثم قتل الجميع، بما في ذلك أنفسهم إذا لزم الأمر. وبهذه العملية، كانوا سيعاقبون الأشخاص الذين يسعون خلف الزنا، حتى لا يتمكن أحد من الآن فصاعدًا من الانتقال من تركيا إلى جورجيا أو روسيا لمجرد ارتكاب الكبائر!

لم تكن هذه الباخرة الخاصة محظوظة بما يكفي في ذلك اليوم ليتم الهجوم عليها من قبل مجموعتين منفصلتين. على كل حال، كان هناك بعض الحظ السيئ في العمل! حتى أعمال الشغب. عندما كان مقاتلو جيش الاستشهاد على وشك التحرك، واجههم نجل إيغور وأصدقاؤه الذين صعدوا على متن السفينة. ولكن نظرًا إلى أن المسلحين كانوا أكثر تدريبًا من أعضاء المافيا الهُواة، فقد سيطروا عليهم جميعًا في وقت قصير. نتيجة لذلك، سمعوا سؤالًا من نجل إيغور: «هل تعرفون من يكون والدي؟» بالطبع، في ذلك الوقت كان الركاب الآخرون يمرون بأسوأ لحظات حياتهم، ولا بد أنهم أقسموا إنهم لن يخونوا زوجاتهم مرة أخرى. رن هاتفي في تلك اللحظة، كان المُتَّصل إيغور. عندما علم أن المسلحين كانوا يحملون متفجرات أصبح قلقًا للغاية، وسعى لإنقاذ ابنه من تلك الباخرة ومن السجن؛ لأنه بمجرد السماع بالحادث سيتم إلقاء اللوم على ابنه أيضًا. لذا كانت هناك حاجة إلى شخص مُحايد للذهاب والتعامل مع الأمر في أسرع وقت ممكن. وبعد ساعاتٍ قليلة، كنتُ على متن الباخرة ومعي حقيبتان كبيرتان من النقود. أجريتُ محادثة ليست طويلة جدًّا مع المسلحين، وكان أكبرهم يبلغ من العمر 25 عامًا. وكانت النقطة التي أردتُ أن يركزوا عليها هي: إن الأموال التي سيحصلون عليها ستكون أنفع لقضيتهم –التي كانوا على استعداد للموت من أجلها– أكثر من قتل أشخاص خارجين عن الملة يملؤون باخرة. وكنتُ قد بدأتُ للتو في عَدِّ الأسلحة التي يمكنهم شراؤها بالمال الموجود في الحقائب عندما اقتنعوا بذلك. فقاموا بتسليم نجل إيغور وأصدقائه، وفي أثناء مغادرتهم الباخرة كانوا يَعُدُّون المال المرة الثانية. ولكن لم تُتَح لهم الفرصة للإنفاق؛ لأنه بعد أسبوع قتل إيغور الأربعة، ولكن لم يتم العثور على الحقائب. وفي الأيام التالية، في أثناء

جلوسنا بعضنا قبالة بعض في بيته في موسكو، كنا نتحدث، وكان الموضوع في واقع الأمر يتعلق بالمعتقدات الدينية والتعصب الديني، حتى وصل إلى فترة انتقال الأتراك إلى الإسلام. عند تلك النقطة أظهر إيغور هذه الصفحات التي أخرجها من الجنة، وأوضح أنه تم العثور عليها في كهف في بخارى، ثم تم اختبارها وتأريخها وثبت أنها أصلية. وكان لدى إيغور أيضًا خزانة في الصندوق الأسود. بالطبع لم أسأل كيف حصل على الصفحات، لأننا نلتزم نفس قواعد اللطف. ومع ذلك، أعطى تلميحًا: «لا تقلق، لم يمت أحد من أجل هذه. أرجوك، خذها. هديةً مني لك».

بعد سنوات، عَلِمتُ أنه تم العثور أيضًا على تمثال نصفي للصبي –الذي في الرواية المصورة– في الكهف نفسه. بالطبع كان إيغور أيضًا، وربما احتفظ به لنفسه لأنه شعر بأنه قريبٌ من اليمني. فعلى كلٍّ، كان يروي هذا التمثال قصة رجل خان نفسه بدافع حب ابنه، مثل إيغور؛ فحتى ذلك اليوم، لم يأخذ أحد منه المال عنوةً، لم يدفع فدية ولم يدفع ضريبة لأحد. ولكنه كسر هذه القاعدة من أجل ابنه، وخان نفسه، بل وعمل ضد إيمانه، فقد كان إيغور يعبد المال. ولكن الأمر لم يكن مختلفًا كثيرًا عن اليمني، لأنه مهما كانت معتقداتهما، فإن القصص بين الأب والابن والروح القدس لم تتغير قط.

كانت هذه صفحات الكتاب الذي طلبته مني كريستيل. كنتُ آمل أن أستطيع معرفة إلامَ ترمز هذه بالضبط، وما مُقابِلها في فلسطين. في تلك اللحظة، كنت أرغب في تقديم معروف إلى كريستيل، فقمتُ بجمع الصفحات الموجودة على المكتب ووضعها في الجنة. لذلك على الأقل كان لن تقلق بشأن إيجاد جنتها الخاصة.

ركبتُ السيارة في أثناء انغلاق باب خزنتي ببطء. كنتُ أسير تجاه المخرج عندما ظهر أمامي فيل صغير فجأة. ضغطتُ على الفرامل في اللحظة الأخيرة، ثم تلاقت أعيننا. حدقنا إلى بعضنا بضع ثوانٍ، ثم ابتعد الفيل بخطواتٍ سريعة. وفي أثناء محاولتي معرفة الاتجاه الذي كان يسير فيه، رأيتُ رجلين مُلَثَّمين يركضان خلفه. لقد كنا نعيش في عالمٍ غريبٍ حقًّا، أو يجب أن أقولها على هذا النحو: لقد كان حدثًا عاديًّا في هذا العالم الغريب أن يريد بعض

الناس وضع فيل صغير في خزانة في بروكسل، وفي أثناء قيامهم بذلك يهرب منهم ويطاردونه.

خرجتُ من الصندوق الأسود ودخلتُ في حركة المرور، وكنتُ أتذكر ذكرى مختلفة في كل شارع مررتُ به؛ فلقد ذهبتُ إلى الجامعة هنا، وعِشتُ في بروكسل أربع سنوات. ولكن ما أتذكره لم يكن عن تلك الأيام، حتى إنني لم أكن أتذكر أي شيء بخصوص الجامعة؛ لأنني قضيتُ تلك السنوات الأربع في حالة ثمالة، وتم طردي من الجامعة وأنا ما زِلتُ في الفرقة الثانية. وهكذا، أصبح لدي المزيد من الوقت للشرب، وقضيتُ العامين الآخرين في تطوير نفسي في هذا الأمر. وفي تلك الأيام، كان مكتوبًا على الزجاجات التي أفرَغتُها جُمَلًا تشبه تلك المكتوبة على زجاجات اليوم: الكحول ليس صديقك. كان هذا صحيحًا، لأن الكحول كان حبيبي في ذلك الوقت. تمامًا مثل الحبيب، جعلني أحلم وأطير من الفرح. ومرة أخرى، تمامًا مثل الحبيب، أصابني بصداع وجعلني أشعر بالغثيان. لقد كنتُ أعود إليه دائمًا مهما حاولتُ المغادرة. شَرِبتُ بالكراهية، وبالحب أيضًا. شَرِبتُ بالقسوة، وبالحنان أيضًا. أحيانًا ضاحكًا، وأحيانًا باكيًا. كان الكحول حبي الأول. ربما لأنني لا أملك وجهًا لمُصادَفَة النساء، أو لأنني لا أملك وجهًا ولا أصادف النساء. ولكن مهما كان السبب، لم أحب أي امرأة قط مثل الكحول، ولم تحبني أي امرأة على الإطلاق. كل ما تبقى هو تسويق السوائل الميكانيكية: الجنس... بالطبع مُقابل المال. وإلا فمن كانت ستمارس الحب مع شخص غريب مثلي؟ هل اللاتي لديهن مسخ غريب؟ نعم، كنتُ أعرفهن أيضًا. لقد رأيتُ من كثب كيف أن وجهي - المشوه بدرجة كافية للظهور في صور ويتكين أو أربوس- قد استثارهن. كُنَّ ينظرن إليَّ بأعين لامعة، ويلمسن وجهي بأيديهن المرتعشة. لقد كُنَّ يُعجَبنَ بصاحب الكسور، أو التشوهات، وكُنَّ يأتين إليَّ سعيًا وراء هذا الإعجاب. وفي صباح اليوم التالي، كُنَّ يتصلن بمعالجهن ويحاولن تحديد موعد بينما كُنَّ يهربن في خجلٍ شديد. وبالنسبة إلى سؤال: «لماذا أنا هكذا؟ ماذا بي؟» إذا كن سألنني عن هذا، لكُنتُ قلت ذلك مجانًا: «هل تعلمين ماذا بي؟ كل شيء! تلك هي المشكلة».

بالطبع، لم تكن هذه الأشياء التي أتذكرها عندما كنت أعبر في شوارع المدينة وأخرج إلى الطريق الدائري. لقد كان الوقت الذي قضيته في بروكسل أشبه بالمغامرة، على الرغم من أنني قضيتُ أربع سنوات في حالة سكر في ميادينها! فإذا كان في نيويورك مبنى الأمم المتحدة، فإن المقر الرئيسي لكل من الاتحاد الأوروبي وحلف الناتو كان هنا أيضًا. لذلك كانت بروكسل مدينة الأكاذيب، وحتى القتل، مثل نيويورك. حيث كانت المكان الذي تم فيه تطوير طريقة الاغتيال المعروفة اليوم باسم «حَظًّا سعيدًا». أعتقد أنها كانت الطريقة الأكثر إثارة للاهتمام في العالم. اعتقدتُ ذلك لأنني من طورتها!

كان رئيس كوريا الشمالية في ذلك الوقت قد سافر إلى الخارج أول مرة في حياته، وجاء إلى بروكسل يومًا واحدًا للقاء رئيس الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن كإحدى ضروريات السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية، لم يكن من المفترض أن يتكلم، بل أن يموت؛ فلم تكن لدى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية أي مشكلة في قتل شخص ما قد صافحه قبل برهة. ولكن وكالة المخابرات المركزية لم تستطع معرفة كيفية القيام بذلك. كان يبدو أن هذه الوفاة لا علاقة لها بزيارة بروكسل. بمعنى آخر: لم يستطع قناص إطلاق النار عليه في أثناء خروجه من الفندق، أو تفجيره بقنبلة في مطعم يتناول فيه العشاء. ربما يمكن أن يُسَمَّمَ بحقنة تُطعَن في ساقه وسط الحشد –كما فعلت المخابرات الروسية–، ولكن لم يستطع أحد الاقتراب منه. كل ما تبقى هو استخدام سُمّ XC الذي طوره الأستراليون، والذي ينتشر عبر الجسم من خلال ملامسة الجلد. ومع ذلك، لم يكن رئيس كوريا الشمالية يلمس أي شيء، لأنه كان كإله حي. كان قد وصل إلى بروكسل في الصباح، وكان سيغادر قبل المساء. مرت الساعات، وأصبحت وكالة المخابرات المركزية متوترة أكثر فأكثر. في هذه المرحلة، أجريتُ مكالمة هاتفية طويلة مع كالهون. قلت: «أعرف كيف يمكنهم أن يقتلوه. ولكن بالطبع لن أقول».

في تلك الأثناء، كنا نشك في أنه تم حفر نفق تحت المنطقة منزوعة السلاح بين كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية المُسَمَّاة DMZ. حيث كانت كوريا الشمالية قد حاولت حفر النفق ثلاث مرات حتى الآن، وتم القبض عليها في كل مرة. واحتمال كبير أنها كانت تحاول الآن مرة أخرى. وإذا نجحت،

كانت سترسل جيشًا عبر ذلك النفق وتهاجم كوريا الجنوبية، ولم تكن هذه الخطة أول فكرة رائعة للكوريين الشماليين؛ فلقد بنوا أيضًا مدينة خلف تلك الحدود مباشرة من قبل، مدينة صغيرة بها فيلات مطلية باللون الأزرق مُصطَفَّة بعضها بجوار بعض. كانت تشبه إحدى الضواحي الأمريكية، وكان من الممكن رؤيتها بالعين المجردة من كوريا الجنوبية. وهذه المدينة التي كانت تُسمى كيونج دونج، أطلق عليها الشماليون اسم مدينة السلام. وكان أي شخص يرى هذا المكان يعتقد حقًّا أن كل شخص في كوريا الشمالية يعيش في منازل كهذه، وقد كان هذا هو الغرض بالفعل. كان مكانًا بُني فقط للدعاية، وكانت تلك المنازل فارغة بالفعل ولم يسكنها أحد. حيث كانت مدينة السلام -طبقًا لاسمها- مدينة أشباح. اعتقد الكوريون الشماليون -بعد أن ثملوا من أيديولوجيتهم الخاصة- أن هذا لن يحدث أبدًا، ولكنهم بالطبع كانوا مخطئين. ولكن هذه المرة، أنا متأكد من أنهم لا يريدون أن يكونوا مخطئين. في الحقيقة، يمكنهم حفر ذلك النفق الخفي. ثم بالطبع كانت ستبدأ حرب قد تستمر عقودًا. ولكن إذا مات رؤساء الدول، فإنه سيتم إلغاء كل شيء على الفور؛ لأن الكوريين الشماليين كانوا يقيمون الحداد على آلهتهم مدة عام على الأقل. في غضون ذلك، يمكن تحديد موقع النفق والتدخل. لذلك طرح كالهون هذا السؤال الذي صادفته عدة مرات لاحقًا في مسيرتي المهنية: «برأيك، أيهما أفضل؟ موت شخص واحد؟ أم موت ملايين البشر؟»

كان هذا السؤال يُطرَحُ دائمًا مع المبالغة في الأرقام؛ فدائمًا ما يُقال الملايين بدلًا من عشرات الآلاف، وهذا بالتأكيد سيحدث للإنسان مرة واحدة فقط. من أجل تقليل الرقم بشكل ملحوظ في ذهن الشخص الذي كان سيجيب، وحتى من أجل أن يقترب الرقم إلى الصفر. ومع ذلك، لم يكن لهذا السؤال ألف إجابة.

قلت: «إيفيرارد تي سيركليس».

قال كالهون: «ما هذا؟»

كان ينبغي أن يسأل قائلًا: «من هذا؟» لقد كان إقطاعيًّا قاد تحرير بروكسل، التي كانت تحت احتلال كونت فلاندر في العصور الوسطى، وتُوفي في تلك الحرب. وهناك نصب تذكاري سُمي باسمه في النقطة التي خرج منها إلى الميدان الكبير الموجود في شارع تشارلز بولز، حيث يتضمن هذا

النصب تمثالًا لتي سيركليس على فراش الموت، جنبًا إلى جنب مع شخصيات أخرى سَطَّرَت تاريخ بروكسل. وكان من المُعتَقَد أن لمس ذراع هذا التمثال يجلب الحظ السعيد. وعلى الرغم من وجود عشرات القصص حول مصدر هذا الاعتقاد، فإنني فَضَّلتُ التفسير التالي:

«في بروكسل، التي احتلها الألمان في الحرب العالمية الأولى، سُحِقَ الناس تحت ضغط رهيب، ولكنهم لم يستطيعوا فعل أي شيء للاعتراض والتعبير عن حنينهم للاستقلال؛ لا احتجاجات ولا أي اجتماعات. فوجدوا طريقة تمرد لم يستطع الجنود الألمان ملاحظتها: لمس ذراع بطل استقلال مثل تي سيركليس. وهكذا، تحول لمس ذراع ذلك التمثال إلى عمل تضامني، حتى إلى عمل احتجاجي خفي. ثم ومع مرور الوقت، أصبح يُعتَقَدُ أنه يجلب الحظ السعيد».

نعم، كنتُ أُفَضِّلُ أن تكون هذه الاحتمالية حقيقية؛ لأنه كان من الجيد بالنسبة إليَّ أن أعتقد أنه حتى تحت الضغط الشديد يمكن للمرء دائمًا أن يجد طريقة للتعبير عن نفسه. لأنني كنتُ أشعر بالغثيان الشديد من وجود ما يُسمى الإنسان، لدرجة أنني كنت في حاجة إلى أفكار لعلاج هذا. فحتى لو لم يتخلصوا من المرض، فإنهم تخلصوا من الأعراض فترة، أو على الأقل أوقفوا الغثيان. علاوة على ذلك، لم يكن هذا الفكر علاجًا وهميًّا، ففي الحقيقة، كان يجد المرء دائمًا طريقة للصراخ عندما يكون الكلام ممنوعًا. لقد شَهِدتُ هذا مرات عديدة؛ فلقد رأيتُ أشخاصًا يشعلون ويطفئون الأنوار في منازلهم في ساعات محددة من المساء بشكل جماعي، وأولئك الذين وقفوا من دون حركة في وسط ميدان بشكل فردي. لهذا السبب لا يمكن لأي نظام قمعي في العالم أن يضع حدًّا للاحتجاج. ولكن بالطبع يمكنه اقتلاع عيون المتظاهر، أو حتى قتله. لأنه سيأتي يوم، حتى الرمش على فترات منتظمة أو مجرد التنفس من الفم يمكن أن يتحول إلى عمل احتجاجي. لذلك كان في غاية المنطقية بالنسبة إليَّ أنه قبل قرون كان بعض الأشخاص تحت القمع يتمردون بهدوء من خلال لمس ذراع التمثال. رغم ما يُشاعُ عن أن هذا السلوك الذي يُعتَقَد أنه يجلب الحظ السعيد اليوم ابتَدَعَه التجار في الميدان لجذب العملاء! يجب أن أعترف أنه بسبب مرضي كانت هناك أوقات اعتقدتُ فيها أن هذه هي الحقيقة.

بعد تلك المكالمة الهاتفية التي أجريتها مع كالهون، اصطحب رئيس الوزراء البلجيكي رئيس كوريا الشمالية في جولةٍ صغيرة في المدينة بناءً على طلب الأمريكيين، فقبل أن يصعد إلى طائرته ويعود إلى بلده. كان يرى بعض الأماكن التاريخية في بروكسل، وبالطبع مر بالميدان الكبير. وقد قام رئيس الوزراء البلجيكي –الذي لم يكن على علم بأي شيء– بفعل ما طُلِبَ منه، وقَدَّمَ أكبر قدر ممكن من المعلومات كمُضيف لطيف. وقام الصحفيون الذين كانوا يشاهدون الوفد من خلف سلسلة الحماية بالتقاط الصور وتتبعهم بكاميراتهم. كما طلب الأمريكيون على وجه التحديد إحضار رئيس الوزراء زعيم كوريا الشمالية أمام نصب إيفيرارد تي سيركليس التذكاري. وكان قد تم تأمينه، وإخلاء المنطقة المحيطة به من قبل. كان رئيس الوزراء يبتسم وهو يوضح أن لمس ذراع التمثال يجلب الحظ السعيد، وأن جميع السائحين الذين يأتون إلى بروكسل يأخذون الصور في أثناء القيام بذلك. ومع ذلك، كان هناك شخصٌ آخر مبتسم بجانبه؛ إنه سفير الولايات المتحدة الأمريكية في بروكسل. حتى إنه كان الشخص الذي أوقف رئيس الوزراء البلجيكي، الذي حاول لمس التمثال لشرح الأمر لزعيم كوريا الشمالية. لقد فعل ذلك تمامًا بطريقة دبلوماسية، ولم يلاحظه أحد باستثناء قلة من الناس. وكنتُ أنا من الذين لاحظوا ذلك؛ حيث ضغط بإصبعين على مرفق رئيس الوزراء مدة ثانيتين ثم تركه. بعد ذلك، ذهب رئيس كوريا الشمالية إلى التمثال ولمس ذراعه عدة مرات، وأخذ الوضعية أمام الكاميرات وهو يضحك. لقد سجلت تلك الكاميرات بالفعل جريمة قتل هناك ولم يلاحظها أحد أيضًا.

أُصيبَ إله كوريا الشمالية بمرض غامض بعد أسبوعين من عودته إلى بلاده وتُوفي بعد شهر. وهكذا، فقد ارتكبتُ جريمة القتل الأولى، وإن كان ذلك بشكل غير مباشر. بتعبير أدق: كانت هذه هي الحلقة الأولى في سلسلة طويلة من جرائم القتل؛ لأن وكالة المخابرات المركزية كانت ممتنةً جدًّا من النتيجة، لدرجة أنها استخدمت تقنية الاغتيال هذه –والتي أطلقت عليها اسم «حظًّا سعيدًا»– عدة مرات بمرور الوقت، وقتلت عددًا من الأشخاص أكثر ممن كنت أعرف عددهم. ومن أجل القيام بذلك، استخدمت العديد من الأماكن في العالم: من عمود التعرق في آيا صوفيا، إلى فم الحقيقة في روما، والتي كان يُعتَقَدُ أنها تجلب الحظ، أو تُحَقِّقُ أمنية عند لمسها. حتى إنني كنتُ على يقين

من أن وكالة المخابرات المركزية قد ابتدعت مثل هذه المناطق –والتي ظهرت مؤخرًا في الولايات المتحدة– فقط لاستخدامها في اغتيالات «حظًا سعيدًا». ومن يدري ما الذي ستخبر الأجيال القادمة به بعضها عن قصة ظهورها؟

كانت المسافة بين بروكسل وكنوكه هايست 114 كيلومترًا. والمطر، الذي بدأ للتو في الكيلومترات الأولى لم يتركني حتى المدينة الواقعة على ساحل بحر الشمال. لقد كانت هذه سان تروبيه من دون البحر الأبيض المتوسط. على الأقل هذا ما كان يعتقده سكان هذه المدينة. فعلى الرغم من أن الفلل الخلفية تعكس جمالية معينة، فإن البنايات متعددة الطوابق على الطريق الساحلي كانت قبيحة مثل ناطحات السحاب الساحلية في أنطاليا. ومثلما كان سيتم تأكيد وجود الله من خلال الاستفتاء الذي سيُجرى في تركيا، تم اتخاذ قرار اقتصادي بالإجماع هنا. على مر السنين، كان مقبولًا من الناحية الديمقراطية أن هذه البنايات –غير المتناسقة من الناحية المعمارية مثل تايتانبوينت تقريبًا– كانت ذات قيمة كبيرة. وفي لغة الاقتصاد، كان المقابل للديمقراطية هو علاقة العرض والطلب؛ فإذا كان هناك طلب كافٍ، فإن كل شيء يصبح ذا قيمة، بما في ذلك البنايات البشعة في كنوكه، التي تطل على بحر بلون الحديد وبرودة المعدن. كما كانت كريستيل –أفضل مُضيفة في العالم– تعيش في إحدى هذه الشقق. ولكنها لم تكن تركض من نقطة نزاع إلى أخرى بحقيبة سفر في يدها مثل المضيفين الآخرين؛ لأن الأشخاص كانوا يأتون إلى كريستيل. كانت تبلغ من العمر 94 عامًا، ولكنها لم تكن تبدو وكأنها تمتلك 70 عامًا. وقد كانت هناك الكثير من الشائعات حولها، لدرجة أنه كان من غير المجدي التفكير في أيها صحيح؛ لأنه إذا كان الأمر يتعلق بكريستيل، فيمكنها جميعًا أن تكون صحيحة في الوقت نفسه. أي إنها ربما كانت مدينة لتناول الأجِنَّة وشرب دم الرُّضَّع، واستخدام أدوية تجديد الخلايا التي لم يتم طرحها في السوق بَعدُ بعَدَمِ تقدمها في السن. أو إنها لم تتقدم في السن يومًا واحدًا خلال علاقتها التي استمرت 24 عامًا مع جنجافر، حيث كانا في حالة حب بعضهما مع بعض، لدرجة أنه احتمال كبير أن يكون ذلك صحيحًا. على الأقل هذا ما كنتُ اعتقده؛ فقد كنتُ أختار السبب الذي يجعلني أشعر بالغثيان بشكل أقل، كما كانت ولادة الاعتقاد بأن لمس ذراع التمثال في بروكسل يجلب الحظ السعيد. وعلى الرغم من أنني لم أجربه شخصيًا،

فإنني أردتُ أن أصدق أن الحب يمكن أن يوقف الوقت. فبصفتي شخصًا سافر من كراهية إلى أخرى، كنتُ في حاجة إلى هذا؛ لأنه إذا كان بإمكان الكراهية أن تجعل الأطفال الذين يبلغون من العمر ست سنوات وهربوا من الحرب يبلغون من العمر أربعين عامًا، فيجب أن يكون العكس أيضًا صحيحًا. في الواقع، قال جنجافر -الذي كان أصغر من كريستيل بثمانية عشر عامًا- ذات مرة: «لا يوجد شخصٌ آخر في هذا العالم أشعر بإنسانيته. حتى إنها هي الرابط الوحيد بيني وبين هذا العالم. يبدو الأمر كما لو أنني سقطتُ عن جرف وأمسكت كريستيل بيدي في اللحظة الأخيرة. ربما لن تكون لديها القوة الكافية أبدًا لسحبي إلى أعلى، ولكنها لم تترك يدي قط. بفضل تلك المرأة، أنا لا أقع في ذلك الفراغ الذي تحتي. كريستيل تُبقيني على قيد الحياة». ثم ضحك وأضاف قائلًا: «وأنا أيضًا أبقَيتُها شابة».

لذا يمكن أن يكون الحب أيضًا جنة، مثل الخزانة السوداء التي أحملها تحت ذراعي، خزانة لا يكبر فيها أحد حين يكون بداخلها، ولكن يشعر المرء وكأنه يبلغ من العمر ألف عام عندما يخرج منها. كنتُ أفكر لماذا لم يحدث. ومن ناحية أخرى، كنتُ في المصعد المؤدي إلى شقة كريستيل، كنتُ أنظر إلى وجهي في المرآة.

فُتِحَ باب المصعد، ثم باب المنزل. كان أمامي خادم يبدو مثل مُتَقَاعِد من قصر باكنغهام. كنتُ أراه أول مرة. كان من المفترض أن يكون قد تقاعد حديثًا!

- السيدة تنتظرك.

مررتُ عبر الدهليز، ودخلتُ غرفة المعيشة التي كانت وحدها بحجم منزل. ثلاثة جدران زرقاء وجدار واحد رمادي. كان هذا الجدار الرمادي هو بحر الشمال، الذي كان يستوعب النوافذ الكبيرة الممتدة من الأرض حتى السقف، والجدران ذات اللون نفسه هي السماء. أما خط الأفق، فلم يكن ليظهر حتى قدوم الربيع.

استدارت كريستيل -التي كانت جالسة على مقعد أمام النافذة- قليلًا لتنظر إلي، وضحكت بالطبع. لأنها كانت المرة الأولى التي ترى فيها وجهي الجديد. أو أن لدي وجهًا بالأساس.

- أصبح رائعًا!
- شكرًا لكِ.
- تعالَ إلى هنا، قَبِّلني!
- أنا لم أتعافَ بعد إلى هذا الحد!
- لا تهذِ! إذا كان يمكنك التحدث، فإنه يمكنك التقبيل!

انحنيتُ وقَبَّلتُ خدها، فأشارت إلى المقعد المجاور لها وقالت: «اجلس». ثم قامت بمناداة الخادم.

- بلايك، هل يمكنك أن تأخذ ذلك الشيء من يد السيد من فضلك؟

أعطيتُ الخادم الخزانة السوداء الصغيرة وجلست. كانت كريستيل لا تزال مشغولة بالتدقيق في وجهي. حتى إنها أشارت إلى وجهي وسألتني: «ماذا كان اسمه؟»

- ديريك هالي.
- نعم، نعم، تذكرتُ. لقد كان ممثلًا جيدًا جدًّا. أعتقد أنني شاهدتُ مسرحيته في وست إند، أو في برودواي.
- على الأرجح أوف برودواي.
- على أي حال، كان موهوبًا جدًّا.
- هذا يعني أنه قضى على نفسه. لأن أفلامه بشعة!
- لماذا؟
- جميعها أفلام مغامرات سخيفة!
- إن الحياة هكذا، أليس كذلك؟ مغامرة سخيفة.
- ربما. ولكن هناك شيئًا واحدًا قطعيًّا؛ أن بعض الناس لا يزالون يشاهدون تلك الأفلام. إنهم يوقفونني في الشوارع ويسألونني: «ألم تمت؟» حتى إن البعض يطلب التوقيعات!

ضحكت كريستيل.

- يا للروعة! وأنت معتاد أن تكون مشهورًا؛ فبينما كُنتَ طفلًا كان الجميع يعرفك، أليس كذلك؟

- لسوء الحظ كنتُ كذلك، أجل.

- عليكَ أيضًا أن تشكر ديريك هالي! يا له من شخص مُفَكِّر. لم ينسك قط.

- كيف يمكن أن ينسى يا كريستيل؟ الرجل انتحر بسببي!

- حدث ذلك، أليس كذلك؟

- بالتأكيد، لقد وصموني بالعار في جميع أنحاء العالم لمجرد أنهم نظروا إلى وجهي وخافوا كرد فعل! وجدتُ الصحف والبرامج التلفزيونية كلها في تلك الفترة. لو عَلِمتِ فقط ما كانوا يقولون! لقد دمروا الرجل. لقد اقتلعوا نجمةً من شوارع هوليوود! فَكِّري في الأمر! كنتيجة طبيعية انهار بالطبع. كما ترك في وصيته كل أمواله لمؤسسة الكل للجميع. كتب لي رسالة؛ كان يعتذر ويتوسل إليَّ أن آخذ وجهه.

- كم كان عمره عندما تُوفي؟

- 39. هناك معمل يأخذ وجهك ويجمده بعد موتك. اتصلوا بي، ثم جاؤوا ومعهم محامٍ. قالوا إن ديريك هالي ورثك وجهه. بالطبع لم أستطع تصديق ذلك في البداية. ثم قلت إنني لا أريده، لا أريد وجه أي شخص.

- أتذكر ذلك. كان جنجافر يسألكَ من وقتٍ إلى آخر: ألا تفكر في زراعة وجهك؟ ولكنكَ كنتَ تقول لا دائمًا.

- هل تعلمين متى اتصلوا بي أول مرة بالفعل؟ عندما كان عمري 25.

- هل أنت جاد؟

- نعم! ولكن في ذلك الوقت لم أكن أرغب قط؛ لأنني لم أكن أرى نفسي. لم أكن حتى أنظر إلى المرآة! لم أكن أهتم. لم أكن الشخص الذي كان عليه رؤية هذا الوجه. لقد كانوا هم.

- من هم؟

- من سيكون؟ الناس! كنتُ أريدهم أن يروا ذلك الوجه الذي حَطَّموه! ليروه جميعًا! ما دُمتُ على قيد الحياة، لا أحد يستطيع أن ينسى هذا الوجه.

- إذن ماذا حدث؟ لماذا غَيَّرتَ رأيك بعد كل هذه السنوات؟

- كان هناك جراح في مخيم الأمان... أسبجورن. هو من أنقذ حياتي. في شهر ديسمبر من العام الماضي، اكتشفتُ مكان إقامته، فذهبتُ للقائه. أولًا نظر إلى وجهي، ثم بكى. هل تعرفين ماذا قال؟ «ليتني لم أنقذ حياتك. ليتك متَّ حتى لا تُضطَرَّ إلى المعاناة مع هذا الوجه!»

- هل هذا الرجل مجنون؟

- لا، كان ثملًا؛ لهذا كان يقول الحقيقة. لقد كان مُحِقًّا، فقررتُ أن أموت. كنتُ سأموتُ أولًا، ثم أُبعَث! كان سيموت ضمير القديم ويندثر، ويولد من جديد بوجه جديد. كان قد قال محامو ديريك هالي: «هذا الوجه لكَ حتى تموت». لذلك اتصلتُ بهم وقلت: أنا موافق. أريد هذا الوجه. ثم دخلتُ المستشفى في زيورخ لإجراء العملية الجراحية. قضيتُ رأس السنة الماضية في غرفة المستشفى. كنتُ متحمسًا جدًّا، لدرجة أنني نسيتُ كم كنتُ وحيدًا! ثم تَمَّ فك الضمادات. ظننتُ أن كل شيء سيتغير عندما أنظر إلى المرآة وأرى وجهي الجديد. هناك ألم... ألم رهيب. إنه يقضم رأسي باستمرار. ظننتُ أنه سيمر. الآن سيكون لدي وجه جديد، وسيكون كل شيء في الماضي. ولكن هذا لم يحدث. لم يمر أي شيء! نظرتُ إلى المرآة ولم أشعر بشيء. لم ينجح الموت والبعث. نعم، لدي وجه الآن، هناك خطوة واحدة. ولكن هذا كل شيء! ليست لدي فكرة عمن أنا. في الوقت الحالي لا أزال ألعب دور ضمير القديم بوجه ممثل سابق. لأنني لا أعرف ماذا أفعل بعد في هذه الحياة الجديدة. مطلقًا! أنا فقط أعرف هذا: هناك شيء خاطئ في كل هذا! هناك شيء خاطئ فيما أفعله! لأنه لا يوجد شيء اسمه السلام في الطبيعة. كل كائن حي يُقاتل من أجل البقاء. وباستمرار أيضًا! الحياة حرب! هذا هو السبب في أن هذا العمل الذي نقوم به ليس له مكان في هذا العالم. إن محاولة منع الناس من قتل بعضهم بعضًا ليست إلا إنكارًا للإنسان. انظري كيف تتقدم الإنسانية! تطوُّرُها التكنولوجي كله يعتمد على الحرب! اقتصادها كله! ثقافتها، ولغتها، وأفكارها، كل شيء! لأن الإنسان موجود ليحارب. إذن ماذا نفعل نحن؟

***

لم أستطع تمالك نفسي، لم أستطع تمالكها. لم أستطع منع هذه الكلمات التي تخرج من فمي. كانت تتساقط مثل أسنان متسوّسة. كنتُ أبصق كل ما يصل إلى شفتيّ. لقد كانت اللحظة المثالية للبكاء، ولكن لم أكن أنا من بكى، كانت الدموع في عيني كريستيل. كنتُ متأكدًا من أنها كانت تفكر في جنجافر في تلك اللحظة؛ فهذا ما كان يجب أن يكون عليه في أيامه الأخيرة، قبل أن يطلق النار على نفسه في شهر مايو الماضي. فهمت كريستيل كل شيء، على الرغم من أنها لم تكن تعلم أنني كنتُ أتجول مع آلة التشيللو لتجنب الانتحار. وإلا لما سألت: «متى كانت آخر مرة نِمتَ فيها؟» فقد كان جنجافر لا يستطيع النوم أيضًا.

قلت: «لا أعلم».

فقالت: «ستبقى هنا الليلة».

أدَرتُ رأسي ونظرتُ إلى الجدار الرمادي، إلى بحر الشمال، الذي هو بحر على الرغم من أنه يشبه المستنقع.

- **«لا النهر، ولا السهول، ولا الجبال... لا الشجر، ولا السحاب! لا شيء يعطي المرء فكرة الحرية مثل البحر. حتى الحرية ذاتها!»**
- لن تذهب إلى أي مكان.
- ليس أنا من أقول... إنه مالابارته.
- هل تعرف ماذا قال مالابارته أيضًا؟ «**أفظع طُغاة في هذا العالم السيداتُ المُسِنَّات!**» لهذا السبب لا تُغضِبني، وانهض الآن. اذهب إلى غرفة الضيوف. استلقِ على السرير. ولا تنهض حتى تغفو! حسنًا؟
- حسنًا.

ونهضت، وبعد بضع خطواتٍ توقفتُ.

- كريستيل، ماذا حدث لهؤلاء الفلسطينيين المفقودين؟
- لا تقلق، لم يموتوا.
- إذن أين هم؟
- منذ سنوات، أخذني جنجافر إلى كابادوكيا. زُرنا مدينة تحت الأرض هناك، كان اسمها ديرنكويو. قديمًا، كان الناس خائفين للغاية، لدرجة

أنهم قاموا بنحت الصخور وبنوا مدينة لأنفسهم تحت الأرض. لقد عاشوا سنوات دون رؤية الشمس لمجرد البقاء بأمان. هذا ما يفعله الفلسطينيون المفقودون. لا يزالون في فلسطين، ولكن ليس فوق الأرض، بل تحتها. هناك كهوف بالقرب من رام الله. إنهم يختبئون هناك. ربما هذا هو الأفضل في الوقت الحالي؛ لأن الكيان الصهيوني وفلسطين لا يمكن أن يكونا جنبًا إلى جنب. يعيش أحدهما في الأعلى والآخر في الأسفل.

لم أستطع تصديق ما سمعته.

- كانت فكرة من هذه؟ فكرتكِ؟
- لا، إنها فكرة جنجافر. خطرت على باله في كابادوكيا. لقد وعدني، لم يكن سيشارك هذا السيناريو مع أي شخص. ولكن للأسف أخبر شخصًا ما، وهذا الشخص أقنع الفلسطينيين. بدلًا من مغادرة أراضيهم، وافقوا على الذهاب إلى تحت الأرض. فهل لديهم أي خيارات أخرى على أي حال؟
- هل يعرف الإسرائيليون هذا؟
- لا أعتقد هذا. فلو كان لديهم علم بهذا لما سمحوا بحدوثه.

قلت: «أنتِ على حق». ثم ذهبتُ إلى غرفة الضيوف. كان صبرا وشاتيلا ينتظرانني في برلين، كنا سنلتقي هناك. فَكَّرتُ كيف سأبلغهما بهذه الأخبار. استلقيتُ على السرير وأغمضتُ عيني. ربما كان ينبغي أن أقول: «لا تقلقا، لم يمت أيٌّ منهم! لقد دُفِنوا أحياء فقط».

ربما كان يجب أن أشتري دفتر مذكرات آن فرانك من المكتبة وأهديهما إياه وأدعهما يخمنان ما حدث للفلسطينيين المفقودين. ولكن عندما فَكَّرتُ في نهاية الكتاب تراجَعتُ عن ذلك.

لذلك، كنتُ أفعل الشيء الذي أفعله دائمًا كلما كنتُ عاجزًا؛ أهرب من الواقع. كنتُ أهرب إلى المكان نفسه منذ سنوات؛ الخيال، خيال بدأ عندما صادفتُ قابيل وهو على وشك قتل هابيل. أولًا، كنتُ أقوم بتهدئة غضب قابيل بالتحدث معه، ثم أضمن السلام الأبدي بين الأخوين. ولكن كان الخيال الحقيقي حول العواقب، لأنه كان من الصعب تخيلها: كيف كان العالم سيكون اليوم لو لم يقتل قابيل هابيل؟

الدمية وإعجاز

كان هناك حدثان من عالمين مختلفين في جنيف في ذلك اليوم. لقد كانا مختلفين للغاية، لدرجة أنه كان العالم يبدو وكأن به مدينتين تُسميان جنيف. أحد هذين الحدثين كان اجتماع الأمم المتحدة بشأن موضوع الهجرة الجماعية الذي عُقِدَ في قصر الأمم، والآخر كان مهرجانًا موسيقيًّا على ضفاف بحيرة ليمان. ولكن يا تُرى أتى ضمير –البالغ من العمر 17 عامًا– إلى جنيف للمشاركة في أي الحدثين؟ بالطبع أتى للمشاركة في اجتماع الأمم المتحدة. لقد كان يجلس في الصف الأمامي في القاعة الرئيسية المُسَمَّاة قاعة الجمعية العامة وينظر إلى المنصة التي أمامه منذ الصباح. ولكنه كان يشعر بالملل لدرجة أنه لم يستطع رؤية أو سماع أي شيء؛ حيث كان المتحدثون يصعدون إلى المنصة واحدًا يلي الآخر، وكانت الإحصائيات والرسوم البيانية تظهر باستمرار على الشاشة العملاقة خلفهم. في الواقع، كان الاجتماع أشبه ما يكون بمنتدى للرياضيات. وكان الأمر يبدو كما لو كان يتم التحقيق في مسألة رياضية غامضة تعثر حلها منذ قرون. كان من الطبيعي أن يحدث هذا؛ لأنه في هذا المبنى التاريخي، كان كل شيء يتعلق بالأرقام منذ البداية. وقد كان هذا المكان مقرًّا للأمم المتحدة عندما كانت لا تزال تُسمى عصبة الأمم، حيث بُنِيَ هذا المبنى لحل مسألة حسابية. لقد كانت مشكلة تتعلق بكيفية تقسيم المنتصرين في الحرب العالمية الأولى غنائم الحرب، بما في ذلك أراضي الإمبراطورية العثمانية. ومن أجل إجراء هذه العملية الحسابية، عُقِدَ مؤتمر في باريس، وهناك وُضِعَ أساس منظمة عصبة الأمم. لذلك أُنشئ قصر الأمم ليكون مقرًّا لهذه العصبة، وكان أشبه بمكتب محاسبة في الواقع. وفى مكتب المحاسبة هذا تم احتساب مقدار الربح الذي تحقق من الحرب بعد خصم

التكاليف، وتمت محاسبة الدول المهزومة وفقًا لنتيجة الحرب. ولكن اللافت للانتباه في هذه النقطة هو اسم المؤتمر الذي اتُّخِذَ فيه القرار التأسيسي لعصبة الأمم. كان من الطبيعي أن يكون اسمه مؤتمر باريس للتحصيلات، ولكنهم أطلقوا عليه اسم مؤتمر باريس للسلام. ويُفهَمُ من هذا أن كلمة السلام يمكن أن يكون لها معانٍ كثيرة. حتى إنها كانت تعني كل شيء ما عدا السلام، تمامًا مثل كلمة الحرب. فعلى سبيل المثال، استُخدِمَت هذه الكلمة بكثرة في الاجتماع الخاص بالهجرة. ولكن نظرًا إلى أن الاجتماع كان في الواقع منتدى للرياضيات، فقد استُبدِلَت كلمة الحرب بالصفر هنا، أي العنصر المُمتَصّ. كان هذا طبيعيًا أيضًا؛ لأننا لا نحصل على ناتج إذا كان العدد مضروبًا في الحرب. على سبيل المثال: 75.000.000 شخص x الحرب العالمية الثانية = 0

***

بدأ الاجتماع في الصباح، وكان سيستمر حتى المساء، وكان ضمير ينتظر استراحة الغداء بفارغ الصبر. ليس لأنه جائع، لكن لأنه خطط لشرب ما لا يقل عن خمسة أكواب من النبيذ وتدخين نصف علبة سجائر في تلك الاستراحة التي تستمر مدة ساعة واحدة. بالطبع سيعترض على هذا كل من جينا وجاسينتا، اللتين كانتا جالستين في المقاعد الموجودة على يساره. ومن المحتمل أن تتركه جاسينتا يشرب كأس نبيذ، ولكن جينا ستعترض حتى على ذلك. ولكن الإيقاع بينهما كان ممتعًا لضمير مثل التدخين وشرب النبيذ. على الرغم من أن المرأتين لم تتشاجرا بالقدر الذي اعتادتاه، فإنهما كانتا تفتحان قضايا السنوات الماضية في أتفه نقاش، بحثًا عن فرصة لتكديس الغضب الذي تراكم لديهما على ما سبقه من غضب وحنق. لقد أصبَحَتا أشبه بزوجين مُطَلَّقَين لهما حضانة مشتركة لأطفالهما، ولم تترددا في استخدام ضمير كورقة للضغط بعضهما على بعض. من ناحية أخرى، كان ضمير يفعل شيئًا يعرفه أطفال الأبوين المطلقين جيدًا، ويستغل سوء التفاهم بين المرأتين حتى النخاع. ومع ذلك، كانت جينا وجاسينتا تعتقدان أنهما تعرفان بعضهما بعضًا. ومع ذلك، فقد كان هذا حِسًّا خياليًا. وكانتا تَدَّعيان أنهما تستطيعان بعضهما قراءة أفكار بعض، لذلك لم تحتاجا حتى إلى التحدث للاتفاق على

أي شيء. وكانتا تفترضان أنهما لا تستطيعان التفاهم، وتبدآن المناقشة من تلك النقطة. فكانتا تديران علاقتهما بناءً على تحيزاتهما بعضهما حول بعض، وفي هذه المرحلة دخل ضمير في اللعبة، وزاد من فجوات التواصل بينهما. لقد كان يفعل ذلك من خلال حمل الخشب لزيادة إشعال نيران التحيز. وهكذا تتسع الفجوة بين المرأتين، حتى إن إحداهما لم تكن تسأل الأخرى: «من أنتِ حقًّا؟» أو «ما رأيكِ في ذلك؟»

كانت متابعة علاقة الحرب الباردة هذه بين جينا وجاسينتا –القائمة على إلقاء اللوم بعضهما على بعض باستمرار– ومعرفة كيفية توجيهها تجربة قَيِّمَة للغاية بالنسبة إلى ضمير؛ لأنه بعد سنوات كان سيصبح مُضيفًا، ويرى أن الدول لا تختلف عن البشر. فكما إن هناك شخصين يرفضان التواصل فيما بينهما، كان من السهل جدًّا إقناع دولتين في الحرب الباردة بتصديق أي شيء بعضهما عن بعض. كانت السهولة نفسها تنطبق على المجتمعات المستقطبة. على سبيل المثال، كانت بعض الرسائل المجهولة هي كل ما يتطلبه الأمر لجارين لم يعودا يريان بعضهما بعضًا لسبب ما لمهاجمة بعضهما بعضًا. وفقًا لذلك، يمكن أن تندلع حرب أهلية في أي بلد، ما دام هناك طرفان لم يعودا في حاجة إلى التواصل لأنهما اعتقدا أنهما يعرفان بعضهما بعضًا. المهم هنا هو كسر الروابط بين المجموعات المختلفة داخل المجتمع نفسه، وهذه كانت لعبة أطفال. لأن هذا المخلوق المُسمى إنسانًا كان مجرد طفل غبي لا يثق إلا بوالديه، ومن يشبهون والديه. حتى إنه قضى حياته كلها في الخوف أو الكراهية لأي شخص يبدو مختلفًا عن والديه. وهكذا لا يكبر الإنسان، ويبقى دائمًا طفلًا؛ لأن المجتمع الذي نشأ فيه كان بمكانة حضانة تعمل في الاتجاه المعاكس. ومن المؤكد أن هذا المجتمع أوقف تطور الذكاء العاطفي للإنسان في مرحلة ما وجعله يتراجع، وإلا فهل كان سيضع علم بلاده على القمر بعد أن ذهب إليه بصعوبة بالغة مستخدمًا كل ما لديه من خبرة بشرية بما في ذلك اختراع الإطار؟ مثل طفل غبي. لهذا السبب بالتحديد لا يمكن للإنسان أن يكتشف أي مكان حقًّا، ولكنه فقط يستطيع توسيع ساحة المعركة. لذلك، فإن مسألة عدد أكواب النبيذ التي سيشربها ضمير بين الغداء كانت جبهة جديدة سيتم فتحها في الحرب الباردة بين جينا وجاسينتا.

نزل المتحدث من فوق المنصة وسط التصفيق ومر من أمام ضمير، ثم جلس عن يمينه. لم يكن تَعَرَّفَ هو وضمير من قبل، ولكن الجميع سمعوا عنه: إنه إعجاز. كان يبدو في نفس عمر ضمير. على الرغم من أنهما كانا يجلسان جنبًا إلى جنب منذ الصباح، فإنهما لم يتحدثا على الإطلاق. كل ما كان معروفًا عنه هو أنه أُنقِذَ من بحر إيجه قبل ست سنوات، فاقدًا الوعي وقد شارف على الموت. لم يكن له ماضٍ؛ لأنه لم يستطع تذكر أي شيء. لم يكن يتذكر كيف ركب ذلك القارب المتهالك الذي نقل مهاجرين من تركيا إلى اليونان، أو ما إذا كانت عائلته معه أم لا. وعلى الرغم من أنه لم يكن بحوزته بطاقة هوية أو جواز سفر، فإنه كان من الواضح أنه سوري مثل بقية الركاب على متن القارب. وقد شاهد العالم أجمع لحظة إنقاذه، وأصبح رمزًا لملايين من الذين اسودَّتْ حياتهم في طريق الهجرة. وفي الوقت الذي تُثار فيه المناقشات حول أن هؤلاء المهاجرين يتسببون في اضطرابات أينما ذهبوا، أو حول ما إذا كان هؤلاء المهاجرون أشخاصًا طيبين أم لا، فإن سترة النجاة التي يرتدونها تلقن الجميع درسًا في الإنسانية. ونظرًا إلى أنه لم يكن هناك طفل غير إعجاز في ذلك التابوت العائم، فقد أُلبِسَ سترة النجاة الوحيدة على متن القارب. وهذا يعنى أن المهاجرين لا يأتون من كوكب آخر، ومثلهم مثل كل الناس يقولون: «الأطفال أولًا!» بفضل هذا تَمَكَّن إعجاز وحده من النجاة. وعُثِرَ عليه وهو على وشك التجمد من بين 43 جثة طافية على الماء. وكانت اليونان تأمل في تلميع صورتها من خلال إعجاز؛ لأن موقف اليونان تجاه المهاجرين كان قاسيًا، لدرجة أنها يمكن أن تنافس المجر في هذا الأمر؛ حيث كانت تجرد أولئك الذين دخلوا الأراضي اليونانية بَرًّا من ملابسهم وتتركهم بملابسهم الداخلية فقط، خصوصًا في فصل الشتاء، ثم تدفعهم اتجاه تركيا. أما أولئك الذين يقتربون من اليونان عن طريق البحر، فإنهم يكونون أسوأ حظًّا؛ لأن حرس السواحل اليونانية يُفَجِّرُ قواربهم، ثم يُبلِغُ الجانب التركي كي ينقذهم. وهكذا، فإن معظم المهاجرين الخارجين من تركيا كانوا يجدون أنفسهم في الجحيم بدلًا من اليونان، وكانوا يقومون بجولة هناك ويعودون إلى تركيا.

تزامن حادث القارب الذي غرق فيه 43 شخصًا مع الفترة التي تعرضت فيها اليونان لانتقادات شديدة بسبب هذه الممارسات. لذلك سارعوا إلى الإعلان للعالم أنهم أنقذوا حياة طفل يتراوح عمره بين 12 و13 عامًا

لتلميع صورتهم. ولكن لم تَسِر الأمور كما أرادوا؛ لأن الصبي كان في حالة صدمة، ولم يستطع الكلام. وعلى الرغم من مرور أسابيع على الحادث، فإن ذاكرته لم تعد، ولم يستطع التعافي من الصدمة الشديدة التي تعرض لها. ونتيجة لهذا، لم يستطع الطفل أن يشكر الحكومة اليونانية مرات عديدة أمام الكاميرات. ومع ذلك، فقد تمكنوا من استخدام الطفل أداة فعالة في العلاقات العامة؛ حيث نقلت الحكومة اليونانية مسؤولية الطفل إلى مؤسسة خيرية، والتي لم تكن تتوافق مع الحكومة اليونانية قط في سياسة الهجرة الخاصة بها. والحقيقة أن موقف اليونان تجاه الهجرة لا يمكن حصره فيما تقوم به الحكومة؛ لأن الشباب اليونانيين أعضاء المؤسسة الخيرية المعروفة باسم «الإنسان المهاجر» كانوا ينتظرون كل ليلة على شواطئ بحر إيجه وفي أيديهم بطانيات ليستقبلوا المهاجرين الذين يصلون عن طريق البحر. وأولئك الشباب هم من أطلقوا على الطفل اسم إعجاز، مثل الشاعر الحلبي يوسف علي، الذي عاش في مخيم الأمان وقام بتسمية ضمير، فإن أولئك الشباب أيضًا قد بحثوا عن كلمة مناسبة لحالة الطفل، فأطلقوا عليه اسم إعجاز، وهي كلمة مأخوذة من اللغة العربية، وتعني معجزة، وتتناسب مع قصة إنقاذ الطفل. حتى إن ما عاشه الطفل بعد إنقاذه يمكن اعتباره معجزة؛ ففي الوقت الذي يصارع فيه عشرات الآلاف من الأشخاص الموت في مخيمات اللاجئين على الأراضي اليونانية، نُقِلَ إعجاز على متن أول طائرة إلى ستوكهولم، حيث كان المقر الرئيسي للمؤسسة هناك. وتعلم إعجاز كل شيء منذ البداية مثل مولودٍ جديد في ستوكهولم. في البداية، كان بإمكانه التواصل فقط من خلال الرسومات البسيطة وإشارات اليد، ولكنه بدأ يتحدث الإنجليزية، ثم السويدية. بالإضافة إلى ذلك، فقد أدت طريقة الرسم المستخدمة من أجل التواصل مع المحيطين به إلى تحسن إعجاز بشكل كبير في الرسم. بالإضافة إلى أنه كان لديه أيضًا موهبة وخيال واسع؛ فبدأ في رسم اللوحات التي تذكرنا بلوحة طوافة قنديل البحر للرسام تيودور جيريكو. في هذه اللوحات الزيتية، كان الناس من جميع أعراق العالم يجابهون الأمواج الهائلة في قوارب مُحَطَّمَة، يجابهون حتى الموت في عرض البحر من أجل البقاء. كان أحدهم ينظر إلى الأفق بأمل، والآخر يقف مُقَوَّسَ الظهر في خوف، بينما كان الثالث يمد يده إلى امرأة عجوز سقطت في البحر، والآخر يدعو. على الرغم من أن موضوع

اللوحات كان دائمًا هو نفسه، فإن كل واحدة كانت مختلفة تمامًا؛ لأنها تقدم تفاصيل مذهلة عن القارب، أو الأشخاص الموجودين في القارب. وقد وصفت كل رحلة يرسمها مغامرة مختلفة، وبدت وكأنها حقيقية. وبطبيعة الحال، أصبحت هذه اللوحات التي رسمها إعجاز مشهورة عالميًّا، وتحولت إلى أداة استثمار ذكية لمن يريد جني الأموال من الفن. وبدأ إعجاز -الذي أصبح الآن مواطنًا سويديًّا- بالتبرع للمؤسسة التي اعتنت به بالإيرادات التي يحصل عليها من بيع اللوحات. وبهذه الطريقة، تجاوز كونه بطلًا، وتحول إلى نصف إله؛ لأن الأبطال فقط من يكونون موضع إعجاب. ولكن إذا شُعِرَ بالشفقة أولًا تجاه شخص ما، ثم أُعجِبَ به بعد ذلك، فهذا يعني أن هذا الشخص أصبح الآن كائنًا مقدسًا. أما ضمير، فلم يكن بطلًا ولا نصف إله؛ لأن الناس كانوا يشفقون عليه فقط، وهذا جعله مجرد ضحية. ربما إذا كان التقى إعجاز قديمًا، ربما كان سيشعر بالغيرة منه، ولكن الآن لم يعد هذا الأمر مهمًّا بالنسبة إليه. كل ما كان يفكر فيه ضمير هو شرب ما يكفي من النبيذ في استراحة الغداء. ومع ذلك، لم ينجح في فعل ذلك أيضًا؛ لأنه كان على وشك الدخول إلى صالة الطعام عندما ظهر أمامه حارسٌ شخصي. وإذا نظرنا إلى سماعات أذنه وبدلته السوداء، وسلوكه الذي يشبه الروبوت، أمكَنَ القول إن الشخص الذي يحميه هذا الحارس الشخصي هو إما زعيم عصابة وإما البابا، وإما...

- معالي رئيس الوزراء يريد مُقابَلَتَك.

كانت جينا وجاسينتا تقفان على جانبي ضمير، وحين سَمِعَتَا هذا نظرتا بعضهما إلى بعض. إنه أمر جيد لمؤسسة الكل للجميع أن يلتقي ضمير أي رئيس وزراء. ولكن هذه الدعوى لا تعني شيئًا بالنسبة إلى صبي يبلغ من العمر 17 عامًا لم يكن يريد في ذلك الوقت سوى شرب الخمر والمخدرات والجنس. فرَدَّت جينا قائلة: «بالطبع، ضمير سيكون سعيدًا جدًّا لمقابلة معالي رئيس الوزراء. ولكن رئيس وزراء أي بلد هو؟»

لم تكن جينا لتسأل هذا السؤال لو كانت قرأت بعناية أكبر البرنامج الموزع على الجميع في الصباح؛ لأنه لم يكن هناك سوى رئيس وزراء واحد حضر الاجتماع. يعيش أكثر من ثلاثة ملايين مهاجر في بلده، خاطر الكثير منهم -مثل إعجاز- بحياتهم للذهاب إلى أوروبا. هذا ما كان سوف يتحدث

عنه في كلمته التي سيلقيها بعد الظهر. كان سيشرح كل الظروف التي تهيئها الدولة التي يترأسها للمهاجرين، والتدابير التي يجب اتخاذها لمنع فقدان الناس حيواتهم في أثناء الهجرة. وبعد أن رأت جاسينتا دبوس علم الدولة على ياقة معطف بدلة الحارس الشخصي، أجابت عن سؤال جينا: «تركيا».

قال الحارس: «نعم». ثم التفت إلى ضمير وأشار إلى الممر الطويل المجاور لهم. «من هذا الاتجاه».

توجهت جينا إلى الممر، ولكن الحارس قال بصرامة: «ضمير فقط».

في تلك اللحظة غشي وجهَي المرأتين ستار من القلق. ولأنهما لم تتمكنا من فعل أي شيء، اكتفتا فقط بمراقبة ضمير. فعلى الرغم من أنهما استَمَرَّتَا في جمع التبرعات بفضله، فإن سلوكيات ضمير غير السوية كان تُرعِبُهما. لهذا السبب لم ترغبا قط في تركه بمفرده في مثل هذه الأحداث؛ لأنهما ما دامتا معه، يمكنهما تقديم التبرير البسيط التالي لسلوك ضمير العدواني: «من فضلك لا تؤاخذه بما يفعل؛ لأنه يخضع لعملية جراحية كل عام، ويتناول الأدوية باستمرار، وهذا يؤثر على نفسيته كثيرًا».

كان الشخص الذي أمامهم يهدأ على الفور عند سماع هذا التبرير، حتى إنه يندم أنه أغضب ضمير حين أهانه أمام الجميع؛ لأنه أدرك أنه لا يجب إظهار أي شيء سوى التسامح تجاه شابٍّ عانى كثيرًا مثل ضمير. وكان يقول لهما جُمَلًا مشابهة لـ: «بالتأكيد. بالتأكيد! لا يهم... من يدري ما الذي عاناه هذا الشاب في حياته؟»

في الواقع، هذا التبرير الذي كانت تقدمه جاسينتا أو جينا -حسب الموقف- لا يُعَدُّ كذبًا تامًّا. ولكنه كان ناقصًا. بالفعل كان ضمير يخضع باستمرار لعمليات جراحية في وجهه، ويتناول أدوية ثقيلة ذات آثار جانبية عصبية. ولكنه كان أيضًا ابن زرا؛ أي إن الاعتداء كان تقليدًا متوارثًا في العائلة، على الرغم من عدم علم أحد بذلك. ولكنهم لم يكونوا هم من يبدؤون الهجوم، فكلما هاجم العالم ضمير، كان يرد بالمثل مثل والدته.

في نهاية الممر الطويل الذي كان يسير به ضمير، وصل إلى بابٍ واسع أمامه ثلاثة حراس آخرين. بالطبع، كان الحراس الثلاثة أيضًا مثل الروبوتات. ربما كانوا جميعًا روبوتات! حتى إن ضمير فكر لحظةً أنه ربما يكون الإنسان

الوحيد في العالم. وفي عالم يكون فيه الجميع روبوتًا، يجب أن تكون مهمة الإنسان الوحيدة في هذا العالم هي إصلاح الروبوتات. بينما كان ضمير يفكر في هذه الأشياء، فُتِحَ الباب أمامه، واستقبله صوتٌ مرتفع بقدر ارتفاع سقف الغرفة التي دخل إليها: «أهلًا بك يا ضمير! تعال، اجلس!»

وفقًا للخبرات البروتوكولية، يمكن قياس مناصب الأشخاص بديسيبل صوت التحدث أمام الجمهور. ولكن هذه المرة، لم يكن ضمير في حاجة إلى قياس أي شيء لمعرفة من هو المتحدث؛ لأنه بينما كان كل من في الغرفة واقفًا، لم يكن هناك سوى ثلاثة أشخاص يجلسون على طاولة الطعام في منتصف الغرفة، وقد كان المتحدث أحدهم. علاوة على ذلك، كان رئيس الوزراء التركي المنتخب مؤخرًا شخصية ذات شعبية كبيرة، وقد عرف وجهه العالم كله -بما في ذلك ضمير- بفضل وسائل الإعلام الدولية.

- انظر، إعجاز هنا أيضًا!

بينما كان ضمير يجلس على الكرسي الذي أُشير إليه بالجلوس عليه، سأله رئيس الوزراء: «هل تعرفتما بعضكما إلى بعض؟»

- لا، ولكنني بالطبع أعرف إعجاز.

كانت هناك امرأة تهمس في أذن إعجاز وتترجم له كل هذه الأحاديث إلى الإنجليزية، ولكنها لم تكن تجلس معهم حول المنضدة. كانت تجلس على كرسي خلف إعجاز مباشرةً، وفي يدها دفتر ملاحظات. وعندما ترجمت له ما قاله ضمير، نظر إعجاز إلى ضمير وابتسم وأومأ برأسه محييًا ضمير.

قال رئيس الوزراء: «هيا إذن. الطفلان جائعان. دعونا نتناول الطعام!»

ثم عَرَّف ضمير على الرجل الجالس عن يمينه بقوله: «إنه السيد سليم، وزير خارجيتنا».

قال ضمير: «أنا سعيدٌ للغاية لمقابلة سيادتكم».

ضحك رئيس الوزراء المبتسم باستمرار بصوتٍ عالٍ هذه المرة وقال: «حقًّا، أحسنت! أترى يا سليم كيف يجيد اللغة التركية؟ أحسنتَ يا ضمير!»

أجاب سليم: «نعم يا سيدي، إنه حقًّا يجيد اللغة التركية».

في ذلك الوقت، أحاط النُدُل بالمائدة المستديرة وبدؤوا في تقديم الطعام. نظر ضمير إلى بقية أعضاء الوفد التركي الذي ملأ الغرفة، إلى أولئك الواقفين. كانت كل الأنظار على رئيس الوزراء. كانوا مستعدين لفهم أصغر إيماءاته وتلبية كل احتياجاته المحتملة، وكانوا يتابعونه بإعجاب. في الواقع، لقد بدوا مثل نجم موسيقى الروك وزملائه من حوله.

كان الطبق الأول الذي وُضِعَ أمامهم مملوءًا بحساء البازلاء بالسراخس. كان ضمير قد تناول الملاعق الأولى عندما لاحظ أن رئيس الوزراء لا يأكل وينظر إليه. التقت أعينهم، ثم ابتسم رئيس الوزراء كطفل مُشاغب، ثم رفع يده. في تلك اللحظة، هَبَّت ريح همس في الغرفة. وسرعان ما ظهر رجلان على جانبي رئيس الوزراء وفي أيديهما الدُّمى. أخذ ضمير وإعجاز استراحة من الحساء ونظرا إلى الدُّمَى بدهشة. ولكن كان من الواضح أن ضمير كان مُرتَبِكًا، ليس بسبب وجهه بالطبع، ولكن لأنه نسي أن يضع الملعقة في فمه. لم يكن متوترًا أو متحمسًا لشيء خلاف هذا. إن الجلوس إلى طاولة كهذه قد يتسبب في حدوث آلام في المعدة وتَعَرُّق لأي شابٍّ في عمره، ولكن لم يشعر ضمير بأيٍّ من هذا؛ لأن الرجل الجالس أمامه لم يكن أول رئيس وزراء قابله ضمير على الإطلاق. كان قد تناول العشاء وتحدث مع رؤساء دول أو رؤساء وزراء عدة مرات من قبل. ولكنه حتى ذلك اليوم لم يرَ أيًّا منهم يحضر دميتين إلى المائدة.

قال رئيس الوزراء: «من فضلكما، استمرا في تناول الطعام».

وحينها، لم يكن أمام الشابين إلا أن يحنيا رأسيهما ويستمرا في تناول الحساء. ولكنهما رأيا بطرف أعينهما أن رئيس الوزراء يضع يديه داخل الدميتين، ثم أجلسهما في حجره جنبًا إلى جنب. أخذا ملعقتين أخريين من حساء البازلاء، ثم سمعا صوتًا رقيقًا في الغرفة.

- مرحبًا يا شباب!

كان المتحدث هو الدمية التي في اليد اليسرى لرئيس الوزراء، وهي عبارة عن سيدة عجوز محجبة ترتدي نظارة.

كانت الدمية تفتح فمها وتغلقه مع كل كلمة تقولها، ورئيس الوزراء ينظر إليها مبتسمًا.

- لحسن الحظ أنكما جئتما!

- دعيهما يأكلان طعامهما!

كان المتحدث في هذه المرة هي الدمية الموجودة باليد اليمنى لرئيس الوزراء. كان صوتها أكثر خشونة، وهي دمية لرجلٍ مُسِنٍّ مُلتَحٍ يرتدي نظارة. لا بد أنه زوج الدمية الأخرى. أجابت الدمية المرأة زوجها: «ماذا بك يا روحي؟ يمكنهما أن يستمعا إليَّ وهما يأكلان!»

- أقسم لك إنني منذ 40 عامًا وأنا أقوم عن مائدة الطعام جائعًا بسبب استماعي لكِ!

- ألهذا السبب ظهر هذا الكرش؟ إنه يشبه طبلة رمضان!

- أي طبلة؟ إنه بالكثير يُشبه الدربوكة!

- إذن اضرب على كرشك وسوف ترى هل هي دربوكة أم طبلة. وإن كُنتَ أنت لا تستطيع فعل شيئين في الوقت نفسه، فهل تعتقد أن هذين الطفلين مثلك؟ بل يمكنهما أن يأكلا ويصغيا إليَّ في الوقت نفسه!

وأيًّا كانت الدمية التي تتحدث كان رئيس الوزراء يدير رأسه تجاهها، وينظر أحيانًا إلى الجمهور بتعبيرٍ مرتبك لإظهار أنه كان عاجزًا في خضم الشجار بين الزوجين. ورغم ضحك الوفد التركي، فإن ضمير وإعجاز -الذي يستمع إلى الترجمة- لم يعرفا كيف يتصرفان. وتابعت السيدة العجوز: «أيها الطفلان، لدي فكرة. ما رأيكما في أن تكون لديكما دُمى أيضًا؟ ثم يُلقي عمكما رئيس الوزراء خطابًا بتلك الدُّمى...»

قاطع الرجل العجوز زوجته: «ولكن أخبريني أين سيُلقَى الخطاب؟»

- يا صاح، لا تندفع هكذا، سوف أشرح لهما!

ضحك الجميع مرة أخرى، وتابعت السيدة العجوز: «هناك اجتماع في مجلس أوروبا الشهر المقبل، وسوف يلقي عمكما رئيس الوزراء كلمة هناك، والجميع يعرفكما. إنكما تبذلان قصارى جهدكما منذ سنوات لتكونا صوت الأطفال السوريين. وأقول...»

قال زوجها: «إنكِ تُطيلين الحديث مرة أخرى! أنا سأشرح لكما باختصار. ما رأيكما لو صعدتم أنتم الثلاثة على المنصة في ذلك الاجتماع، وبفضلكما سيتذكر العالم كله معاناة سوريا مرة أخرى».

ولما رأت أن ضمير وإعجاز ظَلَّا صامتين، تدخلت العجوز.

- يا رفيقان، لقد نسي العالم ما يحدث في سوريا! حتى إنهم نسوا أن هناك حربًا في سوريا! نسوا أن هناك الملايين من الناس الذين اضطروا إلى ترك منازلهم؟ لم يبقَ من يفكر فيهم إلا أنتما ونحن. ولكن يجب على أوروبا أن تفعل شيئًا أيضًا، أليس كذلك؟ هم أيضا يجب عليهم بذل قصارى جهدهم في هذا الموضوع. على الأقل يجب أن يدعموا تركيا!

كان إعجاز مرتبكًا، وقال: «هل سنلقي خطابًا أيضًا؟»

ضحكت السيدة العجوز عندما سمعت الترجمة، وقالت: «لا، لا. لا داعي لصعودكما إلى المنصة؛ لأنه ستكون هناك دُمى لكما بالفعل على المنصة. عادة يضحك الناس عندما يرون دمية، ولكن هذه المرة سوف يضحكون ويبكون! دعني أخبرك بهذا: سيكون خطابًا لافتًا جدًّا، وسيخلده التاريخ! حسنًا، ما رأيكما؟»

كانت أكبر مشكلة للشخص الذي يتحدث من بطنه هي عدم معرفته إلى أين ينظر؛ لأن التحدث بالنظر إلى محرك الدُّمَى يعني إفساد العرض، والتحدث إلى دمية يجعل المرء يشعر بالغباء. لهذا تحدث ضمير وهو ينظر إلى إعجاز: «أعتقد أنها فكرة جيدة جدًّا!»

ولعل السبب الذي جعل ضمير يتفاعل بهذه الطريقة مع أكثر الأفكار التي سمعها -أو يمكن أن يسمعها في حياته- سخافةً هو أنه لا يهتم حقًّا بما يجري.

ونظر إعجاز أيضًا إلى ضمير وأومأ برأسه: «وأنا أيضًا أعتقد ذلك!»

لا بد أنه كان يتصرف بهذا الشكل لأنه كان يهتم كثيرًا. على الأقل هذا ما اعتقده ضمير في تلك اللحظة؛ لأن خطاب رئيس وزراء دولة ما أمام مجلس أوروبا وهو يحمل دميتين في يديه لم يكن سوى مشهد سخيف للتقليل من معاناة المهاجرين. وفكر ضمير في شيء آخر في تلك اللحظة؛ فكر هذه المرة

في الأشخاص الآخرين الموجودين في الغرفة، يجب أن يكونوا جميعًا مدركين سوء هذه الفكرة، لأنه لا يلزم أن تكون عبقريًّا لتدرك هذا. ولكن لم يقل أيٌّ منهم أي شيء، ولم يُحَذِّر أيٌّ منهم رئيس الوزراء. لا وزير الخارجية الجالس بجانبه، ولا الواقفون. وهذا يعني أن قول أحد المحيطين برئيس الوزراء رأيه الحقيقي كان يسبب بعض المشكلات. على الرغم من أن رئيس الوزراء قد انتُخِبَ منذ وقت قصير، فقد مرت 4 أشهر فقط منذ توليه منصبه. ولكن يبدو أنه نجح حتى في هذا الوقت القصير في توضيح طريقته في الحكم. من الواضح أنه كان الشخص الوحيد الذي لديه أفضل الأفكار في كل مكان يكون فيه. علاوة على ذلك، يبدو أنه كان يعتبر مناقشة أفكاره إهانة له، لذا أجبر من حوله على التزام الصمت. ربما كان الأمر كله يتعلق بالمهنة الحقيقية لرئيس الوزراء؛ فلقد كان نجمًا في النهاية! نجمًا يظل تحت دائرة الأضواء سنوات.

أصبح مشهورًا بين عشية وضحاها، في ثلاث دقائق بالضبط؛ لأنها كانت مدة العرض الذي قدمه في البرنامج التلفزيوني الذي شارك فيه. لقد كان عرضًا للمواهب، وشارك فيه بصفته متحدثًا من بطنه موهوبًا، فقد أبهر الجميع في تلك الليلة. لقد جعل الدمية التي في يده تتحدث بشكلٍ طبيعي، لدرجة أن الدمية بدت ككائنٍ حي ولا يمكن للجمهور أن يرفع أعينه عنها. وبالطبع فاز في النهاية بالمسابقة، وزادت شعبيته أكثر؛ لذلك بدأ في تقديم العروض في جميع أنحاء العالم. وفي هذه العروض، كان يظهر على خشبة المسرح مع دمى مختلفة، ويؤدي اسكتشات واحدة تلو الأخرى. على الرغم من أن حِسَّه الفكاهي بدا بسيطًا، فإن عروضه كانت تحتوي على ملاحظات دقيقة للغاية.

غالبًا ما كان يلقي النكات حول الكليشيهات أو الصور النمطية اليومية. ورغم أن الحكومة -التي كانت فاسدة في كل المجالات في ذلك الوقت- مارست ضغوطًا وصلت إلى حد التعذيب لإخفائه عن الجمهور، فإنه لم يذكر أيًّا من ذلك في عروضه. لذلك كانت هذه العروض أشبه بمباريات كرة القدم؛ لأن أولئك الذين جاؤوا لمشاهدته كانوا ينسون كل المشكلات التي تعرَّضوا لها من الحكومة مدة 90 دقيقة على الأقل، ويعتقدون أن مشكلتهم الأكبر كانت الخرق في العلاقات بين الذكور والإناث. لهذا السبب لم يلمسه أحد،

في الوقت الذي كانت تُحظَر المسرحيات أو الأفلام أو الكتب التي تنتقد الحكومة واحدة تلو الأخرى. وكانت كل البلديات الموالية للحزب الحاكم تفتح له قاعاتها، وتصر على تنظيم عروضه في مدنها. وبمرور الوقت، أُضيفت الإعلانات التجارية إلى عروضه المسرحية. ثم انتقل بعد ذلك إلى السينما. ركض من موقع تصوير إلى موقع آخر والدمى في يده، وحققت الأفلام التي شارك فيها نجاحًا كبيرًا في شباك التذاكر. حتى إنه صنع ألبومًا يغني فيه مع الدمى. ولكن الشيء الوحيد الذي زاد على مر السنين لم تكن شهرته، بل الاحتجاجات التي تصاعدت ضد الحكومة بالوتيرة نفسها؛ حيث زاد عدد أولئك الذين أرادوا التخلص من الحزب الذي حكم البلاد ثلاث فترات متتالية، وأصبحوا الآن الأغلبية. كان من شبه المؤكد أنه سيكون هناك تغيير في السلطة في تركيا في أول انتخابات يتم إجراؤها. وبناء عليه، تغير عرض الدمى بين عشية وضحاها، وامتلأ بالنكات التي تنتقد الحكومة. في نهاية تلك الليلة، أعلن الرجل الذي أمتع البلاد بأكملها مدة 10 سنوات أنه سيشكل حزبًا ويدخل الانتخابات. وهذه الكلمات بالطبع لقيت ترحيبًا حارًّا. وحتى ذلك الحين، لم يتساءل أحد عن سبب التزام الحكومة الصمت تجاه سياسات القمع. وسرعان ما أسس حزبه وأنشأ منظمات إقليمية في جميع أنحاء البلاد، وأصبح أكثر قوة معارضة شعبية قبل الانتخابات بستة أشهر. على أي حال، كانت هناك مشكلة، أو بالأحرى لغز. لأنه لا أحد يعرف بالضبط آراءه السياسية. وعندما سُئل قال: «مثلما جعلتُ الدمى تتحدث سنوات، ستكون أمتي هي التي تجعلني أتحدث. سأقول كل ما يريدونه، لن أكون دمية في يد قوى خارجية أو صراعات داخلية. سأكون فقط دمية لأمتي! إرادة هذه الأمة هي التي ستحدد آرائي السياسية، وليس أنا».

غضب الصحفيون الذين لم يفهموا شيئًا من هذه الإجابة وقالوا: «هل هناك مرشحون أصبحوا يمينيين أو يساريين دون الحصول على إذن من الأمة أو أخذ رأي الأمة؟ اذهب وتحدث معهم!»

كما استخدم موظفو حزبه عبارات مماثلة، وهكذا وُلِدَ خطابٌ سياسي جديد في تركيا. ورغم أن أحزاب أخرى حاولت تقديم وعود ملموسة، فإن هذا الخطاب هو الذي جذب أكبر قدر من الاهتمام، لأنه كان غامضًا وفارغًا.

على سبيل المثال، كان لدى الحزب –المُؤسس حديثًا– وعد واحد فقط: أن يكون صوت الأمة. يمكن لأي شخص أيًّا كان أن يفي بهذا الوعد كيفما أراد، وبالفعل حدث هذا. على الرغم من أن أنجح متحدث من بطنه في تركيا لم يقدم أي حل لمشكلات البلاد المتجذرة، فقد انتقد الحكومة الحالية والأحزاب الأخرى بشكل فعال، لدرجة أنه تمكن من الفوز بـ 44 في المئة من الأصوات في الانتخابات والوصول إلى السلطة بمفرده. على الرغم من أن هذا قد يبدو وكأنه تطور مذهل، فإنه كان متوقعًا نظرًا إلى التاريخ السياسي لتركيا. إن الجمهور العريض الذي فقد الأمل في الأحزاب القائمة الموجودة على الساحة السياسية منذ عقود قد فَضَّلَ ملاحقة من قال له: «سأكون صوتك». لأن هؤلاء الناس لديهم مشكلة تجاوزت طبقاتهم الاجتماعية والاقتصادية وكل هوياتهم؛ وهي التجاهل التام. والآن أصبح هناك رئيس وزراء سوف يستمع لشعبه فقط. ولكن الطريقة التي ستُسمِعه بها الأمة صوتها كانت غير محددة تمامًا.

نتيجة لذلك، عندما فقد الشعب التركي الأمل من الطب التقليدي، تصرف كمريض ميؤوس منه، ولجأ إلى حلول بديلة، حتى إنه لجأ إلى حلول دينية أو ميتافيزيقية، وانتخب متكلمًا من بطنه ليكون رئيسًا للوزراء. وفي الواقع لم يكن هناك ما يثير الدهشة في ذلك أيضًا؛ لأنها لم تكن المرة الأولى التي يصل فيها متكلم من بطنه إلى السلطة السياسية. والتاريخ ملآن بالعديد من الأمثلة. على سبيل المثال في العهد القديم، كانت المرأة التي تُدعى ساحرة إندور –التي قيل إنها نقلت أخبارًا من إسماعيل (شمويل بالعبرية) المتوفى إلى الملك طالوت– على الأرجح متحدثة من بطنها. لذلك، فإن الصوت الذي كان يُعتَقَدَ أنه يأتي من العالم السفلي لم يكن يأتي من بعيد. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن الوضع مختلفًا في اليونان القديمة. كان يُعتَقَد أن الصوت الصادر من شخص لا يحرك شفتيه هو من صفات الأرواح الميتة فقط. كما إن المتكلمين من بطنهم لم يخيبوا آمال أولئك الذين اعتقدوا فيهم ذلك، واستخدموا مواهبهم للعمل وُسَطاء بين الموتى والأحياء. كما كان هناك من اختار الحجارة المقدسة في المعابد ليجعلها تتحدث، حيث لم تكن لديهم دمية بعد. على سبيل المثال، وقف كهنة معبد هرقل في مدينة صور بجانب تلك الحجارة المقدسة، وفجأة بدأت تلك الحجارة تتكلم في ظروف غامضة. وكان أشهر المتحدثين من بطنهم في تلك الفترة هو يوركليز من أثينا. لأن اسمه مذكور

في مسرحية «زنابير» لأريستوفان، وحتى في كتاب السفسطائي لأفلاطون. عُرف يوركليز باسم إنجسترمانتس؛ أي النبي الذي يتحدث من بطنه. كان يتنبأ بالمستقبل بفضل كائن حي يعيش بداخله، ولم يشارك سر هذه الموهبة إلا مع طلابه المتميزين، لأنه كان هناك لغز حَقًّا. لم يكن صوت الكائن الذي ادعى يوركليز أنه يعيش في صدره يأتي من بطنه، بل كان يوركليز يصدر هذا الصوت من حلقه، وهذا هو اللغز! أي إنه كان يستخدم الأحبال الصوتية. وبدلًا من أن يحرك شفتيه، كان يحرك لسانه. وأهم ما في الأمر هو التحكم في عضلات الوجه في أثناء إصدار هذا الصوت، والتحدث دون تغيير تعبير الوجه، ودون تحريك الشفتين. وقد كان رئيس الوزراء التركي الجديد ناجحًا للغاية في هذا الصدد؛ فبينما كان يتحدث من حلقه، ظل وجهه ساكنًا مثل تمثال نصفي، وكان الجميع يشاهدون الدمية في يده. في الواقع إن المتكلم من بطنه مخادع؛ لأنه في الوقت الذي يختبئ محركو الدمى من الجمهور في فنون الدمى التقليدية مثل مسرحية الظل أو العرائس المتحركة، نجد أن المتكلمين من بطنهم يقفون أمام الجميع على المسرح. ومع ذلك، فإنهم يلفتون انتباه الجمهور إلى الدمية، وبهذا يختفون تدريجيًّا من المسرح بهذا الخداع الذي صنعوه، ثم يعودون متى أرادوا ويعاودون الظهور، تمامًا مثلما يفعل رئيس الوزراء. كان بإمكانه أيضًا جعل الدمى التي في يده تقول كل شيء، ولكن حين يحين الوقت، كان بإمكانه أن يقول: «أنا لم أقل أي شيء». كان موجودًا ولم يكن موجودًا. كان مسؤولًا عن كل شيء، ولكنه غير مدرك أي شيء. كان أيضًا من نفس نوعية الديماجوجيين الذين انتقدهم أريستوفان في مسرحية الزنابير، التي تؤرخ للقضاء الأثيني الفاسد. بمعنى آخر، كان ممثلًا لتقليد قديم، ليس فقط بتشابه مع يوركليز، ولكن أيضًا مع هذا الاتجاه الديماجوجي. أصبح هذا البهلوان رئيسًا للوزراء في مجتمع سُرِقَ سنوات حين شُغِلَ بمن يقول له: «انظر إلى البهلوان!» والآن أصبح كُلٌّ من البهلوان واللص هما الشخص نفسه الذي يقول: «انظر إلى البهلوان!» وهكذا، خلق لنفسه عالمًا لا يُخطئ فيه ولا يكذب، عالمًا من الطوطولوجيا. وكل ما أراده البهلوان هو استمرار العرض. وكان ذلك بسبب أن أي أحد كان يريد سماع شيء كان يقوله له. وبهذه الطريقة، فاز في كل انتخابات جاءت في طريقه، وبقي في السلطة سنوات. على الرغم من أنه مارس قمعًا أكثر منهجية مقارنةً بالحكومة

التي انتقدها ذات يوم، فإنه لم يميز على أساس الهوية العرقية أو الطبقية. ومع ذلك، ظل على الساحة سنوات. كان الجميع متساوين في عينه ما داموا قد اشتروا تذكرة العرض. لذلك قَسَّمَ الناس إلى قسمين فقط: الذين شاهدوا عرضه، والذين لم يشاهدوه. كان هذا تمييزًا أكثر فعالية بكثير مما كان عليه في الماضي؛ لأنه كان هناك موضوع نزاع يعلو فوق الصراعات الاجتماعية القائمة، وكان هو موضوع النزاع هذا. لقد طوى المجتمع إلى نصفين مثل الورقة، وأصبح هو نفسه خَطَّ الطَّيِّ الذي يتوسط الورقة. منذ تلك اللحظة انقسم المجتمع إلى قسمين: من صَدَّقه، ومن لم يصدقه. ومثلما يرغب أي رجل مسرح، فإن الشيء الوحيد المشترك بين هذين القسمين هو: أن يتحدث عنه الحبيب والكاره على حد سواء. ولكن مع تغير الأجيال وشيخوخة العرض، اختل هذا التوازن تدريجيًا. لم يعد موضوعًا للنقاش كما كان من قبل، ولم يستطع الحفاظ على إثارة الجمهور أو النقاد. لقد سئم كلا قسمي المجتمع مبارزة الخصم نفسه سنوات، ولم يعد هذا الشخص موضع اهتمام بعد أن عرض كل حِيَلِه. كان رئيس الوزراء خائفًا جدًّا؛ لأن المجتمع الذي طواه على نفسه يمكن أن ينفتح مثل ورقة الرسالة في أي لحظة، وحينها يمكن للجميع أن يدركوا أن الجملة نفسها لها كلمات مختلفة، وهذا يعني نهاية حكمه. وقد قام بأكبر خدعه لمنع ذلك، خدعة لم يرها أحد بعد.

أولًا، قرر أن يسأل الناس من خلال استفتاء «هل هناك إله؟» ثم خرج أمام الكاميرات ليشرح الأمر. في البداية انتظر حتى يصمت الجميع، ثم أصبح وجهه مثل تمثال نصفي. وأخرج صوتًا من حلقه من دون دمية لأول مرة، مثل هؤلاء المتكلمين من بطنهم الذين جعلوا الموتى أو الأرواح المقدسة تتحدث. لقد كانت نغمة صوت لم يُسمَع بها من قبل، ولم يستخدمها قط مع أيٍّ من الدُّمى حتى ذلك اليوم. وكان ذلك الصوت الغامض القادم من العمق ببطء يقرأ القرآن، ثم يفسره. وبعد أن رأى بين الجمهور أشخاصًا يتأثرون ويبكون، تأكد من نجاح العرض، وعرض الفصل الثاني في مجلس الأمة التركي الكبير (البرلمان التركي). بعد ثلاثة أيام، صعد إلى المنصة في قاعة الجمعية العامة وغنى النشيد الوطني بصوت يخرج من حلقه. وفي هذه المرة أيضًا كان من بين الحضور نواب لم يتمالكوا أنفسهم من الحماس، وأُغْشِيَ عليهم. وبينما كان أصدقاؤه يحاولون إيقاظ هؤلاء النواب، أعلن رئيس الوزراء

أنه سيتم إجراء تغيير في قانون العقوبات، وقال إن الجمهور يطالب بهذا التغيير منذ عقود. وقال إنه سيتم إعادة عقوبة الإعدام على الرغم من أنها ضد المعاهدات الدولية التي تركيا طرف فيها. وحينها أغشي على بعض النواب الذين استيقظوا للتو مرة أخرى، ولكن أغشي عليهم من السعادة هذه المرة.

حين كان يجلس على الجانب الآخر من ضمير في قصر الأمم في جنيف، لم يكن يعلم بالطبع أنه سيكون قادرًا على أداء مثل هذه الحيل الفعالة في المستقبل؛ لأنه لم يستطع أن يكشف سر أعظم عرض وهمي يمكن أن يفعله متحدثًا من بطنه. وقد كان هذا السر هو القيام بالعرض من دون دمية. وحينها سيحدد الجمهور القوة الغامضة التي ينتمي إليها الصوت المرتفع من داخل الرجل المتكلم من بطنه. وبالتأكيد... حقًّا بالتأكيد سيكون هناك من يعتقد أن المتحدث هو الإله. عندها سيُنسى أن رئيس الوزراء كان متكلمًا من بطنه شهيرًا قبل توليه منصبه هذا، وربما يُعتَقَد أن هناك كائنًا غامضًا يعيش في صدره. كان هذا أكبر عرض. بدأ حياته السياسية مُحَرِّكًا للدُّمَى، واستمرَّ في دور بوركليز الأثيني.

قال ضمير متسائلًا: «هل يمكنني أن أطلب منكِ شيئًا أيضًا؟»

قالت السيدة العجوز التي في يد رئيس الوزراء: «طبعًا يا صغيري».

- هل يمكنني الحصول على دمية من دمى يا معالي رئيس الوزراء؟

هبت ريح همس مرة أخرى في الغرفة، ولكن هذه المرة كانت الريح قوية بعض الشيء. أراد وزير الخارجية التدخل: «ضمير، يا ابني، الآن...»

قاطعت العجوز كلام الوزير: «وماذا ستفعل بدمية رئيس الوزراء يا بني؟»

- سأحتفظ بها ذكرى. حتى إنني ربما أتعلم الكلام من البطن مثل سيادة رئيس الوزراء، وحينها سأجعل الدمية تتكلم.

حينها تدخل وزير الخارجية مرة أخرى: «بالطبع سيكون الأمر رائعًا، ولكن ليس من الممكن لأي شخص آخر أن يتحدث بدمية رئيس وزرائنا بحكم منصبه. لنمنحك هدية أخرى».

كان رئيس الوزراء والدميتان يحدِّقون بثبات إلى ضمير.

ثم تكلم الرجل العجوز الدمية: «انتظر يا سيد سليم! أولًا دعنا نسأل أخانا ضمير... لنفترض أن في يدك إحدى دمى رئيس الوزراء، ماذا ستجعلها تقول؟»

بالطبع لا بد أن يكون رئيس الوزراء فاشيًّا، حيث لا يمكن لأحد معارضة أفكاره السخيفة. فكر ضمير البالغ من العمر 17 عامًا في ذلك وواصل كلامه: «أيها المواطنون الأعزاء، نعم، ربما أكون دمية، ولكن الكوميديا عملٌ جاد. إنها عمل جادٌّ جدًّا. إن أي شخص لا يبتسم لي هو خائن! أي شخص لا يضحك عليَّ سوف يُلقى في السجن!»

بدأ إعجاز يضحك عندما سمع الترجمة، في حين أعطى رئيس الوزراء حاشيته الدُّمَى، ولم يعد يبتسم، حتى إن وجهه عبس كالأطفال. على الرغم من أنه جعل الملايين من الناس يضحكون، لم يكن في حاجة إلى إجبار أي شخص على الضحك؛ لأن إجباره للناس على الضحك كان بمكانة إهانة لموهبته في المقام الأول! على الرغم من أنه كان واضحًا من نظرات رئيس الوزراء الغاضبة أنه يفكر في ذلك، فإن هناك شيئًا لم يدركه. لقد تكهن ضمير بشيء عن غير قصد. وعلى النقيض من معظم المتكلمين من بطنهم في الماضي الذين ادَّعَوا أنهم كهنة ويؤثرون على الملوك، فإن تَكَهُّنات ضمير كانت صحيحة، حتى إنه رأى المستقبل أفضل من وسائل الإعلام الأوروبية والأمريكية التي قدمت له كل دعمها عندما سمعت أن فنان مسرح معارضًا سوف يدخل السياسة. وعلى كل حال، فإن الوصول إلى السلطة من خلال انتقاد حكومة قمعية لا يعني أن تكون ديمقراطيًّا. وكما تنبأ ضمير، بعد سنوات قليلة مارس رئيس الوزراء قمعًا شديدًا على جميع المعارضين في البلاد، ووصف كل من لم يضحك له بأنه خائن للوطن. وهكذا، فإن أول ما فقده هو دعم الإعلام الأجنبي الذي أثنى عليه يومًا ما. ولأنه كان مستبدًّا شعبويًّا، كان من السهل جدًّا خداعه. وعلى الرغم من أنه كان مدعومًا من قبل الولايات المتحدة الأمريكية في البداية، فإنه قد ساءت علاقاته مع البيت الأبيض بعد بضع سنوات للسبب نفسه؛ لأنه بصفته مستبدًّا شعبويًّا، كان عليه أن يوسع شعبيته إلى أبعد الحدود من أجل جعل الشعب ينسى المشكلات التي لم يستطع حَلَّها في البلاد، ولكي يستطيع الفوز بالانتخابات. لهذا السبب قام

بتقليد السياسة الخارجية العدوانية للولايات المتحدة الأمريكية، المستعمر الأكبر لهذا العصر، وبدأ في تنفيذها في الشرق الأوسط. وقد نفذ هذه السياسة بحذافيرها، لدرجة أن الموازين السياسية في البلاد انقلبت رأسًا على عقب. على سبيل المثال، تحالفت بعض أحزاب المعارضة التي تدعي أنها يسارية مع المحافظين المتطرفين المناهضين للنظام الساري في الولايات المتحدة الأمريكية، والذين صوتوا يومًا ما لرجل يُدعى ترامب. وكما عارض هؤلاء الأمريكيون السياسات الرسمية للحكومة الفيدرالية، فقد انتقدوا بالكلمات نفسها تقريبًا العمليات العسكرية اللامتناهية في الخارج، وضعف أمن الحدود، ووجود مهاجرين يعبرون تلك الحدود. ومثلما ادعى هؤلاء الأمريكيون اليمينيون المتطرفون وجود أفراد عصابة MS13، وهم قتلة ومغتصبون من المهاجرين المكسيكيين، كان المتحدثون باسم تلك الأحزاب في تركيا يقولون إنه من بين السوريين والأفغان الذين دخلوا البلاد كان هناك مرضى نفسيون من الأعضاء السابقين في جيش الشهادة السوري أو جيش طالبان الأفغاني. ومع ذلك فإن هذا الحلم التركي لرئيس الوزراء لم يدم طويلًا، لأنه نسي شيئًا. إذا احتلت الولايات المتحدة الأمريكية دولة ما، فإن هذا سيُعتَبَر تدخلًا إنسانيًّا في نظر الأمم المتحدة، وإذا فعلت دولة أخرى الشيء نفسه، فإنه سوف يُعتَبَر جريمة ضد الإنسانية. لذلك فإن سرقة المسرح من الولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الأوسط أمر لن يقبله الرأي العام الدولي. ولم تتخلَّ تركيا عن سياستها الخارجية الشبيهة بالولايات المتحدة رغم تحذيرها مرات عديدة؛ ولذا تعرضت لحظر اقتصادي للمرة الثانية في تاريخها بعد الحظر الذي تعرضت له بسبب غزو قبرص. وكانت الولايات المتحدة هي من بدأت الحظر. بعد فترة، التزم الاتحاد الأوروبي قرار الحظر هذا. وعلى عكس الأمريكيين، كان الأوروبيون يَدَّعون دائمًا أنهم يهزون مهد الحضارة منذ قديم الأزل. لذلك بدؤوا في تطبيق الحظر بعد أن أوضحوا أنه يعني معاقبة الشعب التركي وليس الحكومة، وبالتالي فهو إجراء متطرف. وكقوة حضارية، اعتذروا أولًا، ثم أطلقوا النار.

وهكذا دخلت تركيا حقبة جديدة. ربما كانت هذه هي نية رئيس الوزراء منذ البداية. فالتفت إلى شعبه وقال له: «أرأيتم؟ كنتُ قد أخبرتكم! إن العالم يكرهنا!» وكان هناك مثال قريب جدًّا من تركيا، وهي جارتها إيران. كان نظام

دولة إيران نظامًا قمعيًّا، يستمد قوته الحقيقية من الحصار والنقد الخارجي. ربما كان رئيس الوزراء يفكر: لماذا لا تكون تركيا مثل إيران منطوية وتعيش في سعادة دائمة؟ على الأقل كان يجب أن تحاول. ولأنه لا يستطيع المخاطرة بخسارة الحكم والسلطة. كان على يقين من أنه في مثل هذه الحالة سيُحاكَم ويُسجَن. لقد بنى هرمًا برونزيًّا عملاقًا في غضون سنوات، وأجبر الجميع -بداية من الشباب الذين أرادوا العثور على وظيفة، وحتى رجال الأعمال الذين أرادوا الحصول على مناقصة في المطار- أن ينضموا إلى سلسلة السعادة هذه. ونتيجة لذلك، زاد عدد أعضاء الحزب الحاكم بشكل غير عادي، وتجاوزت نسبة هذا العدد إلى عدد سكان البلاد، وحتى نسبة الحزب الشيوعي الصيني. ففي حين كان كل 15 شخصًا في الصين يمثلهم عضو في الحزب، فإن المعدل في تركيا كان: كل 7 أفراد يمثلهم عضو في الحزب، حيث كان من الضروري دعم رئيس الوزراء من أجل البقاء أحياء اقتصاديًّا. وفي مثل هذا النظام الاجتماعي الفاسد الذي كانت فيه جميع العوامل المؤثرة من القضاء إلى وسائل الإعلام تحت تصرف رئيس الوزراء، كان يدخل جيبه ما لا يقل عن 5 سنتات من كل ليرة تركية. وكان من الواضح أنه لن يكون لدى أي شخص جيب كبير بما يكفي ليسع هذا القدر الكبير من المال. لذلك كان رأي رئيس الوزراء أنه يجب أن يحول تركيا إلى خزانة خاصة به. لذلك كان منطقيًّا أن تغلق الدولة أبوابها ونوافذها كما فعلت إيران. بالطبع ستكون البلاد خانقة بعض الشيء، ولكن على الأقل أموال رئيس الوزراء وسلطته ستكون آمنة. بالإضافة إلى ذلك، مثلما كان الإيرانيون قادرين على تحمل الحظر سنواتٍ عديدة، يمكن للأتراك أن يعتادوا هذا الوضع الجديد. وفي هذا الصدد، أدلى رئيس مجلس الوزراء بالبيان التالي -أدلى به يوم إعلان الحظر-:

«لا يجب أن يقلق أحد! لن نواجه أبدًا مشكلة في توفير الأدوية والغذاء. نعم، ربما ستُقَيَّدُ تجارتنا مع الخارج، ولكن صدقوني، ستكون تركيا أكثر سعادة؛ لأنه الآن سينتهي شجار المعارضة مع الحكومة، وسنكون يدًا واحدة كأمة بأكملها. وسنكون كالجسد الواحد ضد أعدائنا الذين يريدون إخراجنا من العالم، وسنبدو كالجبل الشاهق! وحينها سيفهم الجميع أن العالم من دون تركيا هو مسرح فارغ! وسيرفعون هذا الحظر عاجلًا أو آجلًا. ولكن بعد ذلك سنقرر: هل نريد التجارة معهم؟ ربما هذه المرة سنحظرهم نحن! لا

أعلم، هذا أمر غير معروف حاليًّا. ولكن الشيء الوحيد المؤكد هو أننا مكتفون بأنفسنا! حتى إننا نكفي بعضنا وزيادة!»

بعد سنوات، كان سيقول هذه الكلمات بالضبط، حتى إنه كان سيقول أشياء أخرى، ويلقي أطول خطاب في حياته السياسية. ولكنه لم يكن كثير الكلام في ذلك اليوم؛ حيث كان جالسًا على الجانب الآخر من ضمير في الغرفة ذات السقف المرتفع. أو بالأحرى، لم يعد الأمر كذلك، لأن قهقهة إعجاز التي أطلقها بعد ما سمعه من ضمير هزت غروره المرهف. وفجأة، انزعج رئيس الوزراء من الجميع. في الواقع، كان هذا السلوك نذيرًا للعلاقة التي سيقيمها مع الشعب في المستقبل.

كان سيعامل الشعب الذي خدمه نظريًّا، ولكنه سحقه عمليًّا، وأعضاء الحكومة التي يترأسها كأبوين نرجسيين. على سبيل المثال، كان أحد الأبوين المصاب بمتلازمة مانشهاوزن قد تظاهر بالمرض من أجل أن يكون مركز الاهتمام، وكان يدعي أنه دائمًا في خطر ومُستَهدَف، وسيكون كل يوم يقضيه من حياته يومًا حساسًا. وهكذا، كان المقربون من رئيس الوزراء يخفون عنه بعض التطورات السلبية، ويقولون حين الوقت المناسب: «أوه، دع رئيس الوزراء لا يسمع هذا، سيكون مستاءً للغاية! نحن نمر بأيام حساسة بالفعل!» بالإضافة إلى ذلك، سيعوق هذان الأبوان النرجسيان تطور أطفالهما كي يظلوا معتمدين عليهما دائمًا؛ أي إن رئيس الوزراء هذا سيزيد المساعدات الاجتماعية بدلًا من تقليل البطالة في البلاد. وحين يحين الوقت المناسب، سيُظهِرُ هذه المساعدات للناس ويقول لهم: «إذا صَوَّتَّ لشخصٍ آخر، فحرامٌ عليك حليبي!» وعندما تتحدث عن المعارضة، تكون وكأنك تتحدث عن الأمهات اللائي يجعلن الأطفال يحقرون من شأن آبائهم، بل ويجعلن الأطفال يخافون منهم. لذلك كان الناس دائمًا يبقون هذا الأب الشرير خارج المنزل، ولا يصوتون له قط. وبالطبع كانت هؤلاء الأمهات يميزن بين أبنائهن، ويُظهِرنَ اهتمامًا مفرطًا بأحد أبنائهن، بينما ينتقدن باستمرار الآخرين ويعادينهن. وهكذا، كانت الدولة التي هي أشبه بهذا المنزل يسودها صراع لا ينتهي من شأنه أن يخلق بيئة من المنافسة. وفي النهاية لن يهتم الأب أبدًا إذا كان أطفاله يعانون من الجوع، أو كانت المياه تنفد من المنزل؛ لأنه كان يفعل كل شيء ليبدو حسن

المظهر وأنيقًا وثريًا. سوف يُولَع عشرات الملايين من الناس بهذا النمط من السلوك، ويرون رئيس الوزراء على أنه والدهم أو والدتهم. وهكذا، فإن العلاقة بين الحكومة والفرد –التي كان ينبغي أن تقوم على المنطق– ستتحول إلى علاقة عاطفية، وسيكون هناك أفراد من الشعب لا يستطيعون التصويت للمعارضة لأنهم سيشعرون أنهم بهذا يخونون والديهم.

في الحقيقة يمكن لرئيس الوزراء أن يدخل التاريخ بصفته مراقبًا رائعًا للمجتمع. وبصفته رجل مسرح راقب الناس سنوات، وجعل انطباعاته هذه موضوع عرض، فقد أدرك أن بنية الأسرة في تركيا أنتجت أشخاصًا بالغين ظلوا أطفالًا. حتى إن هؤلاء البالغين الذين ظلوا أطفالًا يشكلون غالبية السكان. ولكن هل يُطلق على الدولة اسم «الأب» في تركيا؟ إن هناك شيئًا ناقصًا. إن هؤلاء البالغين الذين ظلوا أطفالًا كانوا في حاجة أيضًا إلى أم. ولقد امتلأ هذا الفراغ بالحكومة الأم، وخلق شخصية خنثى فقط للمشهد السياسي. وبالتالي، يمكن أن يقوم بدور الأم كل من الحكومة والدولة؛ تتصرف كأم حانية، أو أب سلطوي، حسب الموقف. ولكن سلاحه الأكبر هو الاستياء والغضب؛ لأنه بصفته نرجسيًّا، كان يعتقد أن العقوبة الأكثر فعالية التي يمكن أن يفرضها على الناس هي حرمانهم منه. لا بد أنه كان كذلك، لأنه على الرغم من جلوسهما على الطاولة نفسها، فإنه لم يعد ينظر إلى وجه ضمير بعد. ولم يترك الغداء ينتهي، وأوقف الغداء عند شرب الحساء، ونظر إلى حاشيته وقال لهم: «دعونا لا نبقي الطفلين أكثر من ذلك، وندعهما ينصرفان!» ووَقَّعَ الشَّابَّان على وثيقة الموافقة على لعب دور الدمى وغادرا الغرفة.

في أثناء سيره في الممر الطويل، تمتم إعجاز بالإنجليزية: «هذا الرجل مجنون!»

هز ضمير رأسه وقال: «هل تشرب الكحول؟»

أخرج إعجاز علبة سجائر من جيبه وأظهرها.

- لندخن سيجارة أولًا.

- ولكن بقي على انتهاء فترة الاستراحة عشرون دقيقة فقط. وإذا غادرنا المبنى لتدخين السجائر، فإننا سوف نتأخر على الاجتماع.

قال إعجاز: «لا تقلق. تعالَ معي».

عندما اقتربا من نهاية الممر، ارتفعت أصوات الأزيز القادمة من غرفة الطعام. وفي أثناء عبورهما الباب المفتوح للقاعة، رأيا أشخاصًا يجلسون حول طاولات مستديرة ويتحدثون في انسجامٍ تام. أولئك الذين تحدثوا عن الجوع في مناطق الحرب قبل ساعة، كانوا يجذبون أذرُعَ النُدُلِ المارة بجانبهم لطلب أطباق الحلوى الثانية. وبغض النظر عن الموضوع، كانت فترات استراحة الطعام الممنوحة في مثل هذه الاجتماعات -التي استمرت طوال اليوم- متشابهة دائمًا مع بعضها بعضًا. وحتى الظهر، لم يكن هناك من فقد شهيته، سواء كان الحديث عن الجنود الأطفال، أو الاغتصاب الجماعي في منطقة محتلة. على الرغم من أنهم يغادرون قاعة الاجتماعات بخطوات بطيئة، فإن الخطوات نحو غرفة الطعام تتسارع. وكان السؤال الوحيد في أذهانهم في تلك اللحظة هو: هل هناك بوفيه مفتوح؟ أم إن الطعام سيُقَدَّم على الطاولات؟ وكان أولئك الذين دخلوا قاعة الطعام أولًا يحلون هذا اللغز العظيم وينتشرون وفقًا لذلك. إذا كان هناك بوفيه مفتوح، فالغرض الوحيد هو الحصول على طبق والوقوف في الطابور، أما إذا كان النُدُلُ هم من سيقدمون لهم الطعام، فإنهم ينتظرون بعض الوقت ليشاهدوا من سيجلس، وعلى أي طاولة. بعد ذلك، يتخذ كل منهم الخطوة الصحيحة في الوقت المناسب ليجلس على الطاولة نفسها مع شخص معين للتعارف، أو لمواصلة صفقة غير منتهية. كل هذا كان جزءًا من سياسة الغداء. ولكن أساس هذه السياسة كان دائمًا ثابتًا، وهو الشبع قدر الإمكان -بغض النظر عن موضوع الاجتماع- والتحدث بقدر الأكل. وكان ضمير يفكر قائلًا: إذا كان الجميع يتحدثون، فمن يستمع؟ وكان ضمير يتبع إعجاز. لقد كانا يتنقلان من ممرٍّ إلى آخر ويمشيان بسرعة. كان إعجاز يعرف بالضبط إلى أين يذهب وكأنه في منزله، على الرغم من أنها كانت المرة الثانية فقط له في قصر الأمم؛ حيث كان قد ألقى خطابًا في قاعة الجمعية العامة قبل عامين، ثم بحث عن مخرج طوارئ قريب لتدخين سيجارة في أسرع وقت ممكن. والآن كان يأخذ ضمير إلى الباب الذي وجده قبل عامين.

قال له ضمير: «أهنئك على هذا! لو كنتُ أنا، بالتأكيد ما كنتُ سأتذكر!»

ضحك إعجاز وأجاب: «إذا ذهبتُ إلى مكان مرة واحدة، فإني لا أنساه أبدًا!»

وبعد فترة، خرجا من قاعات القصر التي تشبه المتاهة، ووجد إعجاز الباب. كان مكتوبًا على الباب «للطوارئ فقط». ما الذي يمكن أن يكون طارئًا أكثر من تدخين سيجارة؟ فتحا الباب وغادرا. فقط عندما كان على وشك الإغلاق والقفل، وضع إعجاز قدمه أمام الباب، ومَدَّ علبة السجائر إلى ضمير. كانت تلك الأيام الجميلة عندما كان لا يزال بإمكانه التدخين!

كانا يقفان في فناء صغير، وفي الأمام قليلًا كان هناك سلم حجري ضيق ينحني إلى أسفل. لا بد أن هذا الدرج يؤدي إلى المدخل الرئيسي للمبنى. اشتعلت السجائر، وتلاقت الأعين بعد الأنفاس الأولى. هَبَّ نسيمٌ خفيف، وسُمِعَ صوت موسيقى من بعيد.

قال إعجاز: «هناك مهرجان».

قال ضمير: «نعم، سيبدأ قريبًا».

التقطا الأنفاس الثانية والصمت يسود الأجواء. أولًا نظر إعجاز إلى الاتجاه الذي تأتي منه الموسيقا، ثم نظر إلى ضمير.

- لقد كنتَ تعمل في هذا المجال منذ ولادتك، أليس كذلك؟

- أجل.

ثم صمتا مرة أخرى، ونظر ضمير إلى إعجاز بطرف عينه. لم يكن يشبه أي شخص يعرفه. وفي البداية، كان إعجاز يحدق بأريحية إلى وجه ضمير المشوه. كان هناك نوعان من الناس الذين ينظرون إلى وجه ضمير المشوه: النوع الأول من يستطيعون النظر إليه، والنوع الآخر من لا يستطيعون تحمله فينظرون بعيدًا. وبطبيعة الحال، كان الأطباء وجاسينتا من النوع الأول. ولكن على سبيل المثال، كانت جينا لا تزال تواجه صعوبة في النظر إلى وجه ضمير، على الرغم من وجودهما معًا طوال هذه السنوات. حتى إنها طورت طريقة للنظر إلى وجهه: كانت تنظر مباشرة إلى عيني ضمير، وتحاول ألا ترى أي شيء من وجهه سوى عينيه. ومع ذلك، كانت هناك أوقات تسأم من النظر إلى عينيه، وتنجرف نظراتها إلى الفضاء. وكان ضمير بالتأكيد يُدرك

تلك اللحظات. ومع ذلك، فإن إعجاز –الذي كان قد تعرف إلى ضمير للتو– لم يكن لديه رد الفعل العكسي هذا، ونظر إلى ضمير كما لو كان له وجه غير مشوه، ولم يكن منزعجًا على الإطلاق مما رآه. وعلاوة على ذلك، كانت طريقة كلام إعجاز وعلاقته بالمحيطين به مختلفة؛ كانت تصرفاته ناضجة أكثر من أقرانه الذين تعرف إليهم ضمير. كانت طريقة تدخينه، والطريقة التي يضع بها قدمه في المدخل أمام الباب، والطريقة التي نظر بها بعيدًا في صمت، وكل ما يفعله يُظهِرُ أنه واثق من نفسه. وتجلت ثقته بنفسه في الطريقة التي صعد بها إلى المنصة لإلقاء خطابه، وفي الطريقة التي سار بها في الممرات وكأنه يمتلك العالم. في الحقيقة كان يبدو كشخص يبلغ من العمر 1000 عام، يعرف العالم مثل راحة يده.

في تلك اللحظة، اعتقد ضمير أن إعجاز حل لغز الطريقة التي يمكن أن ينظر بها إلى وجهه دون ضجر. لا بد أن إعجاز رأى مثل هذه الأشياء التي لم يبقَ منها شيء يجعله يتقيأ أو يخاف حين ينظر إلى وجه ضمير. ربما لم يكن يتذكر أيًّا منها، ولكن ما عاناه في تلك الليلة التي شارف فيها على الموت لا يزال محبوسًا في مكان ما في زنزانته الخاصة. ربما رأى والدته تغرق، ربما كان يبحث عن والده في المياه المظلمة. ولكن كل ما وجده هو أشعة القمر اللامعة على سطح البحر من حوله وهو يطفو في البحر.

- ألم تشعر بالملل؟

- ها؟

ولأن ضمير كان يفكر في إعجاز، لم يسمع ما قاله إعجاز.

- ألم تسأم من المجيء إلى هذه الأماكن؟

- سئمت! وضِقتُ ذرعًا بها لدرجة أنني أريد الهروب والذهاب بعيدًا.

- هل أنت متأكد؟

- وأنت، كيف؟ كيف تتحمل هذا؟

- أرسم.

- أعرف. رأيت رسوماتك الشهيرة.

- لا، لَستُ أعني هذه الرسومات. هناك رسومات رسمتها لنفسي فقط. أرسم رسومات لتوائم متطابقة.

- هل يشبهون بعضهم تمامًا؟

- لا، ليسوا كذلك في الواقع. بالتأكيد هناك اختلاف في وجوههم.

- أليس هناك ألغاز على هذه الشاكلة؟ ألغاز تتطلب معرفتك الاختلافات بين الصورتين.

- إنها تمامًا مثل هذه الألغاز... أحاول إيجاد الفرق بين التوائم.

كان ضمير ينظر إلى إعجاز بدهشة وهو يسمع هذا، وكان يعتقد أنه شخص غير عادي. ولكن السؤال الذي كان يدور في ذهنه كان مألوفًا بشكل محرج: «لماذا لا تلتحق بالجامعة؟»

- لأنني لا أهتم بذلك.

- حسنًا، ماذا ستفعل؟ هل سترسم؟

- لا، لا. لا أهتم بهذا أيضًا. كما قلت لك، كنتُ قد جِئتُ إلى هنا منذ عامين، وكنت أدخن سيجارة هنا حين جاءني رجل وطلب مني سيجارة. بدأنا الحديث، وأخبرني أنه يعمل في مؤسسة.

- مؤسسة خيرية؟

- لا، مؤسسة سلام. المؤسسة الأولى للسلام العالمي، ومقرها هنا. لقد كان يعرفني، وسألني: هل تفكر في العمل في مؤسستنا في المستقبل؟ فسألته: ماذا تفعلون؟ قال: نحن نمنع الناس من قتل بعضهم بعضًا.

- تبدو وكأنها وظيفة مثيرة للاهتمام.

- نعم. سأذهب لمقابلة الرجل غدًا. ربما سأبدأ العمل هناك. وأنت، ماذا ستفعل؟

- أنا أيضًا ذاهب إلى بروكسل. سأبدأ دراسة في الجامعة هناك.

- ألا تريد البقاء في نيويورك؟

- لا، مستحيل!

- لماذا؟

- لأنه أينما نظرتُ أجد جمعية خيرية! جمعيات خيرية في كل مكان! والآن أصابني الغثيان من كل هذا. هل تعلم ماذا يُكتَب حتى تحت تمثال الحرية؟ قصيدة تبدأ بعبارة أعطني المتعبين والفقراء. ولكن ليس لديهم حتى نظام ضمان اجتماعي صادق! لأن أمريكا عبارة عن عملية احتيال عملاقة. أعطني المتعب والفقير وسأكون غنيًّا على ظهرهما! هذه هي القصة. لهذا السبب أشعر بالملل الشديد من نيويورك.

- لكن هذا موجود في كل مكان!

- نعم، ولكن...

صمت ضمير هنيهة وفكر، ثم قال: «في الحقيقة أعتقد أنك على حق؛ لا يوجد مكان للهروب. الدفة نفسها تدور في جميع أنحاء العالم، لأن هذه هي طريقة تفكير الإنسان. بل إنها تنعكس في اللغة التي يتحدث بها. على سبيل المثال، توجد كلمة في اللغة التركية تسمى صدقة، وتوجد كلمة أخرى مشتقة من هذه الكلمة في اللغة التركية، وهي كلمة الصداقة (الإخلاص). هل يمكنك أن تتخيل؟ الصدقة والصداقة لهما المصدر اللغوي نفسه. برأيك، لماذا؟ لأنه إنْ كنتَ تريد أن يظل شخص ما مخلصًا لكَ، فسوف تمنحه الصدقة! ولكن أول شيء عليك القيام به هو جعل الناس في حاجة إلى الصدقة! علاوة على ذلك...»

كان على ضمير أن يصمت؛ لأن هاتف إعجاز رن. نظر إعجاز أولًا إلى شاشة الهاتف الذي أخرجه من جيبه الخلفي، ثم أومأ إلى ضمير لكي يمسك بالباب. وبدأ إعجاز يبتعد دون أن يفتح الهاتف. ونظرًا إلى عدم وجود متسع كبير يمكنه الذهاب إليه في هذا الفناء الصغير، نزل من السلم الحجري واختفى عن الأنظار. توقف ضمير عدة دقائق وفكر، وقال في نفسه: يا ليتني كنتُ التقيتُ إعجاز من قبل. على الأقل سيكون لديه صديق يمكنه مشاركة أفكاره معه ويفهمه لأنه وقع في الفخ نفسه الذي وقع فيه هو. على الرغم من أنه لم ينسجم جيدًا مع أسما، التي كانت تعاني من سرطان الدم، والتي التقاها في إسطنبول عندما كان طفلًا، فإنه شعر بالقرب من إعجاز. لم يكن يريد العودة إلى غرفة الاجتماعات بعد الآن، وكل ما كان يريده هو أن يقضي اليومين الذين يمكثهما في جنيف مع إعجاز. كانا سيتحدثان ساعات،

وسيكونان مرتاحين تمامًا، وذلك لكونهما متفقين على حماقة حياتهما التي يعيشانها. كانا سيتحدثان عن مدى شعورهما بالوحدة لأنهما لم يشعرا بأنهما ينتميان إلى أي مكان، وكانا سيشاركان بعضهما سلام هذه اللحظة النادرة من الصدق، وذلك لكونهما اعتادا الكذب على المحيطين بهما طوال اليوم. كانا سيفرغان كل مشاعر الغضب والإحباط التي تراكمت لديهما على مر السنين، والأهم من ذلك أنهما كانا سيفهمان بعضهما بعضًا.

كان مجرد تفكير ضمير في كل هذه الاحتمالات وهو يمسك باب مخرج الطوارئ يجعله يشعر بالراحة. كان يهز رأسه ببطء على إيقاع الموسيقى القادمة من شاطئ بحيرة ليمان، ويحلم بمحادثات مع صديقه الجديد وعيناه غائمتان. في ذلك الوقت ظهر إعجاز وهو يصعد درجات السلم. توقف عند بداية السلم ونظر إلى ضمير، ولسبب ما لم يقترب أكثر من ذلك. كان يبدو وكأنه سيستدير في أي لحظة. كان الهاتف لا يزال في يده. في تلك اللحظة أدرك ضمير أن هذا الشخص الذي أمامه لا يشبه إعجاز الذي كان يعرفه منذ ساعة. على الرغم من أنه كان هو نفسه، فإنه أصبح الآن شخصًا مختلفًا تمامًا. اختفت تلك الحدة التي كانت في سلوكه، والثقة التي كانت في عباراته. ذهب ذلك الشاب الناضج وحل محله صبي، طفل لا يعرف ماذا يفعل أو إلى أين ينظر. لهذا كان ينظر إلى بعيد وليس إلى وجه ضمير حين كان يتحدث.

- أنا ذاهب.
- إلى أين؟
- لا أدري.
- ولكن الاجتماع سيبدأ الآن.

وعندما لم يُجِبه إعجاز، أشار ضمير إلى الهاتف المحمول الذي بيده وسأله: «ماذا حدث؟ هل تلقيتَ أخبارًا سيئة؟»

لم يجب إعجاز مرة أخرى، وصمت قليلًا، ثم قال: «أراك لاحقًا». وبدأ في نزول السلم، واختفى عن الأنظار تدريجيًّا. كان من المقرر أن يصعد ضمير إلى المسرح بعد الظهر. كان سيصعد إلى المنصة أمام رئيس الوزراء مباشرةً ويروي قصته للمرة الألف. وعلى الرغم من أنه تمنى بكل كيانه في تلك اللحظة أن يتبع إعجاز، فإنه لم يستطع ترك باب مخرج الطوارئ. نعم، ربما

إنه حتى ذلك اليوم قد أهان كثيرًا من الناس، وسخر منهم، وتشاجر معهم، ووضع جاسينتا -على وجه الخصوص- في مواقف صعبة للغاية ولم يهتم على الإطلاق، حتى إنه غرس مقصًا في ساق متطوعة في المؤسسة تدعى آمي عندما كان طفلًا! ولكنه لم يكن ليهرب من مهمة مكلف بها. بغض النظر عن مدى الانزعاج الذي يشعر به قبل قيامه بذلك وبعده، فإنه يصعد دائمًا إلى المنصة، أو يخرج أمام كاميرات ويتحدث باسم مؤسسة الكل للجميع، ويفعل ما ينبغي له فعله. لقد تصرف ضمير بمهنية في هذا الأمر لدرجة أن المؤسسة لم تتخل عنه رغم كل سلبياته. لقد كان مثل النجم الذي أثار الرهبة في الكواليس، ولكنه أدهش الجميع عندما صعد إلى المسرح. ولهذا السبب تحديدًا كانت المؤسسة تتغاضى عن أفعاله الإرهابية. لذلك، إذا لم يحضر الاجتماع وذهب خلف إعجاز، فإن هذا التوازن سيختل. كان ضمير على علم بكل هذا في تلك اللحظة. يمكنه أن يفتح باب مخرج الطوارئ الذي أبقاه مواربًا ويدخل المبنى ويستمر كل شيء من حيث توقف، أو يمكنه أن يفسد كل شيء في لحظة واحدة مثل طفل ساذج يريد الهروب من المنزل. وكان ضمير يُعتبر طفلًا، رغم أنه لم يكن واضحًا من وجهه المشوه. ومثله مثل كل طفل، كان في حاجة إلى زميل يشاركه اللعب.

لذا ترك ضمير باب مخرج الطوارئ يُغلق ببطء، وركض نحو السلم الحجري وصاح: «انتظرني! أنا قادمٌ أيضًا!»

عندما سمع إعجاز صوت ضمير، وقف في الحديقة عند نهاية السلم ووضع الهاتف في جيبه، واجتمعا ولم يتكلما. فقط سارا تجاه الموسيقى.

29 من ديسمبر

سأستيقظ... أستيقظ... استيقظتُ!

لحظةً لم أستطع استيعاب مكان وجودي، ولكن بعد أن رمشتُ بعيني بضع مرات، تذكرتُ إلى أي بناء وأي مدينة وأي كوكب ينتمي السقف الذي فوقي. لقد كنتُ في منزل كريستيل في كنوكه هايست، في عالم يختبئ فيه الناس في الكهوف من الخوف. حتى إنني تذكرتُ شيئًا آخر: سأُصاب بالجنون إن لم أنم.

كل ما تبقى هو معرفة عدد الساعات التي نِمتُها. أدرتُ رأسي ونظرتُ إلى الكومود. كان هاتفي هناك. مددتُ يدي وأخذته، ولكن الأمر لم ينجح، فلقد كانت بطاريته فارغة. عندئذٍ كان عليَّ أن أنهض لأجد إجابة عن سؤالي. استلقيتُ على هذا السرير في أول المساء. هل أصبح الوقت ليلًا الآن؟ أم في اليوم التالي؟ في أثناء نهوضي، خطرت لي فكرة، لأنني شعرتُ بألمٍ حاد في أسفل ظهري. لا بد أنني نِمتُ من دون حركة فترة طويلة. بالإضافة إلى ذلك، كانت شفتاي جافتين. وفي أثناء سيري باتجاه النافذة الكبيرة المُغطاة بستائر مخملية تشبه جدارًا سميكًا، كنتُ أخشى أن أكون قد نِمتُ أيامًا؛ لأنه كان لدي الكثير من العمل الذي عليَّ القيام به، والكثير من الأماكن التي عليَّ الذهاب إليها، وإذا تأخرتُ عن كل هذا لأنني نمت...

توقفتُ في تلك اللحظة وفكرتُ: آملُ في ذلك. ليت ذلك يكون قد حدث! خوفي من التأخر على الأماكن تحول فجأة إلى شعور مختلف تمامًا، أقرب إلى الأمل. إذا نِمتُ وهربتُ من المستقبل بسبب ذلك، فإن ذلك سيكون رائعًا! فبهذا سيكون المستقبل في الماضي، وسيتم إغلاق الأمر بالنسبة إلي. سيُغلَقُ

تمامًا، لدرجة أنني سأعود إلى المنزل وأبدأ في العزف على التشيللو، ولا أفعل شيئًا آخر.

سَحَبتُ الستائر على الجانبين بكلتا يدي، والتقيتُ منظر بحر الشمال الرمادي الذي يمتزج مع السماء الرمادية. إنه اللون نفسه الذي رأيته من نافذة غرفة المعيشة عندما دخلتُ المنزل أول مرة، لا أغمق ولا أفتح. وكأن الوقت لم يمر قط. ومع ذلك، فإن الليالي التي لم يتغير فيها المنظر قط ولم تغرب الشمس فيها كانت موجودة أكثر في الشمال. وما حدث هنا كان مختلفًا، فمثلما يوجد بحر أصفر -تمامًا مثل اسمه- بين الصين وكوريا الجنوبية، والسماء تبدو كصحراء هناك، كانت هنا السماء مثل نهرٍ جليدي فوق بحرٍ رمادي. ولن يذوب هذا النهر الجليدي ولن تظهر الشمس، لذلك لم تكن لتعمل الساعة الشمسية هنا قط. لقد كنتُ في مثل هذه البقعة من العالم حيث لم يكن هناك ظل، لهذا كانت كل الأشياء مثل الظل، وعلى رأسها البشر. من لم يكن له ظل كان يتحول إلى ظل.

كان هناك بابان في الغرفة، وكان كلاهما مغلقًا. أحدهما يؤدي إلى الرواق، والآخر إلى الحمام. على الرغم من أنني لم آتِ إلى هذا المنزل عدة مرات، فإنني لم أستطع تذكر أي باب يؤدي إلى أين. حتى إنه في تلك اللحظة لاحَظتُ أنني لا أستطيع تذكر لون جدار غرفة نومي في إسطنبول. في الواقع، منذ فترة وأنا لدي مثل هذه النقاط الداكنة الصغيرة تتشكل في ذاكرتي؛ حيث تصبح المعلومات العادية مظلمة عندما أكون في حاجة إليها، وبعد ذلك تُضيء مرة أخرى في لحظة غير متوقعة. ولمساعدة طبيبي على الفهم بشكل أفضل، كنتُ أقول له: «لقد فُتِحَت حفرة دودية في ذاكرتي. المعلومات تدخل وتختفي من جانب، ثم تخرج من الجانب الآخر في لحظة غير مهمة!» كنتُ أعتقد أنه كان أحد الآثار الجانبية لعملية زراعة الوجه التي خضعتُ لها. فعلى كُلٍّ، استغرقت العملية تسع ساعات، وطوال هذه الفترة كنتُ نصف ميت. قد يكون فقدان الذاكرة البسيط هذا ناتجًا عن التخدير.

ولكن طبيبي كان يقول: «مستحيل، لا يمكن أن يكون هناك مثل هذا الأثر الجانبي للجراحة!» إذا كان يعلم كل شيء علم اليقين، فإنه يمكنه إخباري أي باب يؤدي إلى الحمام. ربما كان عليَّ الاتصال بطبيبي، أو ربما كان يجب أن

أهدأ وأجبر نفسي على التذكر. ومع ذلك، مهما كنتُ سأفعل، كان عليَّ توخي الحذر، لأنني كنتُ عاريًا، فلم أرغب في الخروج إلى الرواق بدلًا من الحمام وأنا في هذه الحالة. وعلى الرغم من أن كريستيل كانت تجري اجتماعاتها السرية في مجتمع العراة في الفترة الأولى من حياتها المهنية في الاستضافة، فإنني على الأقل لم أكن مستعدًّا لمثل هذا اللقاء. وعند توضيح سبب اختيارها ذلك المجتمع الموجود بالقرب من دوربي في أردين نقطة اجتماع، قالت كريستيل: «إذا كنتَ تريد الاختباء، فإنك ستذهب بين الناس. ولكن إذا كُنتَ تريد الاختباء حقًّا، فإنك ستذهب بين الناس العُراة!»

ثم أخذت تحكي وهي تضحك عن أن الرجال المحاربين عديمي الرحمة من جميع أنحاء العالم –وخصوصًا قادة التنظيمات الدينية المتطرفة– عندما رأوا الكثير من الأشخاص العراة معًا، فجأة أصبحوا مُحرَجين مثل الأطفال، وتحولوا إلى سمكة خارج الماء. ربما فقط امرأة مثل كريستيل كان سيخطر ببالها الضغط على هؤلاء الأشخاص –الذين كانوا مُضطرين إلى مقابلتها من أجل البقاء على قيد الحياة– في أكثر حالة طبيعية في العالم، وهي العُري. ومع ذلك، لم أكن مختلفًا كثيرًا عن هؤلاء المحاربين؛ فمنذ طفولتي لم تكن علاقتي جيدة بالعُري. على الرغم من أن جسدي لم يكن مشوهًا مثل وجهي، فإنني كنتُ أشعر بالخجل منه أيضًا، وأحاول تغطيته. في الواقع، علاقتي بوجهي تُمَثِّلُ نظرتي إلى جسدي.

كنتُ أفكر في هذا عندما فُتِحَ أحد الأبواب. لذا اختفت عقدة العُري من حياتي مثل ضمادة جروح أُزيلَت بسرعة عن الجلد. على الأقل في هذه اللحظة.

الخادم العجوز –الذي جاء ومعه مناشف في يده– لم يطرق الباب لأنه كان في ذروة الانهماك بمهنته. وكخادم من العصور الوسطى، عندما ينظر إلى الشخص الذي يخدمه فإنه لا يراه. كان سريعًا في تسليمي أكبر منشفة في يده.

- صباح الخير سيدي.

وأنا أيضًا كنتُ سريعًا في لف المنشفة حول خصري.

- صباح الخير!

- بعد ساعة تنتظرك سيدتي لتناول الفطور.

هذا يعني أنها كانت ساعات الصباح. ولكن في أي يومٍ كنا نحن؟ ربما تكون رأس السنة قد مرت بالفعل ونكون دخلنا في الألفية الجديدة! كان بإمكاني أن أسأل بلايك.

- ما هو تاريخ اليوم؟

- 29 من ديسمبر.

- أي إنني نائم فقط منذ أمس؟

- أجل.

- هل أنت متأكد؟

- ما زِلتُ لم أتقدم في السن إلى هذا الحد يا سيدي.

بالطبع شعرتُ بخيبة أمل؛ لأنه في هذا الوضع كان عليَّ أن أشهد المستقبل لحظة بلحظة. فتح بلايك الباب الآخر ودخل الحمام لوضع المناشف. وفي أثناء توصيل هاتفي بالشاحن، ناديتُه: «بلايك، سأسألك عن شيء».

- تفضل؟

- هل سبق لكَ العمل في قصر باكنغهام؟

- لا سيدي. لقد عملتُ في البيت الأبيض.

لم أكن مخطئًا في تقديري؛ فقد اعتبر البيت الأبيض مُلحقًا خارجيًّا لباكنغهام. أو العكس.

- هل أنت متقاعد؟

- لا سيدي، لقد طُرِدت.

إذا كان بإمكاني الضحك، كنتُ سأضحك.

- لماذا؟

- لأنني سكبتُ النبيذ الأحمر على الرئيس في أثناء تقديمه.

- هل طُرِدتَ من أجل هذا؟

- نعم، لأنني سَكَبتُه عمدًا.

سيكون من السخف أن أسأل عن السبب؛ لأن سكب سائل بلون الدم على رئيس الولايات المتحدة الأمريكية كان كنزعِ شعر من أي طبق طعام. لذلك، فقط إذا لم تفعل، فإنك ستُسأل عن السبب.

قلت: «اللعنة على النبيذ».

عند خروجه من الحمام، كان بلايك جادًّا جدًّا.

- لقد كنتُ ثملًا في ذلك الوقت يا سيدي.

- إذن اللعنة على النبيذ حقًّا. ليتكَ كُنتَ ثملًا!

ابتسم بلايك لأول مرة.

قال: «ليتني».

ثم ناديته وهو خارج من الغرفة.

- ولكن بالطبع كان يمكن أن يكون الوضع أسوأ. لو كنتَ فعلتَ هذا الأمر في قصر الكرملين لما طُرِدتَ.

توقف بلايك عند مدخل الباب وعاد إلى الجدية مرة أخرى. كان جديًّا بقدر إعدامٍ من دون مُحاكَمة.

- أنت على حق، لم يقتلوني. بدلًا من ذلك، حبسوني في زنزانة في معتقل غوانتانامو. ولكن بعد ذلك فهموا أنني مجرد مخمور، ولست إرهابيًّا، وأطلقوا سراحي.

- وكم من الوقت استغرقوه لفهم ذلك؟

- أربع سنوات وشهرين وثلاثة عشر يومًا.

هذه المرة جاء دوري لأكون جادًّا، ولكن لم تكن هناك إجابة جادة يمكنني تقديمها لبلايك؛ لأنه عندما اختفت العدالة، تشكلت دوامة هراء شديدة مثل هذه، بحيث ابتلعت مثل الثقب الأسود معنى وجِدِّيَّة كل كلمة يمكن أن تُقالَ أمامها. لذا، فإن الرد الجادَّ الوحيد الذي يمكنني تقديمه لبلايك، الذي كان ضحية أربع سنوات وشهرين وثلاثة عشر يومًا من الظلم، كان التزام الصمت. في الواقع، كلما قابلتُ شخصًا تم سجنه ظلمًا كنتُ أخجل وأصمت؛ لأنه لا توجد كلمة يمكن أن تُقال لهؤلاء الأشخاص يمكن أن تُعيد الوقت المسروق من

حياتهم. ولكن لا يزال بإمكاني فعل شيء لأجل بلايك. لا أعرف لماذا، ولكني هَمَستُ: «هل يمكننا التحدث قليلًا؟»

خطا بلايك خطوة ودخل الغرفة مُجددًا، وأغلقتُ أنا الباب. ثم واصلتُ الحديث هامسًا: «هناك مهندس فيزيائي أعرفه. إنه يعيش في تركيا. سُجِنَ مدة ستة أعوام، فقط لانتقاده سياسة الحكومة العلمية. إنه بالخارج الآن. يعمل على مشروع سري. إنها تقنية جديدة تمامًا... إنها في الواقع آلة زمن. سيحتاج إلى بعض المتطوعين عندما يصل إلى مرحلة التجريب. وهو يختار هؤلاء المتطوعين من بين أشخاص مثلك؛ ففي الأساس هو يصنع هذه الآلة فقط للأشخاص الذين عانوا من الظلم وسُجِنوا سنوات. لن يسمح لأي شخصٍ آخر باستخدامها. إذا كنتَ تريد، فإنه يمكنني أن أجعلك تتواصل معه. ما رأيك؟»

- لم أفهم بالضبط يا سيدي.

- عزيزي بلايك، هل تريد العودة بالزمن أربع سنوات وشهرين وثلاثة عشر يومًا؟ أو العودة إلى تلك الليلة عندما سَكَبتَ النبيذ؟

برقت عينا بلايك، وفكر مدة دقيقة تقريبًا، ثم قال: «لا، شكرًا لكَ».

- إذا غيرتَ رأيك، فأخبرني بذلك.

- لا أعتقد أنني سأغير رأيي؛ لأنه حتى لو عدتُ إلى تلك الليلة، فلن يتغير الكثير. سأسكب هذا النبيذ مرة أخرى.

- فهمت. حسنًا أود منك أن تحتفظ بالسر الذي قلته لك.

قال بلايك: «بالتأكيد». ثم أضاف وهو يخرج من الغرفة: «شكرًا لكَ على اهتمامك».

سَئمتُ التزام الصمت عاجزًا أمام الناس الذين في مواقف مماثلة، وبدأتُ أقول لهم هذه الكذبة منذ فترة. كان هناك مهندس فيزيائي أعرفه حقًّا، وقد أمضى ست سنوات في السجن مجرمًا فكريًّا، ولكن بالطبع لم يكن لديه آلة زمن يعمل عليها. ولكن رأيتُ من كثب كيف تلمع أعين الأشخاص عند سماع اقتراح العودة بالزمن. ومن المثير للاهتمام أن أولئك الذين حُكِمَ عليهم لخطأ قضائي وأمضوا سنوات في السجن قبلوا على الفور اقتراحي، بينما كان رد

فعل معظم السجناء السياسيين مثل بلايك. أي إنه بينما كان أولئك الذين سُجِنوا بسبب جريمة قتل لم يرتكبوها متحمسين للغاية للعودة بالزمن، رفض الآخرون اقتراحي بأدب. ومع ذلك، لمعت أعينهم وشعروا بقوة عدم تغيير الماضي بينما يمكنهم تغييره، وعدم محو الظلم الذي تعرضوا له من تاريخهم الشخصي. ربما لم يسألهم أحد عن رأيهم عندما زُجَّ بهم في السجن، ولكن الآن أمامهم خيار، وقد كان من الجيد لهم أن يعرفوا حتى إن لديهم خيارًا. حتى إنها ربما أول مرة يشعرون حقًّا أنهم أقوى من أولئك الذين ظلموهم. ومن ناحية أخرى، كان أولئك الذين قبلوا اقتراحي -في أثناء انتظار دورهم للعودة بالزمن- مليئين بالأمل الذي لم يكن لديهم حتى ذلك اليوم، ومتشبثين بالحياة كما لم يفعلوا من قبل. نتيجة لذلك، كانوا يبنون عالمًا جديدًا لأنفسهم، وعندها فقط كنتُ أقول لهم إنه قد جاء دورهم ليكونوا موضع الاختبار. ثم كنتُ أحصل على الجواب الذي توقعته، وكنتُ أعلم أنهم قد تراجعوا عن ترك اللحظة الحالية والذهاب إلى الماضي. لذا فإن التجربة الحقيقية لم تكن تتعلق بالعودة بالزمن، ولكن كانت تتعلق بتأثير الدواء الوهمي الذي تركته فكرة العودة بالزمن على هؤلاء الأشخاص. ولكنها في النهاية كانت تجربة، وكانت هناك نماذج فشلت معهم النتيجة. فمثل رواد الفضاء الذين فقدوا اتزانهم العقلي مع تأخر السفر إلى الفضاء الذي أعدوا له سنوات، كان هناك أيضًا أولئك الذين أُصيبوا بالجنون تدريجيًّا في أثناء انتظار العودة بالزمن. وكان أوزوالد، المواطن الأسود من ديترويت الذي أمضى 21 عامًا في السجن بزعم اغتصاب امرأة بيضاء، أحد هؤلاء. حيث قضى نصف عمره في السجن عن جريمة لم يرتكبها، ثم قُتِلَ من قِبَلِ أملٍ كاذب. بتعبير أدق: من قِبَلي. عندما جاءني خبر انتحاره، تردَّدَ صدى سؤال كالهون لسببٍ ما في ذهني: «برأيك، أيهما أفضل؟ موت شخص واحد؟ أم موت ملايين البشر؟»

ربما قد استوعبتُ الموت الذي تسبَّبَ فيه بفضل ذلك السؤال. وسرعان ما حاولتُ أن أنسى أوزوالد من خلال وضعه على أحد الرفوف في ذهني كبيانات تجربة غير ناجحة. ولكنني ما زلتُ أتذكر وجهه، واسمه، وصوته، ونوع السجائر التي كان يدخنها، وكيف عانقني عند قبوله عرضي بالعودة بالزمن.

على أي حال، دخلتُ الحمام واستلقيتُ في حوض استحمامٍ رخامي مملوء بالماء الساخن نحو نصف ساعة. وعلى الرغم من أنني استخدمت تقنية تنفس السلاحف، التي تعلمتها من راهب معبد شاولين من أجل عدم التفكير في أي شيء والاسترخاء خلال ذلك الوقت، فإن الأمر لم يُجدِ نفعًا! لأنني لم أكن أعيش على جبل سونغ بعيدًا عن كل شيء مثل ذلك الراهب، أو حتى على أي جبل! فعلى سبيل المثال، إذا كنتُ أعيش على جبل الجودي، فإنه سيكون كافيًا أن أجمع قبيلتين متناحرتين على طاولة أرضية مصحوبة بثلاث وسادات لأقوم بعملي. ومن أجل وجبة الصُلح تلك، كنتُ سأذبح ألف حمل وأذهب. ثم سأذبح ألف حمل أخرى وأحل مسألة ثأر أخرى. سيكون هذا كافيًا ما دُمتُ لم أقابل قبيلةً نباتية! بصراحة، لن أقلق بشأن ذلك أيضًا؛ لأن العثور على سفينة نوح على جبل الجودي كان أكثر احتمالًا بكثير من مقابلة قبيلة نباتية. لذلك يمكنني أخذ قيلولة مدة نصف ساعة دون التفكير في أي شيء في حوض الاستحمام الذي دخلت إليه بعد العودة من العمل. ولكنني كنتُ في مستوى سطح البحر، وليس على أي جبل. علاوة على ذلك، على نفس مستوى بحر ملآن بالحطام والدم، حيث وُلِدَ وترعرع الأسطول البريطاني الشهير، وحيث حارب الجميع –من الرومان وحتى الأرمادا الإسبانية، ومن نابليون وحتى هتلر– في كل بقعة!

قالت كريستيل: «تبدو مرتاحًا». كانت تحتسي الشاي. كل شيء على طاولة الطعام كان من الفضة، أو الخزف، أو الكريستال. بدت لي جميعها حساسة وباردة للغاية، حساسة وباردة مثل كريستيل.

قلت: «لا أعرف». ثم تمتمتُ: «ليتني نمتُ أكثر».

مَدَّت كريستيل يدها وأمسكت يدي.

- لن أستطيع الحضور الليلة، سامحني.
- انسي الأمر، لا يهم. في الواقع، حتى أنا لا أريد أن أذهب. ولكن إذا أردتِ، يمكنك الاتصال بالقاعة وإلقاء خطاب.
- لا داعي. تحدث أنت بدلًا عني!
- سأتحدث بالفعل. وكلما قابلتُ أحدًا يسأل عنكِ، سأقول: جيدة للغاية، لا تقلق.

- بالطبع يسألون... يقولون: كيف لا تموت؟
- لا، لن يقول أحدٌ شيئًا كهذا.
- ولكنهم يفكرون! على كل حال... نعم، أنا أنتظر.
- تنتظرين ماذا؟
- هيا، لا تماطل. اسأل!
- حسنًا، ماذا ستفعلين بالرواية المُصَوَّرة؟

قالت كريستيل: «غير لائق أبدًا! ماذا تقصد بالرواية المصورة؟! إنها تحفة تتجاوز بكثير المنمنمات في الموقع الإيراني! علاوة على ذلك، جميعها صُنِعَت منذ قرون!»

- أجل، ولكنها رواية مصورة في النهاية! حسنًا، بماذا ستفيد؟
- هل تعرف لماذا اندلعت الحرب الروسية الصينية؟

كنتُ أعرف ذلك بفضل دادجو.

- نعم. كان ذلك بسبب حشرة الاختفاء؛ لقد سرقت روسيا النموذج الأوَّلي من الصين.
- إذن هل تتابع ما يجري هناك الآن؟
- بالطبع، هناك أعمال شغب.
- لا تُسمى أعمال شغب يا ضمير، إنها تُسمى الصحوة الآسيوية.
- في السابق كانت تُسَمَّى أعمال الشغب بـ «الربيع»، كالربيع العربي.

كانت كريستيل ماهرة جدًّا في تجاهل الذي أمامها.

- لا نريد تفشي وباء الحرب الأهلية في آسيا؛ لذلك من الضروري إقناع الحكومة الصينية أولًا. إنْ استمروا في قمع حركة الحرية هذه بالعنف كما يفعلون الآن، فسوف يزداد كل شيء سوءًا. سيهاجم الجميع بعضهم بعضًا، أولًا في الصين، ثم بالطبع في روسيا. إذا لم يفعل شخصٌ ما شيئًا، فإنه سيتم إراقة الكثير من الدماء. لذلك جلستُ وفكرتُ. كنت أقول: كيف يمكنني إيقاف كل هذا على الأقل فترةً من الوقت؟ ثم خطرت على بالي روايتك المصورة!

- لقد أخبرك إيغور، أليس كذلك؟

- من سيكون غيره؟ بالطبع قال لي إن الكتاب لديك. ولكنني كنتُ أعرف بالفعل أن مثل هذا الكتاب موجود؛ لأنني لا أجلس في أوقات فراغي دون شغل شاغل مثلك. والأهم من ذلك، كنتُ أعرف القصة التي بداخلها. لقد كنتُ أعلم أن قتيبة كان يصف سياسة الاستيطان، وأنه كان يتحدث عن توطين العرب المسلمين في منازل الأتراك. لأنه يا عزيزي ضمير، بعد العثور على ذلك الكتاب مباشرة في بُخارى، دخل في مزاد مفتوح تحت الأرض. ولكن نظرًا إلى اختلاف الظروف في ذلك الوقت، لم أجد أنه من المناسب دفع القدر نفسه من المال الذي قدمه إيغور الجشع. على كل حال، السفير الصيني سيأتي إلى هذا المنزل غدًا، وأنت تعرف بالطبع ما سأقول له: اترك المعارضة، لا تنشغل بالقبض عليهم واعتقالهم. وبدلًا من ذلك، ضع شخصًا في منزل كل من خرج للاحتجاج. تمامًا كما في ذلك الكتاب، موظفًا حكوميًّا... وظيفته هي مراقبة الأشخاص في ذلك المنزل. ولكن استخدم أيضًا حشرة الاختفاء، و...

لم أستطع التحمل، فقاطعتها: «هؤلاء المراقبون سيكونون غير مرئيين أيضًا!»

- بالتأكيد!

كانت عينا المرأة البالغة من العمر 94 عامًا متسعتين وتلمعان من الحماس. كنتُ متأكدًا من أنها تتوقع مني أن أهنئها على هذه الفكرة الخارقة.

- هذه فكرة بشعة!

نعم، لم أكن منتبهًا، ولكن لا مجال للرجوع. لقد خرجت مرة واحدة من فمي! قطبت كريستيل حاجبيها، وكانت تنظر إليَّ كما لو كانت تراني أول مرة في حياتها. في الواقع، بمعنى ما، كان ذلك بسبب وجهي الجديد. ولكن سبب نظرتها بهذه الطريقة كان سببًا آخر. لا بد أنها لم تصدق ما سمعته، لأنه لم يكن هناك شيء مثل أخلاقيات المضيف! لأننا جميعًا كنا نعلم أن كل شيء كان من أجل السلام! من أجل وقف إطلاق النار! من أجل أن تصمت البنادق ولا يموت الناس. لا يموت أحد! فليعِشْ الجميع! لا يهمِ كيف يعيش، ولكن ليعش!

سألت كريستيل بتعبير مُقلِق: «هل تعتقد أنه لن يجدي نفعًا؟»

لو كنتُ أستطيع أن أقهقه لفعلت؛ لأنها عندما قلت «بشعة»، لم تكن تعتقد أنني أعني قسوة الفكرة، بل إمكانية عدم جدواها. كان هذا طبيعيًّا في الواقع، لأن آخر شخص سيُحاكِم مُضيفًا كان مُضيفًا آخر! لأن... ولكني أعتقد أنني لم أعد أرغب في أن أكون مُضيفًا بعد الآن.

- بالطبع ستجدي نفعًا. ولكنها فكرة بشعة!

على عكسي، كانت كريستيل قادرة على القهقهة، ففَعَلَت. هذه المرة لا بد أنها اعتقدت أنني أمزح.

- نعم، ربما يكون إجراءً صارمًا بعض الشيء، ولكن... على الأقل لن تندلع حرب أهلية في الصين. ستمتثل الحكومة بعض الطلبات البسيطة من معارضي النظام، ثم عند انتهاء الاحتجاجات، ستضع مراقبًا غير مرئي في منازلهم جميعًا. أعتقد أنه الحل الأمثل!

- هل أخذتِ كتابي لمجرد عرضه على السفير الصيني؟

- لا يا سيدي! بالطبع سأهدي الكتاب إلى الحكومة الصينية، فأنت تعرف مدى اهتمام الصينيين بالتاريخ. علاوة على هذا، إن الدولة الصينية مهتمة بالتاريخ التركي أكثر من الأتراك. كما إن هذا ليس مجرد كتاب، إنه دليل على مدى فاعلية طريقة قتيبة! ففي النهاية، ألم يصبح الأتراك مسلمين؟

كانت كريستيل تضحك وهي تقول هذا؛ لأنه بالطبع كانت الفكرة الرئيسية للقصة مختلفة تمامًا. ومع ذلك سألتُ: «أنتِ تعرفين نهاية الكتاب، أليس كذلك؟ لا يبدو أن طريقة المراقبة تعمل بشكلٍ جيد!»

قالت كريستيل: «أجل، ولهذا السبب هي قصة رائعة! فهو يقدم الطريقة ويشرح عيوب الطريقة. لماذا لم تُجدِ الطريقة في هذه الحكاية؟ لأن صاحب المنزل يتواصل مع المراقب. ولكن إذا أصبح المفتش غير مرئي، فلن يكون هناك اتصال بينهما».

- نعم. سيكون هناك شرطي حكومة يتجوَّل في المنزل مثل الشبح! سوف يُراقب كل ما يفعله صاحب المنزل على مدار 24 ساعة!

- بالضبط! وبما أنك لا تراه بالفعل، فسوف تنسى وجوده بعد فترة.

- لا أعتقد هذا.

- علاوة على ذلك، فهي أكثر فعالية من الكاميرا. لنفترض أنك وضعت كاميرا في كل منزل. بالتأكيد سيجد الناس طريقة لفك شفرات تلك الكاميرات. ولكن من يستطيع أن يفعل ماذا ضد مراقب غير مرئي؟ في رأيي، إن الصينيين سيُولَعون بفكرتي!

***

ماذا عساي أن أقول؟ لا شيء. لهذا توقفتُ عن الاستماع إلى كريستيل. وبدلًا من ذلك، بدأتُ أفكر في أشياء أخرى. بتعبير أدق: ذهب عقلي إلى الصبي الميت الذي كنتُ أحمله في صحراء جوبي في منغوليا. لقد اضطررتُ إلى حمل تلك الجثة الصغيرة على ظهري بسبب الحرب الروسية الصينية. وقد اندلعت تلك الحرب بسبب ما يُسمى حشرة الاختفاء. والآن، ملايين الحراس غير المرئيين كانوا سيحولون منازل الملايين من الناس إلى سجون! هل لهذا السبب حَمَلتُ ذلك الطفل على ظهري لساعاتٍ؟ لقد كنتُ أشعر بالحيرة. ثم كنتُ أقول لنفسي إنه لا توجد علاقة؛ فلا علاقة للحراس غير المرئيين بحملي هذا الطفل! لا شيء له علاقة بعضه ببعض! أيضًا لا علاقة لي بأي شخص؛ لا بالدنيا، ولا الناس، ولا ذلك الطفل. كنتُ أحاول فقط القيام بعملي، هذا كل ما في الأمر. كنت أقول لنفسي: تذكَّر. وقد كنتُ أتذكر!

كان ذلك اليوم هو ثامن أيام الحرب الروسية الصينية. وقد كانت منغوليا عالقة بين هذين العملاقين؛ حيث كانت روسيا في الشمال والصين في الجنوب تطلقان صواريخ بالستية بعضهما على بعض، وكلها تمر فوق المنغوليين. وكان حياد منغوليا في هذه الحرب مسألة حياة أو موت لملايين الناس. وبالطبع، كان رئيس الوزراء المنغولي مدركًا ذلك جيدًا. كنا في مكتبه في القصر الرمادي في أولان باتور. وكان رئيس المخابرات ورئيس الأركان يخمنان سبب اندلاع الحرب، وكان رئيس الوزراء يسألني عن هذا الأمر.

- للأسف يا سيدي رئيس الوزراء ليس لدينا أي معلومات. ولكننا نعرف أنه عاجلًا أو آجلًا سيدخل أحد الطرفين إلى منغوليا.

قال رئيس الأركان: «لا تهذِ! هناك حدود 4000 كيلومتر بين الصين وروسيا! إذا كانوا يريدون ذلك حقًّا، فإنهم سوف يعبرون تلك الحدود ويهاجمون بعضهم بعضًا! لماذا يدخلون بلدنا؟»

فأجبتُ بسؤالٍ آخر: «الشخص الذي يتشاجر مع شخص ما، أين يريد أن يفعل ذلك؟ في منزله؟ أم في الشارع؟ هذا هو السبب في أنهم سيدخلون منغوليا؛ لأنهم يستطيعون بعثرة هذا المكان بقدر ما يريدون، فعلى كل حال، منغوليا ليست وطنهم».

وبينما كنا نتناقش، دخل عقيد إلى الغرفة. لقد أخبرنا بانقطاع التيار الكهربائي بشكل عام في جنوب البلاد؛ حيث تعطلت جميع المحولات الكهربائية في المنطقة القريبة من الحدود الصينية بشكل غامض، وأصيب جنوب منغوليا بالعمى. سيكون من الممكن إقناع إدارة أولان باتور بكل شيء وتوريطها في كل الجوانب إذا تم أيضًا تعطيل وسائل الاتصال في البلد التي يوجد بها شخصان في كل كيلومتر مربع، والتي بها مناطق غير مأهولة واسعة بشكل غير عادي. وقد كان واضحًا من يمكنه تنفيذ مثل هذا الهجوم الواسع. ولكن في تلك المرحلة، لم أكن أهتم بما إذا كانت روسيا أم الصين هي المسؤولة، كل ما أردته هو الذهاب جنوبًا ورؤية ما يجري. نظرتُ إلى عينَي رئيس الوزراء وقلت: «داوا، لا تثق بأي أخبار تصل إليك من الآن فصاعدًا! حتى لا تثق بأحد! من الواضح أن هذا فخ. من فضلك أرسلني إلى الجنوب».

السبب في أنني تمكنتُ من تجاهل قواعد البروتوكول والتحدث مع رئيس الوزراء بهذه الطريقة هو أنه كان زميلي في قسم العلوم السياسية في جامعة بروكسل الحرة. كان من الممكن ملء العديد من أحواض الاستحمام بكمية الفودكا التي شربناها معًا في حانات بروكسل. ومع ذلك، على عكسي أنا، كان داوا واحدًا من أولئك الذين يعرفون كيف يستفيقون. لهذا السبب تخرج في الجامعة التي فُصِلتُ منها بهذا التقدير. نعم، كنتُ ألتقي أنا وداوا منذ سنوات، ولكن في تلك اللحظة كان يمكنه أن يقلل من شأني قائلًا: «من تَعُدُّ نفسك؟» أو: «هل سأسألك بمن أثق؟» ولكنه لم يفعل؛ لأنه كان يعرف بقدر ما كنتُ أعرف أنا أيضًا أن هناك ثلاثة أنواع من الناس من حوله، وفقط نوع واحد من الثلاثة كان مُخلِصًا لمنغوليا. أما البقية، فقد تم اقتسامهم بين

أجهزة المخابرات الصينية والروسية، لذلك تحول القصر الرمادي إلى حديقة للجواسيس. وفي ظل هذه الظروف، لم يكن غير منطقي الوثوق في كاذب كان يثمل معه ذات يوم.

كانت ساعات المساء عندما هبطتُ في مدينة دالانزاغاد في جنوب منغوليا على متن طائرة عسكرية أقلعت بناءً على أمر من رئيس الوزراء. في الواقع، لم أكن أعرف ما الذي كنتُ أبحث عنه. لم تكن المدينة وحدها في الظلام، بل كنتُ أنا أيضًا. لقد كانت أقرب حدود صينية على بعد 800 كيلومتر. وقد كنتُ جالسًا في الكافتيريا الخاصة بالضباط في الوحدة العسكرية، وأحتسي القهوة على ضوء مصباح الجاز؛ حيث كانوا يحتفظون بمولدات الكهرباء لمزيد من حالات الطوارئ. في الوقت الحالي، كانت الهواتف تعمل، ولكن من قطع الكهرباء يمكنه أيضًا تعطيل روابط الأقمار الصناعية في أي لحظة، وبهذا يصبح جنوب منغوليا أعمى وأصم، ومعزولًا تمامًا عن العالم ويتطاير بداخله. أيًّا كان ما سيحدث الليلة، كنتُ أفكر وأنتظر خبرًا عن خروج جيشٍ من الظلام. وعلى الرغم من أنني اعتقدتُ أن هذا قد يكون أسلوبًا روسيًّا للإلهاء، فإنه من المرجح أن الجيش الصيني في الجنوب هو الذي سيخرج من الظلام ويهاجمنا، نظرًا إلى المنطقة التي انقطعت عنها الكهرباء. لم أستطع البقاء هناك أكثر من ذلك. وبفضل أمر المهمة الخاصة الموقع من داوا، أخذتُ سيارة جيب روسية قديمة من الثكنات وبدأتُ في قيادتها باتجاه معبر شيفي خورين الحدودي، الذي كان على بعد سبع ساعات. وكانت الشاحنات التي تحمل الفحم من منغوليا إلى الصين تمر عبر ذلك المعبر الحدودي. لم تكن لدي أي فكرة عن سبب ذهابي إلى هناك، ولكن في بعض الأحيان يكون المرء عاجزًا لدرجة أنه يريد التقاط صاروخ بيده، الذي لم يتمكن من إيقاف إطلاقه! ربما فكرتُ في إيقاف الجيش الصيني الذي كان سيعبر الحدود وحدي، لا أعرف. كل ما أعرفه هو هذا: بينما كنتُ أسير على الطريق الترابي في الظلام، رأيتُ الخيام المنغولية المُسماة «جر»، والمنصوبة جنبًا إلى جنب. أبطأتُ السيارة وأدرتُ عجلة القيادة إلى هذا الاتجاه. وعلى ضوء المصابيح الأمامية، رأيتُ هؤلاء الأشخاص مستلقين على الأرض بلا حراك، فتوقفتُ ونزلتُ من الجيب وركضتُ نحوهم بمصباح يدوي. في تلك اللحظة، لم تكن هناك سوى فكرة واحدة في ذهني: لقد مر شخصٌ ما من هنا وقتل هؤلاء الأشخاص وغادر. ولكن عندما اقتربتُ

منهم، لم أجد فوقهم دمًا أو ثقوب رصاصات. في تلك اللحظة جاء صوت من جهاز اللاسلكي المجاور لي، وقد كنتُ تعلمتُ المنغولية من شخصٍ ثمل عندما كنتُ ثملًا. بالطبع كان داوا. كان يُقال إنه تم العثور على جثث في قرية بالقرب من مدينة سيرفي، أي على بعد نصف ساعة من مكان وجودي. ثم تدخل صوت آخر، وعلى حد فهمي، كان يَدَّعي أن الجيش الصيني هو من قتل هؤلاء الأشخاص، حتى إنه ذهب إلى أبعد من ذلك، وكان يتحدث عن الأسلحة الكيميائية. لذلك لم تكن على تلك الجثث ثقوب الرصاص أيضًا. كنتُ أسير في الظلام وجهاز اللاسلكي في يدي، وكنتُ أفكر أن الأوان قد فات على كل شيء. لا بد أن القوات الصينية عبرت الحدود وقتلت كل من يعترض طريقها، أو هكذا كان من المفترض أن يكون. وكانت منغوليا قد هاجمت الصين، كما كانت القوات الخاصة الروسية ترتكب مذابح في المنطقة. فقط عندما كنتُ أفكر في هذا رأيتُ جثة خروف على الأرض، ثم تقدمتُ قليلًا، وظهر أمامي صندوقٌ كبير. لم يكن مكتوبًا عليه شيء، ولكنه كان صندوق مئونة تم إلقاؤه من الطائرة –وكان الباراشوت لا يزال عليه– وفيه مُعَلَّبَات. ومع ذلك، كانت جميع الصناديق فاسدة ومعظمها منتفخ. في تلك اللحظة فَهِمتُ كل شيء؛ هؤلاء الأشخاص تَسَمَّموا. لقد تسمموا من المعلبات الموجودة في صندوق المؤونة وماتوا. ولا بد أن يكون هذا هو سبب الوفيات في القرى الأخرى. لقد رأيتُ هذا من قبل؛ فأيضًا كان هناك أشخاص ماتوا في إثيوبيا بسبب المعلبات في صناديق مؤونة مماثلة تم رميها بالباراشوت. كانت هذه الوفيات ناجمة عن بكتيريا تسمى كلوستريديوم بوتولينيوم. وإحدى الجمعيات الخيرية التي أمطرت هذه المعلبات الفاسدة على الناس. بالطبع مؤسسة الكل للجميع هي التي ارتكبت جرائم القتل هذه في إثيوبيا سابقًا، وإلا من أين لي أن أعلم؟ فكان يجب أن أفعل شيئًا على الفور. كان على الحكومة المنغولية أن تعلم أن هؤلاء الأشخاص لم يُقتَلوا، وإلا ستبدأ حرب جديدة تمامًا! بالطبع لم يكن من الممكن أن أتصل بالقصر الرمادي وأتحدث مع رئيس الوزراء؛ لأنه في هذه المنطقة من صحراء جوبي كان الهاتف مجرد قطعة بلاستيكية لا فائدة منه. فحاولتُ على الفور إبلاغ شخص ما عبر جهاز اللاسلكي، ولكن لم يكن أحد يجيب. لم يسمعوني، واستمروا في الحديث فيما بينهم، حتى إنهم أعلنوا أن الجيش المنغولي في حالة تأهب. عندما سمعتُ كل هذا شعرتُ

بالغثيان، وبانقباض قلبي. كنتُ أتجول بلا حول لي ولا قوة، وأتعثر فوق الجثث في الظلام وأتساءل ماذا أفعل. وفي أثناء رفعي رأسي والبدء في سَبِّ آلاف النجوم في السماء، خطر ببالي حل. رَكَضتُ إلى صندوق مؤونة. أخذت علبة من المعلبات التي بداخله ووضعتها في جيبي، ثم عانَقتُ أقرب جثة لي وحملتها إلى الجيب. أدرتُ مفتاح التشغيل، ولكن الموتور لم يعمل. حاولتُ عدة مرات، ولكن الأمر لم ينجح. هذه المرة نظرتُ إلى النجوم وشتمت قدر استطاعتي! لأنني اضطررتُ إلى المشي. وإذا لزم الأمر، كنتُ سأسير إلى دالانزاغاد. ولكن لا بد أن أصطحب جثة معي؛ لأنه فقط بهذه الجثة والعلبة السامة التي في جيبي يمكنني أن أثبت للمنغوليين أنه لا الجيش الصيني ولا القوات الخاصة الروسية كانا مسؤولين عن هذه الوفيات. لقد بحثتُ عن أخف جثة حولي، جثة خفيفة بما يكفي لأحملها! فوجدتُ طفلًا، فتاة عمرها من ثلاث إلى أربع سنوات. ثم وجدتُ شالًا. لففتُ الطفلة بهذا الشال ورَبَطتُها على ظهري، وبدأتُ في المشي. لا أعرف كم مضى من الوقت، ولكن بطارية المصباح قد نفدت. وبمجرد أن تُرِكْتُ في الظلام، ضَلَلتُ طريقي. أخذ الرمل مكان التربة التي كنتُ أخطو عليها. الآن كنتُ حقًّا في الصحراء. مشيتُ دون توقف. كنتُ أشعر كما لو أن أصابعي مقطوعة من البرد. فقط ظهري هو الذي كان ساخنًا؛ إذ كانت جثة الطفلة تحافظ على دفء ظهري. ثم بدأت رياح قوية وكأن الصقيع لم يكن كافيًا. في ذلك الوقت كنتُ أتسلَق الكثبان الرملية، وسمعتُ هذا الصوت. في البداية اعتقدتُ أن هناك طنينًا في أذني، ولكن هذا الصوت لم يكن يأتي من داخلي، بل من حولي. كان مثل الضجيج الذي تُحدِثُه الطائرة في أثناء إقلاعها. بالطبع شعرتُ بالخوف! للغاية! ولكن بعد ذلك خطر هذا على بالي فجأة: ربما كنتُ في المكان الذي لطالما أردتُ رؤيته –في ديوت مانخان– في الكثبان الرملية التي تُغَنِّي. نعم، كنتُ هناك! لقد جِئتُ إلى هنا لأنني ضللتُ الطريق حيث لم أستطع الرؤية، لأنه لم تكن لدي فرصة حتى ذلك اليوم. كانت اللحظة المثالية للبكاء، ولكنني لم أستطع. كنتُ أسير وأستمع إلى الموسيقى التي تخرج من حبات الرمل التي تَهُبُّها الرياح. مع كل خطوة أخطوها، كان يتحول ضجيج محرك الطائرة هذا إلى صوت جهير للتشيللو، أو هكذا بدا لي. وبعد فترة، سمعتُ ذلك التشيللو فقط، ذلك التشيللو الذي أصابني بالقشعريرة في كل مكان بي من أسفلي إلى أعلاي مع

كل حركة ريشة للنوتة الموسيقية. ثم أشرقت الشمس. عندئذٍ سمعتُ قهقهات تتعالى عبر جهاز اللاسلكي الذي لم يخرج صوتٌ منه منذ ساعات. كان الشخص الذي يضحك يقول للجميع: «انتهت الحرب! أعلنت روسيا والصين وقف إطلاق النار!» في وسط الصحراء مترامية الأطراف، جَثَوتُ على الأرض وأنا أرتعش من التعب. حَلَلتُ عقدة الشال الذي على ظهري، ووضعتُ الطفلة برفق على الرمال، ثم نهضتُ وواصلتُ المشي. لم أدفن الطفلة، ولم أنظر إلى ما خلفي. لقد مشيتُ فقط وأردتُ الانتحار، ولكن بالطبع بقيتُ على قيد الرغبة في الحياة.

كنتُ أتذكر تلك الليلة! كنتُ أتذكر كل نَفَسٍ أخذتُه! نظرتُ إلى السكين الفضي الذي في يدي، وفكرتُ في طعن ساقي لترك تلك الطفلة هكذا في الصحراء. ولكنني لم أستطع فعل ذلك أيضًا؛ لأنني أكثر الأشخاص جبنًا في العالم. كانت كريستيل تواصل الحديث. من يعلم ماذا كانت تقول؟

- هل وجدتَ أي شيء؟
- ماذا؟
- ألم تكن تُصغي إليَّ؟
- عذرًا يا كريستيل، لقد كنتُ أفكر في شيءٍ ما.
- هل تمكنتَ من الوصول إلى أي معلومات عن عائلتك؟
- نعم.
- لماذا لم تخبرني من قبل؟ هذه أخبار عظيمة! حسنًا، أين هم؟ هل هم على قيد الحياة؟ هل التقيتَهم؟
- لا. قتلت والدتي والدي يوم ولدتني، ثم انتحرت.

قالت كريستيل: «أنا آسفة للغاية».

كنتُ متأكدًا من أن لديها مئات الأسئلة في عقلها. لقد كانت تتوق إلى معرفة ما هي المعلومات الأخرى التي توصلتُ إليها بخصوص والدي ووالدتي، ففي النهاية، كانت حياتي عبارة عن مسلسل تلفزيوني. كانت هناك دراما كافية في قصتي لدرجة أن امرأة عجوز تعيش على شاطئ كنوكه، المُسمى «لا زوته» ستعاني. كما كنتُ متأكدًا من أن الاستماع إليَّ كان أكثر إمتاعًا من مشاهدة

بحر الشمال. ولكن بالطبع كانت كريستيل أيضًا دبلوماسية، وتحولت على الفور إلى أسئلة من لون مختلف.

- بماذا شعرتَ عندما علمتَ هذا؟

- لا أعلم. أعتقد أنني لم أشعر بأي شيء. في الواقع لا أريد التحدث عن ذلك في الوقت الحالي. ربما في المستقبل.

قالت كريستيل: «بالطبع، أنا أتفهم ذلك. على الأقل عرفتَ الحقيقة. إنه أفضل من عدم المعرفة على الإطلاق. إذن بواسطة من أجريتَ البحث؟» وتابعت دون انتظار ردي: «أيًّا كان، فإنه ناجح للغاية؛ ففي النهاية، اكتَشفَ الأحداث التي حدثت قبل 40 عامًا. هذا شيء مذهل! على الأرجح إنه صحفي، أليس كذلك؟ أم إنك وظَّفتَ مُحَقِّقًا خاصًّا؟»

قلت: «إنه شاعر، شاعر حلبي. اسمه يوسف علي».

دهشت كريستيل للغاية.

- يوسف علي؟ هل تقصد ذلك الشاعر المشهور؟ إنه يعيش في باريس. هل قام هو بالبحث عن هذا؟

- أجل.

- من أين تعرفه؟

قلت: «قصة طويلة». كان بإمكاني أن أقول إنه هو من قام بتسميتي، ولكن بدلًا من ذلكَ سألتُ: «لماذا توقفت الحرب؟»

- حرب روسيا والصين؟

فأومأتُ برأسي.

- لقد أبرموا اتفاقية، شراكة تكنولوجية لتطوير النموذج الأوَّلي. كان الصينيون يستطيعون فقط جعل الإنسان غير مرئي في البداية. ولكن الآن، حسب ما سمعته، وصلوا إلى أحجام أكبر بكثير. أنا متأكدة من أنهم قادرون الآن على جعل دبابة غير مرئية. إذا كنت تفكر في الهاجس الأكبر للروس، فربما يقومون بإخفاء طائرة مقاتلة! على أي حال، كما ترى، اجتماعي غدًا مهمٌّ جدًّا. إذا تمكنت من إقناع السفير الصيني بفكرتي، فإن الروس سيوافقون بالتأكيد.

- أي إنه سيكون للمعارضين في روسيا أيضًا مراقبون غير مرئيين في منازلهم.

ابتسمت كريستيل.

- آمُلُ ذلك!

ثم نَظَرَت إلى طبق الفطور الذي أمامي.

- لم تأكل شيئًا يا ضمير!

ربما في تلك الليلة كان يجب أن أفتح العلبة التي كانت في جيبي وآكلها.

- من قطع الكهرباء؟

قالت كريستيل: «أي كهرباء؟ أين؟»

لاحظتُ أنني كنتُ أفكر بصوتٍ مرتفع، فقلت: «لا تكترثي». وأكملتُ الحديث مع نفسي: ربما كان حقًّا مجرد عطل. ما أهمية ذلك على كل حال؟ في النهاية تحسن كل شيء في اليوم التالي وواصلت منغوليا حياتها، فقط أنا لم أستطع الاستمرار. عادت الكهرباء إلى جنوب منغوليا وأضاء كل شيء، ولكنني بقيتُ في الظلام.

في أثناء مغادرتي منزل كريستيل، طلبتُ منها شيئًا: «إذا سمعتِ عن أي تطورات تتعلق بالفلسطينيين، فمن فضلك أخبريني بذلك».

قالت: «بالطبع، لا تقلق».

ابتسمت أولًا وقَبَّلتني من خدي، ثم أمسكت وجهي وتحدثت بجدية: «لقد أخطأ جنجافر يا ضمير. خطأ لا يجب أن يقترفه أي مُضيف. لقد اعتبر جنجافر نفسه إلهًا، إله سلام قوته تكفي كل شيء، ويمكنه إيقاف أي حرب. ولكنه بالطبع لم يكن كذلك. وعندما أدرك ذلك، عانى كثيرًا. عندما أدرك أنه مجرد إنسان، احترقت روحه وقتل نفسه. نحن لسنا آلهة يا ضمير. إياكَ أن تنسى هذا أبدًا!» ثم ابتسمت مرة أخرى وقالت: «سنة جديدة سعيدة!»

كانت المسافة بين كنوكه هايست ومطار زافينتيم 118 كيلومترًا. قُدتُ الطريق الذي كان يجب أن يستغرق ساعة ونصف الساعة في 51 دقيقة. لأنني عندما نظرتُ إلى التشيللو على المقعد المجاور لي رأيتُ تلك الفتاة الصغيرة، وعندما نظرت إلى الطريق السريع أمامي رأيتُ صحراء جوبي؛

لذلك كنتُ أدوس على دواسة الوقود وأبحث عن شيء ما لأصطدم به، ولكن لم يكن هناك شيء.

عندما دخلتُ بوابة المطار، نظرتُ إلى اللافتات لأجد مكانًا للتدخين كالعادة. ثم في أقرب غرفة زجاجية، استنشقتُ دخان عشرات السجائر بينما كنتُ أشاهد الناس وهم يطاردون حقيبة دليل الطريق. رن هاتفي عدة مرات، ولكنني لم أرد. على كل حال، كنتُ سأرى جميع المتصلين في المساء. فأيًّا كان ما يريدون قوله لي، بعد بضع ساعات يمكنهم أن ينظروا إليَّ ويقولوه. ولكن في البداية كان عليَّ أن أجلس في مقعد بالطائرة مدة ساعة و35 دقيقة، وأتحدث إلى نفسي، وأذهب إلى برلين.

عندما وطئت قدمي أرض مطار براندنبورغ، كانت الساعة 10:30 صباحًا. بعد خمس ساعات كنتُ سأركب طائرة من هنا مرة أخرى. وعلى الرغم من اختلاط حياتي العملية وحياتي الخاصة منذ سنوات وتحولهما إلى عقدة لا أستطيع حلها، فإنني لم أرغب في الذهاب إلى المقابلة التي كنتُ سأقوم بها مع صندوق التشيللو؛ فلقد كان الأمر أشبه بأخذ طفلك إلى المكتب. ولكن خزانات الأمانات التي في المطار لم تكن كبيرة بما يكفي أيضًا. في تلك اللحظة، خطر ببالي الفندق الذي بداخل المبنى. كان في الطابق السفلي في قسم المغادرين. أولًا ركبتُ المصعد، ثم مشيتُ في الممرات الخلفية ودخلتُ الفندق، وحجزت غرفة لوضع حقيبة سفري وصندوق التشيللو. كانت هناك مرآة بجوار التلفزيون مباشرةً. نظرتُ إلى تلك المرآة وحاولتُ الابتسام، ولكنني لم أستطع. كان وجهي لا يزال مثل القناع الحديدي، أو هكذا كنتُ أشعر. وربما لم أستطع الضحك لأنه لم يكن هناك ما يستدعي الضحك.

خرجتُ من الفندق ووضعتُ يدي في جيبي، وبدأتُ في المشي. كانت الممرات التي مررتُ بها أصبحت مزدحمة أكثر، حتى وجدتُ نفسي أخيرًا عند مدخل قاعة ضخمة. وكان عليَّ المرور من هذه القاعة إذا أردتُ الخروج من المطار، ولكن كان هناك الكثير من الركاب المغادرين. فجأة، بدأ هذا الألم في جبهتي، مثل السكين المطعون بين حاجبي، ومئات الإبر منتشرة في جميع أنحاء جسدي. لقد دُفِنتُ في هذا الألم بعد جنازة أسبجورن التي كانت قبل خمسة أيام، ولكنه أصبح الآن أكثر شدة. هذان السؤالان كانا يمران ذهابًا

وإيابًا في ذهني مثل رصاصتين: لماذا لم أمت في ذلك المخيم؟ لماذا بقيتُ على قيد الحياة؟ هل لأعيش هذا؟ لم أستطع الوقوف بجانب هذا الجدار إلى الأبد؛ لذلك كنتُ مُجبَرًا على بدأ السير باتجاه كل ما كان يسبب لي هذا الألم.

أولًا، مررتُ عبر أشجار الصنوبر البراقة الموضوعة من أجل ليلة رأس السنة الجديدة، ثم اختلطتُ مع الحشد. كانت هناك العشرات من مكاتب تسجيل الوصول جنبًا إلى جنب، وطوابير طويلة أمام كلٍّ منها. ومع كل خطوة كنتُ أخطوها كنتُ أتألم أكثر، وكان الألم يزداد سوءًا. لأنه بينما كان العشرات من الناس يصطفون في صف واحد، كانوا يضحكون ويتحدثون بحماس عن الذهاب في إجازة، أما في الصف الآخر، فكان هناك أشخاص آخرون يبدون كما لو كانوا يموتون وهم واقفون. لقد كانوا يقفون بلا حراك مثل التماثيل القديمة بأذرع أو سيقان مكسورة، وينظرون بتمعُّن إلى المسافة، فلم يكن أيٌّ منهم يضحك أو يمزح أو يتحدث. كان الرُّضَّع والأطفال الصغار فقط يُصدرون أصواتًا، وقد كانوا أيضًا يصرخون أو يشكون أو يبكون. لا بد أنهم تعبوا وضجروا من الانتظار. لقد أرادوا أن يأتي دورهم على الفور، وأن يصعدوا إلى الطائرة التي كانوا سيركبون على متنها -ربما لأول مرة في حياتهم- في أقرب وقت ممكن. ولكن كان من الواضح أن الكبار لا يفكّرون مثل الأطفال؛ لأنهم لم يمشوا إلا إذا اضطروا إلى ذلك، فهم لم يكونوا يخطون الخطوات إلا بناءً على تحذير الموظفين. كما كان بعضهم مشتتًا لدرجة أنهم نسوا حقائب سفرهم الموجودة بجوارهم في أثناء قيامهم بذلك. وكان هناك من يذرف الدموع في صمت، أولئك الذين حاولوا مسح أعينهم الجافة بالفعل بمناديلهم المجعدة. صفوف هؤلاء الناس كانت الأبطأ والأطول؛ لأن هؤلاء الركاب لم يرغبوا في الذهاب إلى أي مكان، فقد كانوا يريدون العودة إلى منازلهم. إنهم الأتراك الذين تم ترحيلهم. كانت مزدحمة للغاية لدرجة أنه كان من الممكن تغيير اسم المكان الذي كانوا فيه إلى صالات مغادرة الذين لا يودون الذهاب. لقد كانوا يصطفون أمام مكاتب مختلفة للذهاب إلى تركيا مع شركات طيران مختلفة، وكانوا يشعرون وكأنهم قمامة في ألمانيا، حيث وُلِدوا وترعرعوا. كنتُ متأكدًا من ذلك، لأنهم بعد قليل سيصعدون على متن طائرة ويُلقَون في الهواء مثل القمامة. وربما كان أولئك الذين غادروا البلاد عن طريق البر أكثر حظًّا. على الأقل لم يضطروا إلى الاستماع إلى الضحك المتزايد من الصفوف

المُجاورة لهم. لأن كل هؤلاء الناس كانوا يقفون جنبًا إلى جنب. ولكن على الرغم من أنهم كانوا في القاع، فإن أولئك الذين ذهبوا في إجازة لم يروا أولئك الذين تم ترحيلهم. بالطبع كان الجميع على علم بكل شيء، فكان واضحًا من الذي يذهب إلى أين، مثل الجرح المميت! ولكن كريستيل لم تكن البطلة الوحيدة التي تجاهلت هذا. ومع ذلك، كان بعض الألمان يلقون بنظرات خفية على الأتراك بجانبهم. وقد كانت تلك النظرات ملآنة بالخجل واليأس، لهذا السبب كانوا يحنون رؤوسهم عندما تلتقي أعينهم تُركيًا. وفي النهاية، لم تكن ألمانيا موطنًا لهتلر فحسب، بل كانت أيضًا موطنًا للمستشار ويلي براندت، الذي جثا على ركبتيه في وارسو واعتذر عن الهولوكوست نيابة عن أمته.

كنتُ أستمر في السير. كل ما أردته هو الوصول إلى بوابة الخروج في أسرع وقت ممكن وترك هذا الجنون خلفي. لذا أسرعتُ ومررتُ بين شخصين كانا يقفان بعضهما خلف بعض وأنا أعتذر، ثم أحاول الحصول على دور آخر في الصف. سمعتُ ضحكًا وأنا أمرُّ بأحدهم، وسمعتُ نحيبًا وأنا أمر بآخر. كنتُ أعتذر باستمرار، وكان الناس يفسحون لي الطريق، أحيانًا بالصراخ، وأحيانًا في صمت، أما أنا، فقد كنتُ أحاول القفز فوق حقائبهم والمُضي قدمًا.

- عذرًا... عذرًا... عذرًا!

كنتُ أتمنى لو كان الكيس الأسود معي. ليته كان معي! كنتُ سأخرجه على الفور من جيبي وأضعه على رأسي، ولا أرى أيًّا منهم. ربما بعد ذلك لن أشعر بأي ألم في أي مكان! حتى إنني كنتُ لن أعتذر لأي شخص. كنتُ سأسير مثل الأعمى وأنتظر الناس حتى يبتعدوا عن طريقي، ولكنه لم يكن موجودًا. لم يكن معي هذا الكيس، ولم يكن هناك أي شيء آخر يمكنني أن أقوله للناس، لذلك اعتذرتُ لأي شخص كان يعترض طريقي وخرجتُ من الباب الموجود بجوار تمثال بابا نويل اللامع.

كنتُ أشعر بالخجل الشديد لمجرد وجودي، لدرجة أنني كنتُ ألهث. وقفت بجوار الحائط وأغمضتُ عينيَّ وانتظرتُ زوال الألم. حاولتُ التركيز على أشياء أخرى؛ لذا فكرتُ في الوجه الذي رأيته قبل قليل في المرآة في غرفة الفندق. حلمتُ بالابتسام في وجهي، ولكن ذلك لم يحدث. ثم قلت: «اترك الأمر للوقت». بالتأكيد سيمر. أو اتركه للرجل الذي يُوقع ض. أمان.

ركبتُ سيارة أجرة وتحدثتُ التركية بدافع العادة، وقلت للسائق: «لنذهب إلى وانسي».

فرَدَّ بالألمانية قائلًا: «ماذا؟»

فبينما كان الأتراك يقودون نصف سيارات الأجرة قبل بضعة أشهر، كان ألمانيٌّ -الآن- يجلس خلف عجلة القيادة ويحدق إلى وجهي مُتظاهِرًا بعدم فهم كلمة وانسي. في هذه المرة قلت فقط: «وانسي!» وبمعجزة وهمية فهم، وضغط على البنزين. نظرتُ في البداية إلى نفسي في مرآة الرؤية الخلفية، ثم أخرجتُ الزجاجة من الجيب الداخلي لسترتي وقطرتُ دموعًا صناعية في عيني، فأصبحتُ أكثر هدوءًا الآن، بينما كانت تلك الدموع تنهمر على خدي.

بالطبع، لم أكن ذاهبًا إلى وانسي لدخول البحيرة، أو لم أكن سأشرب الخمر في أحد نوادي اليخوت. أجل، كنتُ ذاهبًا إلى أحد القصور الواقعة على ضفاف بحيرة وانسي، ولكن ما يحدث في ذلك المبنى لم يكن مناسبًا نهائيًّا للحياة اليومية المتصنعة في المنطقة؛ لأن هذا القصر كان المقر الرئيسي والاستوديو لشركة إنتاج أفلام. والأهم من ذلك، كان يتم تصوير الأفلام الإباحية هناك. بالنسبة إلى بعض الجيران المُحيطين الأكثر انفتاحًا، قد لا تكون هذه مشكلة. ولكن الأفلام التي تم تصويرها كانت تنتمي إلى نوع فرعي مظلم جدًّا من المواد الإباحية، وأعتقد أن هذا كان يغير كل شيء؛ لأن هذا النوع كان يسمى إباحية الكراهية. وعلى عكس الأنواع الفرعية الأخرى، كانت لهذه الأفلام حقًّا قصة وموضوع. فكما يُفهَمُ من الاسم، كان الأمر دائمًا يتعلق بجرائم الكراهية. ومع ذلك، حتى بعض الأغنياء من وانسي الذين تم تصنيفهم على أنهم عنصريون لم يتمكنوا من تحمُّل مشاهدة حتى دقيقة واحدة من تلك الأفلام بعد شربهم كأسين من خمر الجاغرميستر. لأن المشاهد التي تم تصويرها في كل غرف هذا المبنى التاريخي المكون من 4 طوابق، والتي رُفِعَت على موقع تصوير، كانت قاسية للغاية. على سبيل المثال، في غرفة تم تجهيز جدرانها بأعلام الكونفدرالية، اغتصب الرجال البيض الأمريكيون -الذين كانوا يتحدثون بلهجة الجنوب- فتاة سوداء، بينما في الغرفة الأخرى، قام حليقو الرأس الألمان ذوو وشم الصليب المعقوف بإهانة فتاة تركية بضع دقائق وتعذيبها قبل اغتصابها. بالطبع كانوا جميعًا ممثلين، حيث كان الجميع

في هذا المبنى يقوم بالتمثيل؛ لأن الزوجين مالكي الشركة -مارثا وغونتر- كانا دقيقين للغاية حول هذا الموضوع. فأولئك الذين أرادوا التمثيل في هذه الأفلام لا يمكن أبدًا أن يكونوا تمييزيين أو عنصريين في الحياة الواقعية. فعلى كلٍّ، في الأشهر الأولى من بدء هذا العمل، مروا بالكثير من التجارب السيئة جدًّا مع هذا الأمر. بمجرد أن سمع الناس موضوعات الأفلام التي سيتم تصويرها، تجمعت جميع الوحوش العنصرية في أوروبا الغربية في وانسي، وظهرت صور يمكن اعتبارها سقوطًا، والتي لا يمكن إيقافها إلا من خلال استدعاء الشرطة. ثم سرعان ما أدرك غونتر ومارثا أنهما لا يستطيعان العمل مع هؤلاء الأشخاص، فكانوا يرجحون فقط الممثلين الإباحيين المحترفين من BDSM. بالطبع من بينهم من لم يتحمل ثقل الموضوع وعنفه وتركوا التصوير، ولكن على الأقل، المشاهد لم تصل إلى مستوى الوحشية التي لا رجعة فيها.

في النهاية، كانت فكرة مارثا وغونتر عَمَّا يفعلونه بسيطة. كان هناك العديد من أنواع الكراهية المختلفة في هذا العالم، والسلوك الناجم عن هذا الكره يوصف في بعض البلدان بأنه جريمة كراهية، لذلك كان غير قانوني. ومع ذلك، فإن سَنَّ قانون حول موضوع ما لا يمكن أن يقتلع هذا السلوك من المجتمع ويلقي به بعيدًا. من هنا ظهرت إباحية الكراهية، فكانوا يبيعون الخيال لأناس لن يخرجوا أبدًا إلى الشارع ويهاجموا أول غريب يرونه، ولكن هؤلاء الناس كانوا يحلمون بفعل هذا. وفي الواقع من وجهة نظر مارثا، كان لإباحية الكراهية أيضًا جانب إصلاحي للمُشاهِد؛ لأن مشاهدة مشهد اغتصاب عنصري قريب من المشهد الحي في الذهن قد منع معظم الناس من اتخاذ إجراءات في الحياة الواقعية. أو بالأصح، هذا ما اعتقدته مارثا. إلى جانب ذلك، كانت الأفلام بالطبع مبنية على الفاشية الشوفينية. فكانت مجموعة من الرجال تحاصر امرأة أو رجلًا أعزَلَين، في البداية يبدؤون بالإهانة، ثم الضرب، وأخيرًا الاغتصاب. ويجب أن تنتهي جميع الأفلام بمتلازمة ستوكهولم؛ حيث يتوسل الضحايا لمزيد من الإذلال، أو يصبحون العبيد الأذلاء لمهاجميهم. كانت هذه هي النهاية السعيدة لإباحية الكراهية: كسر إرادة الضحية، مع تحول الاعتداء الجنسي إلى وسيلة للعقاب. وكان الفاشيون الشوفينيون يستطيعون رؤية هذا المشهد في الحلم فقط.

كان اسم شركة الإنتاج 120. أطلق غونتر عليها هذا الاسم نسبة إلى فيلم الكاتب بازوليني المُسمى سالو، أو 120 يومًا من سدوم، لأن فكرة إباحية الكراهية خطرت على باله في أثناء مشاهدة هذا الفيلم. وكان يعتقد أنه من بين أولئك الذين شاهدوا الفيلم –الذي صنعه بازوليني لانتقاد الفاشية الإيطالية بأقسى الطرق– كان هناك من أثارته مشاهد التعذيب والاغتصاب التي تم تطبيقها على الضحايا الشابات بدلًا من الشعور بالاشمئزاز مما رأوه، وهو بالتأكيد لم يكن مُخطئًا. في الحقيقة، سرعان ما وجدت إباحية الكراهية الزبائن، وجعلت مارثا وغونتر ثريين بما يكفي لشراء قصر في وانسي. أجل، فقبل إباحية الكراهية بفترة طويلة كان هناك نوع من الإباحية يُسمى اللعب العرقي، الذي كان يعتمد فقط على التمييز العنصري. وكان فيلم انتقام نيغا أكبر مثال على ذلك. ولكن غونتر ومارثا خَطَوَا خطوة أبعد من ذلك، وقررا عدم قصر الكراهية على التمييز العنصري. لقد اعتقدا أن جميع أنواع التمييز في العالم يمكن أن تكون موضوعًا للأفلام الإباحية، وبدآ اتجاهًا جديدًا. على سبيل المثال، عندما تعرفتُ عليهما، كانا يصنعان فيلمًا كهذا: تم اختطاف امرأة من تكساس من أمام المستشفى الذي ذهبت إليه لإجراء عملية إجهاض، وتعرَّضَت للإهانة والتعذيب ثم الاغتصاب من قبل مجموعة من رجال تكساس المُناهِضين للإجهاض. وكان مثل هذا السيناريو مختلفًا تمامًا عن أفلام اللعب العرقي القائمة على التمييز العنصري، فكان ابتكارًا رائعًا في هذا القطاع! لأن الجميع كانوا متأكدين من هذا: لن تعاني مارثا وغونتر في إيجاد الموضوعات في هذا العالم؛ حيث كان لإباحية الكراهية مصدر إلهام لا نهاية له يُسمى الحياة الواقعية. ولكن بالطبع كل هذا كان مسألة خبرة. وفي هذه المرحلة، بصفتي شخصًا وطئت قدماي كل جحيم العالم، دخلت في هذا المجال؛ فكنتُ أقوم بإخطار مارثا بمجرد أن تبدأ حركة جديدة للنزاع أو التمييز في أي مكان. نتيجة لذلك، تطورت جرائم الكراهية أيضًا جنبًا إلى جنب مع الحياة، متغيرة الشكل والجغرافيا باستمرار. بالطبع كانت هناك بعض الكلاسيكيات التي تحمل أعلام الكونفدرالية أو الصليب المعقوف! ولكن من أجل تحديث الأفلام التي يتم تصويرها، كان من الضروري متابعة الكراهية بعناية في الحياة الواقعية. لدرجة أنه إذا انضمت مجموعة مهاجرة هاربة من الحرب أو الجوع إلى مجتمع –كان يُعتَقَدُ أنه إنسانيٌّ للغاية حتى ذلك اليوم، وفجأة

ظهرت كراهية ضد هؤلاء الأشخاص في تلك المنطقة- فإنه سيظهر موضوع جديد في الأفلام. بالإضافة إلى ذلك، يمكن تجسيد جميع النزاعات السياسية والانقسامات الاجتماعية والتوترات الطائفية والعرقية الموجودة في هذه الأفلام. ولم يكن هناك شيء يُسمى استقطابًا كبيرًا أو صغيرًا. حيث كان هناك جمهور حتى للفيلم الذي جسد قيام مجموعة من الرجال الذين اعتقدوا أن طاقم أبولو 11 لم يذهبوا إلى القمر من قبل قط باغتصاب الممثلين الذين يجسدون طاقم أبولو 11. وبالطبع، في نهاية الفيلم اعترف رواد الفضاء أنهم لم تطأ أقدامهم القمر قط! المهم أنه كانت هناك كراهية تختلط بالجنس. يكفي أن يكون هناك استقطاب بين مجموعتين، وهو ما يوصل إلى الكراهية لأي سبب من الأسباب! لذا كان سر النجاح في صناعة إباحية الكراهية هو اكتشاف اتجاه جرائم الكراهية في العالم. فمن خلال الأفكار التي قدمتها لهما، صنع غونتر ومارثا أكثر من ثلاثمئة فيلم على مر السنين. وفي مقابل هذه الخدمة، كانا يقومان بمشاركة المعلومات التي حصلا عليها من عملائهما معي؛ لأن معظم العملاء كانوا من النوع الذي لا يمكن إصلاحه أبدًا، على عكس ما أرادت مارثا تصديقه. كلهم كانوا يركضون وراء ثورتهم المسلحة، ولم يترددوا في تكرار المشاهد في تلك الأفلام في الحياة الواقعية إذا سنحت لهم الفرصة. لذلك تمكن غونتر -مسؤول خدمة العملاء في الشركة- من تتبع أي سلاح تم شراؤه من أين أو لمن. أي إنه من الناحية الفنية كان يعمل في الظروف نفسها معي؛ حيث كان يخدم بشكل منفصل الأشخاص المتنازعين لخنق بعضهم بعضًا. فمثلما كنتُ ألتقي طرفين مُعاديين في اليوم نفسه، كان غونتر مع العنصريين في الصباح، ومع أولئك الذين يريدون الانتقام من العنصريين في المساء. لقد كان يدخل ويخرج من كل مكان مثل عامل توصيل الطلبات إلى المنازل، ويصور أفلامًا بصيغة VHS ويسلمها يدويًّا؛ لأنه لم يكن يثق في الإنترنت. كانت هذه هي النقطة الأخرى التي كان يشترك فيها مشاهدو إباحية الكراهية، بصرف النظر عن امتلاك أسلحة غير مُرَخَّصَة. كان لدى كل منهم جهاز فيديو. لم تكن أفكارهم فقط البدائية، بل كل شيء!

قالت مارثا: «مرحبًا يا ضمير!»

كانت تقف عند المدخل الواسع للبناء تناديني بابتسامة: «ادخل!»

نظرتُ إلى ما حولي بينما كنت أسير في الحديقة باتجاه البناء. في الواقع، ما كان يجري داخل هذا المنزل الفاخر المكون من برجين لم يُفهَم قط من الخارج. ومع ذلك، خلف هذه الجدران المبنية من الطوب الأحمر، كان يتم تصوير فيلم «القيامة الآن» الذي لا ينتهي أبدًا. القيامة إلى الأبد!

قالت مارثا وهي تعانقني: «إنه مثل مستشفى مجانين من الداخل!»

قلت متسائلًا: «كم عددهم؟»

- يتم تصوير ثلاثة أفلام.

كنا في مدخل واسع في الطابق الأرضي. وكنتُ أسمع أصواتًا مكتومة تأتي من خلف أبواب مُغلَقَة في طوابق مختلفة. على الرغم من أن الغرف كانت عازلة للصوت، فإن الصرخات تسَرَّبَت بطريقة ما واختلطت بعضها مع بعض في فجوة السلم ونزلت إلى الأرض التي كنا عليها. بدا المنزل نفسه وكأنه يئنُّ، لأنه لم يكن واضحًا أي صرخة قادمة من أين. فجأة فقط سمعتُ هذه الجمل التي بدت تأتي من مكان عميق. كان رجل يصرخ: «رَسَمتَ حدود بلدك بتلك المسطرة الحديدية! الآن هذه المسطرة لكَ...».

لم أستطع سماع البقية، ولكنني خمنت.

قلت لمارثا: «أنتِ مشغولة جدًّا مجددًا!»

عبرنا السلم الخشبي العريض، وسرنا باتجاه الحديقة الشتوية في الجزء الخلفي من المبنى.

- نعم، وقد بدأتُ العمل في هذه الطلبات الخاصة!

- أي طلبات؟

- هناك من يرسلون السيناريوهات. ويقولون: ندفع لكم الأموال، وقوموا بتصوير الفيلم. ولكن كما تعلم، جدول التصوير لدينا ممتلئ بالفعل! لهذا السبب لم يقبلها غونتر في البداية. ثم أصروا بشدة، لدرجة أن غونتر فرض أسعارًا مرتفعة لمجرد التخلص من هذا الفيلم. ولكن عندما وافق الرجال على السعر، بدأنا في تصويره مضطرين.

قلت: «إنه جيد من أحد الجوانب؛ فليس عليكِ أن تكافحي للعثور على موضوع. سآخذ إجازة صغيرة أيضًا!»

ضحكت مارثا. ومشيتُ إلى القسم الزجاجي ذي السقف العالي وجَلَستُ على أحد الكراسي العتيقة.

- هل تريد الشاي؟

- حسنًا.

أخذتُ نفسًا عميقًا ونظرتُ إلى الأمام مباشرةً، بينما دخلت مارثا المطبخ الصغير المجاور.

وفى المكان الذي تنتهي عنده الحديقة الشتوية، يبدأ بستان أخضر مورق خلف الزجاج مباشرة. امتد ذلك البستان أيضًا على البحيرة مع منحدر طفيف إلى أسفل. كان بإمكاني رؤية جزء كبير من بحيرة وانسي من المكان الذي أجلس فيه. كما تمكنتُ حتى من رؤية المنصات التي أُقيمت فوق الماء لعرض الألعاب النارية التقليدية لليلة رأس السنة. قبل بضع سنوات، شاهدتُ عرض الألعاب النارية من قمة هذا المبنى. كانت مجموعات الضوء التي تتصاعد من وسط البحيرة وتتفتح مثل زهرة في السماء تحوِّل ظلام الليل إلى صفحات ملونة من كتاب حكايات خرافية، مما يجعل الناس يشعرون بالسعادة كما لو كانوا على كوكب مختلف تمامًا. إن أي شخص قد شاهد المناظر الطبيعية الساحرة، حيث تغطي أقواس قزح المتتالية الساطعة الهواء والماء تحتها وتتغير من لون إلى لون، لم يكن ليصدق أن قرار الإبادة الجماعية لليهود (الهولوكوست) قد تم اتخاذه على شاطئ هذه البحيرة.

ولكن هذا ما حدث بالضبط. في الاجتماع السري الذي سُمِّيَ مؤتمر وانسي، اجتمع 15 ضابطًا نازيًّا ووضعوا خطة الحل النهائي التي تصور الإبادة المنهجية لليهود.

سألتُ مارثا، التي وضعت الشاي العشبي الذي أحضرته على طاولة القهوة بجواري: «لم تعقدا مؤتمر وانسي بعد، أليس كذلك؟»

توقفت مارثا وفكرت. ثم جلست على كرسيها وأجابت بدهشة: «لا، لم نفعل!» ثم ضحكت وأضافت: «كيف نسيناه؟! إن الشيء عندما يكون أمام عين الإنسان، لا يراه!»

قلت: «صوِّرا هذا الفيلم. ويمكن أن يكون السيناريو على هذا النحو: يتخذ النازيون قرار الحل النهائي، ثم يظهر مجموعة من الرجال اليهود في غرفة الاجتماعات. يأتون من المستقبل. جميعهم عُراة، ليس لديهم سوى كيباه على رؤوسهم. والأحداث تتسارع!»

قالت مارثا: «أعتقد أنه سيكون فيلمًا رائعًا! في الواقع، هذه الأيام تحظى القضايا التاريخية بشعبية كبيرة! في الشهر الماضي، قمنا بتصوير قصة دخول الهيروشيميين الزومبي إلى المكتب البيضاوي».

- من الضحية؟

- بالطبع الرئيس ترومان! ولن تصدق أن الفيلم بِيعَ كثيرًا في اليابان! ولكن أعتقد أن الاسم كان له تأثير أيضًا.

كنت على وشك الرد عندما اقترب منا رجلٌ مُسِنّ يرتدي زيًّا لرتبة لواء ومعه وفتاة. كانا يكرران الجمل على بعضهما. من الواضح أنهما كانا يحفظان السطور التي سيقولانها في الفيلم الذي سيمثلان فيه بعد قليل. لاحظتُ أنهما يتحدثان التركية، وإنْ كان بلهجة غريبة. حاولت الفتاة أن تمثل دور صحفية بأفضل ما تستطيع، وسألت اللواء: «أنت أحد الجنرالات الذين قادوا انقلاب 12 من سبتمبر. ما رأيك في الادعاءات بأن النساء المعتقلات بعد الانقلاب تم الاعتداء عليهن بهراوات الشرطة؟»

وكان الجنرال يرد بغضب: «كلام فارغ! لدينا جنود كالجبال. وإذا كنا سنقوم بتعذيب هؤلاء النساء، فما الحاجة إلى الهراوة؟»

قاطعتُ بروفتهما على مضض وسألت: «ماذا سيحدث بعد ذلك؟»

قالت الفتاة: «تقصد في الفيلم؟»

- أجل.

ضحك الجنرال وقال: «سيتضح أنني كنت أكذب». وأشار إلى الممثلة وتابع: «لأننا سنعتدي على هذه الصحفية بهراوة».

نظرا بعضهما إلى بعض وضحكا.

قلت: «مثيرٌ جدًّا للاهتمام». ثم فكرتُ: أي مجنون يمكن أن يطلب مثل هذا الشيء؟

غادر الجنرال والفتاة الحديقة الشتوية، وشرعا في السير باتجاه البحيرة لمواصلة البروفة. في ذلك الوقت، كانت مارثا -التي رأت أنني مهتمٌّ بالموضوع- تصف لي طلب تصوير آخر من تركيا. كانت قصته تدور حول فترة الأحكام العرفية بعد انقلاب 12 من سبتمبر مباشرةً. ولكن هذه المرة وقعت الأحداث في السجن. وهذه المرة، كان هناك مشهد مشابه لذلك في فيلم شهير لبازوليني. في هذا المشهد، أطعم حراس السجن السجناء برازًا، ثم أجبروهم على التبوُّل بعضهم في أفواه بعض.

قلت: «فهمتُ. سجن ديار بكر. أطعموا المعتقلين الأكراد برازًا».

قالت مارثا: «أتمنى ألا يكون خطأ؟» ثم أخذت هاتفها وتفحصت السيناريو المُرسَل إليها.

- مكتوب هنا أن السجناء أتراك. حتى إن السجناء يتحدثون اللغة التركية. والأكراد هم من يطعمونهم البراز.

- حسنًا، هذا كل شيء! إنها مثل القصة التي ذَكَرتِها للتو عن الزومبي من هيروشيما وهم يهاجمون ترومان؛ لقد عكسوا الأدوار.

- الآن فهمت... إنهم يريدون إباحية الكارما.

- الكارما؟ هل تُسمى هكذا الآن؟

قالت مارثا: «نعم، نعم. في البداية أطلقنا عليها اسم إباحية الانتقام، ولكن بعد ذلك، أدركنا من تعليقات العملاء أن كلمة الانتقام لم تكن مفضلة على الإطلاق».

لو كان بإمكاني الضحك، لفعلتُ ذلك. بدلًا من ذلك، سألتُ فقط: «متى أصبح مشاهدو إباحية الكراهية حساسين للغاية؟»

- صدقني، أنا أيضًا لا أعرف. عندما بدأنا هذا العمل، لم يهتم أحد بأي شيء. ولكن الآن، علينا أن نسمي حتى أكثر أفلام الانتقام عنفًا إباحية الكارما. بالطبع غونتر لا يحب ذلك على الإطلاق. أنت تعرف مدى كرهه للمصداقية السياسية!

قلت: «في الواقع، عملاؤك على حق. ليس من السهل اعتراف المرء بأنه ملآن بالكراهية. لهذا السبب قد يفضلون كلمة إباحية الكارما بدلًا من إباحية

الانتقام. لا سيما أن الانتقام يعني العين بالعين والسن بالسن. في الواقع، كما في هذا السيناريو الذي تدور أحداثه في السجن، يُقال على البراز براز! وهذا يُربِكُ مُشاهِدَ الفيلم. إذا استفزني ما أشاهده الآن، فإنه يبدو وكأنهم يستجوبونني إذا كنتُ مثل الأشخاص الذين ارتكبوا هذا التعذيب في الماضي. وهذا هو السبب في أنهم يلومون أنفسهم بشكل أقل عندما تُذكَر كلمة الكارما في اسم الفيلم؛ لأنه إذا كانت هناك الكارما فإنه لا يوجد انتقام، أليس كذلك؟ لا يوجد سوى السلوك والنتيجة والتطور. هذا يعني... من يُطعِم البراز يأكل البراز، ثم يقول: أنا أيضًا أكلت البراز! بكل بساطة».

ضحكت مارثا وقالت: «لا أدري. أنا امرأة من الطراز القديم. أفضل فيلم بالنسبة إليَّ هو قصة سادية مازوخية كلاسيكية! هل تعرف أغنية جورج دي جيافيري؟»

- لماذا لم تخبريني يا مارثا؟

كان غونتر هو المتحدث. وقف على عتبة الباب المطل على الحديقة الشتوية، وكان يبدو أنه متعبٌ نوعًا ما. فأجابت مارثا: «لقد وصل للتو. لم يشرب حتى الشاي!»

وقفتُ وصافحتُ غونتر، ولكن غونتر لم يترك يدي. رغم أننا التقينا بعد العملية، فإنه تفحَّصَ وجهي وكأنه يراه المرة الأولى، وسألني: «ألا تستطيع الضحك بعد؟»

قلت: «لا».

وبينما كان غونتر على وشك أن يقول شيئًا ما، رن هاتفي. لقد كان صبرا. قال إنه كان في الحديقة مع شقيقه شاتيلا وتردد في طرق الباب.

بعد إنهاء المكالمة، التفتُّ إلى مارثا وقلت لها: «ألم أكن أتحدث عن المتدربين الاثنين؟ ها هما ذان قد وصلا، وهما على الباب. هل تمانعين إنْ سمحتُ لهما بالدخول وأخبرتهما بما تفعلينه هنا بينما أتحدث أنا وغونتر؟»

قالت مارثا: «بالتأكيد!» ثم مرت من الحديقة الشتوية إلى الصالة. كنت سألقي نظرة على غونتر -الذي كان جالسًا على الكرسي الذي نهضت منه مارثا- وأسأله، ولكنه بادر بالسؤال: «هل أنت راضٍ عمَّا تم في هولندا؟»

كان يتحدث عن الفخ الذي نصبناه لدادجو.

قلت: «نعم، كان جيدًا جدًّا. شكرًا».

الآن كان عليَّ أن أطرح عليه سؤالًا: «هل كان الأمر يستدعي مجيئي إلى هنا؟»

- أخبرتك، إنه ليس شيئًا يمكن الحديث عنه عبر الهاتف.

- ليتك تعرف ما يمكن الحديث عنه على الهاتف!

ظل غونتر صامتًا، ونظر إلى البحيرة. كنت قد أعطيته كل المعلومات حول الأسلحة التي تحملها المنظمة الألمانية التركية في الغابة السوداء، وكل ما كان على غونتر فعله هو معرفة من اشترى الأسلحة ثم الاتصال بي وإخباري. ولكنه لم يفعل ذلك، وأصر على الاجتماع وجهًا لوجه.

- لماذا استَدعيتَني؟

رفع غونتر صوته قسرًا: «لأنني اعتقدتُ أنك لن تصدقني!»

لم أر الرجل المسن هكذا من قبل. اعتقدتُ أنه متعبٌ من كثرة العمل، ولكنه كان قَلِقًا فحسب، ولهذا كان يتصبب عرقًا. وفي الشتاء في برلين، في الحديقة الشتوية!

قلت: «حسنًا. قل ما لديك. ودعنا نرى هل سأُصدق أم لا».

انحنى غونتر نحوي من مقعده وهمس: «كاسبر كامينسكي».

- ثم؟ ماذا حدث لكاسبر؟

- هو!

- ماذا تقصد بـ «هو»؟

- كاسبر كامينسكي هو من توسط في بيع الأسلحة!

لو كنتُ أستطع الضحك، لضحكت.

- هل هذه مزحة؟

- لا.

كنت أعرف كاسبر منذ ثلاثة عشر عامًا. حتى إنني عرفت زوجته، وأمه، وأطفاله، وأصدقاءه، وبالطبع جميع زملائه في العمل؛ لأنني كنت أحد هؤلاء

الزملاء! كان كاسبر كامينسكي أحد المضيفين السبعة للمؤسسة الأولى للسلام العالمي، وكان غونتر على حق؛ بالطبع لم أصدقه.

- لا تَهذِ!

قال غونتر: «أقسم لك! رتب كامينسكي كل شيء. لقد وفر كل أسلحة المنظمة، وليس فقط ما رأيته في ذلك المعسكر».

بالطبع ما زلتُ لا أصدق ذلك، ولكنني سألت على أي حال: «ممن اشتراها؟»

- من الصربيين.

غَضِبتُ وسألته: «هناك ملايين الصرب في هذا العالم! من أيٍّ منهم؟»

- زيف.

لحظةً ظننتُ أنني سمعتُ خطأ.

- زيف... زيفكو؟

- أجل.

ما زلتُ أريد أن أعتقد أنني سمعت خطأ.

- زيفكو من بساروفيتش؟

قال غونتر: «نعم. جعل كامينسكي المنظمة تجتمع مع زيفكو. في بلغراد... أولًا لم يستطيعوا الاتفاق على السعر. ولكن بعد ذلك عرض كامينسكي أن يضمن المنظمة».

قلت: «مستحيل! كامينسكي لا يفعل شيئًا كهذا أبدًا! لا أحد يضمن مجنونًا مثل زيفكو مرةً واحدة!»

ثم بدأتُ أهذي، وتركتُ التحقق من هذا الأمر الذي لا يُعقَل، أن يكون كاسبر وراء شراء السلاح للمنظمة، ودهشت أكثر من كون كاسبر هو الضامن في الاتفاقية التي أبرمتها المنظمة مع زيفكو؛ لأن زيفكو كان يطلب تحصيل أمواله على مرتين. يسأل المشتري أولًا، وإذا لم يستطع الحصول عليها منه ذهب إلى الضامن، وإن لم يستطع الحصول على أمواله، فإنه سوف يقتل المشتري ويترك الضامن على قيد الحياة؛ حتى تتمكن عائلته وكل من يعرفه من رؤية وفاته.

لم أكن أدري ما الذي يجول في خاطري. نظرتُ أولًا إلى غونتر، ثم إلى البحيرة أمامي، وأخيرًا نظرتُ إلى شاي الأعشاب على طاولة القهوة بجواري، ولم أجد أي شيء أقوله، فقط كنت أقول لنفسي: مستحيل. هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا! قلت: لا يوجد مُضيف يمكنه فعل مثل هذا الشيء. لأن هذا كان ضد كل شيء. كل شيء! نحن لم نكن نحمل السلاح، ولم نكن نتوسط في شراء سلاح. كنا نفعل كل شيء خطأ، ولكننا لم ندخل في مجال الأسلحة قط!

يمكننا إجراء عمليات مرعبة بشكل لا يستوعبه عقل، ولكننا لم نكن نلمس السلاح قط! رفعتُ عيني عن شاي الأعشاب، ونظرتُ إلى غونتر وسألته: «هل يمكنك إثبات ما تقوله؟»

لم يُجِب. وبدلًا من أن يجيبني، أخرج شريط فيديو من الحقيبة المجانية الموجودة على خصره.

- ما هذا؟

- لقد سجلتُ محادثتي مع زيف. بالطبع سجلتها سِرًّا. كل شيء هنا. هل تريد المشاهدة الآن؟

قلت: «لا. لا، لا داعي للمشاهدة».

ثم نهضت. مررتُ من الباب الزجاجي وخرجتُ إلى الحديقة، وبدأتُ أسير باتجاه البحيرة. كان الجنرال والمرأة ما زالا يتدربان. استقبلاني بابتسامة عندما رأياني، ولكنني أدرت رأسي. مشيتُ إلى حافة البحيرة، ثم توقفتُ وبدأتُ أشاهد انعكاساتي على سطح الماء. نظرتُ إلى وجهي مليًّا، وفكرتُ في كلمة الظل في اللغة التركية. لا بد أن المقصود منها الانعكاس في البحيرة. وإذا لم يكن كذلك، كان يجب أن يكون! لأنه ما الفرق بين الانعكاس الذي أراه في هذه المياه الصافية وظلي على الأرض؟ يبدو أن ظاهر المرء ينعكس على الماء، وباطنه ينعكس على الأرض. وهذا هو الفرق! لهذا السبب كانت كل ظلال العالم مظلمة جدًّا. أصبحت أكثر هدوءًا. الآن يمكنني التفكير فيما قاله غونتر. بدايةً، كان من الواضح أنه لم يكن يكذب عليَّ؛ لذلك يجب عليَّ الآن قبول الحقيقة. كان كاسبر هو الذي اشترى السلاح لأولئك الأشخاص الذين حلموا بترويع ألمانيا عقودًا. علاوة على ذلك، كان ضامنًا للمنظمة. ولم تكن هناك إمكانية لعدم الدفع، وذلك نظرًا إلى أنه لا يمكن أن يعرض أسرته

للخطر. لذلك كان متأكدًا أن من ضمنه في هذه الصفقة سوف يدفع المال. بقي السؤال الأكبر: لماذا؟ لماذا فعل كاسبر هذا؟

أخرجتُ هاتفي للاتصال بكالهوِن. ولكن عندما نظرت إلى شاشة الهاتف، رأيتُ أنه بقيت ساعة ونصف فقط على موعد رحلتي. استدرتُ وبدأتُ أسير بسرعة نحو المبنى. لم يرحب بي الجنرال والمرأة هذه المرة، وهكذا انتقما مني. الآن يمكنهما الشعور بالراحة! لأنني متأكد من أن لديهما رغبتين إنسانيتين شأنهما شأن أي شخص آخر؛ الأولى: السلام العالمي، والثانية: لا تجعل دم أحد يذهب هباءً!

التقيتُ صبرا وشاتيلا في الحديقة الأمامية. كانت نظراتهما خافتة. كنتُ على يقين من أنهما في أثناء تجولهما في غرف التصوير بصحبة مارثا أعادا غربلة كل ما يعرفانه عن النشاط الجنسي. كان غونتر ومارثا هناك لتوديعنا، ثم جاءت سيارة أجرة، وعندما توقفت أمامنا، لم آخذ الشريط الذي كان غونتر يمسك به، وهمستُ في أذنه: «أعتذر منك عن شَكِّي فيما قُلتَه».

ابتسم الرجل المُسِن. كان قد صنع لي ذات مرة قضيبًا اصطناعيًّا نسخة طبق الأصل من قضيب الجنرال دادجو. لقد اعتاد طلباتي السخيفة والومضات المفاجئة، لقد اعتادها حتى أكثر مني.

- حين تكون قادرًا على الضحك، أخبرني!

قلت: «حسنًا. لا تقلق!»

ثم قبَّلتُ مارثا وركبتُ سيارة أجرة مع الأخوين الفلسطينيين. وفي أثناء تحرك السيارة، سمعتُ غونتر ينادي من ورائنا: «سنة جديدة سعيدة!»

بالطبع لم نتحدث قط طوال الطريق؛ لأنه كان هناك شخص غريب في السيارة. كان يقود السيارة دُنيَويٌّ لا يدري شيئًا عن الدنيا. ماذا يمكننا أن نقول بجانبه؟ هل نقول ما يدور في أذهاننا؟ مطلقًا. في النهاية، لم تكن مهمتنا سوى مشاهدة انهيار البشرية. ونظرًا إلى أننا لم نتمكن من التحدث عن ذلك، فقد اكتفينا بمتابعة المشهد.

بمجرد دخولنا مطار براندنبورغ، اختلطنا مع الأتراك المنفيين. ولكن هذه المرة لم أشعر بأي ألم. وجاء دور صبرا وشاتيلا ليشعرا بالاشمئزاز مما

رأياه، ولكن غثيانهما لم يدم طويلًا؛ لأن كل الأبواب التي توصلنا إلى الطائرة كانت من الدرجة الأولى. عندما مر الشقيقان عبر تلك الأبواب وغادرا الحشد، ذهبتُ لإحضار حقيبة سفري وصندوق التشيللو من غرفة الفندق، ثم نظرتُ إلى المرآة على الحائط للمرة الأخيرة وحاولتُ الابتسام، ولكن هذا لم يحدث، وغادرتُ الغرفة. ثم مررتُ من بوابات الدرجة الأولى وصعدتُ إلى الطائرة دون أن أصادف أيًّا من الأتراك المُرَحَّلين.

جلس صبرا وشاتيلا جنبًا إلى جنب في مقاعد الصف الأمامي. وكنتُ على الجانب الآخر من الممر وبجانبي صندوق التشيللو. وقبل دقائق قليلة من إقلاع الطائرة، لم أستطع التحمل، وسألتهما: «هل أيٌّ من أفراد أسرتكما في فلسطين الآن؟»

قال شاتيلا: «لا. ذهبوا جميعًا إلى بلدان أخرى منذ سنوات. لم يبقَ أحد في فلسطين».

قلت: «جيد. جيدٌ جدًّا».

أي إنه لم يكن لهم أقارب بين الذين اختبؤوا في الكهوف؛ لذلك كان بإمكاني الاحتفاظ بهذا السرِّ اللعين عنهم فترةً أطول قليلًا. ربما بضعة أيام أخرى.

- بالمناسبة، لقد أدلى جيش الكيان الصهيوني ببيان، وصرح أن هؤلاء الفلسطينيين المفقودين كانوا يفرون إلى الأردن.

سألني صبرا: «هل تصدق ذلك؟»

كذبتُ وقلت: «لا أعرف».

لم أكن أريد أن يعرفا الحقيقة بعد. على أي حال، كانت لدينا ليلة خاصة أمامنا. لذلك لم يكن لدي وقت للتعامل مع أي غضب أو نوبات غضب من حولي. لأنني كنتُ سأبقى مشغولًا طوال الحدث. على الرغم من أن مونيكا سكرتيرة كالهون هي التي اهتمت بكل التفاصيل، فإنني كان من المفترض أن أقوم بالترفيه عن الضيوف. ولسوء الحظ، كانت هذه مهمتي لأن هذا الحدث كان فكرتي.

في الواقع، بدأ كل شيء بجملة واحدة من كالهون في سبتمبر: «يجب أن نفعل شيئًا نحن أيضًا!»

كانت هناك ليالٍ خاصة نظَّمَتها جميع المؤسسات التي تعمل في المسار نفسه الذي نسير فيه. ومع ذلك، فإن المؤسسة الأولى للسلام العالمي لم تكن قط مهتمة بمثل هذا المُجون؛ حيث كانت دائمًا ترى نفسها في القمة، لأن عملنا كان جادًّا للغاية. لم تكن لدينا الحاجة ولا الوقت لجمع بعض الحمقى معًا والثمالة في بهو أي فندق، ولكن الأوقات تغيرت. كنا على مشارف الألفية الجديدة، وبالطبع كل شيء يفقد جديته ببطء! لذلك، اعتقد كالهون أنه يجب علينا أيضًا تنظيم ليلة خاصة، ويجب أن تصبح هذه الليلة عادة سنوية. وكنتُ أجيب –على افتراض أن الأمر لن يتعلق بي–: «بالتأكيد، بالطبع... يجب علينا فعل هذا!»

سأل كالهون: «حسنًا، لكن كيف سيحدث؟ أحتاج إلى إيجاد موضوع لهذه الليلة! يجب أن يكون لليلة هدف!»

بعد أن كنتُ متعففًا في مثل هذه الأحداث حتى بلغت السابعة عشرة من عمري، لم أكترث بالتأكيد بحلم كالهون. في الواقع، كنتُ سأنهض للخروج من مكتبه حين قال لي: «دقيقة! أعطني فكرة قبل أن تذهب!»

كنتُ أمزح حين قلت له: «لقد قُلتَها للتو! هذا هو موضوع الليلة: دقيقة!»

- ما معنى دقيقة؟
- سلام مدة دقيقة!
- لم أستطع فهمك؟

اضطررتُ إلى إطالة النكتة لأن كالهون لم يضحك بعد.

- سلام مدة دقيقة! أعتقد أنه سيكون أمرًا رائعًا! نضع يومًا محددًا، ثم في ساعة معينة، ومدة دقيقة كاملة، تتوقف جميع النزاعات والحروب في العالم.

لم يضحك كالهون بعد. اعتقدتُ أنني ربما إذا بالغتُ أدرَكَ أنني كنت أمزح.

- بالطبع في السنة الأولى ستكون دقيقة، وفي السنة الثانية يكون سلامًا مدة دقيقتين، وفي السنة الثالثة ثلاث دقائق... فَكِّر في الأمر كأنه حملة! مدة السلام العالمي تزداد بمعدل دقيقة واحدة كل عام!

ثم أخرجتُ هاتفي وأجريتُ عملية الضرب، وقدمتُ خاتمة مزحتي: «وهكذا، بعد 525600 سنة، سيكون هناك سلامٌ عالميٌّ دائم! نعم، بالطبع وقتٌ طويلٌ جدًّا، ولكن أفضل من لا شيء! على الأقل أمامنا تاريخٌ محدد! رغم أننا لن نعيش حتى نصل إلى هذه اللحظة، فإننا نعلم أن هذا الغباء الذي يسمى الحرب سينتهي يومًا ما! بعد 525600 سنة، سيعيش الجميع في سلام! هل يمكن أن يكون هناك أي شيء أكثر تفاؤلًا من ذلك؟»

حين يكون المرء يمزح، يظهر هذا من طريقة ضحكه في بداية مزاحه. ولكن بما أنني لا أستطيع الضحك، اعتقد كالهون أنني جاد، والأسوأ من ذلك، أخذ ما قلته على محمل الجد وقال: «رائع! هذه فكرة عظيمة! أحسنت! ابدأ الاستعدادات الآن! أنت مسؤول عن هذا العمل!»

هذه هي الطريقة التي تم بها وضع الأساس للحملة التي عُرِفَت فيما بعد باسم: «دقيقة واحدة أخرى». في ذلك اليوم، وقعتُ ضحية ثرثرتي هذه، ووجدتُ نفسي على متن هذه الطائرة. بالطبع أُقِيمَ الحدث في جنيف، ونحن الآن في طريقنا إلى هناك. لدينا مشكلة واحدة فقط؛ لم يعلم أحد أنه في 29 من ديسمبر، في تمام الساعة 22:00 بالضبط، ستكون هناك دقيقة سلام على الأرض. خصوصًا أولئك الذين يطلقون النار على أي شخص بالسلاح في أي مكان في العالم. أولًا، فكرتُ في استدعاء عدد قليل من قادة التنظيمات المسلحة الذين أعرفهم جيدًا. كانت هذه التنظيمات تقوم بتهريب المخدرات والاختباء وراء أي أيديولوجية؛ لذلك كان يكفي أن نتفق على المال، وبعد ذلك يمكنني إجراء مكالمة فيديو وبثها في القاعة. كان عدد قليل من رجال العصابات يطلقون النار يمينا ويسارًا في الغابة حيث كانوا يختبئون، ثم يتوقفون مدة دقيقة. وهكذا كان الضيوف سيشاهدون كيف تبدو هدنة مدتها 60 ثانية في البث المباشر. ولكن بعد ذلك قلت لنفسي: عليك اللعنة، يمكنك القيام بذلك العام المقبل. كان من الواجب عليَّ ألا أتسرع. كان أمامي 525600 سنة لتحقيق السلام العالمي!

بمجرد نزولنا من الطائرة، ركبنا السيارة التي تنتظرنا وانطلقنا إلى قصر الأمم. كان من المقرر عقد الحدث الخاص هناك؛ إنه المكان الذي التقيتُ فيه رئيس وزراء تركيا وإعجاز منذ سنوات. واليوم يسأل رئيس الوزراء هذا شعبه: هل يوجد إله؟ أما أنا، فأبيع السلام للناس. في الواقع، لم تكن أوضاعنا مختلفة؛ كنا نحاول كسب الوقت، لأنه في هذه الحياة لم يكن لدينا شيء آخر لنكسبه. علاوة على ذلك، لم يكن ذلك همي الوحيد؛ لأنني سرعان ما سأجلس إلى المنضدة نفسها مع كاسبر كامينسكي وأبحث في عينيه.

وكما اتفقنا، استقبلتنا مونيكا عند باب موظفي المبنى. وكان الرجل الواقف بجانبها يحمل في يديه البدلات الرسمية الخاصة بنا.

- تأخرتم! تأخرتم جدًّا!

كانت مونيكا متحمسةً للغاية، لدرجة أنها صرخت فينا دون وعي.

قلت: «أنا أعرف. هَدِّئي من روعِكِ!»

دخلنا المبنى ومررنا بالممرات، وكانت مونيكا لا تزال تصرخ.

- بدأ الناس في القدوم! والكل يسأل عنك، وتحيرت ماذا أفعل! (ثم نظرت إلى ساعتها) لديكم 15 دقيقة لارتداء ملابسكم!

توقفنا أمام المرحاض.

قلت: «حسنًا، اذهبي أنتِ إلى القاعة».

ذهبت مونيكا إلى القاعة مُسرِعة، وأخذنا بدلاتنا الرسمية وذهبنا إلى الحمام، ثم تفرقنا في أرجاء الحمام وبدأنا نغير ملابسنا. وبينما أخلع قميصي، شعرتُ بمدى تعبي. كنتُ متعبًا جدًّا. جدًّا. رقبتي تؤلمني، وظهري، وخصري، وساقاي... وبالطبع رأسي يؤلمني. كان الأمر كما لو أن كل واحد منهم يريد أن يسير في طريقه الخاص ويبدأ حياة جديدة في جسد منفصل؛ فقد استيقظتُ في منزل كريستيل في كنوكه في هذا الصباح، ودخلتُ في جدال مع غونتر في برلين بعد الظهر، والآن أحاول ارتداء بدلة رسمية في دورة مياه في جنيف، وأنا غاضب من نفسي. كنتُ أفكر قائلًا: ليتني اخترتُ موعدًا آخر لهذا الحدث. على سبيل المثال 29 من فبراير! إذن لن أضطر إلى التعامل مع هذا الهراء كل عام! ولكنني مثل الأحمق اخترتُ 29 من ديسمبر؛

لأنه يصادف الذكرى السنوية لمذبحة الركبة الجريحة، التي قُتِلَ فيها أكثر من 300 لاكوتالي على يد جيش الولايات المتحدة الأمريكية. تم إبادة الأشخاص العُزَّل بمن فيهم من الأطفال والنساء في المعسكر الذي يعيشون فيه في غضون ساعات قليلة. في الحقيقة، يمكن القول إن كل شيء بدأ بحلم. كان أحد الشامانيين من قبيلة بايوت يُدعى وفوكا يحلم بتحرير جميع الشعوب الأصلية من عبودية الولايات المتحدة، ثم اختار طقسًا قديمًا –وهو رقصة الأشباح– ليكون رمزًا لهذا الحلم. تمامًا كما تحول لمس تمثال تي سيركليس في بروكسل إلى رمز للمقاومة، أصبحت رقصة الأشباح رمزًا للمقاومة أيضًا، مما أعطى السكان الأصليين الذين تم سجنهم على أرضهم الأمل. ولكن بطبيعة الحال، لا يمكن للجيش الأمريكي أن يتقبل هذا الأمل. لذلك، في يوم 29 من ديسمبر، في محمية باين ريدج بالقرب من نهر الركبة الجريحة، قتلوا 300 شخص في أثناء محاولتهم إيقاف رجل مسن كان قد بدأ في رقص رقصة الأشباح. وهكذا مات حلم وفوكا، ووُلِدَ الحلم الأمريكي. بالطبع لم يذكر جيمس تراسلو آدامز مثل هذه المذابح عندما صاغ عبارة الحلم الأمريكي في كتابه ملحمة أمريكا. ولكن هذا ما حدث في ذلك اليوم، التاسع والعشرين من ديسمبر. كان آدامز يقول في ذلك الكتاب إنه يجب أن يحصل الجميع على فرص متكافئة في هذا البلد الجديد الذي يُدعى أمريكا، بينما كتب ل. فرانك بوم –الذي سمع بمذبحة الركبة الجريحة– في الصحيفة التي نشرها: لماذا لا يتم إبادة كل الهنود الحمر؟ إنهم يعيشون في بؤس على أي حال. وإذا ماتوا كان أفضل بالنسبة إليهم!

قال صبرا: «ماذا؟ من إذا مات كان أفضل له؟»

اتضح أنني كنتُ أفكر بصوتٍ عالٍ دون وعي مرة أخرى. بالطبع لم أجب عن سؤاله، وبدلًا من ذلك، قلت له: «بسرعة، تعال. ارتدِ ملابسك على الفور!» ثم أردتُ أن أبتسم، لأنه على الرغم من أنني أخبرتُ كالهون أنني اخترتُ 29 من ديسمبر لأنه كان ذكرى مذبحة الركبة الجريحة، فإن الواقع كان مختلفًا؛ لأن يوم 29 من ديسمبر كان عيد ميلاد بابلو كاسالس، أفضل عازف تشيللو على الإطلاق! كان من المنطقي تنظيم حدث سلام عالمي في عيد ميلاد كاسالس؛ لأن نغمة التشيللو التي سمعتها في الكثبان الرملية في صحراء

جوبي لم تغادر ذهني قط. ولكن بالطبع لم أخبر أحدًا بذلك، لأنه كان يكفيني فقط أن أعرف أنني مجنون.

ارتديتُ بدلة السهرة، وكنتُ أضبط ياقة سترتي في المرآة. ثم نظرتُ إلى الشقيقين الفلسطينيين اللذين جاءا برفقتي. كنا جميعًا نقف أمام المرآة. كان لدي الشخص نفسه على كلا جانبيَّ يمينًا ويسارًا، وحينها سألتهما: «هل أنتما توأمان؟»

كلاهما ضحك. ثم قال صبرا: «هل أنت جادّ؟»

في تلك اللحظة أدركتُ أنني لم أنظر قط إلى وجه هذين الشقيقين اللذين كنت أعرفهما منذ عدة أشهر. والصواب: لم أرَه عندما نظرتُ إليهما؛ لأن عندي مشكلة مع الوجوه، إذ أعتقدُ أن الجميع كانوا متشابهين. ولكن بالطبع لم أكن أريدهما أن يفهما ذلك.

- بالطبع لا! أنتما لا تريان، ولكني أضحك الآن!

خرجتُ من الحمام وأعطيتُ الرجل المنتظر عند الباب الملابس التي خلعتها. بصراحة، لم أكن أعرف حتى من هو، ولكنه كان يعرفني. أخذ ملابسي وقال لي: «سأرسلها إلى الفندق الذي تقيم فيه، مع متعلقاتك الأخرى».

تمكنتُ فقط من هز رأسي، على الأقل لإظهار أنني أفهم. في ذلك الوقت، كان صبرا وشاتيلا يخرجان أيضًا من الحمام ويضبطان ربطة العنق بعضهما لبعض.

قلت لهما: «تعاليا! لنذهب!»

بدأنا نمشي. عبرنا بضعة ممرات، ثم بضعة أبواب، وصعدنا إلى المصعد. عندما صعد المصعد إلى الطابق الثاني نظر بعضنا إلى بعض، وتحدث شاتيلا: «ولكن بالطبع لدينا الكثير من الأصدقاء».

- المعذرة؟

- لدينا الكثير من الأصدقاء في فلسطين. لا يزالون هناك.

لم يكن لدي وقت للرد؛ لأن باب المصعد فُتِحَ ووجدنا أنفسنا وسط الزحام، أو بالأصح، أنا من استقبل الزحام! لأن الجميع هجموا عليّ، المهنئون إياي على الحملة، ومن يرون وجهي أول مرة، وطبعًا الشاعر الحلبي يوسف علي!

أتى نحوي وهو يصرخ بصوتٍ مجلجل: «بانسانو (Benseno)! كيف حالك يا بني؟»

منذ أن عرف معنى كلمة ضمير باللغة التركية، دعاني بانسانو (أنا أنت هو).

ثم عانقني بحماس ولم يتركني. همستُ في أذنه: «أنا لَستُ بخير يا يوسف علي!»

عند سماعه ذلك، نزع ذراعيه عني ووضع يده على صدري بتعبير يملؤه القلق.

- دعني أرى...

ظللنا بلا حراك بضع ثوانٍ، ثم تحدث بابتسامة: «قلبك ينبض! لا تزال على قيد الحياة!»

قلت: «ولكن لا يمكنني الضحك».

- صحيح! ما زلت تبدو جافًّ الملامح!

البئر والدليل

كان هناك حدثان من عالمين مختلفين في جنيف في ذلك اليوم. لقد كانا مختلفين للغاية، لدرجة أنه كان العالم يبدو وكأن به مدينتين تُسميان جنيف، والآن ضمير ينتقل من حدث إلى آخر. كان يسير في طريقه إلى مهرجان الموسيقى على ضفاف بحيرة ليمان، هاربًا من اجتماع الأمم المتحدة بشأن الهجرة الجماعية الذي عُقِدَ في قصر الأمم. من المؤكد أنه لم يندم على الانفصال عن جاسينتا وجينا دون إخبارهما؛ لأنه كان يعلم أنه لا توجد طريقة حضارية لمغادرة ذلك الاجتماع. لقد أتوا من الجانب الآخر من العالم، من نيويورك، لإلقاء كلمة مدة نصف ساعة على خشبة المسرح. لذا فإن ضمير لو سأل جاسينتا: «هل يمكنني التجول في الشوارع مع إعجاز بدلًا من إلقاء الكلمة؟» ستبدأ جاسينتا في البكاء، وستصاب جينا بانهيار عصبي. من ناحية أخرى، كان ضمير يدرك أيضًا أنه يتعين عليه عاجلًا أو آجلًا فتح هاتفه الذي يرن باستمرار. كان المتصل جاسينتا. لا بد أن استراحة الغداء قد انتهت، وبدأ النصف الثاني من الاجتماع. في تلك اللحظة، كان ضمير متأكدًا من أن بعض الذكريات كانت تومض في ذاكرة جاسينتا، وتذكرت حين اختُطِفَ من استوديو للتصوير الفوتوغرافي منذ سنوات. حينها كانت جاسينتا خائفة للغاية، لدرجة أنها اعتقدت أنها ستموت على الفور بنوبة قلبية. لم يرد ضمير أن يجعلها تشعر بهذا الشعور مرة أخرى. ولو كان قد ترك وراءه جينا فقط وانصرف، ما كان سيفتح هذا الهاتف قط.

- ضمير؟ هل أنت بخير؟

- لا تقلقي يا جاسينتا، أنا بخير.

- إذن أين أنت؟ أنا أبحث عنك في كل مكان، وأنت لا ترد على هاتفك أيضًا. هيا، لقد بدأ الاجتماع!

- أنا آسف يا جاسينتا.

- لا بأس، هيا تعال. أنا عند باب الصالة.

- أنا آسف.

- لقد قلت لا بأس.

- أنا لن آتي.

- ماذا تعني بـ «لن آتي»؟

- انتهى كل شيء.

- ما الذي انتهى؟ ماذا تقول؟

- لا يمكنني فعل ذلك بعد الآن. أنا أستقيل من مؤسسة الكل للجميع!

- ضمير، لا تَهذِ! تعال إلى هنا بسرعة!

- لا تقلقي عليّ. أراكِ في الفندق.

- ضمير! اسمعني...

ولكن ضمير لم يستمع لها. وأغلق الهاتف في وجه جاسينتا أولًا، ثم أغلق هاتفه تمامًا. أخذ نفسًا عميقًا ونظر إلى إعجاز الذي يمشي بجانبه. ربما كان قد استمد منه القوة لاتخاذ هذا القرار. ربما هذه المرة كان إعجاز هو القطرة التي أفاضت الكأس، وبدخوله في حياة ضمير قلب كل شيء رأسًا على عقب. أو إن ضمير كان قادرًا على النظر إلى عيون الوحش المسمى القدر في لحظة شجاعة، ونطق بالجملة التي غيرت حياته: «أنا أستقيل من مؤسسة الكل للجميع!» بالطبع سمع إعجاز ما قاله ضمير، ولكنه لم يُبدِ رد فعل، ولكن ضمير كان في حاجة إلى التحدث والتشاور.

- إذا كنتُ صعدتُ إلى تلك المنصة اليوم، كنت سأتقيأ!

لم يرد إعجاز.

- لأنني لا أستطيع التحمل بعد الآن! لا يمكنني تحمل التسول من الناس، وهم ينظرون إليَّ بشفقة طوال الوقت.

كان إعجاز ما يزال صامتًا، لا يجيبه.

- لو كنتُ صعدتُ على تلك المنصة اليوم كنت سأقتل نفسي الليلة.

في النهاية حصل ضمير على ما يريد، وكان رد فعل إعجاز: «اللعنة! كلهم مخادعون على أي حال!»

قال ضمير: «أجل!» ولكنه لم يفهم تمامًا ما قصده إعجاز.

وتابع إعجاز قوله: «أتدري حقيقة هذه المؤسسة التي كنتَ تعمل بها؟ إنها المحتال الأكبر! هل تعلم ماذا يفعلون في إفريقيا؟ إنهم فقط يتجولون بالشاحنات!»

- يتجولون بالشاحنات؟ ماذا يعني ذلك؟

- إنهم يضعون شعار مؤسسة الكل للجميع على الشاحنات ويتجولون بها في القرى. وبالطبع يقومون أيضًا بتصوير مقاطع فيديو لهم، للإعلان فقط. ولكن الشاحنات كلها فارغة! هل تعرف ما معنى أن تمر شاحنة مساعدات من أمامك؟ فَكِّر في هذا الشعور! أنت تتضور جوعًا وتنتظر شخصًا ما لمساعدتك، ثم تأتي شاحنة تعتقد أنها ستتوقف لمساعدتك، ولكنها لا تتوقف! وأنت تقول: إنها ربما تذهب إلى قرية أخرى. وغدًا ستأتينا! ثم تجلس وتنتظر حتى الغد. ولكن هذا الغد لا يأتي أبدًا. هل فهمت؟

سمِعَ ضمير عن فساد العديد من منظمات الإغاثة المختلفة حتى ذلك الحين، ولكنها كانت المرة الأولى التي يسمع فيها عن تقنية التجول بالشاحنات. ومع ذلك، ولسبب ما، لم يستطع أن يصدق أن المؤسسة التي رعته وكبرته تكون بهذه القسوة، وسأل: «هل أنت متأكد؟ هل تفعل مؤسسة الكل للجميع ذلك؟»

فضحك إعجاز بعصبية.

- أنت لا تعرف أي شيء، أليس كذلك؟

لم يعرف ضمير كيف يجيب عن هذا السؤال. من الواضح أن إعجاز اكتشف كيف تعمل الجمعيات الخيرية بشكل أفضل من ضمير، ولكن ضمير أيضًا لم يُرد أن يبدو كطفل ساذج. وبينما كان الصمت على وشك أن يطول، ظهر أمامهما متجر، وأنقذ ضمير من إجابة عن السؤال.

قال إعجاز: «لنَشتَرِ بيرة من هناك».

وهكذا، لاحت أمامهما أقسام المتجر المختلفة، وأنواع عديدة من البيرة. وبهذه الطريقة ظل سؤال إعجاز مُعَلَّقًا، بالضبط كما أراد ضمير.

خرجا من المتجر وخَطَوَا بضع خطوات، ووقفا بجوار الحائط الأول الذي رأياه وفتحا البيرة. من الواضح أن إعجاز كان في عجلة من أمره؛ فقد نصب الزجاجة على فمه. هكذا كان ضمير يشرب في شوارع بروكسل بعد بضعة أشهر، كما تعلَّم من إعجاز. ولكنه لم يكن يعتقد بعد أن الشراب هو الحل لكل شيء؛ لذلك أخذ رشفة واحدة فقط. كان على وشك أن يأخذ رشفة ثالثة عندما عاد إعجاز إلى المتجر لشراء الزجاجة الثانية. في تلك اللحظة، فكر ضمير في جاسينتا. قال بهدوء: «أسألها عما إذا كانت تعرف أمر تجول الشاحنات هذا». ثم أجاب نفسه: «لا، بالطبع ليس لديها علم! إن جاسينتا ما كنت لتصمت عن شيء كهذا!» ثم تذكر الأطفال الذين تم أخذهم من سوريا وإرسالهم سِرًّا إلى سويسرا، وتذكر موقف جاسينتا منهم، ثم قال: «لا، الأمر هنا مختلف! إذا علمت جاسينتا بشيء من هذا القبيل، فلن تبقى في المؤسسة يومًا واحدًا حتى، وستستقيل!» في الواقع، لم يكن متأكدًا من ذلك أيضًا. ما يزال الأمر مُبهَمًا بالنسبة إلى ضمير حول من يمكنه تحمل ماذا، وإلى أي مدى يمكنه تحمله، أو من يستطيع أن يخدع نفسه. يمكن للمرء أن يفعل أي شيء من أجل قضية يعتقد أنها صحيحة. وسوف يعيش ضمير هذا الواقع، على الرغم من أنه لم يكن يعرف ذلك حتى الآن. وسيعيش بين الناس الذين برروا أفعالهم الأكثر وحشية بأنها هدف نبيل، بل وسيصبح واحدًا منهم.

خرج إعجاز من المتجر مع شاب. سارا إلى حديقة موجودة على الرصيف المقابل وتحدثا قليلًا، ثم وضعا أيديهما في جيوبهما. حدث كل شيء بسرعة كبيرة، لدرجة أن ضمير لم يستطع رؤية ما يتم تبادله. عندما ابتعد الشاب، نظر إعجاز إلى ضمير وأشار إليه ليأتي إليه، ثم دخل الشابان إلى الحديقة الصغيرة.

بعد نصف ساعة من شرب ضمير الحشيش أول مرة في حياته، شعر بانخفاض الجاذبية مع كل خطوة يخطوها، أو كما لو كان في ركبتيه زنبرك، ويمكنه القفز عاليًا جدًّا. كان يستمع إلى إعجاز. هو أيضًا كان يتكلم دون

أن يلتقط أنفاسه، ويرفع يديه باستمرار ويخفضهما. وشَبَّه ضمير إعجاز بقائد الأوركسترا (المايسترو)، واعتقد أنه يوجه الكلمات التي خرجت من فمه بهاتين اليدين. نعم، كان يقول لنفسه: إعجاز قائد! غاضب، عاطفي، متحمس! في الواقع، مع كل جملة جديدة يبدؤها، يهفهف شعره، ورأسه يتحرك إلى الأمام وإلى الخلف، كالمايسترو تمامًا. حتى إن لديه عصا تتأرجح. من يدري كم زجاجة بيرة شربها! لقد فرغت، ولكن إعجاز لم يدرك هذا. ثم راح ضمير ينظر إلى يديه، ورأى أنه لم يكن يحمل زجاجة بيرة في يده. وشعر بالارتياح لأن يديه كانتا فارغتين؛ لأنه الآن يمكنه وضعهما في جيبيه كما يريد. كان سعيدًا لأنه لم يكن مضطرًا إلى حمل أي شيء بهذه الأيدي في هذا العالم. ولكن إعجاز لم يكن سعيدًا. مطلقًا! لهذا كان يمشي ويتحدث بسرعة. يعرف كل حيل منظمات الإغاثة الدولية. وكلما حكى عن هذه الحيل زاد غضبه، وكلما زاد غضبه حكى أكثر. كان ضمير يستمع إلى قصص عن مؤسسة الكل للجميع والمؤسسات المماثلة التي لم يسمع بها من قبل. أخيرًا، وجد شخصًا يكره كل هذه المؤسسات الخيرية أكثر منه. كان إعجاز يرى كل هذه المؤسسات أعداءً له؛ فقد كانوا جميعًا مجرمين، بداية من أصغر جمعية، وحتى الصليب الأحمر!

- من المفترض أن 93 سنتًا من كل دولار يجمعونه يذهب إلى مساعدة الناس! هراء! انظر إلى هذا العالم وستعلم أين تحدث أكبر خيانة للأمانة؟ تجد أن هناك أشخاصًا يجمعون الأموال للأعمال الخيرية دائمًا، ثم تختفي جميع هذه الأموال!

كان إعجاز يخلط بين الأشياء في أثناء حديثه.

- إنهم يجمعون الدم على سبيل المثال، أليس كذلك؟ ثم يؤسسون على الفور مختبرًا باسم شركة وهمية لتحليل ذلك الدم. إنهم يسرقون مالًا من هذا العمل أيضًا! بالمناسبة، هل تعرف ما حدث في السودان؟ تعلم أنه كانت هناك حرب أهلية وانقسمت البلد إلى قسمين؟ عندئذٍ، بدأت عصابة في شمال السودان في اختطاف نساء من جنوب السودان لجعلهن جواري. ثم ظهرت إحدى منظمات المجتمع المدني، وبدأت حملة تبرعات، وجمعت أموالًا من جميع أنحاء العالم لإنقاذ هؤلاء النساء. ثم بدأت المنظمة في استعادة النساء من الخاطفين. ولكن

هل تعلم كيف استعادتهم؟ بالطبع دفعت الأموال واستعادتهم. قد يبدو الأمر على أنه حركة جيدة تمت بنيَّات حسنة، ولكن الأمر لم يكن هكذا على الإطلاق! لأن الأمر كان مخططًا له. لقد عقدت مجموعة من جنوب السودان صفقة مع عصابة شمال السودان هذه، وأخذوا نساءهم وسلموهن إلى هؤلاء الشماليين، ثم اتصلوا بمنظمة المجتمع المدني هذه، وقالوا إن نساءهم قد اختُطِفن. وقد دفعت تلك المنظمة المال واستردت النساء، وسلمتهن إلى عائلاتهن. تلك الأموال التي دُفِعَت تم اقتسامها بين الجنوبيين والشماليين.

هل يمكنك أن تتخيل؟ كان هناك أشخاص فعلوا هذا! فَكِّر في الأشخاص الذين شاركوا في حملة التبرعات هذه. إنهم لم يكن لديهم علم بشيء، ويعتقدون أنهم يتبرعون بالمال لتحرير بعض النساء في الجانب الآخر من العالم! ولكن في الواقع، فإن الأموال التي يتبرعون بها تتسبب في اختطاف نساء أخريات، ولكن لا أحد يعرف هذا بالطبع! لا تنفد مثل هذه الطرق الاحتيالية لجمع التبرعات! حتى إن هذه الطرق الاحتيالية لها عملية لوغاريتمية، هل تعلمها؟ لوغاريتمية تتعلق بأي الحملات جمعت أكثر التبرعات في ذلك الوقت! لأن هذه الحملات مثل سوق البورصة؛ يتغير دائمًا. ثم يتابع الآخرون هذه التغييرات، ويبدؤون في جمع الأموال من خلال إنشاء جمعيات ومؤسسات تهتم بأكثر قضية يكون الناس حساسين حيالها في ذلك الوقت. ولكن في النهاية، هناك كثير من الحملات التي لا يستطيع الناس متابعتها، وحينها يكتبون الملاحظة التالية على إعلانات الحملة: كل من ساعد في هذه الحملة ساعد في تلك الحملة الأخرى أيضًا! هل تفهم؟

كان ضمير يفهم ما يقوله إعجاز. كان يفهم كل شيء يسمعه، وكان يريد أن يسير مع إعجاز صوب بحيرة ليمان حتى آخر العمر. وكلما اقتربا من البحيرة، كان صوت الموسيقى يعلو، وكان المكان يزدحم من حولهما. وكان إعجاز يزداد غضبًا، أما ضمير، فكان يشعر أنه سيطير من السعادة؛ لأنه كان يتذكر كل خمس دقائق المحادثة الهاتفية التي أجراها مع جاسينتا. لن يصعد مرة أخرى إلى خشبة المسرح، ولن يلقي خطابًا مرة أخرى أبدًا! لقد أصبح حُرًّا الآن! كان يحكي لإعجاز -الذي يسير بجانبه- عن الجحيم الذي

غادره للتو بعد هذه المكالمة الهاتفية. وكلما سمع عن فظاعة عالم الجمعيات الخيرية، زادت قيمة حريته. ونسي ضمير في تلك اللحظة أنه لم يكن له وجه.

كان إعجاز يقول: «حتى إنهم يخدعون أنفسهم! لا يكفيهم أنهم يسرقون المتبرعين، بل يسرقون أيضًا مؤسساتهم! إنهم يختلسون الأموال باستمرار. في الواقع، كل شيء يبدأ بالفروع المحلية؛ لأن المال يتم جمعه هناك. وبمجرد جمع المال، يتم إرساله إلى المقر الرئيسي. إن رؤساء تلك الفروع المحلية يسرقون، ولكنهم لصوص صغار. اللصوص الكبار الحقيقيون في المقر الرئيسي! لهذا السبب يتظاهرون بأنهم أكثر صدقًا من الجميع، ويحاسبون الفروع المحلية على كل دولار. وبعد ذلك تجد عجزًا لا يقل عن مليوني دولار! وحين يُسأل: أين ذهبت؟ يقولونها هم، ويظهرون الشاحنات التي يتجولون بها فارغة. لقد قابلتُ مديري كل تلك المؤسسات الكبيرة! جميعهم ديكتاتوريون. لا أحد منهم يريد أن تصبح الفروع المحلية أقوى. هل تعرف لماذا؟ لأن لا أحد يثق بأحد! بكل بساطة. يثق الناس بهم ويتبرعون لهم، ولكنهم لا يثقون بعضهم ببعض؛ لأنهم يعرفون. هم يعرفون من هم! بالإضافة إلى ذلك...»

فجأةً صمت إعجاز كما لو كان قد تلقَّى لكمةً في وجهه. وكان ينظر إلى الرجل الذي أشار إليه ضمير. كان الرجل في منتصف العمر، نحيفًا جدًّا وأصلع. كان قد رفع للتو غطاء البالوعة الموجودة على الرصيف وسحبه بكلتا يديه. يبدو أنه اعتقد أنه نقل الغطاء الحديدي بعيدًا بدرجة كافية عن البالوعة؛ ولذا توقف عن شد الغطاء الحديدي. وكانت بجانبه حقيبة صغيرة مفتوحة. اعتقد ضمير أنه سيبدأ عرضًا مسرحيًّا من عروض الشارع، وأوقف إعجاز. الآن كان الاثنان يشاهدان هذا الرجل الذي يشبه الممثل الصامت وهما يقفان جنبًا إلى جنب. كانا على بعد مئات الأمتار من مركز المهرجان، وكان بإمكانهما سماع الموسيقى بسهولة وهي تتصاعد من المسرح الرئيسي. كان الناس يرتدون أزياء مختلفة، ويمرون في مجموعات، ويسيرون نحو الساحة الواسعة بجوار البحيرة. ولكن الوقت توقف بالنسبة إلى إعجاز وضمير، اللذين كانا لا يزالان تحت تأثير الحشيش. على الرغم من أن الأشخاص الآخرين من حولهما لم يكونوا مهتمين، فإنهما كانا ينظران إلى الرجل الصغير كما لو كانا مُنَوَّمَين مغناطيسيًّا. وأخرج الرجل من حقيبته الصغيرة قماشًا مشمعًا رماديًّا

مطويًّا، ووضعه على الأرض بالقرب من البالوعة، وفتح القماش المشمع. وفي وسط هذا المشمع الذي بدا وكأنه مفرش طاولة دائري، كانت توجد فتحة بحجم كرة القدم. لم يستطع ضمير وإعجاز فهم نوع عرض الشارع هذا الذي كانا يشاهدانه، وكانا ينتظران بفارغ الصبر الخطوة التالية للرجل. ثم حدث شيء لم يستطيعا التنبؤ به؛ فقد أدخل الرجل إحدى رجليه في البالوعة. لا بد أنه كان يعلم أن هناك دَرَجَ سلَّم بالداخل ويعرف مكان الدرج. وهذا يعني أنها لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يفعل فيها هذا. وجد السلم الذي كان يبحث عنه، وداس عليه ودس ساقه الأخرى فيه، وأدخل نصف جسمه إلى البالوعة. مد يده والتقط حقيبته الصغيرة ووضعها على القماش المشمع وهي مفتوحة، ثم بدأ في سحب القماش المشمع تجاهه ببطء، ونزل درجة سلم أخرى. وهكذا، أدخل جسمه تمامًا إلى تلك البئر الموجودة في منتصف الرصيف، ولم يتبقَّ من جسمه خارج البئر سوى يده التي تسحب القماش المشمع. ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى غطى القماش المشمع البالوعة بأكملها. ثم برز رأس الرجل من الفتحة الموجودة في منتصف المشمع، وضمير وإعجاز يشاهدان في حيرة ودهشة. لم يصدقا ما رأياه! رأسًا يقف على الرصيف مثل كرة على الأرض. وقام الرجل بحركته الأخيرة، وأغمض عينيه. بدأ ضمير يتجول حول المشمع والرأس في وسطه. توقف عندما وصل إلى الحقيبة المفتوحة. ورأى المكتوب بداخلها: !HELP (المساعدة).

أشار ضمير إلى إعجاز على المكتوب وقال: «ها هو ذا! تسول، هذا ما أسميه!»

ثم بدأ الناس يتجمعون ويدورون حول المشمع وينظرون إلى هذا الرأس المُلقى على الأرض. لم يكن الناس يعرفون بوجود فتحة بالوعة هناك، وظنوا أن الرجل قد غرق في الأرض. حدق بعضهم في ذهول، لدرجة أنهم بدوا وكأنهم سيرفعون المشمع وينظرون إلى تحته في أي لحظة. حتى إن بعض الأطفال حاولوا القيام بذلك، وقد منعهم آباؤهم في اللحظة الأخيرة.

قال ضمير: «مدهش! رائع!»

وكان هو أول من ألقى مالًا في الحقيبة. ثم انهالت الأموال على حقيبة الرجل كالمطر. أصبح المكان حول الرأس على الأرض مزدحمًا، لدرجة أن

ضمير اضطر إلى الابتعاد. وخطا خطوات قليلة ورأى عينَي إعجاز كانتا ممتلئتين بالدموع.

سأله ضمير: «ماذا حدث؟»

قال إعجاز: «أبي مريض جدًّا».

كان متأكدًا من أنه لم يسمع خطأً، ولكنه سأل مجددًا: «أبوك؟»

- هل تتذكر عندما خرجنا للتدخين أمام الباب؟

- في قصر الأمم؟

- نعم. حينها اتصلوا بي من المنزل... وكان أخي هو من اتصل. وأخبرني بهذا.

كان الناس يمرون بجانبهما، ولم يكن ضمير يعرف ما الذي يجول في عقله، ولم يستطع إعجاز إيقاف دموعه. في الأمام قليلًا، كان الحشد يشاهد الرأس على الرصيف، وأُصيبَ ضمير بالدوار.

- هل والدك على قيد الحياة؟

- نعم، لكن مريض جدًّا! مريض بالسرطان! وقال الطبيب إنه يمكن أن يموت في أي لحظة.

لم يستطع ضمير التوفيق بين ما سمعه في تلك اللحظة وما كان يعرفه عن إعجاز، وكان مهتمًّا بأن إعجاز لديه أب وأسرة أكثر من اهتمامه بمرض والد إعجاز.

- هل لديك عائلة؟

تحدث إعجاز بالتركية: «نعم -عليك اللعنة- لديَّ عائلة!»

فتح ضمير عينيه في دهشة.

- هل تعرف التركية؟

- أنا الذي كنتُ أقود هذا القارب، عليك اللعنة! أنا!

لم يفهم ضمير ما قاله إعجاز، وسأله: «أي قارب؟»

لم يجبه إعجاز، ومسح عينيه بظهر يده، ثم استدار ومشى. في البداية تابعه ضمير بعينيه، ثم بعد ذلك سار خلفه. كان على وشك أن يضع يده على

كتفه عندما توقف، لأنه فهم أي قارب كان يقصد. لأنه لم يكن هناك سوى قارب واحد في قصة حياة إعجاز؛ ذاك القارب الذي كان ينقل مهاجرين من تركيا إلى اليونان. وعندما غرق القارب، كان هناك طفل على متنه، وهو الوحيد الذي نجا من الحادث. كان ضمير يناجي نفسه: بالتأكيد! اللوحات التي رسمها... كان في كل لوحة منها مهاجرون يسافرون في قوارب مكسورة. وكما قال لي في قصر الأمم، إنه لا ينسى أبدًا المَكان الذي يذهب إليه ولو مرة واحدة. ولا يتوه بداخله أبدًا! لأن إعجاز وُلِدَ ليكون دليلًا.

نادى ضمير هذا الفتى الدليل من خلفه: «إعجاز!»

أجابه إعجاز: «ماذا بك عليك اللعنة؟»

سأله ضمير: «ما اسمك؟»

29 من ديسمبر

ليلة بعنوان دقيقة واحدة أخرى

تم إنشاء منصة في قاعة الطعام الرئيسية بقصر الأمم، وعُرِضَ بها فيديو عبر شاشة العرض يتحدث عن حملة للسلام بعنوان «دقيقة واحدة أخرى». كان المدعوون يجلسون حول الطاولة المستديرة يشاهدون الفيديو بتمعُّن، وكانوا يحاولون فهم ما تدور حوله تلك الحملة، ولكنني لم أرغب في أن يفهموا الكثير؛ وذلك لأنني أعتقد أنه شيء يدعو للسخرية، أن تحاول زرع فكرة سلام عالمي سيحدث بعد 525600 سنة. بعد قليل كان سينتهي هذا الفيديو وكنتُ، سأصعد إلى المنصة وأتحدث. ولكن إذا كان بإمكاني تشتيت أفكار الحاضرين بالدرجة الكافية، كان يمكنني أنا وكالهون تجنب التعرض للفضيحة.

لقد اخترتُ منذ أيام الأشخاص الذين سيجلسون على طاولتي. فيرديركو، وجريس ويوسي، وكاسبر كامينسكي، وطبعًا يوسف علي. ولكنني كنت أريد قضم أذن المدعو كاسبر الذي كان يجلس على يساري، ولكنني كنتُ أحاول أن أبقى هادئًا وأن أستمتع بجلوسي بجوار يوسف علي. لقد كان أولئك الذين شعروا بالملل من الفيديو الذي على شاشة العرض يشاهدونه بإعجاب. على كُلٍّ، كان يوسف أحد أشهر الشعراء في العالم، وعندما خرج من مخيم الأمان ذهب إلى فرنسا، وأثبت أنه متمرس في الشِّعر؛ فقد تُرجِمَت أشعارُه -التي تحدث فيها عن الشرق الأوسط في أبيات تراجيدية- إلى عشرات اللغات، وفي كل بلد نُشِرَت فيها تلك الأشعار، أثارت الإعجاب وعاطفة الشعور بالذنب لدى الجميع كما كان يجب أن يكون. ولكن بالطبع كانت قصيدة «عيون في

قماطة» أشهر قصائده؛ حيث كان يحكي فيها عن طفل رضيع في قماطة ووجهه ممزق إثر انفجار قنبلة في مخيم للاجئين. وكان يتحدث عن عيني الطفل، وكيف كان ينظر إليه. وأنهى القصيدة قائلًا: «كيف تعرف ما إذا كان الطفل على قيد الحياة؟ من مُعاتبته إياكَ يا أخاه!»

كنتُ في الحادية عشرة من عمري حينما حاز جائزة الإكليل الذهبي في مدينة ستروغا عن قصيدته تلك التي أهداها إليّ. كان مخيم الأمان آخر مكان رآني فيه يوسف علي؛ حيث حصل على إذن من جاسينتا عن طريق مؤسسة الكل للجميع وجاء إلى نيويورك فقط كي يلتقيني. شعرتُ بالملل كثيرًا في لقائنا الأول. ولم أكن أستطيع أن أفهم ما يريده هذا الرجل الثرثار للغاية مني، ولماذا تمتلئ عيناه بالدموع حين ينظر إليّ. بعد ذلك بدأ يراسلني. وعلى الرغم من أنني لم أكن أرد على رسائله، فإنه لم يتركني قط. لم أستطع معرفة مكانة يوسف علي في حياتي إلا العام الماضي، بعد جراحتي لزراعة الوجه. كان وجهي لا يزال مُغطًّى بالضمادات، وكنا نتحدث عبر الهاتف. كنتُ أقول: «أخيرًا أصبح لي وجه، ويمكنني أن أبدأ حياة جديدة». فأجابني قائلًا: «بالطبع. ولكن يجب أن تعرف كل شيء عن هذه الصفحة من حياتك أولًا كي تنتقل إلى صفحة جديدة».

لقد كان مُحِقًّا. ولكن الأسطر الأولى من صفحة حياتي كانت فارغة. كان عليَّ ملء هذه السطور قبل أن أتمكن من قلب الصفحة. كان يوسف علي يقول: «اترك هذا الأمر لي، سأتكفل به!» وشَكَّلَ الرجل البالغ من العمر 68 عامًا فريقًا من المراسلين الصحفيين المستقلين للكشف عن ماضيَّ، وبدأ في الانطلاق كمستكشف مقدام.

أجرى مقابلات عدة مع كل شخص ما زال على قيد الحياة وكان يعمل في مخيم الأمان في اليوم الذي تم العثور عليَّ فيه بين الخيمتين، ولكنه لم يستطع الوصول إلى أي معلومة عمَّن تركني هناك. وعندما كان على وشك أن يفقد الأمل، تذكَّر أن هناك أشخاصًا كانوا يجلبون الإمدادات بانتظام إلى المخيم من الخارج، ولذا سعى وراءهم هذه المرة. وجد المراسلون بعد ذلك رائف، وكان الباقي سهلًا كتمزيق جورب.

بفضل رائف، الذي كان يتذكر ما عاشه مع زرا كما لو كان بالأمس، دخل يوسف علي من طرف قرية بالاز وخرج من الطرف الآخر، وسَجَّل كل ما رآه وقاله كل من يعرف زرا. ولكن لم يكن كل هذا كافيًا، حتى وجد الرقيب الذي كان يعيش حياة التقاعد في مدينة إردك على الطرف الآخر من تركيا. وكان هو أيضًا لم يستطع نسيان زرا، التي انتحرت أمام عينيه. وأيضًا قد وجد حمزة، المسكين الذي اختطفني، وطبيب النساء الذي أبلغ عن صالون نيسا للتجميل. وبالطبع وصل إلى أسبجورن. وبمجرد أن عرفتُ تلك الأخبار، ذهبتُ للقاء أسبجورن وتعرفتُ عليه. وعندما كنتُ على وشك مغادرة منزله الذي يقع في مدينة ستافانجر، التقينا عند الباب مع السيدة العجوز التي كانت تحضر الطعام لزوجها المخمور. ولكنها عندما علمت من أكون صفعتني، وكانت المرة الأولى التي نتعانق فيها عند مدخل هذا الباب.

سألتُ يوسف علي قائلًا: «لماذا تفعل هذا؟» وظللتُ أسأل مرارًا وتكرارًا لأنني لا أثق بأي شخص في هذه الحياة: «لماذا تهتم بي إلى هذا الحد؟»

فكان يجيبُ قائلًا: «لأنه يجب تحمل المسؤولية». منذ تلك الليلة التي كان يستمع فيها إلى أنفاسي ويحدق إلى عيني كي يتأكد هل ما زلت على قيد الحياة أم لا، كان يحتاج إلى أن يتحمل المسؤولية. لقد كان يشعر بأنه مدين لجميع الأطفال والرُّضَّع الذين فقدوا حياتهم أو أُصيبوا في الحرب الأهلية السورية، لدرجة أنه أدى بحماس مهمة صعبة مثل البحث عن الماضي. وقد كنتُ في نظره جميع هؤلاء الرضع والأطفال! ومع ذلك، فقد علم الحقيقة. لم أكن أحد الأطفال الرضع الذين كانوا تحت القصف في سوريا، ولكن يوسف علي لم يكن يهتم بذلك؛ لأنه كان يرى شيئًا آخر في إصابتي. فبالنسبة إليه، كنتُ دليلًا حيًّا على أن الحرب التي تنشب في أي مكان في العالم يمكن أن تؤذي حتى الأطفال المولودين في مكان آخر.

كنتُ أقول له: «لا تُتعِب نفسك بعد الآن. لقد عثرتَ على أمي. دعك من هذا الأمر».

ولكنه كان يقول: «لا، إن هذا جيد بالنسبة إليّ، إنني أُسكِتُ الأصوات في رأسي!»

بعد ذلك، وفي شهر أبريل، كنتُ على وشك الذهاب إلى منغوليا، وبينما كنتُ في طريقي، اتصل بي وقال: «هل تعرف ما أفكر به؟ بالطبع إذا سمحتَ لي. أفكر في أن أكتب كتابًا... أريد أن أكتب كتابًا عن حياتك مع كل المعلومات التي جمعتها. أريد أن يعرف الجميع الحكاية التي وراء قصيدة «عيون في قماطة». ما رأيك؟»

قلت: «إذا كان يمكنني أن أضحك، فإنني سأضحك». وفي البداية فكرتُ أن أرفض، ولكن بعد ذلك أدركت مدى قيمة الهدية التي أعطاني إياها يوسف علي، وافقت. فعلى كل حال، لقد أعطاني حقيقة ماضيَّ. هذه المرة أنا المدين له! ولكن بالطبع كان لدي بعض الشروط. إذا كانت حياتي ستُكتَبُ في كتاب، كان من الضروري عدم ذكر بعض النقاط، فقررنا الآتي: أولًا: سيرسل إليَّ كل المعلومات التي جمعها، وتسجيلات اللقاءات، وسألقي نظرة عليها جميعًا. وبالتأكيد من بينها اللقاءات التي أُجريَت مع يوسف علي في الماضي وتحدث فيها عني؛ وهكذا كنت سأعلم كل شيء كُتِبَ أو قيل عني. سيبدأ الكتاب بمولدي، وسينتهي بانضمامي إلى المؤسسة الأولى للسلام العالمي. قصة تنتهي بكفاح الرضيع الذي تشوَّه وجهه في حربٍ أهلية من أجل السلام العالمي بعد سنوات لم تكن سيئة على الإطلاق! ولكن بالطبع كانت ستُذكَرُ سريعًا السنوات التي قضيتُها تحت وصاية جاسينتا، والسنوات التالية لها، ولن يُذكر أبدًا أنني احتُجِزتُ رهينةً في عيادة غير قانونية مدة نصف يوم، ولن يتم الحديث عن الوجه الآخر للمؤسسات الخيرية، ولا عن وجهة نظري بخصوص كل هذا. وبالطبع لن يرد في تلك الصفحات شيء عن ذلك اليوم الذي طَعَنتُ فيه ساق إحدى المتطوعات في نيويورك، ولا عن الفترة التي قضيتُها ثملًا في مدينة بروكسل. لذا كنتُ سأروي ليوسف علي ما هو ضروري فقط. وهو أيضًا كان سيزيد من نطاق لقاءاته بالحديث مع جاسينتا وجينا. وبالفعل قد قام بذلك، ورسم خريطة حياتي وأرسل إليَّ نسخة.

كان الفيديو في القاعة على وشك أن ينتهي. اقتربتُ من يوسف علي وهمستُ في أذنه قائلًا: «شكرًا جزيلًا لك».

أجابني قائلًا: «ماذا فعلتُ أنا؟»

ولكنني لم أستطع الإجابة؛ لأن الفيديو كان قد انتهى. وبما أنه لم يُضحِك أحدًا، فإن كل شيء كان على ما يُرام. حتى إنهم كانوا يصفقون. وفي أثناء التصفيق، نهضتُ من مكاني ومررتُ بين الطاولات وصعدتُ إلى المنصة مُنَظِّفًا حلقي استعدادًا للحديث. لم تكن لدي أي فكرة ماذا سأقول؛ لذلك لم أبدأ حديثي قائلًا: «أعزائي الحضور»، ولم أكن لأشكرهم على وجودهم هناك الليلة. بل كان عقلي في تلك اللحظة كالفراشة؛ كفراشة كانت تريد أن تطير وتذهب من عقلي، ولكن أمسك بها سلطعون وأكلها حية. كأنه هناك مذبحة في عقلي. ولكنني قلت ما ورد إلى فمي.

«لقد حارب الرومان قرونًا. ثم جاء يومٌ عرفوا فيه السلام تحت حكم أغسطس. وكما تعلمون جميعًا، سُميت هذه الفترة السلام الروماني. ولكن قبل كل هذا واجه أغسطس مشكلة كبيرة؛ لأن الرومان لم يعيشوا في سلام قط حتى تلك الفترة. لدرجة أنهم كانوا يُعَرِّفون أنفسهم بالحروب التي انتصروا فيها، أو بالحروب التي هُزِموا بها. كانت هوياتهم في حالة حرب! حيث كان ماضيهم ومستقبلهم عبارة عن حرب. ولكن الآن كان سيخرج أمامهم حاكم وسيقول: «انتهت الحرب!» كان أغسطس يعرف أن الرومان سيخافون. سيخافون من السلام! لأن معنى الحياة بالنسبة إليهم كان الحرب. حسنًا، ماذا عن السلام؟ بماذا كان سيفيد؟ هل هناك ثروة في السلام؟ أو هل سيكون هناك أبطال تُكتَبُ لهم الملاحم؟ لإنهاء كل هذه الشكوك، رَجَّحَ أغسطس طريقًا بسيطًا. لقد استخدم مأدُبَةً قديمة في تاريخ روما تُدعى لودي سايكولاريس (لعبة العلمانية) للترويج للسلام. وفي هذه المأدبة، كانوا يستعرضون مسرحياتٍ ويلقون أشعارًا تتحدث عن السلام. وهكذا، بدأ الرومان يقتنعون بالسلام. وبالطبع لم يكن هناك أي شخص يستطيع أن يفعل هذا غير أغسطس؛ لأنه كان حاكمًا. ولذا أي شخص هنا يجب ألا ينسى! إياك أن تنسى كلماتي تلك! في هذه الدنيا، من يجعلك تعلن السلام هو من يجعلك تعلن الحرب أيضًا!»

صَمَتُّ. ولم يكن هناك أي صوت في القاعة، فأخذتُ زجاجة المياه نصف اللتر التي كانت على المنصة، وفتحتُ الغطاء وشربتُ حتى فرغت. وفي تلك اللحظة، كان رأسي كالسلطعون؛ حيث كان يمكنني سماع أصوات المخالب

تفتح وتغلق سريعًا. مسحتُ فمي بظهر يدي وقلت جملتي الأخيرة: «ومن يُطعِمُكَ هو من يتركك تتضور جوعًا أيضًا!»

أنهيتُ حديثي، ولكنه فُهِمَ عندما غادرتُ المنصة. كان هناك القليل من الأشخاص الذين يُصَفِّقُون على مضض. فقط يوسف علي الذي كان يصفق بحرارة كبيرة؛ لأنه كان الوحيد في القاعة الذي قَدَّر كلماتي الأخيرة. تركتُ المنصة وذهبتُ إلى مكاني على الطاولة، ثم التفتُّ إلى كاسبر وسألته: «هل تعمل الآن لدى تجار السلاح؟»

توقعتُ أن يصدر عنه أي رد فعل أو إجابة. ولكن كاسبر تظاهر وكأنه المُضيف تمامًا. وبهدوء شديد، وضع المنديل القماشي الذي كان على رجله على الطاولة، ونهض قائلًا: «بعد إذنكم». وقبل ذهابه، حاولتُ التجربة مرة أخرى: «أعلم أنك ضمنتَ لهؤلاء الرجال شراء الأسلحة من زيفكو!»

ولكن كاسبر ظل يتجاهلني، وأخذ كرسيًّا وذهب إلى الطاولة التي كان يجلس عليها كالهون. انحنى وهمس بشيء في أُذُنَي كالهون، وفي تلك اللحظة تقابلت عيناي مع عيني كالهون. وبعد ذلك تركه وخرج من القاعة.

سأل فيديريكو وعيناه محدقتين من الدهشة قائلًا: «هل بدأ كاسبر عملًا في السلاح؟»

أجبته قائلًا: «لا تكترث. أخبرني عن تشاستا، أين هو الآن؟ وماذا يفعل؟»

نظر فيديريكو إلى الشخص الوحيد الذي لا يعمل في المؤسسة بيننا، فقلت: «هيا، يمكنك أن تخبرني. لا بأس. يمكن أن يسمعنا يوسف علي».

- تشاستا الآن في تكساس، وكل شيء جاهز للعملية. ينتظر ليلة رأس السنة الجديدة.

- هل تعرف عنوانه؟

قال فيديريكو: «أجل».

- إذا لم نوقف تشاستا، فإنها ستقع مذبحة في أمريكا.

- نعم، في تكساس وفي كاليفورنيا أيضًا. في اللحظة نفسها.

- أنا لا أتحدث عنهما، أتحدث عن المذبحة التي ستحدث فيما بعد؛ ستقتل دولة أمريكا المواطنين الأصليين!

قال فيديريكو: «يمكن أن يحدث ذلك».

- إذن يجب إيقاف تشاستا.

- نعم، ولكن كيف؟

- أعطني عنوانه، سأتولى هذا الأمر.

- ماذا ستفعل؟

- بالطبع سأقتل تشاستا.

ضحك يوسف علي لأنه ظن أنني أمزح. ولكن الآخرين لم يروا أن ما قلته مضحك، وأيضًا لم أرَه أنا هكذا. كنتُ أقول كل ما يخطر ببالي كما في خطابي السابق. لسبب ما لم يبقَ هناك ستار بين عقلي وفمي. ربما هذا السلطعون مَزَّقَه بالكامل. أراد جريس تغيير الموضوع.

- هل تعرفتم إلى البروفيسور؟

- أي بروفيسور؟

- هل تتذكرون اللجنة التي في إنجلترا؟ اللجنة التي تحدد حصص الأقليات؟ الأستاذ التركي المسؤول هناك...

- هل هو هنا؟

- نعم، إذا أردتم، يمكننا أن ندعوه إلى طاولتنا.

قلت: «بالطبع. سيكون هذا جيدًا جدًّا!»

بينما ينهض جريس ويبتعد، نظرتُ إلى يوسي.

- هل كنتَ تعرف أن الفلسطينيين المفقودين مختبئون في الكهوف؟

قال: «لا، ليس لدي علم بشيء كهذا. أي كهف؟ وأين؟»

- بالقرب من رام الله. من الآن فصاعدًا سيعيشون في الكهوف. أقنعهم شخص ما بذلك!

- هل أنت جاد؟

- إنهم يخافون لدرجة أنهم إذا استطاعوا حبسوا أنفاسهم واختبؤوا في قاع البحر الميت! ولكنهم لجؤوا إلى الكهوف بدلًا من ذلك!

قال يوسي: «سأبحث في هذا الأمر بمجرد أن أعود إلى إسرائيل».

وفي تلك الأثناء وصلت رسالة إلى هاتفي، وكان المرسل هو كالهون. قال فيها: «أنت لا تبدو بخير أبدًا. غادر القاعة فورًا وعد إلى الفندق».

نظرتُ إلى ما حولي أولًا، ثم إلى كالهون. لقد كان يبدو كما لو كان يتحدث مع صبرا وشاتيلا، اللذين كانا يجلسان بجواره. كان صبرا ينظر إليَّ من حين إلى آخر ويحكُّ جبينه كما يفعل عندما يكون متوترًا، وبعد ذلك يلف رأسه سريعًا؛ لذا كنتُ متأكدًا من أنهم يتحدثون عني. وهذا يعني أنهم متورطون في هذا العمل أيضًا! إننا لم نفترق مدة شهر! وفي النهاية لم أخترهما، وكنت أعلم القليل جدًّا بشأنهما. لقد رأيتُ الشقيقين أول مرة في مكتب كالهون، وقال: «هذان الشابان هما طالباك من الآن! عَلِّمهما كل شيء تعرفه!» ومع ذلك، فإنهما لم يكونا طالِبَيَّ، وإنما كانا مُراقِبَين كالذين في خيال كريستيل! كانا جاسوسين لا يتركانني أبدًا، ويبلغان كالهون بكل ما أفعله! قبل سنوات، قال إعجاز إنه يرسم توائم للاسترخاء. ربما هذان الأخوان كانا أحد تلك التوائم. لقد كان إعجاز هو من جعلني أتعرف إلى جنجافر، أي إنه كان يجب أن يكون جزءًا من هذه اللعبة! كان يمكنني أن أرى أن كل شيء مُترابِطٌ بطريقة ما! لقد كانوا يلاحقونني منذ كنتُ في السابعة عشرة من عمري! وربما أيضًا منذ مولدي! من يمكنه أن يعرف أن المؤسسة لم تضع تلك القنبلة التي انفجرت في مخيم الأمان هناك؟ من يستطيع التأكد من ذلك؟ الآن فَهِمتُ كل شيء! كانوا جمعيهم وراء كل ذلك، وكانوا يلعبون بي. كانوا يعرفون من قبل أن الانفجار سيحدث في ذلك المعسكر الذي يقع بمدينة فرايبورغ التي ذهبتُ إليها لكتابة تقرير التفتيش. لقد تأكدتُ من ذلك! ولهذا اتصل بي ذلك المدعو جلال الذي كان يرأس تنظيم الألمان التركي وحذرني من ذلك الأمر؛ وذلك لأن كاسبر كان قد أخبره عن مكان وموعد وجودي. حتى إنه ربما تلك القنبلة قد انفجرت في ذلك المعسكر لوجودي هناك. وذلك كما حدث بالضبط في مخيم الأمان. وهكذا سأتخذ الأمر بشكلٍ طبيعي دون أن أشك في أي شيء.

نعم، ينبغي أن يكون هذا ما حدث بالضبط! وكان كالهون هو الذي يعطي كاسبر هذه الأوامر. وبينما كان يشتري السلاح من زيفكو، لم يكن من الممكن التصريح بخلاف أنه كان ضامنًا في الأمر. كان الضامن الحقيقي في عملية بيع ذلك السلاح هو المؤسسة الأولى للسلام العالمي، وربما كان مؤسس

التنظيم هو نفسه مؤسس المؤسسة! بل بالقطع كان هو! كانوا يخشون اندلاع حرب عالمية في ألمانيا من جديد، فكانوا يؤججون لهبًا آخر، قائلين إنه هكذا لن يبدأ ذلك الحريق. ولذا كان فريدون -الذي تحول وجهه إلى شريحة دموية بسبب التعذيب الذي تعرض له في منطقة الغابات السوداء- يحاول أن يخبرني بهذا الأمر! لقد تحدث قائلًا: «يا ضمير، هؤلاء السفلة...» الآن عرفتُ كيف ستكتمل تلك الجملة: هؤلاء السفلة يعملون تحت إمرة مؤسستك القذرة؟ بالطبع هكذا! حتى عندما قلت إنني سأذهب إلى الغابات السوداء لهذا السبب، تظاهر كالهون بأنه لا يريد مني الاكتراث لهذا التنظيم، ولكنه لم يستطع منعي. كانت تلك أيضًا لعبة! وبالتالي، كنتُ أعتقد أنني كنتُ أتواصل مع التنظيم بمحض إرادتي، وبعد ذلك كانوا سيستخدمونني دمية! كنت أظن أنني كنت أتوسط بين الدولة الألمانية والتنظيم، بينما في الواقع كنت سأكون كالدمية في تلك المؤسسة! ولكن لماذا؟ لماذا خدعوني بلعبة كهذه؟ هل ذلك لأنني لدي وجه جديد؟ كتب كالهون قائلًا: «أنت لا تبدو جيدًا أبدًا!» ولكنني لم أكن وسيمًا بهذا القدر من قبل! هذا يعني أنهم لا يثقون فيَّ بعد الآن! وربما أيضًا أنهم كانوا يعتقدون أنني جُنِنت! ولكنني لم أُصَب بالجنون! بل على العكس! في النهاية عدتُ إلى صوابي!

شعرتُ بيدٍ على كتفي. كنتُ مذهولًا كأنني استيقظتُ من حلم. وقف جريس خلفي ومال نحوي قليلًا، وتحدث قائلًا: «ضمير، أُعَرِّفُك بالسيدة دفريم».

رفعتُ رأسي ونظرت، وإذا بي أرى سيدة تقف بجانب جريس وتبتسم لي. ولكنني لم أكن أعرف سبب التعارف. واصل جريس حديثه لأنه لم يصدر مني أي ردة فعل، وقال: «كنتُ أخبرتك... في إنجلترا...»

تذكرتُ من تكون تلك السيدة، ونهضتُ واقفًا.

- مرحبًا، أنا ضمير.

أشرتُ إلى المقعد بجواري.

- أرجوكِ، تفضلي.

حاولتُ جاهدًا التواصل بعينيَّ مع كالهون خلال الفترة القصيرة التي وقفتُ فيها، ولكنه لم ينظر إليَّ قط. جلستُ في مكاني وسألتُ السيدة دفريم: «كيف فعلتِها؟»

أجابت: «لم أفهم».

- ألم تُمَثِّلي السكان من الأصل التركي في تلك اللجنة؟
- بلى.
- أنا أسأل عن هذا. ماذا فعلتِ كي تتمكني من إيجاد الأتراك في إنجلترا؟ كيف يمكن لإنسان أن يعلن عن أُمَّة؟ كيف فَعَلتِ ذلك؟

ضحكت دفريم، وقالت: «هناك العديد من المعايير في البداية. المعايير التي تحدد كيف يمكن لأي مجتمع أن يفيد إنجلترا. ومن بين تلك المعايير كل شيء يمكن أن يرد إلى ذهنك. بمعنى آخر، تتمثل هذه المعايير بداية من ثقافة الطهو لهذا المجتمع، وحتى متوسط عدد الأطفال فيه. يُعَدُّ كل ذلك مهمًا. إنني من خلال تلك اللجنة أعمل على الدفاع عن الأتراك وفقًا لهذه المعايير. وبعد ذلك بالطبع...»

- بينما تقومين بذلك، ألم يهرب منكِ النوم؟
- ماذا؟
- مسؤولية كهذه، ألم تجعلكِ تفقدين عقلك؟
- بالطبع إنه حمل ثقيل، ولكن...

بدأتُ التفكير بشأن أمر آخر، ولذا قاطعتُ الحديث قائلًا: «هل تعلمين أنه سيتم تسريب التقرير الحقيقي الصادر عن اللجنة؟»

- نعم، أعلم.
- حسنًا، هل يمكنكِ أن تتوقعي ماذا سيحدث حينئذٍ؟
- ستندلع احتجاجات من جديد.

أجبتُ قائلًا: «لا، هذه المرة ستُراق الدماء!»

قالت دفريم: «لا أظن ذلك».

لو كنتُ أستطيع الضحك، لضحكت. على الأغلب كنتُ أتحدث بصراخ، لستُ متأكدًا.

- سنعمل على حل هذا الأمر بشكل آخر.
- كيف؟

- سنبدأ حركة التهجين المتشددة.

- وماذا يكون ذلك؟

- لن يستطع أحد أن يتزوج من عرقه أو إثنيته. سأبدأ بذلك الاتجاه في إنجلترا باسم المؤسسة الأولى للسلام العالمي!

ضحكت دفريم، فسألتها قائلًا: «لِمَ لا؟ كما لا يمكن للناس أن يتزوجوا من ديانات مختلفة في إسرائيل، التي تزعم أنها الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط، فإنه لن يستطيع الأشخاص من العرق نفسه في إنجلترا أن يتزوجوا، الأمر بسيط!»

لم تعد دفريم تضحك. سألتُها من دون تردد قائلًا: «هل سَرَقتِ التقرير؟ قل قُمتِ بتسريبه؟»

- هلا خفضت صوتك من فضلك أيها السيد؟

أمسك أحدهم بذراعي اليمنى، لذا التفتُّ ونظرت.

- بانسانو! بُنَيّ، هل أنت بخير؟

تحدثتُ مع يوسف علي قائلًا: «دقيقة واحدة!» ثم سحبتُ ذراعي بقوة وخلصتها من بين يديه، وعدتُ إلى السيدة دفريم.

- هل ترين قتل الناس بعضهم بعضًا أمرًا ممتعًا؟

وفي تلك الأثناء كان يُقَدَّمُ أمامنا الحساء. كانت دفريم تجيبني بغضب، ولم أكن أسمع ما تقول. وكان النُدُلُ يمرون بين الطاولات حاملين الأطباق، ولكن أحدهم كانت يده فارغة. كان الجميع على الطاولة ينظرون إليَّ ويقولون شيئًا ما، وكان النادل ذو اليد الفارغة يقترب منا. على الرغم من السترة البيضاء التي كان يرتديها، فإنه كان من الواضح مدى قوة جسده. لقد بدا وكأنه ملاكم أكثر من كونه نادلًا. كنتُ أتذكر الملاكم! كنتُ قد رأيته في الغابات السوداء. ملاكمًا كان يحمل اسم التنظيم على كتفه. كان هو أيضًا يتذكرني، وكان ينظر إليَّ أنا فقط بينما كان يقترب من الطاولة. ولم يتوقف حتى أتى بجانب دفريم. بعد ذلك أزاح حافة سترته، وجلب مسدس Glock من خصره بيده اليمنى، وأطلق من مسدس Glock Atomic 6 على رأس دفريم. وبينما كان

يريد الفرار من خلفي، مَدَّ يوسف علي يده وأمسك بذراع الرجل. لذا أطلق الملاكم النار مرة أخرى؛ أطلقها على جبهة يوسف علي.

تناثرت الدماء على جانِبَي وجهي. كنتُ أعلم أن الشخصين اللذين كانا بجواري قد قُتِلا؛ لذا لم أتحرك. كنتُ أفكر أنه لا داعي لذلك. حدث ما حدث، ومات من مات. حتى إنني أغلقتُ عينيَّ في هذه اللحظة. كانت تدوي الصرخات من حولي، ولكن داخلي كان يسوده صمتٌ عميقٌ. كنتُ أشعر بشيء يشبه السلام، لكن كان سلامًا مُظلِمًا للغاية، سلامًا يمكننا أن نشعر به عندما ندرك أنه لا شيء يمكن أن يكون أسوأ. بدأت أفتح عينيَّ تدريجيًا، وشاهدتُ الناس في حالة من الذعر يخرجون من القاعة متدافعين. هناك من سقط، وهناك الذين داسوا على الذين سقطوا وواصلوا الركض. ولكن كان هناك شخصٌ آخر هادئٌ مثلي؛ إنه كالهون. لقد كان يساعد الناس على النهوض من الأرض ويأخذهم نحو الباب بهدوء. طبيعيٌّ أن يكون هادئًا! لأنه كان يعرف ما سيحدث! نُظِّمَت هذه الليلة فقط لقتل المرأة التي كانت بجواري. إن تنظيم الألمان الأتراك يكره المرأة بالفعل! كان الأمر بسيطًا للغاية، حيث أعطى كالهون كاسبر الأوامر، وكاسبر بدوره أمر جلال، وكان على الملاكم فقط تنفيذ الأمر وضغط الزناد. كان يمكنني أن أفهم الخطة: ستموت السيدة، وبالتالي لن يظهر التقرير الحقيقي أبدًا، وبالتالي لن تشهد إنجلترا أي صراع. ولكن لكي يحدث كل هذا، كان عليَّ أن أتوصل إلى فكرة غبية وأنظم ليلة باسم دقيقة واحدة أخرى، وكان لا بد من إرسال دعوة إلى المرأة. إذا أخبرت أي شخص بكل هذا، كان سيعتقد أنني فقدتُ عقلي. ولكن لا، هم من فقدوا عقولهم، وليس أنا!

سَمِعتُ صوت سلاح مرة أخرى، ولكن هذه المرة كان يأتي من بعيد. قلت لنفسي: «لقد انتحر». قام الملاكم بالعملية وانتحر عندما أدرك أنه لن يستطيع الهرب. أغمضتُ عيني مرة أخرى لأنه لم يكن معي كيس أسود أضعه فوق رأسي، ثم سمعتُ صوت التشيللو في صحراء جوبي.

لم يأتِ أحد كي يساعدني على النهوض من مكاني. لا أحد يهتم. لا بد أنه لم يبقَ أحدٌ في قصر الأمم سواي أنا والموتى! اختلطت الأغنية المُسماة «بلاك سابث» بصوت التشيللو. فتحتُ عيني ونظرتُ إلى ما حولي، وحقًّا، لم يعد

غيري في القاعة. اتصلتُ بكريستيل. نظفتُ الدماء التي في أذني براحتي يديَّ وتحدثتُ إليها قائلًا: «مرحبًا يا كريستيل. مع الأسف لدي خبر سيئ. هل أنتِ متاحة؟»

- بالطبع!

- لقد كان الموساد هم من وَجَّهوا الفلسطينيين نحو الكهوف. على ما يبدو فإن جنجافر أعطاهم هذه الفكرة.

- يبدو هكذا بالفعل.

قالت كريستيل: «هناك شيء أسوأ».

نظرتُ أولًا إلى دفريم التي على يساري، ثم إلى يوسف علي الذي على يميني، وإذا بقطرات دم تسقط على كتفيَّ، وأخرى على صدغيّ.

- إنني أسمعك.

- تم إقناع عدد كبير من الناس بقدر المستطاع بالنزول إلى الكهوف، ثم... (أخذتُ السكين الذي كان بجوار الطبق، وسألتُ قائلًا): هل سيغلقون المداخل أم سيقتلونهم بالغازات السامة؟

بصراحة لم أستطع سماع رد كريستيل؛ لأنه في تلك الأثناء وجدتُ انعكاس وجهي على سطح السكين الذي في يدي، فكنتُ أنظر إلى وجهي المُلَطَّخ بالدماء. وربما لم أستطع سماع كريستيل بسبب انسداد أذني بدماء دفريم، أو إنني سمعتُ أو فهمتُ كل شيء بشكل خاطئ بسبب الدماء. وربما أيضًا الكيان الصهيوني لم يكن لديه خطة الإبادة الجماعية تلك. ولكن بعد ذلك قلت: «لِمَ لا؟» ما الذي تتسم به دون غيرها؟ ما الفرق بينهم وبين الأمريكان الذي قتلوا السكان الأصليين؟ والأتراك الذين قتلوا الأرمن؟ والصرب الذين قتلوا أهل البوسنة؟ والفرنسيين الذين قتلوا الجزائريين؟ والألمان الذين قتلوا اليهود؟ والإنجليز الذين قتلوا الهنود؟ باختصار: ما الفرق بين إسرائيل وبين أيِّ أُناسٍ يقتلون غيرهم؟ أليسوا هم أناسًا أيضًا ليقتلوا الفلسطينيين؟

وضعتُ الهاتف على الطاولة ونظرتُ إلى شاشة العرض على المنصة وقد كُتِبَ عليها ما يلي: «نحتفل اليوم ببدء العام الجديد بصفتنا المؤسسة الأولى للسلام العالمي!»

ولكن بعد ذلك أُزيلَ المكتوب وغَطَّت شاشة العرض كلمة: 2000.

لقد كان عامًا مثاليًا حقًّا للهوس الجنسي في التقويم! ولا سيما في النصف الثاني من ذلك القرن. ولقد كُتِبَت العديد من الكتب، وأُصدِرَت العديد من الأفلام حول ما سيحدث في عام 2000. وكان الإنسان في العديد من تلك الكتب والأفلام يخلق لنفسه حياةً جديدة بفضل التطور التكنولوجي. ولكن كان هناك أيضًا العديد من الحكايات المظلمة التي كُتِبَت حول سنة 2000. على سبيل المثال، ذلك الفيلم الذي صدر عام 1954م –والذي أدى بطولته الممثل ديريك هالي– كانت تدور أحداثه في صحاري أمريكا، حيث كان الجميع يهاجمون ويقتلون بعضهم بعضًا، ولكن طوال الفيلم لم يُذْكَر شيء عن أسباب تلك الممارسات. وفي المشهد الأخير كُتِبَت 2000 فوق عشرات الجثث في ظلام دامس، تمامًا كما حدث هنا الآن على شاشة العرض. مثل هذه القصص كانت تُسمى ديستوبيا نهاية العالم وما بعدها. فَكَّرتُ قائلًا: يا لها من غطرسة شديدة! كيف نعتبر أن هذه المشاهد اليومية التي يمكن مشاهدتها في أي حرب داخلية تحدث داخل أي بلد إفريقي هي ديستوبيا نهاية العالم؟ حَقًّا، إنه شيء مُحرِج! لأن العالم كان قد شهد كل تلك الوحشية المتمثلة في تلك المشاهد، والمزعوم أنها ستحدث في المستقبل. وتاريخ العالم ملآن بمثل هذه القصص الوحشية، فأيٌّ منهم كان خطرًا هكذا على البشرية؟ على سبيل المثال، هل اختلف تصور مجيء كائنات من الفضاء الخارجي والخوف من أن تُدَمِّرَ الناس عن الأشخاص الذين يدمرون بعضهم بعضًا حتى اليوم؟ وحتى فكرة كريستيل عن المراقبين غير المرئيين، كانت مشابهة لتقنية الطباعة والتحكم الموجودة منذ قرون. فعن أي ديستوبيا نتحدث بينما شهد العالم حقيقة تاريخية تسمى العبودية؟ وأيضًا كيف يمكن تأريخ الأحداث في رواندا أو البوسنة إلى ما بعد نهاية العالم لمجرد أنه يحدث في أمريكا الشمالية؟ كيف يمكن القيام بمثل هذه العنصرية الصارخة؟ في الواقع، إن تجاهل كل هذا والاعتقاد بفكرة الديستوبيا كما لو أنهم منتمون إلى المستقبل هو مجرد خداع لنا! إنه تزوير أن تقول للمشاهد: «لا تخف، حتى الآن الأمر ليس سيئًا إلى هذا الحد!» هذا على الرغم من أن الوضع الحالي سيئ بشكلٍ مُخيف! وفي الحقيقة، إن ادِّعاء أن تلك القصص ستحدث في المستقبل كان أكبر إهانة يمكن أن تُرتَكَب بحق أولئك الذين يعيشون في البلاد التي

يهاجم أو يضطهد فيها الجميع اليوم! لذلك، فإن الديستوبيا يمكن أن تُطلَقَ على الحكايات التي تروي أحداث الماضي. على الرغم من كل شيء، هناك حلم واحد حول المستقبل، وذلك لأنه الشيء الوحيد الذي لم يشهده العالم في تاريخ الديستوبيا، وهو: يوتوبيا (المدينة الفاضلة)!

ربما لو كان لعب ديريك هالي دورًا في فيلمٍ خيالي حول المدينة الفاضلة عام 2000 لما كنتُ فَكَّرتُ في كل هذا الآن. حتى لم يكن ذلك الفيلم ليخطر ببالي قط. ولكنه لم يكن من الممكن قط أن أستطيع التفكير في شيء آخر وأنا أرى كلمة 2000 تهتز أمام عيني على شاشة العرض التي كانت أمامي. لقد نَجَحتُ في التفكير مرة أخرى.

حدثتُ نفسي وقلت إنها لم تكن الألفية الجديدة قط في الواقع. وذلك لأنه تقنيًّا، كنا سندخل في الألفية الثالثة عام 2001. ولكن الإنسان يُصِرُّ على خداع نفسه؛ حيث إنهم منذ شهر يناير وهم يتحدثون عن الألفية التي تقترب يومًا بعد يوم. وذلك لأنه تم اعتبار عام 2000 ضمن القرن العشرين. ومع ذلك، فإن العالم أجمع يتظاهر بأن الأمر خلاف ذلك؛ وذلك لأنه كان يتطلع إلى دخول ألفية جديدة وقرن جديد، حتى لو كان ذلك ادِّعاءً كاذبًا. وربما إن هذه الكذبة كانت بداية عهد قادم من الأكاذيب، وستكون الحال هكذا دائمًا من الآن فصاعدًا؛ حيث سيكذب الناس على أنفسهم وبعضهم على بعض، ولن تكون هناك أي أهمية للحقيقة. حتى ربما أيضًا نترك الحقيقة وراءنا للأبد في الليلة التي نبدأ فيها عام 2000. سنخرج من الواقع بشكل كامل ونعيش هناك الآن. ولكن من أجل القيام بكل هذا، كان علينا أن ندخل عام 2000 أولًا! ثم سيكون كل شيء مثاليًّا! ألفية جديدة، عالم جديد، حظ جديد. كان جميع الناس ينتظرون ذلك. وكان سيكون العقد الأول والعقد الثاني من القرن الحادي والعشرين رائعين! كان الجميع على يقين من هذا! ما عداي. لأنني لم أكن أعتقد أن العالم سيصبح مكانًا أفضل لمجرد تغير التاريخ. لهذا السبب نهضتُ ومشيت، واتخذتُ قرارًا. من سيغير العالم ليس الزمن، بل أنا.

التناقض والشظايا

فتح التعرف على إعجاز والاستماع إلى قصته بابًا جديدًا في حياة ضمير البالغ من العمر 17 عامًا. وقد فهم جيدًا أن خلف هذا الباب لم يكن هناك أحد باطنه كظاهره. وعلاوة على ذلك، كان لكل شخص سببٌ وجيه خاصٌّ به؛ سببٌ وجيه كي لا يكون على ما يبدو. وكان سبب إعجاز الوجيه هو الخوف. كان يبلغ من العمر 12 عامًا فقط عندما وضعه والده على متن قارب ملآن بالمهاجرين وأرسله إلى اليونان من بلدة على بحر إيجه تسمى كاندالي. ووضع له قاعدتين للعمل الذي يقوم به: الأولى هي ارتداء سترة النجاة الوحيدة على القارب، والأخرى عدم إخبار أي شخص عن العمل الذي يقوم به. اتبع إعجاز هاتين القاعدتين؛ لذلك، عندما غرق قاربه بعد ذلك بعامين، ظل على قيد الحياة وظل صامتًا. عندما عثر عليه خفر السواحل اليوناني، لم ينطق بكلمة بدافع الخوف، وظل صامتًا. والأهم من ذلك كله أنه كان يخشى تحميله المسؤولية عن مقتل هؤلاء الأشخاص، لذلك كان مستعدًّا للقفز من هاوية الأكاذيب. كل ما كان عليه فعله هو متابعة الناس من حوله. إذا نظروا إلى إعجاز وفكروا فيما عاشه، فكل ما يجول في ذهنهم صحيح! وهكذا، أصبح له اسمٌ جديد، ولغة جديدة، وحياة جديدة. ولكن مع مرور السنين، وبعد أن كبر وترعرع، بدأ يفتقد عائلته التي رآها في أحلامه. وذات يوم لم يستطع تحمل ذلك، واتصل بمنزله. ربما كان هذا هو أكبر خطأ ارتكبه. وكان هذا ما فكر فيه ضمير وهو يستمع إلى إعجاز.

تجَوَّلا في ساحة المهرجان حتى مساء ذلك اليوم، وشربا البيرة والحشيش، وتحدثا أيضًا. وعلى الرغم من أنهما فقدا بعضهما عدة مرات في الزحام،

فإنهما التقيا مرة أخرى. وأخيرًا، استلقيا على العشب في حديقة الكنيسة. استمرت ثمالتهما يومًا وليلة، ثم استفاقا قرب الصباح.

كان ضمير قد حصل على رقم هاتف جنجافر من إعجاز تلك الليلة. إنه الرجل الذي جاء إلى إعجاز قبل عام بينما كان يدخن أمام مخرج الطوارئ في مبنى قصر الأمم. لقد جذبت مؤسسة السلام التي يعمل بها اهتمام ضمير، خصوصًا فكرة الإصلاح بين الناس. ربما لأنه لم يتصالح مع نفسه.

وفي الصباح، تعانَقَا وافتَرَقا. ذهب إعجاز في طريقه، وذهب ضمير إلى الفندق المقيم به. سيعود إعجاز إلى تركيا ليرى والده ثم يختفي بعد ذلك. علاوة على ذلك، فإن مؤسسة الإنسان المهاجر التي كانت تجمع التبرعات باسمه ستطبق لعنة الذاكرة، وتمحو إعجاز من تاريخها المؤسسي؛ لذا سيكون الأمر كما لو أن إعجاز لم يعش قط.

ولكن أولًا وقبل كل شيء، ذهب ضمير لمقابلة جنجافر كما اتفق مع إعجاز. وبينما كان جنجافر ينتظر إعجاز، رأى ضمير، واهتم بحالة ضمير المختلفة، على الرغم من دهشته في بداية الأمر. كانت لدى ضمير المعايير التي كان يبحث عنها جنجافر لمرشح مقدّم برامج جديد. وهذه المعايير هي: أن يكون قد نشأ في مؤسسة خيرية، وأن يكون يتيمًا. وعلم ضمير بعد ذلك أن جنجافر كانت لديه النظرية التالية: كان الأطفال الذين نشؤوا على يد المؤسسات الخيرية تجسيدًا للتناقض التام. كان التناقض التام هو تقدير الحياة البشرية وكره الإنسان في آنٍ واحد.

لذا كانت النظرية صحيحة، وكان ضمير هو بالضبط الشخص الذي كان جنجافر يبحث عنه. أمضيا اليوم معًا، وأخبر جنجافر ضمير أن يتصل به عندما يكون جاهزًا.

ولكن الأمر استغرق عشر سنوات حتى يشعر ضمير أنه مستعد للعمل لصالح المؤسسة الأولى للسلام العالمي. خلال هذا الوقت، حاول ضمير في أشياء كثيرة في الحياة وفشل، لدرجة أنه أصبح يائسًا في النهاية، واتصل بجنجافر. وفي اليوم الذي اتصل بجنجافر فيه، كان شابًّا لا يعرف ماذا يفعل وما سبب وجوده في هذه الحياة.

قال جنجافر: «لا عليك. تعالَ معي إلى جنيف. ابدأ من جديد. هذا ما ستفعله على أي حال؛ لأن ما تسميه السلام هو البدء من جديد. من البداية. من جديد!»

كيف انفصل جاسينتا وضمير؟ أو كيف طاردت جينا ومؤسسة الكل للجميع ضمير؟ لا يهم. ما يهم حقًّا هو أنه جاء اليوم الذي اتخذ فيه ضمير قراره بعد ثلاثة عشر عامًا من العمل مضيفًا في مؤسسة الكل للجميع.

قال: «أنا أرفض أن أكون شظية في هذا العالم الذي يكون فيه الجميع شظايا!»

30 من ديسمبر

يتمتع البشر بقدرة فطرية على تقدير الآخر، وبالتالي، فإن هذا الأمر لا ينقصه شيء. ولكن التقدير الممنوح للآخرين يتباين وفقًا للمسافة التي بين بعضهم وبعض؛ فمنذ أن بدأ الإنسان في تقدير من هم أقرب إليه، أصبح لا يشعر بأي شيء تجاه أولئك البعيدين عنه. لهذا السبب، عندما تتجاوز المسافة بين الناس قدرًا معينًا من الكيلومترات، يصبح الجميع سواءً في عين المرء، وحتى وجوههم تكون واحدة. على سبيل المثال، عندما يتحدث البرتغالي عن شخصٍ إسباني، لن يقول إنه أوروبي، ولكن سيذكر جنسيته الفعلية، ولكنه يصف الأوغندي أو البورمي بأنه إفريقي أو آسيوي، نسبةً إلى القارة التي يعيش فيها. والعكس صحيح؛ فإن البرتغالي في عين الأوغندي أو البورمي هو أوروبي. هذا يعني أنه كلما بعدت المسافة غابت التفاصيل، ونظر الناس بعضهم إلى بعض ككتلة واحدة. كما نشأت علاقة بين المرء والوقت في الاتجاه نفسه؛ فعندما تبتعد عن الفترة الزمنية التي أنت فيها، تفقد الأيام والشهور والسنوات أهميتها، وتتحول جميعها إلى قرون؛ فكانت تُقالُ جمل تبدأ بقول: «الناس في القرن الخامس عشر...» وكأن كل أيام القرن سواء.

كانت المشكلة إذن هي أن القيمة التي يعطيها المَرءُ الآخرين تتضاءل كلما زادت المسافة بينه وبينهم. لذلك كان عليَّ التعامل مع هذا الأمر أولًا؛ لأنه إذا استطاع الإنسان أن يُقَدِّرَ الجميع على حَدٍّ سواء، فإنه لن يستطيع أن يقتله، أو يشاهده يُقتَل، وكان هذا أساس السلام. فكما قال جنجافر من قبل لإعجاز عن منع قتل الناس بعضهم بعضًا. أنا أيضًا كنتُ سأفعل هكذا بالضبط. في النهاية، كما قال أسبجورن إنني متُّ ثلاث مرات وعدتُ إلى الحياة ثلاث مرات. حتى إنني وُلِدتُ عاشقًا للحياة! لذلك كان يجب أن أُنقِذَ تلك الحياة. وحقًّا، إذا

كان يمكن منع قتل الناس بعضهم بعضًا، كان يمكن تأسيس حضارة جديدة بناءً على هذا الأساس. وبخلاف ذلك، لن تكون التنمية البشرية دائمة؛ لا حقوق الإنسان، ولا حرياته، ولا أي شيء. وذلك لأن جميع الحقوق والحريات الأخرى لا معنى لها ما لم يضمن الإنسان حَقَّهُ في الحياة أولًا.

كنتُ أفكر في كل هذا في أثناء إقلاع الطائرة الخاصة التي استأجرتُها من مدينة جنيف. وكنتُ قد أمضيتُ ليلةً مُرهِقة للغاية. أدليتُ بأقوالي للشرطة حول مقتل الشخصين اللذين كانا بجانبي، ثم عدتُ إلى الفندق الذي نزلتُ به. ثم ذهبتُ للاستحمام، وربما استغرق مني الأمر ساعة في محاولة إزالة بُقَع الدم عن جسدي. وبعد ذلك، جلستُ على الفراش وأخذتُ أفكر.

ما الذي يمنع الناس من قتل بعضهم بعضًا؟ كان هذا هو السؤال الوحيد الذي يشغل عقلي. نعم، تحاول القوانين والمعاهدات الدولية حظر ذلك، ولكن جميعها تبقى غير فعالة. وذلك لأن الإنسان ليس مخلوقًا يفكر بعقلانية ويحسب عواقب أفعاله. مهما تطور، فإنه عبارة عن كتلة من المشاعر. لذلك يمكن أن يكون نداء يستطيع إيقافه، وفي الوقت نفسه يستهوي مشاعره؛ إنه الدين. إن جميع الأديان جعلت حياة الإنسان مقدسة، ولكن هذا أيضًا لم يمنع ارتكاب الجرائم. بل مع الأسف، كان الدين أحد أكثر المفاهيم التي استُغِلَّت للتمييز بين الناس. وعلى الرغم من ذلك، فإنني كنتُ أرى أنه لا توجد وسيلة أفضل من الأديان للحد من سلوكيات البشر. لذا فإن ما كنتُ أحتاج إلى تطويره هو تطوير منظورٍ جديد للأديان. أو ربما دينٍ جديد آخر من منظورٍ مختلف!

عندما كنتُ ذاهبًا من أمستردام إلى فليفولاند منذ ثلاثة أيام، سألني كونا ساحر دادجو قائلًا: «ما دينك؟» لقد كان كل شيء متخفيًا وراء الإجابة عن هذا السؤال، وكان يمكنني أن أشعر بهذا بكل كياني. وكان يجب أن أجيب عن هذا السؤال بالشكل الذي يجعل الناس مهما كانت المسافة بينهم يتخلون عن قتل بعضهم بعضًا.

وبينما كنتُ أفكر بشأن تلك المسألة، تذكرتُ إعجاز. بينما كان يعتقد الجميع في ظل هذه الظروف أنه مهاجر فقير، كان هو في الحقيقة قبطان القارب. هذه المعلومة غَيَّرَت القصة برُمَّتِها؛ فعندما تبين أنه قبطان، أصبحت المسؤولية كلها على عاتقه. كنتُ أتجول في غرفة الفندق ذهابًا وإيابًا وأحدث

نفسي قائلًا: «ولكن إعجاز لم يكن قبطانًا فقط، وإنما كان راكبًا أيضًا من الناحية الفنية. فإذا كان الناس مسافرين، والقبطان هو الله...»

وجدتُها! نعم! جميع الأديان أمرت ووعظت بحُرمَة قتل البشر لأن الله أمر بذلك. ولكن لم يكن يجدي هذا نفعًا. ولكن ماذا لو ظهر دين وقال إن الإنسان هو الله؟ ماذا لو زعم الإنسان أنه عبد، وأيضًا أنه إله كما كان إيجاز قبطانًا وأيضًا راكبًا؟ ماذا كان سيحدث حينئذٍ؟ من المؤكد أن المؤمن بهذا الدين لم يكن ليقتل أي شخص؛ لأنه حينئذٍ كان كل إنسان في الدنيا سيرى الآخر على أنه إله! وفقًا لكريستيل، كان جنجافر يعتقد أنه إله. ولكن جنجافر كان مُخطِئًا! في هذه الدنيا كان الجميع آلهة! كان ملايين البشر آلهة وأيضًا عبيدًا. وإذا عبد الجميع بعضهم بعضًا، فإنه لن يستطيع أي شخص أن يقتل أحدًا؛ لأنه لا أحد سيرغب في قتل إله يؤمن به! علاوة على ذلك، كان الإله سيتمثل في كافة الناس الذين يعيشون على الأرض. وكان كل البشر سيقررون الاتجاه الذي ستسلكه البشرية. ولكن لم يكن أيٌّ منهم على علم بتلك القدرة التي يمتلكها. ولكن إذا خرج شخص ما وطَوَّر دينًا جديدًا... بالطبع كنتُ أقول إن هذا أيضًا مهم جدًّا. اخترع الإنسان لنفسه كل شيء يملكه، فكان يجب أن يخترع دينًا أيضًا! يخترع ويبني أيضًا. كان عليه أن يخلق دينًا يمنعه من قتل غيره، ويقبل وجوده كأساس. ويكفي أن يصدق مليارات البشر أنهم آلهة. إنها مسألة إيمان أولًا وأخيرًا؛ فإذا آمن البشر بالقدر الكافي، تَحَوَّلَ الأمر إلى حقيقة. ماذا يقول ويليام إسحاق توماس؟ قال: إذا حدد المرء أمرًا ما على أنه حقيقة، كانت نتائجه حقيقية أيضًا. في البداية ليس مهمًّا إذا كان ذلك الأمر حقيقة أو لا، ولكن يكفي أن يصدق الناس أنه حقيقة. أليس هذا هو السؤال الذي سيُطرَحُ على الناس في تركيا في الأول من شهر يناير؟ «هل يوجد إله؟» وبعد يومين، قد لا يدرك الملايين من الناس أنهم أدلو بأصواتهم، ولكن في الواقع كانوا سيقولون هذا في ذلك الاستفتاء: أنا موجود! نحن موجودون! ماذا كان يقول جنجافر أيضًا؟ السلام يعني البدء من جديد. كان ذلك دينًا جديدًا، لأنه في المقام الأول كان يعني تقويمًا جديدًا! وهكذا يمكننا أن نبدأ كل شيء من الصفر، ونكتب تاريخًا جديدًا لأنفسنا. وهذه المرة لم نكن سنقتل بعضنا بعضًا.

كان الصباح قد حَلَّ عندما توصلتُ إلى تلك الفكرة. وكنتُ متحمسًا بشدة، لدرجة أن رموز الدين الجديد بدأت تظهر أمام عيني. وكنتُ أفكر أن البدر سيكون رمزًا مناسبًا، نظرًا إلى أن رمزَ آخِر دين سماوي –وهو الإسلام– كان هلالًا. وربما راودتني تلك الفكرة نسبة إلى البدر الذي رأيته خلف الغيوم في السماء بينما كنتُ أسير في صحراء جوبي حاملًا جثة طفلة على ظهري، لا أعرف. استعددتُ فورًا، وارتديتُ ملابسي، ولكن لم تكن لدي أي فكرة أين أذهب. نعم، لقد قررتُ وكنتُ سأبدأ ذلك الدين، وكنت على عجلة في تنفيذ ذلك الأمر، فليس لديَّ وقتٌ أضيعه؛ ففي كل ثانية يموت العشرات من الأشخاص في العالم أجمع! كما إن جنون عام 2000 سيبدأ بالعديد من المجازر باستخدام أشخاص مثل تشاستا!

كان عليَّ أن أتحرك في أقرب وقت، وكان يجب أن أعلن هذا الدين الجديد الذي يقبل الإنسان إلهًا. كان هذا هو الخلاص الوحيد للبشرية؛ حيث كان يجب على الفور أن يعبد الجميع بعضهم بعضًا. ولكن كان يجب أولًا أن يرى الناس بعضهم بعضًا لتحقيق ذلك! لأن هذه أيضًا كانت مشكلة كبيرة؛ فلم يكن ينظر أحد إلى أحد، ولا يرى أحد أي أحد. ففي الزنزانة التي مكث فيها تشاستا سنوات، لم يكن يستطيع رؤية ما خلف الحائط. ولم يكن الفلسطينيون والإسرائيليون يرون بعضهم بعضًا، على الرغم من أنهم كانوا يعيشون معًا. كانوا يسيرون على أرصفة مختلفة في الشوارع نفسها، ويديرون رؤوسهم. ربما إنهم لو كانوا رأوا بعضهم بعضًا كان سيتغير كل شيء. إذا رأى الإنسان أخاه الإنسان فسيصبح العالم مكانًا آخر؛ وذلك لأن الإنسان يؤمن فقط عندما يرى بعينيه. بعد ذلك توقفتُ فجأة وأخذتُ الهاتف بيدي، وذلك لأنني وجدته! الآن أعرف ما هو الإجراء الذي سأتخذه لإعلان الدين الجديد للعالم كله. كنتُ سأفعل شيئًا كان سيجعل الناس في النهاية يتمكنون من رؤية بعضهم بعضًا. هذا الحدث سيكون كبيرًا وله معنى، بالقدر الذي كان سيجعل جميع أفكاري تلك تحيا في عقل كل إنسان كان سيشهده. والأهم من ذلك أنهم سيفهمون ويؤمنون بأنهم آلهة، ولن يكون أحد رسولًا بعد الآن. لأنه في دين يقول إن الله والعبد في الجسد نفسه، لن تكون هناك ضرورة لرسول.

كانت تلك الساعات الأولى من الصباح عندما أجريتُ المكالمة الهاتفية، لهذا السبب استغرق الأمر وقتًا طويلًا لإيقاظ الشخص الذي كنتُ أتصل به. كنتُ أتصل بأكثر أفراد العائلة المالكة السعودية اندفاعًا، الذي كانت تعيش عائلته في مشكلات دائمة بسبب تهوره وجموحه. كان اسمه عبد السلام، وأعتقد أنه هو من كان مجنونًا، وليس أنا! في البداية كان يسبُّني لأنني اتصلت به في ذلك الصباح الباكر، ولكنه قرر بعدها أن يستمع إليّ.

- سأحضر إليكَ هدية ستغير حياتك!

- ما الذي تتحدث عنه؟ أي هدية؟

- سأشرح لك... ولكن اعلم أنه بحصولك على تلك الهدية ستستعيد سمعتك من جديد! وستحترمك عائلتك من جديد، وأهمهم عمك، الذي سيحترمك أيضًا.

أجابني عبد السلام قائلًا: «أنا أسمعك».

- هناك جهاز يُسمى حشرة الاختفاء، يجعل الناس غير مرئيين.

بدأ عبد السلام يضحك، ولكنني كنت جادًّا في حديثي!

- أنا جادٌ جدًّا! أريد أن أحضره وأعرضه عليك في أقرب وقت.

- هل تسخر مني يا ضمير؟ وأيضًا ماذا سأفعل أنا بآلة الاختفاء؟

تحول عقله إلى فوهة بركان نشط بسبب الكوكايين، ولم يكن يفهم ما أعرضه عليه. كان يجب أن أكون أكثر وضوحًا.

- هل تعلم ماذا ستفعل؟ ستأخذ ذلك الجهاز وتذهب إلى عمك وتقول له هكذا: من الآن فصاعدًا، وبفضل هذا الجهاز، ستكون جميع السيدات في المملكة السعودية غير مرئيات، وهكذا يمكنهن أن يرتدين ويفعلنَ ما يحلو لهنَّ، ولن يراهنَّ أحد. ستنال السيدات حريتهن، وأيضًا لن يرتكب أي شخص خطيئة.

وبعد أن صمت برهة، قال لي: «لا داعي لذلك. من يهتم بالسيدات أصلًا؟»

فأجبته قائلًا: «ولكن الرأي العام الدولي...»

ولكنه قاطعني على الفور، وقال: «أي رأي عام؟ أمريكا؟ الاتحاد الأوروبي؟ لا أحد يمكنه أن يقول لنا شيئًا بشأن المرأة! من الأفضل أن تبيع تلك الآلة للإيرانيين!»

بالطبع لقد كان محقًّا. كان يجب أن أبدأ الموضوع بشكل مختلف.

- يوجد الآن ناشطات يطالبن بحقوق السيدات منذ سنوات! حتى إن بعضهنَّ أضربنَ عن الطعام من قبل. وأعرف أن عَمَّك قد سئم من أولئك النساء! ربما إذا كان يمكنني أن ألتقي معهن وأقنعهن بهذا المشروع.

بالطبع كنتُ أهذي. فأي ناشطة بمجال حقوق المرأة تلك التي كان من الممكن أن تقبل أن تكون المرأة غير مرئية؟ ولكن الذي أمامي كان مدمنًا الكحول. وبالتالي، لم نكن سنتمكن من التفاهم إلا عندما أهذي مثله.

قال عبد السلام: «تعالَ فورًا! استَقِلَّ الطائرة على الفور وتعال!»

- ولكن يجب الحصول على العديد من التصاريح لدخول البلد والتجول بحرية فيما بعد!

- سأتكفل أنا بهذا الأمر.

وكان هذا ما أود سماعه أنا أيضًا.

على الفور حزمتُ أمتعتي وخرجتُ من غرفة الفندق، وذهبتُ إلى مطار جنيف واستأجرتُ طائرة. ومكثتُ في تلك الطائرة نحو خمس ساعات. كان الجميع –حتى كالهون– يبحثون عني منذ الصباح، ولكن لم يكن هاتفي مُتاحًا. لم أعد أهتم بأحد ولا بشيء؛ لأنه كان لدي عمل أهم بكثير من كل شيء، ومن الجميع، أو بالأحرى واجب مقدس.

جاءت المضيفة وقالت إننا سنهبط في مطار مكة بعد قليل. ولو كنتُ أستطيع أن ابتسم، لابتسمت!

31 من ديسمبر

الساعة الآن 23:41 مساءً. وأنا داخل خزانتي في الصندوق الأسود الواقع في بروكسل. أجلس إلى مكتب تشرشل. معي حقيبة سفري وصندوق التشيللو. وأيضًا هناك كافة الملاحظات والتسجيلات الصوتية التي جمعها يوسف علي، وأمامي دفتر فارغ. سأدَوِّنُ كل شيء في ذلك الدفتر؛ أي إنني سأشرح بالتفصيل من البداية كيف ظهر الدين الجديد، وكيف توصلتُ إلى تلك الفكرة. ولكن لن أتحدث في هذا الدفتر عن أي شرائع أو طقوس لذلك الدين. بالطبع إنني أدرك أن الدين مرتبط بالحياة والموت قبل كل شيء. وأدرك أن كافة الأديان على الأرض تقدم للإنسان تفسيرات تُوَضِّح من أين أتى؟ وإلى أين سيتجه؟ حتى إن كافة الأديان تبدأ بتقديم تلك المعلومات. ولكن لن يسير الأمر هكذا مع هذا الدين الجديد؛ لأنه في هذه اللحظة سيُذَكِّرُ الإنسان بحقيقته وبمكان وجوده، قائلًا: «إذا كنتَ تُريد أن تعرف حقًّا من أين أتيتَ أو إلى أين ستذهب بعد الموت، فعلى كل إنسان أن يُقِرَّ بأنه إله، وأنه لن يرتكب جناية القتل أبدًا. وإذا كُنتَ تريد أن تعرف سبب وجودنا في هذه الحياة، فعليكَ أولًا أن تتوقف عن تدمير تلك الحياة». هذا هو الدين كله، وسيكتب كافة البشر معًا ما يتبقى منه. ولهذا ستنتهي حكايتي في هذا الدفتر عند إعلان هذا الدين الجديد. سأكتب الكتاب الذي لم يستطع يوسف علي أن يكتبه، ولن أخرج من هذه الخزانة حتى أنتهي منه؛ فإن هذا القبو هو بمكانة المأوى لي، حيث يتوفر فيه كل شيء أحتاج إليه.

سأقَسِّمُ حكاية ضمير إلى قسمين وأرويها. سيبدأ القسم الأول من عند زرا حتى يصل إلى إعجاز. أما القسم الآخر، فسيتضمن أحداث آخر سبعة أيام

مررتُ بها. سأكتب عن ماضيَّ متحدثًا إلهًا، وعن حاضري بصفتي أنا. وهكذا، سيتضح لكافة الناس أنني عبد وفي الوقت نفسه إله.

الساعة الآن 23:53. بقيت سبع دقائق على دخول العالم في عصرٍ جديد. بعد الآن لن يقتل أي شخص أحدًا. وذلك لأنهم رأوا ما حدث هذا الصباح. ولكن قد بدأ كل شيء بالأمس، بمجرد أن هبطتُ من الطائرة التي كنتُ على متنها في مطار مكة. وعلى الرغم من أنني كنت أعرف أن عبد السلام لن يستطيع ترك عمه لأن اليوم كان يوم عرفة، فإنني اتصلتُ به. لقد كان منضمًّا إلى مائدة الطعام التي أُعِدَّت لأفراد العائلة في القصر. اتفقنا أن نلتقي في اليوم التالي، أو فعليًّا اليوم. وذهبتُ إلى الفندق. ذات مرة، كان هناك رجل أجَّرَ نافذة منزله لكل من يريد أن يشاهد الانتفاضة الشعبية التي كانت بالمدينة. عندما دخلتُ إلى الفندق، بدر إلى ذهني ذلك الرجل، عندما رأيتُ الكعبة من النافذة في الطابق الثامن والعشرين.

ارتديتُ ملابس الإحرام وخرجتُ من الفندق. لقد كان الشارع مملوءًا بالناس القادمين من كل أنحاء العالم للحج. مررتُ من بينهم بصعوبة، ودخلتُ المسجد الحرام بتصريحٍ خاص موثق بختم مَلَكيّ. شربتُ من ماء زمزم من الصنابير، ثم بدأتُ السير نحو الكعبة في ذلك الصرح المذهل بشكل لا يُصدق. إن المسجد الحرام ليس مكانًا للعبادة فقط، وإنما شهد العديد من الصراعات التاريخية. كانت هذه اللحظة ستكون نقطة بداية عصر جديد بالنسبة إليَّ؛ سيبدأ هنا عصر السلام، وسوف يستمر مع استمرار تغير العالم.

وككل عام، تم تغيير كسوة الكعبة الشريفة بعد صلاة الفجر من يوم عرفة. كان يمكنني أن أفعل ما أفعله دائمًا؛ من لمس الكسوة الشريفة، وزيارة ذلك المصنع الذي يقع به متحف، والذي يمكن للجميع زيارته بسهولة، ولكن بالطبع لقد فات الأوان الآن. واصلتُ السير، وبمجرد أن اقتربتُ بشكلٍ كافٍ من الكعبة، ظهر بعضٌ من العساكر الذين كانوا يريدون منعي، ولكن لم يكن ذلك مشكلة؛ لأن التصريح الموثق بالختم الملكي يفتح كل الأبواب، خصوصًا الأبواب التي من صنع الإنسان.

عندما عدتُ إلى الفندق، لم أستطع أن أسترخي في هدوء، وبالطبع لم أستطع النوم. ذهبتُ مرة أخرى إلى المسجد الحرام في الساعات الأولى من

هذا الصباح قبل صلاة العيد. هذه المرة كنتُ وسط مليون شخص، وكان هناك العديد من الناس يطوفون حول الكعبة كسحابة شديدة البياض. وحافظ الناس على الصفوف وتشكيل دوائر متشابكة حول الكعبة. كان يعيش كل شخص هناك أهم لحظة في حياته، وكنتُ أستطيع أن أرى الدموع في أعينهم من الحماس في تلك اللحظة التي لا يمكن أن ينسوها أبدًا. كنا نقف كتفًا إلى كتف، ونتمايل برفق كبحر من الناس. توقف الوقت بإعلاء صوت الآذان، وتوقفنا نحن أيضًا لتأدية الصلاة وقبلتنا نحو الكعبة. ازداد معدل ضربات قلبي، وكان رأسي يدور. أولًا القيام، ثم الركوع، ومرة أخرى القيام، وفي النهاية السجود. وفي تلك اللحظة بالذات، ضغطتُ على زر جهاز التحكم الذي كان بيدي وبدأتُ في العَدّ. وساد الصمت خلال الثواني الثلاث التالية لدرجة أنني كنت أسمع دقات قلبي. وفجأة، ارتفع صوت صرخات من المسجد الحرام لدرجة أنني لم أكن أستطيع أن أسمع صوتي. ولكن كانت تلك الثواني الثلاث هي التي تثير اهتمامي. وبعد ساعات قليلة، شاهدتُ ما حدث في تلك الثواني على شاشة التلفاز في الطائرة التي كانت تتجه نحو بروكسل. حيث إنني في تلك اللحظة كنت ساجدًا ولم أستطع أن أرى بداية عصر السلام.

كان ملايين الأشخاص يسجدون في الأرجاء نحو الكعبة، وفجأةً أصبحت الكعبة غير مرئية. وهكذا، ومدة ثلاث ثوانٍ، كان الإنسان يعبد الإنسان، ورأى العالم كله هذا. أُصيبَ الناس بالجنون، وفقدوا أعصابهم بسبب ما رأوه، ولكن عادت الكعبة مرئيةً من جديد. كانت الكسوة الشريفة هي علة الاختفاء. وكما قال دادجو بالضبط، عَلِمَ الصينيون بأن هناك استخدامًا غير مصرح به من خلال الأقمار الصناعية، وخلال عشر ثوانٍ تدَخَّلوا لإصلاح الأمر. وهكذا، استعاد مسلمو العالم الكعبة، وتحقَّقَت رغبتي.

الأمر كله يتعلق بالرؤية؛ حيث إن العالم أجمع قد شاهد ما حدث. ولا يمكن لأحد أن يُغيِّر هذا، ولا يمكن لأحد مسح ذلك المشهد حيث يسجد ملايين الناس بعضهم لبعض من ذاكرة البشرية. وبهذا تكون قد تمت الخطوة الأولى في طريق هذا الدين الجديد. والآن حان الوقت لتدوين ما تعنيه تلك اللحظة التي شهدها العالم أجمع.

ولكن أولًا، نهضتُ من مكاني وذهبتُ إلى صندوق التشيللو، وفتحتُ الصندوق وأخرجتُ منه التشيللو. وكان هناك صندوقٌ آخر صغير وأبيض أسفله. وفقًا لوظيفتي، يُدعى هذا الصندوق جهنم؛ وذلك لأنه لا يمكن لجهاز الفحص الأمني أن يكتشف ما بداخله. أخرجتُ الصندوق وجلستُ على الكرسي ووضعته على المكتب، ثم فتحتُ الغطاء بهدوء، فكان أمامي المسدس الذي أطلق به جنجافر على نفسه.

أنا في خزانتي، وأنت في خزانتك، وهو في خزانته. أعلم هذا. ومن هنا سيخرج إما الموت، وإما كتاب بعنوان ضمير.

يأتي صوت من جهاز الاتصال الداخلي المُثَبَّت على الحائط، ولكنني لا أفهم ما يقول؛ وذلك بسبب التشويش القادم منه. لا أسمع نصف الحديث. أحدث نفسي قائلًا: «غير مهم. على الرغم من كل شيء فإن الحياة مستمرة».

أميل إلى الخلف وآخذُ نفسًا عميقًا. ولكن مع الأسف تفوح رائحة عفن من خزانتي. وفي تلك اللحظة أشعر ببلل على خدي. دمعة. أخيرًا يمكنني البكاء. لَستُ مجنونًا، حتى إذا كان الجميع يعتقدون هذا. لأنني مثل أي شخص عاقل أضحك لمجرد أنني أستطيع البكاء.

إنها الثانية عشرة الآن. يمكنني أن أبدأ كل شيء من جديد، من الصفر. حتى إن حكايتي يمكن أن تبدأ من اليوم الذي فقدتُ وجهي فيه؛ وذلك لأنه إذا حدث اليوم مثل هذا على هذا الكوكب الرائع المسمى الأرض، فهذا يعني أن كل شيء في هذا الكون محض شظية، وما ينتشر ليس في الواقع إلا سحابة من الشظايا.

